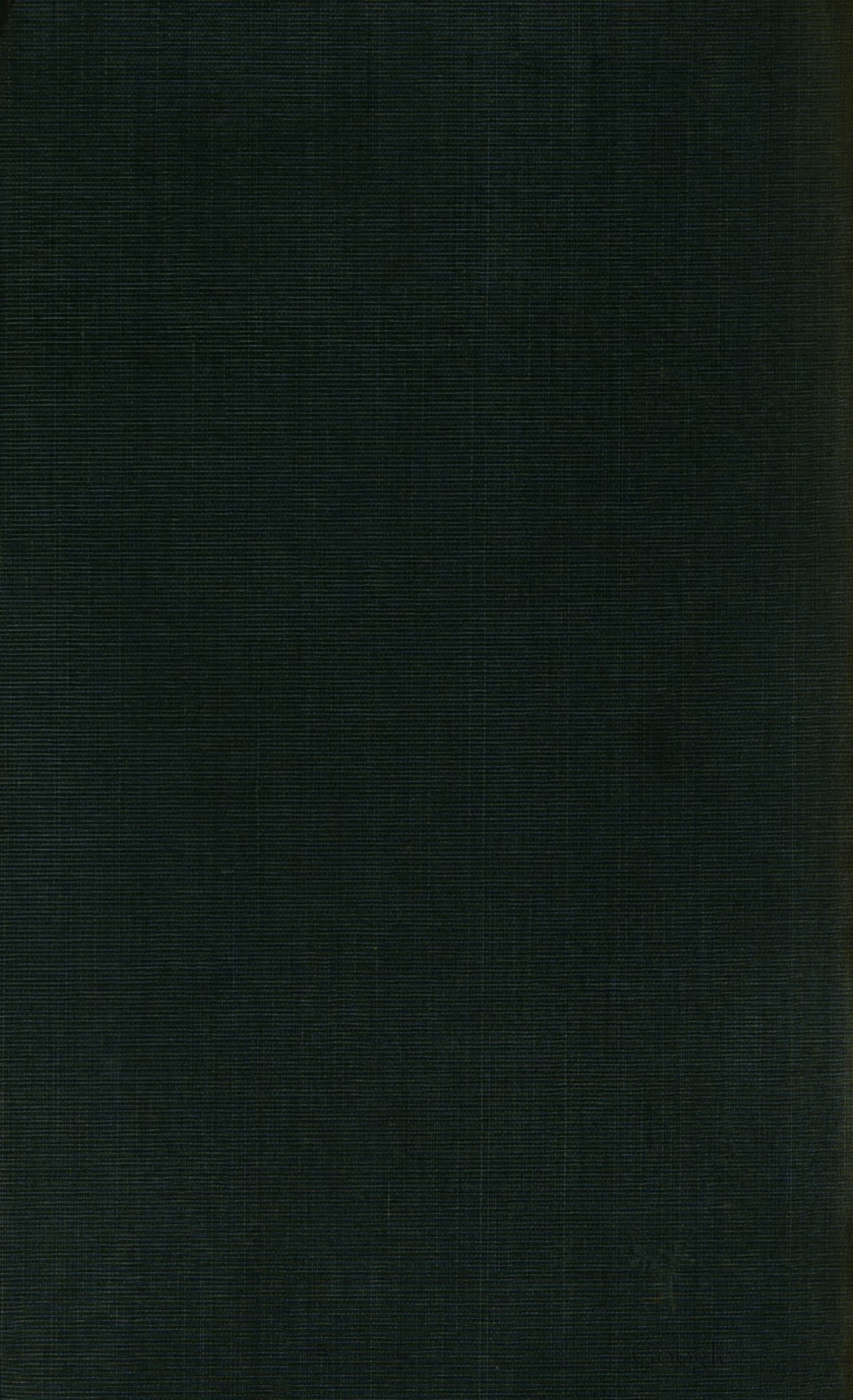
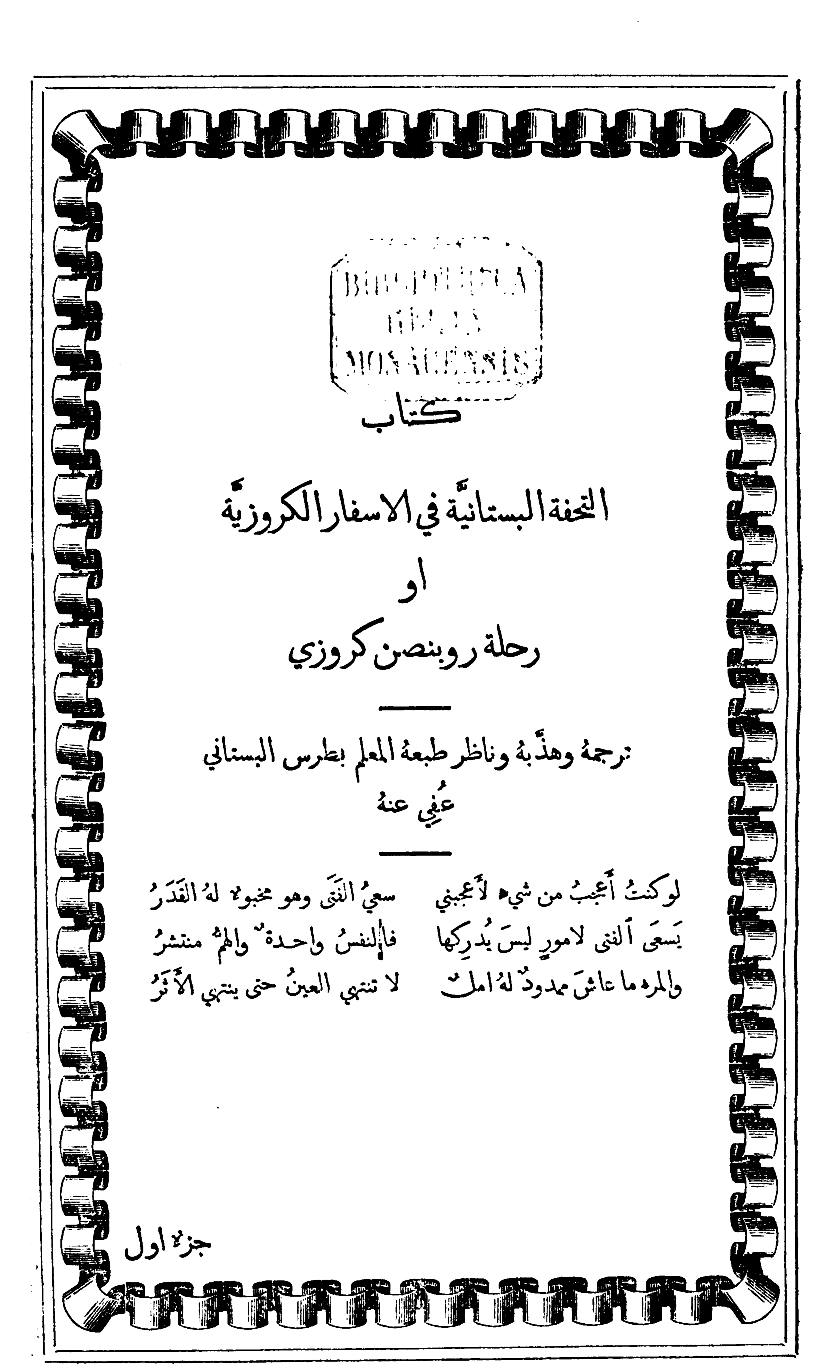






كتاب

التحفة البستانيَّة في الاسفار الكروزيَّة

او

رحلة روبنصن كروزي

ترجمهُ وهذَّبهُ وناظر طبعهُ المعلم بطرس البستاني
عُفِي عنهُ

لو كنتُ أعجبُ من شيءٍ لأعجبني   سعيُ الفتى وهو مخبوءٌ لهُ القدَرُ
يَسعَى الفتى لامورٍ ليسَ يُدرِكها   فالنفسُ واحدةٌ والهمُّ منتشرُ
والمرء ما عاشَ ممدودٌ لهُ املٌ   لا تنتهي العينُ حتى ينتهي الأثَرُ

جزء اول

مقدمة للمترجم

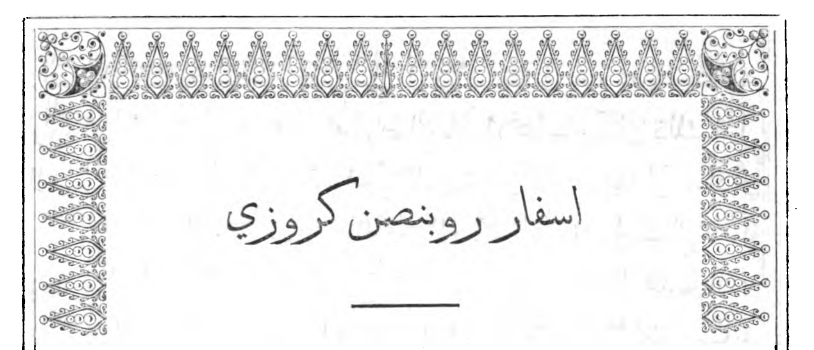
اما بعدُ فهذه قصةٌ لطيفة هي رحلة روبنصن كروزي واخبار ما قاساهُ من الاهوال والمخاطر برًّا وبحرًا وما اخترعهُ من الادوات والوسائل تيسيرًا لاسباب معيشتهِ وتسهيلاً لتحصيل رفاهتهِ وهي عند الافرنج من اغرب القصص واظرفها والذّها ولها المزيّة على باقي القصص من عدّة اوجهٍ وهي اولاً انها مبنيّةٌ على اساس صحيح وروايات صادقة . ثانيًا ان ما بها من الاخبار والحوادث ممكن عقلاً ومقبول نقلاً . ثالثًا انها مهذّبة ومنزّهة عن كلام السفاهة والخلاعة . رابعًا انها محتوية على حِكَمٍ وآداب ونكت كبيرة الفائدة تحسن للخاصّة والعامّة وللاكابر والاصاغر . خامسًا انها قد زينت بصُوَر عديدة تكميلاً لها وتقريبًا لفهمها . واذ كانت موضوعات هذه القصة متنوعة واساليبها متفنّنة وعربيتها مفهومة ولغتها مانوسة ومعانيها مستظرفة كان لا يُخشَى على من تصفّحها من الملل وكانت من احسن الكتب التي تُقرَأُ في المدارس البسيطة تقويةً للتلاميذ . واذ كانت مهذّبة لا بدَّ من انها تكون اكثر قبولاً لدى جمهور هذا العصر الذي انفتح فيهِ باب المعارف لجنس النساءِ ايضًا والذي يجب فيهِ الانتباه الى تنظيف دواوين العرب وكتاباتهم ومجالسهم ممّا لا يليق من الكلام والاعمال احتشامًا مع هذا الجنس ومحافظةً عليهِ . هذا وان من عرف ان ترجمتها وتهذيبها وطبعها كانت معًا وقد أُكمِلت في فضلات الوقت مدة خمسة اشهر مملوءة من الاضطرابات والهموم والمتاعب يسبل ذيل المعذرة على ما يعثر عليهِ من الخلل والتساهل والزلل ويعلم ان الوقت لدنٌ قابل الانضغاط يطول ويقصر بحسب اجتهاد صاحبهِ وان فضلات الاوقات التي يصرفها كثيرون في الملاهي والكسل يمكنهم ان يصرفوها في اعمال مفيدة لهم ولابناءِ وطنهم

وكلُّ آمرءٍ لا نفعَ فيهِ لغيرهِ　　　فسيّانِ عندي فقدهُ ووجودهُ

فهرس

اصلاح غلط

وجه	سطر	خطا	صواب
١	١٢	الذي	الذين
٣	١٤	والاشعار	والشعور وهكذا
٤	١٢	وا أسفاهُ	وا اسفا وهكذا
٨	٧	نحمل	نجعل
٣٥	٦	كل يتمنَّى	كلّ ما يتمنّى
٦٠	٣	أشعر	شعر وهكذا
٦٨	١٨	يمتلئُ	يمتلئ
١٥٣	٢٣	غشاهُ	غشاهُ
١٩٣	١٠	فيهما	فيها



الفصل الاول

عايلة روبنصن ومفارقتهُ والديهِ

حكى روبنصن عن نفسهِ قال وُلِدت سنة ١٦٣٢ في مدينة يورك من عايلة معتبرة من بريمان . وكان ابي غريبًا في تلك البلاد واسمهُ كروتزنير. فاستوطن اولاً في هُول وصار ذا مالٍ كثير بواسطة التجارة . ثم انتقل الى مدينة يورك المذكورة واقام هناك تاركًا معاطاة التجارة . ثم تزوج بامي واسم عايلتها روبنصن وهي عايلة معتبرة جدًّا في تلك البلاد فدُعِيتُ باسم تلك العايلة اي روبنصن كروتزنير . ثم لجاري عادة الانكليز في افساد الكلمات نُدعَى الآن او بالحري ندعو نفسنا ونكتب اسمنا كروزي . وهكذا كان ارفاقي يدعونني دايمًا

وكان لي أَخَوان اكبر مني كان احدهما امير الاي للشاة من عساكر الانكليز الموجودين في فلندرس الذي كان قائدًا عليهم لوكهرت المشهور . فقتل اخي هذا في الحرب التي اضطرمت نارها بين الانكليز واهالي صبانيا بقرب دنكرك . واما اخي الآخر فلا اعلم ماذا اصابهُ اكثر مما يعلم ابي وامي ماذا اصابني

واذ كنت ثالث ابن في العايلة ولم اتمرن على صناعةٍ اخذ راسي يمتلي منذ صغري من افكار اللهو والمسرات . وكان ابي قد انهكهُ الكبر فعلمني امورًا كثيرة مما من شان الاولاد ان يتعلموهُ غالبًا في بيوت والديهم والمدارس البسيطة المجانية الموجودة في الضيع . وكان قصدهُ ان يعلمني الشريعة ولكن لم يكن شيء

يرضيني الا التوجه الى البحر. فكان ميلي الى ذلك يقتادني بعزم شديد جدًّا ضد ارادة ابي وامرهِ وضد توسلات امي ونصائح باقي الاصحاب . وكان ذلك الميل الطبيعي يجذبني بعنف شديد نحو الحيوة التعيسة التي كانت مزمعة ان تصادفني

وكان ابي على جانب عظيم من الحكمة والرصانة فاخذ يقدم لي نصائح فاضلة وينذرني ان اعدل عمّا عزمت عليهِ . وفي ذات يوم صباحًا دعاني الى مخدعهِ الذي لم يكن يفارقهُ لمرضٍ في رجليهِ واخذ يكلمني بحرارة ونشاط عن هذا الامر. وسألني هل يوجد عندك سبب غير حب السفر والجولان يحملك على مباينة بيتي وترك وطنك العزيز حيث يمكنك التداخل مع اصحاب التقدم والنجاح في امور الدنيا بواسطة الاجتهاد والجد وان تعيش مع ذلك عيشة راحة ولذة . ثم قال ان الذين يتغربون بقصد الربح يكونون اما من القوم الذين سُدَّت عليهم ابواب النجاح في بلادهم او من اصحاب الغنى والثروة العظيمة . فان هولآء يطلبون الارتقآء بواسطة جدهم في طلب الاسباب ويجعلون لانفسهم شهرة بواسطة اعمال خارقة العادة . ولكن هذه الامور هي اما اعلى او ادنى منك جدًّا وان حالتك هي متوسطة او هي بالحري في اعلى طبقة من الدرجة الدنيا . وانهُ قد وجد بالاختبار المستطيل ان هذه الدرجة هي احسن الحالات في العالم واكثرها موافقة لراحة الانسان . لانها غير خاضعة للشقآء والمصاعب والاتعاب والاوجاع التي تلاصق عيشة من كان في الدرجة الدنيا ولا محفوفة بالكبريآء والتنعم والطمع والحسد التي توجد في من هم في الدرجة العليا . ويمكنك ان تحقق ما لهذه الحالة من الراحة من ملاحظة هذا الامر وهو ان اصحاب هذه الحالة تراهم محسودين من باقي الناس وان الملوك كثيرًا ما تاسفوا من النتائج التعيسة الناجمة من ولادتهم للامور العظام ورغبوا ان يوضعوا في وسط طرفين اي بين العظمآء والادنيآء حتى ان الحكيم شهد لهذه الحالة بكونها دستورًا عادلًا للغبطة الحقيقية عند ما طلب ان يكون لا فقيرًا ولا غنيًّا

ثم قال لي اذا لاحظت الامور يظهر لك دائمًا ان مصائب الحيوة يشترك فيها القسم الاعلى والقسم الادنى من بني البشر. واما الحالة المتوسطة فان مصائبها

تكون اقل وتقلباتها لا توازي تقلبات الحالتين الاخريين. اي ان اصحاب الحالة المتوسطة لا يكونون عرضةً وهدفًا لامراض الجسد وقلق العقل كما يكون الذين بواسطة سوء التصرف والتنعمات والشراهة من الجهة الواحدة او بواسطة مصاعب العمل وتعذر الاحتياجات وقلة الاكل وخباثة الاطعمة من الجهة الاخرى يجلبون على انفسهم امراضًا وعللاً من شانها ان تنتج بالطابع من معيشتهم. وان الحالة المتوسطة تكون دايمًا مقرونة بجميع انواع الفضايل والتمتعات. وان السلامة والسعة هما جاريتان لمن كانت احوالهم متوسطة. والقناعة والاعتدال والهدو والصحة والاتحاد وكل امر محبوب ولذة خالصة هي بركات ترافق الحالة المتوسطة من المعيشة. وانهُ بهذا الطريق يسير الناس بسكوت وهدو في العالم ويخرجون منهُ براحة من دون ان يرتبكوا بتعب اليد او قلق الراس او يبيعوا انفسهم للعبودية لاجل خبزهم اليومي او يزعجوها بامور من شانها ان تنزع سلامة الضمير وراحة الجسد او يكدروها بالحسد او شدة الطمع في طلب امور عظيمة. ولكنهم لِمَا هم فيهِ من الراحة يسيرون الهُوَينا في العالم ويذوقون حلاوة الحيوة من دون مرارتها ويشعرون بانهم سعداء ويتعلمون بالاختبار يومًا فيومًا معرفة ذلك والاشعار بهِ

ثم الحَّ عليَّ بحرارة موعبة حنوًّا وشفقة ان ارفع هذه المادة من راسي ولا اطوح نفسي في اخطار لا تلزمني اذ كنت غير مضطر الى طلب خبزي. وقال انهُ يبذل جهدهُ في مساعدتي ووضعي في المركز الذى عرضهُ عليَّ. وانني اذا لم اكن مرتاحًا جدًّا وسعيدًا في العالم يكون المانع من ذلك سوء حظي او ذنبي. وانهُ لا يكون عليهِ لوم ولا مواخذة من جرى ذلك لانهُ قد تمم واجباتهِ نحوي بانذاري وتحذيري من امور عرف انها تكون مضرة لي. وبالاجمال كما انهُ مستعد لان يعاملني بكامل المساعدة والمعروف اذا بقيت ثابتًا في البيت لا يريد ان يكون لهُ ادنى يد في مصابي بتشجيعهِ اياي في امر السفر. وختم كلامهُ بقولهِ انهُ يمكنني ان اتخذ اخي نموذجًا. فانهُ قدم لهُ هذه النصايح بعينها لكي يصدهُ عن التوجه الى حروب البلاد الواطية فلم يقدر على اقناعهِ لما كان لهُ من الرغبة المفرطة في دخول العسكرية فقتل هناك. ثم قال انهُ

لا يكفُّ عن الصلوة من اجلي الا انهُ يتجاسر ويقول اني اذا بقيت مصرًّا على عزمي وفعلت ما انا قاصدهُ فان الله لا يبارك عليَّ . واردف قولهُ هذا بقولهِ سيكون لك فرصة فيما بأتي لان تتذكر بانك قد تهاونت بمشورتي وتندم ولكن لا يكون لك عند ذلك من يمدُّ يدهُ لمساعدتك في التخلص من مصيبتك

وعند ما انتهى الى القسم الاخير من خطابهِ الذي هو بالحقيقة نبوي مع اني اظن انهُ هو نفسهُ لم يكن عالمًا بانهُ كذلك لاحظت ان الدموع كانت تتساقط منحدرة على خديهِ بكثرة وعلى الخصوص عند ذكرهِ اخي الذي قُتِل في الحرب . ولما قال انهُ سيكون لي فرصة للتذكر والندم ولا يكون حينئذٍ من يساعدني تاثر جدًّا حتى انقطع حديثهُ وقال لي ان قلبهُ قد امتلا حتى ما عاد يمكنهُ ان يكلّمني

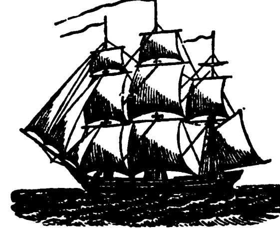
واما انا فتاثرت جدًّا من هذا الخطاب ومن لا يتاثر من خطاب كهذا وعزمت على اني ما عدت افتكر ابدًا في امر التغرُّب بل ابقى في البيت طبق مرغوب ابي . ولكن وا اسفاهُ لم يمضِ الا ايام قليلة حتى برد هذا العزم فنويت بعد اسابيع قليلة ان اهرب الى بلاد بعيدة واخلص من انذارات ابي ولجاجتهِ . الا انني لم افعل ذلك بالسرعة كما كانت تحركني حرارة عزمي الاولى بل انفردت بامي في وقت حسبتها فيهِ اكثر بشاشة من جاري عادتها وقلت لها ان قلبي مايل جدًّا الى التفرج على العالم حتى اني لا اقدر ان ابتدي بشيء واثبت الى ان اتممهُ . فالاوفق ان ابي يجيب سوالي طوعًا ولا يحملني على الذهاب بدون خاطرهِ ورضاهُ . واذ قد بلغت السنة الثامنة عشرة من العمر قد فات وقت دخولي في صناعة او حرفة او في وظيفة كاتب عند احد الفقهاء . ولست اشك باني اذا فعلت ذلك لا اثبت الى ان اكمل مدتي بل ساهرب من عند معلمي قبل نهاية وقتي لاكون بحريًّا . ثم ترجيتها ان تستاذن لي من ابي بسفرة واحدة الى الغربة فاذا رجعت بالسلامة ولم يعجبني ذلك لا اعود اسافر ايضًا بل ابقى في البيت واعوّض باجتهادٍ مضاعف ما اكون قد اضعتهُ من الوقت

وان والدتي لما سمعت هذا الكلام استشاطت غضبًا وقالت لا فايدة من

الكلام مع ابيك بهذا الشان. فانهُ هو اعلم بصالحك ولا يمكن ان يسمح بامر ينتج لك منهُ هذا المقدار من الضرر. واظهرَت العجب من افتكاري بهذا الامر بعد ذلك الخطاب الذي خاطبني بهِ وتلك العبارات الموعبة رفقًا وحنوًّا التي بلغها انهُ حدَّثني بها. ثم ختمت خطابها بقولها لي اذا اردت ان تعطّل نفسك فلا حيلة في هذا الامر. ولكن يجب ان تعلم يقينًا ان ذلك لا يمكن ان يجوز رضاي ولا رضى ابيك وانا لا اريد ان تكون لي مثل هذه اليد في تلفك ولا ان اجعل لك فرصةً لان تقول ان والدتي رضيَتْ حال كون ابي لم يرضَ

ومع ان والدتي لم ترتضِ ان تبلّغ ذلك الى والدي بلغني فيما بعد انها اخبرتهُ بكل ما جرى بيننا من الحديث. وان ابي اضطرب من ذلك جدًّا وقال لها متنهدًا ان هذا الولد اذا بقي في البيت يكون مرتاحًا سعيدًا واما اذا سافر وتغرّب فانهُ يكون اشقى الاشقياء ومن ثم لا يمكنني ان اسمح لهُ بالسفر

ولم افلت الا بعد ذلك بسنةٍ من الزمان. وكنت في تلك المدّة مصرًّا بعناد على عدم قبول شيءٍ من المصالح التي عُرِضت عليَّ. وكثيرًا ما كنت احدّث والديَّ في امر منعهما لي عمَّا اميل اليهِ طبعًا. ثم في ذات يوم فيما كنت في هُول حيث كنت اذهب احيانًا ولم تكن لي عند ذلك نية على الفرار اتفق اني صادفت هناك احد اصحابي على همة السفر الى لندن في مركب لابيهِ. فاخذ ذلك الصاحب يحسّن لي على عادة البحرية ان ارافقهُ في تلك السفرة بقولهِ ان ذلك لا يكلّفني شيئًا. فاجبت الى مرغوبهِ وتوجهت معهُ من دون مشورة والديَّ ولا اخبارهما بذلك ولا طلب بركة الله ولا بركة والديَّ ومن دون اعتبار الظروف ولا العواقب بل فعلت ذلك في ساعة نحسٍ كما يعلم الله



كأنهُ المركب الذي سافر فيهِ كروزي

الفصل الثاني

سفر روبنصن كروزي الاول في البحر

في اليوم الاول من شهر ايلول سنة الف وستماية واحدى وخمسين طلعت على ظهر مركب متوجهٍ الى لندن. ولا اعلم بوجود مسافرٍ ابتدات مصائبهُ ابكر من مصائبي ولا دام نحسهُ اكثر من نحسي. وحالما اقلع ذلك المركب وخرج من المينا ابتدات الرياح تهبُّ والامواج تتعالى على هيئةٍ مخيفة جدًّا. واذ كانت هذه السفرة اول اسفاري في البحر اصابني في جسدي مرض لا اقدر ان اصفهُ واعتراني خوف شديد. فاخذت حينئذٍ اتفكَّر في ما فعلتهُ واتاملّ بحكم الله العادل الذي وقع عليَّ لاجل ردآءَتي في ترك بيت ابي. وتصورت امام عيني جميع نصائح والديَّ الصالحة ودموع ابي وتوسلات امي. واذ كان ضميري لم يصل الى الدرجة القصوى من القساوة التي وصل اليها فيما بعد اخذ يوبخني بصرامة على ازدرآءي بالنصائح وتركي لواجباتي

ثم اخذ النوءُ يتزايد شيئًا فشيئًا وجعل البحر الذي لم اركبهُ الا هذه المرة يرتفع متعاليًا جدًّا ولكنهُ لم يصل الى الدرجة التي رايتهُ فيها مرارًا فيما بعد ولا التي رايتهُ فيها بعد ذلك بايام قليلة. الا انهُ كان مع ذلك كافيًا لان يخيف بحريًّا حديثًا نظيري لم يقع نظرهُ قط على مثل هذه المناظر. فكان يتراءَى لي ان كل موجة هي هاجمة علينا لتبتلعنا وان كل مرة كان يسقط فيها المركب كما كنت اظن في جوف البحر لا يعود ينهض بعدها ابدًا. واذ كنت في هذه الحالة المريعة نذرت نذورًا كثيرة عازمًا اني اذا وصلت سالمًا الى آخر هذا السفر ويسَّر لي الله ان اضع قدمي على اليابسة اذهب حالًا الى بيت ابي تايبًا كالابن الشاطر ولا اعود اضع رجلي في مركب ما دمت حيًّا. واني اقبل نصيحة ابي ولا القي نفسي ابدًا في مهالك كهذه. وظهر لي الآن صدق كلام ابي عن العيشة المتوسطة وتذكرت كيف انهُ صرف جميع ايامهِ بسهولة وراحة ولم يلقِ نفسهُ قط في خطر انوآء البحر ولا متاعب البر

فهذه الافكار الحكيمة الرزينة كانت تتردد في عقلي اذ كان النوء هائجًا وبقيت مدة من الزمان بعده. وفي ثاني ذلك اليوم سكنت الريح وهدأ البحر وعند ذلك ابتدات تلك الافكار تفارقني. الا اني صرفت ذلك النهار بالغم والعبوسة لما كان باقيًا فيَّ من تاثيرات مرض البحر. ولما اقبل المساء راق الفلك وصار هدوٌّ عظيم وكان منظر الشمس صافيًا جدًّا عند غروبها كما كان عند ما اشرقت في الغد. فكان منظر البحر عند هدوهِ والشمس مشرقة عليهِ احسن المناظر التي وقعت تحت نظري. وعند المساء صحوت من مرضي ونمت نومًا هاديًا في الليل وكنت اشعر بفرحٍ لا يوصف وانظر الى البحر متعجبًا كيف صار هاديًا بهجًا بهذا المقدار بعد ذلك الهياج الهائل بمدة قصيرة

والآن فلكي لا اثبت على عزمي الصالح تقدم اليَّ ذلك الصاحب الشاب الذي اغراني الى هذه السفرة ولطم كتفي برفق وقال كيف انت الان يا صاحِ. اظن انك خفت الليلة الماضية عند ما هب علينا ملء طربوش من الريح. أمَّا انا مصيبٌ في ظني. فاجبتهُ عجبًا اتسمي ذلك ملء طربوش والحال انهُ كان نوءًا عظيمًا. قال اتسمي ذلك نوءًا يا مجنون. ان ذلك ليس شيئًا عند من كان في مركب جيد. انت بحري جديد يا صاحب ادنى شي يزعجك. هلمَّ بنا نشرب قدح عرق فننسى كل ما حدث. انظر ما ابهج الهواء الآن. ولاجل الاختصار في هذا القسم المكدر من قصتي اقول اني اجبتهُ الى مرغوبهِ وسلكت طريق سائر البحرية فشربت عرقًا حتى سكرت. فضيعت في شر تلك الليلة كل توبتي وجميع تاملاتي في سيرتي الماضية وكل عزمي بالنظر الى المستقبل. واقول بالاجمال كما ان البحر رجع الى حالة الهدو والسكون عند ما كف النوءُ كذلك رجعت رغبتي السابقة الى مجراها ونسيت كل النذور والمواعيد التي صدرت مني في وقت ضيقتي عند ما انتهت حركة افكاري السريعة وزالت من بالي المخاوف والاهوال التي اعترتني عند ما كان البحر هائجًا مزبدًا. الا انهُ كان يخطر ببالي احيانًا بعض افكار وكانت افكار الرصانة والعقل تحاول اوقاتًا الرجوع الى راسي الا انني كنت ادفعها بنفور كانها وساوس

ابليس . واذ كنت اصرف وقتي في الشرب ومنادمة الاصحاب لم يمضِ الا قليل حتى كنت اسمي تلك الافكار دوريّات وادفعها عني . وفي برهة خمسة او ستة ايام فزت بالظفر على الضمير وانتصرت عليهِ بقدر مرغوب خاطر شابّ يطلب التخلّص من رشقات سهامهِ الحادّة . ولكن قد حُفِظ لي تجربةٌ اخرى لاقناعي . فان الله عزّ وجلّ من عادتهِ في كذا احوال ان لا يدع للانسان عذرًا يعتذر بهِ . واذ كنت لم احسب ما مضى نجاةً قصد بعنايتهِ الفايقة ان يوقعني في تجربة اخرى من شان النجاة منها ان تحمل اردا واقسى شقيٍّ في العالم يقرّ معترفًا بخطرها وعظم الرحمة التي انقذتهُ منها

وفي اليوم السادس من ركوبنا للبحر وصلنا الى مكان يقال لهُ مواني يرموث وكان الهوآء ضدنا والبحر هاديًا فلم نقطع الا مسافة قصيرة بعد ذلك النوّ حتى اضطرنا الامر الى ان نرسي فارسينا هناك وبقي الهوآء ضدنا مدة سبعة او ثمانية ايام . وفيما كنا هناك قدمت مراكب كثيرة من نيوكستل الى ذلك الموضع الذي هو مينا لجميع المراكب تنتظر فيها الهوآء لركوب نهر التيمس . وبعد ان اقمنا في تلك المينا مقدار خمسة او ستة ايام اشتدت الريح جدًّا ولكن اذ كانت مواني يرموث محطًّا امينًا وكانت مرساة مركبنا جيدة وشراعاتهُ وباقي ادواتهِ قوية كنت ترى بحريتنا يصرفون وقتهم بالراحة والحظ كعادة ساير البحرية ولا يبالون بشيء ولا يخافون خطرًا ●

وفي اليوم الثامن صباحًا قويت الريح فاخذ البحرية ينشرون القلع العلوية ويجعلون ما كان في المركب مرتّبًا مشدودًا لكي يسير بقدر ما يمكن من الخفة والسهولة . وعند الظهر هاج البحر وتعالت امواجهُ جدًّا فاخذ مركبنا يمشي بموخرهِ الى قدام ومقدمهِ الى الوراء . ثم دخلهُ مياهٌ كثيرة وظننا مرة او مرتين ان المرساة قد انقطعت . وكان النوُّ عظيمًا حتى صرت انظر الخوف والارتباك في اوجه النوتية انفسهم . وكان الرئيس مجتهدًا في التدابير اللازمة لاجل وقاية المركب . وفيما كان يدخل ويخرج مارًّا بجانبي سمعتهُ مرارًا يتكلم بصوت منخفض قايلًا يا رب تحنن علينا . لقد اشرفنا جميعًا على الهلاك . قد صرنا جميعًا على حافة التلف وما اشبه ذلك . واما انا فكنت

في ابتداءَ هذا الاضطراب في حالة الخمول مضطجعًا في مخدعي كميّت لا اتحرك . ولا اقدر ان اصف كيف كانت حالتي في ذلك الوقت . ولم اقدر ان اجدد توبتي الماضية التي كنت قد رفستها برجلي وطردتها مقسيًا قلبي عليها . وكنت احسب ان مرارة الموت قد مضت وان هذا كالاول لا يكون شيئًا . ولكن عند ما سمعت ما سمعتهُ من الرئيس نفسهِ كما تقدم اعتراني خوف شديد . ثم خرجت من مخدعي ونظرت الى الخارج فكان المنظر كئيبًا جدًّا لم ارَ مثلهُ قط . فان امواج البحر كانت كانها جبال فوقنا تقع في كل ثلث او اربع دقايق منفجرة متكسرة علينا . وكنت ارى الضيقة حولنا من كل جهة . فكنت ارى مركبين بالقرب منا مشحونين وسقًا قد نُشِرَت سواريهما وقُطِعت من اصلها . وسمعت بحريتنا يصرخون قايلين ان مركبًا قدامنا على مسافة ميل منا قد امتلأ ماءً ونزل الى قعر البحر . وكان مركبان اخران تايهين في البحر من دون سواري . ومع ان المراكب الخفيفة الوسق كانت في حالة احسن من البقية قد ضيَّع اثنان منها او ثلثة ومرَّا بالقرب منا تايهين بقلع واحد امام العاصف . وعند المساءَ تقدم ثاني الرئيس والناظر الى الرئيس وطلبا منهُ ان يأذن لهما بقطع ساري المقدم فابى فالحَّ عليهِ الناظر بعبارات قوية قايلًا اذا لم نفعل ذلك يمتلي المركب ماءً ويغرق الى قاع البحر فارتضى اخيرًا . فلما قطعوا ساري المقدَّم ارتخى ساري الوسط فكان يتحرك ويحرك المركب بعنف شديد فالتزموا ان يقطعوهُ ثم قطعوا ساري الموخَّر فصار مركبنا قطمًا بلا سواري

ولا يخفى ماذا كانت حالتي في وسط تلك الاهوال التي لم يمر نظيرها براسي . وبقدر ما يمكنني ان اتذكر كان اضطرابي وقلقي من جرى اقناعاتي الماضية ورجوعي عنها الى عزمي الاول الردي اكثر جدًّا مما كانا من الموت نفسهِ . وهذا الاضطراب والقلق واهوال النوّ اوقعتني في حالة لا اجد كلامًا لوصفها . ومع هذا كنا الى ذلك الوقت لم نصل الى الاردا لان النوّ كان لم يزل في ازدياد حتى ان البحرية انفسهم اقرُّوا بانهم لم يروا قط اردا منهُ . وان مركبنا كان قويًا جدًّا الا ان وسقهُ كان كثيرًا فكان اكثرهُ غايصًا في الماءَ حتى ان البحرية كانوا يصرخون المرة بعد الاخرى

قايلين انهُ سيمتلي ماءً. ولاجل شدة النوّ وعظمهِ رايت في المركب منظرًا لا يُرى
مرارًا كثيرة وهو ان الرئيس والناظر واخرين معهما اكثر انتباهًا مني طفقوا يصلّون.
وكانوا ينتظرون في كل دقيقة نزول المركب بهم الى قاع البحر. وعند انتصاف
الليل فيما نزل واحد الى قعر المركب لينظر اذا بهِ ينادي قايلاً المياه دخلت المركب.
ثم نادى آخر قايلاً انهُ يوجد نحو قامة ماءٍ هناك. وعند ذلك ابتدا الجميع يشغلون
الطرنبة. واما انا فحالما طرقت هذه الكلمات اذني ظننت ان قلبي قد جمد داخلي
فانطرحت الى الوراء بجانب مضجعي مغشيًا عليَّ. فاتى واحد من البحرية ونبهني قائلاً
قم ساعدنا فانك قبلاً ما كنت قادرًا على عمل شيءٍ واما الآن فانك قادر على
تشغيل الطرنبة كالبقية. فقمت للوقت وتوجهت الى الطرنبة وكنت اشتغل من
كل قلبي. وفيما كنا في هذه الحالة اذا بمراكب الفحم قد اشرفت علينا من بعيدٍ ولم
تكن تشاء ان تدنو منا. فامر الرئيس باطلاق مدفع الضيقة واذ لم اكن اعلم معنى
ذلك خفت جدًّا وظننت ان المركب قد انشقّ شطرين او حدث امر مهول فأُغمي
عليَّ لشدة الخوف. واذ كان كل واحد مهتمًّا في حيوتهِ لم يكن احد يلتفت اليَّ ولا
يسال عمّا اصابني. غير انهُ اتى رجل الى موضعي على الطرنبة ورفسني برجلهِ جانبًا
ظنًّا منهُ باني ميّت. فبقيت مدة طويلة قبل ان استفقت من هذه الحالة

ولم تزل المياه تزيد في جوف المركب حتى ايقنّا بانهُ يغرق لا محالة. ومع ان
النوّ كان قد ابتدا يخف شيئًا فشيئًا كان المركب قد وصل الى حد حالة التلف
حتى يئس الرئيس من نجاتهِ واخذ يطلق على التوالي مدافع الضيقة طلبًا للاغاثة.
واتفق ان مركبًا صغيرًا خفيفًا كان قد سبقنا فارسل رئيسهُ قاربًا من قواربهِ لاجل
انقاذنا. ولم يصل ذلك القارب الى مقابلنا الا بعد مكابدة اتعاب واخطار عظيمة.
فافرغ بحريتهُ جهدهم وخاطروا بانفسهم لكي يخلصونا ومع ذلك لم نستطع النزول
اليهِ لبعدهِ عن جانب المركب. واخيرًا ربط البحرية قطعة خشب الى راس حبل
طويل ورموهُ الى بحرية ذلك القارب وبعد تعب جزيل امسكوا طرفهُ فجذبناهم
بالطرف الآخر الى القرب من مقدم المركب ونزلنا جميعًا الى القارب. واذ لم يكن

لنا ولا لهم امل بالوصول الى مركبهم اطبق راي الجميع على اطلاق عنان القارب بعد تحويلهِ نحو البر وتركهِ للقوة الدافعة والجاذبة بقدر الامكان. وان رئيسنا ضمن لهم غائلة تشحيطهِ الى البر وقبل درك ذلك على نفسهِ. وهكذا بواسطة دفع البحر وجذب المجاذيف كان القارب يسير بنا قاصدًا البر الى ان وصلنا الى جوار ونترطون

واما ما كان من امر مركبنا فانهُ بعد خروجنا منهُ بربع ساعة تقريبًا رايناهُ يغرق الى جوف البحر. واقرُّ بانهُ عند ما قال لي النوتية ها المركب قد ابتدا يغرق بالكد كانت لي جراءة ان ارفع نظري لاراهُ. لان البحرية من تلك الدقيقة وضعوني في القارب ولا يحق لي ان اقول اني انا نزلت اليهِ. وكان قلبي كانهُ ميت داخلي وذلك من شدة الخوف واضطراب العقل والنظر الى ما كان مزمعًا ان يصادفني

وفيما نحن في هذه الحالة المكربة والبحرية يحاولون بكل جهدهم ان يدنوا بالقارب من البر الذي كانوا يطلُّون عليهِ كلما ركبوا ظهر موجة راينا جمعًا غفيرًا من الناس يركضون على الشاطي لاستقبالنا ومساعدتنا في الخروج الى البر. ولكن تقدُّمنا نحو الشاطي كان بطيًا ولم يتيسَّر لنا الوصول الى حدودهِ الا بعد ان تجاوزنا منارة المراكب في ونترطون واشرفنا على كرومر. وبعد مقاساة صعوبات واتعاب كثيرة خرجنا من هناك الى البر بالسلامة واخذنا نعدو حتى وصلنا الى برموث. فاحسن حاكم برموث ومن بها من التجار واصحاب المراكب لقاءنا واجادوا مثوانا ثم اعطونا دراهم للتوجه الى لندن او الرجوع الى هول تاركين ذلك لارادتنا. فلو كنت صاحب عقل لرجعت الى هول وذهبت الى بيت ابي كالابن الشاطر وكان ابي قبلني بكل سرور وذبح لي العجل المعلوف. لانهُ اذا بلغهُ ان المركب الذي سافرت فيهِ قد غرق في مواني برموث فكيف يكون حالهُ اذ كانت اخبار سلامتي من الغرق فيهِ لا يمكن ان تصل اليهِ الا بعد ذلك بزمان طويل

وان سوء حظي كان يسوقني بعناد شديد وقوة لا تُدفَع. ومع اني عند مراجعة المادة في فكري كنت استصوب الرجوع الا انني كنت اشعر في الوقت ذاتهِ انهُ

لا قوة لي على ذلك . ولا اعلم ماذا اسمي هذا الحال . ولا اريد ان اقطع جازمًا بوجود قضاء سريّ شديد الباس يسوقنا جبرًا الى ما من شانهِ ان يسبب هلاكنا ممّا يكون تحت ادراكنا ونظرنا فنقتحمهُ مع اطلاعنا على ردآءتهِ . ولا شك بانهُ لم يكن ممكنًا لشيءٍ غير شقاوة مثل هذه قد قُضِي بها قضآء لا يُدفَع ولم يكن سبيل لي الى النجاة منها ان يسوقني الى هذه الورطات ضد تنبيهات عقلي الرايق وحجج ضميري المنفرد ومع وجود ما قد صادفني في اول سفري من العبر الواضحة لديَّ

وان رفيقي الذي مدَّ يدهُ قبلاً لمساعدتي في القساوة وهو ابن صاحب ذلك المركب كما علمت كان الآن اقلَّ مني تهجمًا . وهذه اول مرة كلمني بها بعد سفرنا من برموث بعد ذلك بيومين او ثلثة ايام . لاننا كنا قد تفرقنا في البلدة ونزلنا في حارات مختلفة . فلمّا قابلتهُ رايت ان غنّتهُ قد تغيرت ومنظرهُ صار كئيبًا ووجههُ مقطبًا . ولدى المواجهة هزَّ براسهِ ذات اليمين وذات اليسار وسالني قائلاً كيف انت الآن . وعرّفني بابيهِ واخبر اباهُ بان هذه السفرة هي اول سفراتي وذلك على سبيل التجربة والامتحان وان قصدي هو السفر الى اماكن ابعد . فالتفت ابوهُ اليَّ وقال لي بصوت الشهامة والجِدّ يا فتى ارى لك ان لا تسافر ابدًا في البحر بل ينبغي لك ان تتخذ هذه المصيبة دليلاً واضحًا محسوسًا على انك لست من رجال البحر . فاجبتهُ ولماذا يا مولاي . وانت ايضًا اما تذهب الى البحر . فقال هذه مسـألة اخرى . ان ركوب البحار هو مصلحتي فاذًا هو من واجباتي . واما انت فها قد سافرت هذه المرة على سبيل التجربة ورايت ما اذاقك الله ايّاهُ من مرارة المصائب التي لا بد من ان تدركك اذا بقيت مصرًّا على عزمك . وربما كان قد اصابنا ما اصابنا بسببك كما اصاب تلك السفينة المتوجهة الى ترسيس بسبب يونان . فاسالك ان تقول لي ما شانك وماذا حملك على ركوب البحر . فاخبرتهُ بشيءٍ من قصتي وشاني وللحال استشاط غضبًا وقال ما هي خطيتي حتى دخل هذا الشقيُّ المنكود الحظ مركبي . ثم التفت اليَّ وقال بغيظٍ انني لا اريد ان اضع قدمي مع قدمك في مركب تركبهُ ولو دُفع لي الف ليرا . فقلت في نفسي لعل ما حملهُ على هذه المطاولة المتجاوزة الحدَّ

ما لم يزل بقلبهِ من النكد والغم بسبب خسارتهِ . ولكن لم يمضِ الا لحظة من الزمان حتى استفاق من طياشتهِ واخذ يكلمني برصانة وهدوٍ وينذرني بالرجوع الى بيت ابي وان لا اجرّب الله لتلفي . وقال انهُ يمكنني ان انظر كيف يد الله هي ضدي . ثم اردف ذلك بقولهِ اعلم يقينًا يا فتى انك اذا لم ترجع فاينما توجهت لا تصادف الا المصائب وخيبة الآمال فتتم فيك كلمات ابيك التي انذرك بها

واذ كنت لم اجاوبهُ الا قليلاً انصرف وانصرفت ولم اعد اراهُ ولا علمت ابن توجه . وكان في جيبي بعض دريهمات فاستخدمتها في السفر الى لندن برًّا . وفيما انا هناك وفي الطريق كنت في حيرة وارتباك عظيم لا اعلم ماذا اعمل وكنت مترددًا بين الرجوع الى البيت وركوب البحر وكان الخجل والعار يقاومان كل حركة تدفعني للرجوع الى البيت . فكنت كلما خطر ببالي امر الرجوع اتصور امامي العار وما سيعتريني من الخجل عند مقابلة ابي وامي او احد معارفي وابناء بلدي . ومن هنا تبين لي فيما بعد عظم جهل وحماقة طبيعة الجنس البشري ولاسيما الشبان بالنظر الى العقل الذي ينبغي ان يكون مرشدًا اياهم في مثل هذه الاحوال . اي كيف لا يخجلون من ان يخطئوا ولكنهم يخجلون من ان يتوبوا وكيف لا يستحيون من الافعال التي يجب بعدلٍ ان يحسبهم الناس حمقاء بسببها ولكنهم يستحيون من الرجوع الذي هو الواسطة الوحيدة لهم لاكتساب الاعتبار في اعين الاخرين

فبقيت مدة من الزمان في هذه الحالة المكربة لا اعلم ماذا اعمل ولا كيف يجب ان اصرف حيوتي في هذا العالم . وكنت لم ازل مصرًّا بعناد على كراهة الرجوع الى البيت . ولم يمضِ الا قليل حتى نسيت الضيقة التي اصابتني وبذلك زالت تلك الرغبة الزهيدة التي كانت تحركني الى الرجوع فاخذت اهتمُّ في امر السفر . وذلك المنحس الشرير الذي حملني اولاً على مباينة بيت ابي وساقني الى ذلك التخيل الحيواني بان اوسع دايرة اشغالي وسعادتي ورسم في نفسي ذلك الغرور الاحمق رسمًا لا يُمحَى حتى صرت اصمَّ لا اقبل شيئًا من النصائح الصالحة ولا ابالي بتوسلات ابي ولا باوامرهِ ونواهيهِ نعم ذلك المنحس مهما كان هو الذي شخص امام عقلي

اتعس الاشغال . وهكذا دخلت مركبًا قد وجّه مقدمهُ نحو شطوط افريقية او على قول البحرية سفرةٌ الى غوينيا

ثم لسوء حظي لم ادخل في جميع هذه الاسفار في سلك البحرية لاني لو فعلت ذلك كنت تعلمت اشغال البحر وربما ارتقيت الى رتبة ثاني رئيس اذا لم اصر رئيسًا وان يكن ذلك يكلفني اتعابًا اكثر من العادة بقليل . ولكن كما كانت عادتي ودابي ان اختار الاردا هكذا فعلت الآن . واذ كان عندي دراهم في جيبي وثياب على بدني كنت اسافر دايمًا بزي خواجه وهكذا لم اكن اعمل شيئًا من الاعمال في المركب ولا تعلمت عمل شيءٍ . وكان لي حظ في اول امري ان اعاشر قومًا من ذوي الاعتبار في لندن وذلك يندر حصولهُ لمن كان شابًّا ذا خلاعة وطياشة نظيري . فان ابليس من عادتهِ ان لا يغفل عن ان يلقي في طريق من كانوا كذلك فخاخًا يصطادهم بها في صغر سنهم . واما انا فلم يكن حالي على هذه الصفة . فاني اولًا تعرفت برئيس كان قد سافر الى شطوط غوينيا ولمّا صادفهُ هناك من التوفيق والنجاح كان عازمًا على التوجه الى تلك الاطراف مرة اخرى . واذ اعجبهُ كلامي الذي لم يكن في ذلك الوقت غير مقبول وسمعني اتكلم عن ميلي الى التفرج على العالم قال لي اذا شئت ان ترافقني فاني لا ادعك تتكلف شيئًا من المصاريف بل اتخذك كعشير وجليس واذا اردت ان تاخذ معك بعض اشياء فاذا ربحت بها فيكون كل ربحها لك وربما تصادف هناك ما يعجبك ويقوي عزمك وآمالك . فشكرتهُ على معروفهِ وعزمت على التوجه معهُ . وصارت بيننا صداقة قوية خالصة . وكان رجلًا امينًا ليّن الجانب هيّن المعاطاة . فاشتريت بعض امتعة قليلة الثمن كثيرة العدد وذهبت بها مع صديقي المذكور الى شطوط غوينيا وبواسطة همتهِ وامانتهِ بعتها وربحت بها ربحًا جزيلًا . وكان راس مالي اربعين ليرا كنت قد حصّلتها بواسطة من كنت اكاتبهم من اقربآءي واظن انهم جعلوا ابي او اقلهُ امي تدفع ذلك مساعدة لي في اول اسفاري . فهذا اول سفر يمكنني القول بحقّ اني توفقت فيهِ . وما ذلك الا بموازرة صديقي الامين الصادق الرئيس المذكور الذي لا انسى معروفهُ نحوي

ما دمت حيًّا . وفضلاً عن ذلك قد علّمني المساحة واصول سفر البحر ومسك حساب سير المراكب والرصد وبالاختصار اكتسبت منهُ اموراً كثيرة مما يفيد كثيرًا البحريَّ معرفتهُ . وكما كان يلتذ بتعليمي كنت انا التذ بالتعلم منهُ . وبالاجمال صرت بهذه السفرة بحريًّا وتاجرًا معًا . ورجعت منها ومعي من التبر الخالص كمية وافرة بعتها بعد رجوعي الى لندن بنحو ثلثماية ليرا . وبسبب هذا التوفيق امتلأ راسي من تصوُّرات التقدم وتعاطي الاسباب الان ذلك صار اخيرًا واسطة لتلفي . هذا على ان هذه السفرة ايضًا لم تخلُ من مصايب اكتنفتني . فاني كنت دايماً منحرف المزاج واصابتني حمَّى محرقة ردية حصلت لي من شدة الحر هناك . وكان اكثر تجارتنا في السواحل والشطوط من طول خمس عشرة درجة شمالاً الى الخط نفسهِ

الفصل الثالث

في اسر روبنصن كروزي في سلّي

فصرت الآن تاجرًا غوبنويًّا ولكن لعظم سوء حظي توفي الرئيس صديقي بعد رجوعنا بقليل فعزمت على السفر ثانية الى هناك فنزلت في نفس المركب وكان ثاني الرئيس في السفرة الاولى قد صار الآن رئيسًا لهُ بعد وفاة رئيسهِ المذكور. وكان هذا السفر من اتعس الاسفار التي مرَّت براس انسانٍ . الا اني لم اخذ معي كل ثروتي الجديدة بل اخذت نحو ماية ليرا فقط وودعت المايتين الباقيتين عند ارملة صديقي المرحوم وهي ايضاً كانت تريد خيري وصالحي كزوجها . فالمصائب التي حلَّت بي هذه المرة هي عظيمة ومحزنة جدًّا . فاول مصيبة اصابتني هي انهُ فيما كان مركبنا سايرًا نحو جزاير كناريا او بالحري بين الجزاير المذكورة وشطوط افريقية فاذ تبلج الفجر اقبل علينا طائف اي مركب فيهِ قرصان اي لصوص بحر من اهالي سلّي كان قد وضع كل ما امكنهُ وضعهُ من القلوع وجعل يجدُّ في طلبنا

مطاردًا مركبنا . وللوقت نشرنا نحن ما عندنا من القلوع واطلقنا عنان المركب طالبين الفرار والنجاة . ولكن لما راينا ذلك المركب يسرع اكثر من مركبنا وتحققنا انهُ بعد ساعات قليلة سيدركنا اخذنا نتاهب للقتال والمدافعة والنضال . وكان محمول مركبنا اثني عشر مدفعًا ومحمول مركب القرصان ثمانية عشر مدفعًا . وبعد الظهر بنحو ثلث ساعات ادركنا العدوُّ فاطلقنا عليهِ ثمانية مدافع واطلق هو علينا المدافع ثم ارتد قليلاً الى الوراء واطلق علينا الرصاص . وكان فيهِ نحو مايتي رجل ولكن لم يصب احدًا منا اذًى . ثم حمل علينا حملةً اخرى وتهيأنا نحن للحمل عليهِ ولكنهُ وثب ثائرًا على مركبنا من الجانب الذي كان خاليًا من المدافع وقيدهُ مستاسرًا اياهُ . ثم ادخل اليهِ ستين رجلاً من رجالهِ فاخذوا في الحال يقطعون القلوع ويحلُّون الشراعات . فالعبنا فيهم الرصاص والبارود وكرَّرنا عليهم كرَّة الاسود وطردناهم مرتين عن ظهر المركب . وبالاختصار نقول انهُ اذ كان مركبنا قد تعطل وقُتِل ثلثة من بحريتنا وجُرِح منهم ثمانية وجدنا ان التسليم اسلم فسلَّمنا وهكذا أُخِذنا جميعًا اسرى الى سلّى وهي مينا مشهورة في بلاد المغاربة

وقد عاملوني هناك باقلَّ ردآءة مَّا كنت احسب ولم ياخذوني الى داخلية البلاد الى بلاط الملك كما فعلوا بباقي بحريتنا بل ابقاني ريس ذلك الطايف عندهُ . واذ راني حَدِث السن خفيف الحركة ولايقًا بخدمتهِ ادخلني في سلك العبيد . فعظم الخطب عليَّ جدًّا عند تحوُّل حالي من تاجر معتبر الى عبد دني . وصرت اتذكر خطاب ابي النبوي وقولهُ لي اني اكون تعيسًا ولا يكون من يفرج عني . وحكمت ان تلك المصيبة ما هي الا تتميم لتلك النبوة وانهُ لا يمكنني ان اقع في حالة اردا من تلك الحالة وان يد الله قد وقعت عليَّ فصرت الى العدم من دون منقذ . ولكن واأسفاهُ لم يكن ذلك الا ذواقًا لما كان مزمعًا ان يمرَّ براسي من النكبات والمصائب كما سيظهر لمن وقف على ما ياتي من قصتي

فاخذني مولاي الجديد معهُ الى بيتهِ فانفتح لي باب للامل بانهُ متى سافر الى البحر ياخذني ايضًا معهُ . وانهُ اذا دارت الدائرة عليهِ في دورهِ واتفق ان احد

مراكب صبانيا او البرتوغال الحربية يستاسرهُ أُعتَق انا بهذه الواسطة من عبوديتهِ . ولكن لم يمضِ الا قليل حتى خاب هذا الامل وذلك عند ما رايتهُ قد سافر في البحر وخلَّفني في البيت لاجل تدبير الجنينة والقيام بخدمة بيتهِ كاحد العبيد . ثم لما رجع من السفر امرني ان انام في المركب واحرسهُ

وفيما كنت عند مولاي المذكور لم يكن شيءٌ يهمني الا نجاتي وطريقة توصلني الى هذا المرغوب الا انني لم اجد طريقة فيها ادنى باب للرجاء حتى ان فرض ذلك كان عندي ضربًا من المحال اذ لم يكن لي رفيق اثق بهِ ولا شريك في الاسر لا انكليزي ولا ارلندي ولا سكوتلندي بل كنت وحدي . وبقيت سنتين اعلّل نفسي بتصورات فارغة لم يكن ادنى باب للامل بنجازها وتتميمها فعلاً

ثم بعد مضي نحو سنتين حدث امرٌ غير مالوفٍ ردَّ الى راسي فكر الاجتهاد في الحصول على حريتي . فان مولاي اقام في البيت اكثر من العادة من دون ان يعدَّ مركبهُ للسفر وذلك لعدم وجود نقود بيدهِ كما بلغني . وكانت لهُ عادة اذا كان الهواءُ معتدلاً ان ياخذ قارب المركب ويتوجه كل سنة مرة او مرتين واحيانًا اكثر لاجل الصيد . واذ كان ياخذني دائمًا معهُ وياخذ ايضًا فتى اسمهُ فورسكو كنا نجتهد في حظهِ . وصرت انا ماهرًا جدًّا في صيد السمك حتى انهُ كان يرسلني احيانًا مع مغربيٍّ من بني عمهِ والفتى فورسكو لنصيد لهُ صحن سمك

وفيما كنا ذات يوم ذي صباح بهج ذاهبين في طلب الصيد اذا ضبابة كثيفة جدًّا قد طلعت علينا حتى لم نعد نرى البرَّ مع اننا لم نكن ابعد من نصف فرسخ عن الشاطي . فكنا نشغل المجاديف ونجري ولكن لا نعلم الى اين ولا في اي طريق . فصرفنا ذلك النهار كلهُ والليل بعدهُ على هذه الحالة المتعبة المرتبكة حتى اقبل الصباح واذا بنا قد توغلنا في البحر عوض ان نقرب من البر وصرنا بعيدين مقدار فرسخين عن الشاطي . ثم بعد مقاساة انعاب جزيلة وتطويح انفسنا في اخطار قوية ابتدات ريح الشمال تهب عند الصباح وكانت تسوقنا حتى وصلنا الى مَرسًى مِرساتنا وقد خارت قوانا وقوى مولانا ايضًا من شدة الجوع

وان هذه الحادثة جعلت مولانا يعزم على زيادة الاهتمام بنفسهِ . وكان لم يزل عندهُ القارب الطويل الذي كان لمركبنا الانكليزي الذي استاسرهُ كما ذكرنا آنفًا فعزم على انهُ لا يسافر ايضًا من دون حكٍّ وزادٍ . فامر نجار المركب وكان اسيرًا من الانكليز ان يبني قمرةً على ظهر ذلك القارب تاركًا وراءها فسحة لاجل تشغيل المجاديف ورفع القلع الاكبر وفسحةً قدامها كافية لان يقف فيها رجل او رجلان لاجل تشغيل القلوع . ففعل النجار كما امر مولاهُ . فكان ذلك القارب سريع الجري فيهِ مكان يسع مولاي مع واحد او اثنين من عبيدهِ ومايدة يتناول عليها طعامهُ وصندوقة صغيرة يضع فيها قناني مشروباتهِ مع الخبز والارزّ والقهوة وسمّاهُ بالكوثر وهو اسم نهر في الجنة تيمُّنًا وتبرُّكًا

وقد ذهبنا مرارًا كثيرة في ذلك الكوثر لاجل الصيد واذ كنت ماهرًا في صيد السمك لم يكن مولاي يذهب من دون ان ياخذني معهُ . ثم اتفق ان مولاي عزم ذات يوم على الخروج في الكوثر طلبًا للتنزه او الصيد برفقة اثنين او ثلثة من اصحابهِ المعتبرين في ذلك الموضع . فاستعد لهم اكثر من العادة وارسل الى المركب ليلاً ماكولات كثيرة وامرني ان اهيي ثلث بواريد وبارودًا وخردقًا مماَّ يوجد في المركب قائلاً ان مرادهُ صيد السمك وقنص الطيور ايضًا

فهيأت كل شيء طبق امرهِ وفي اليوم القادم غسلت الكوثر جيدًا ورتبتهُ لاستقبال الضيوف واقمت بهِ صباحًا انتظر قدومهم واذا بمولاي قادم بعد قليل وحدهُ فقال لي ان الضيوف عرض لهم شغل فعدلوا عن الحضور . وامرني ان اخرج انا ومغربيٌّ وغلام من اتباعهِ في الكوثر كجاري العادة ونصيد لهم سمكًا . وقال لي اسرع في الاتيان بالسمك الى البيت . وذلك لان اصحابهُ كانوا مزمعين ان يتعشوا عندهُ . فاجبتهُ حبًّا وطاعةً . وفي تلك الدقيقة اخذت افكاري القديمة تقاتلني في امر النجاة . لانني رايت الان ان لي مركبًا صغيرًا تحت امري ومطلق

تصرفي . وحالما انصرف مولاي اخذت اتأهب ولكن لا للصيد بل للسفر ولم اكن اعلم ولا جال في خاطري من اين ولا الى اين اتوجه . ولكن اي طريق يخلصني من ذلك الموضع وتلك العبودية فذلك هو طريقي

واول حيلة استنبطتها هو اني قلت للمغربي جهز ما يلزمنا من المونة والزاد اذ لا يجوز لنا ان ناكل من خبز مولانا . فقال صحيح ذلك . ثم اتى بسلّ كبير ملآن كعكًا او بقصمات من الدون وثلث جرار مملوة ماء عذبًا . واما انا فاذ كنت عارفًا بالموضع الذي كان فيهِ الصندوق المتضمن قناني الشراب خاصة مولاي ففيما كان المغربيُّ على البر نقلتهُ مع السل الى الكوثر بقصد ايهامهِ بانهما كانا هناك قبلاً تحت طلب مولانا . وكان ذلك الصندوق قد غُصِب من قوم انكليز كما يظهر من نقانة شغلهِ . ونقلت ايضًا قطعة كبيرة من شمع العسل وربطةً من الخيطان وفاسًا ومنشارًا وقدومًا . وجميع ذلك نفعنا جدًّا فيما بعد وعلى الخصوص الشمع لاجل الضو . ثم احتلت حيلة اخرى على ذلك المغربي وكان اسمهُ اسمعيل ولكنهم كانوا يدعونهُ مولا فقلت يا مولا لا يخفاك ان بواريد مولانا هي في الكوثر اما يمكنك ان تحضر لنا قليلاً من البارود والخردق لعلنا نقتنص لانفسنا بعض طيور ناكلها فقبل هذه الحيلة ببساطة وخلوص نيةٍ وقال بلى . ثم ذهب فاحضر جرابًا كبيرًا فيهِ نحو اقتين من البارود وكيسًا فيهِ نحو ست اقق من الخردق مع قليل من الرصاص ووضع جميع ذلك في الكوثر . وكذلك انا وجدت شيئًا من البارود خاصة مولانا في القمرة الكبيرة فملات منهُ قنينة كبيرة من قناني الشراب واضعًا ما كان باقيًا فيها من الشراب في قنينة اخرى . فلما انتهينا من التجهيز وصار عندنا كل ما يلزمنا اقلعنا من المينا في طلب الصيد . واذ كان من في القلعة التي في مدخل المينا يعرفون من نحن لم يعارضونا ولا سألونا . وما ابعدنا اكثر من ميلين عن المينا حتى طوينا قلعنا وجلسنا نصيد . وكانت الريح من الشمال الشرقي وذلك ضد مرغوبي . ولو كانت من جهة الجنوب لكنت وصلت لا محالة الى حدود صبانيا وفي آخر الامر الى لسان قادس . الا انني شمّرت عن ساعد العزم لمباينة ذلك

الموضع الردي والحصول على حريتي كيفما مالت الريح وتركت ما بقي للقدْر والقدَر

فصرفنا مدة في الصيد ولكن لم نصد شيئًا وكنت اذا طلع سمك على صنارتي لا انزعهُ منها بل اردُّهُ الى الماء خوفًا من ان يراهُ المغربي . وعند ذلك قلت للمغربي لا فايدة لنا من ذلك ولا يمكننا ان نرضي مولانا بهذا العمل دعنا نتقدم ايضًا متوغلين في البحر فقال لا باس على ما ارى افعل ما بدا لك . واذ كان جالسًا عند مقدم الكوثر قام على الفور ونشر القلع وامسكت انا الدفة واخذنا نجري حتى ابعدنا مسافة ثلثة اميال عن ذلك الموضع . ثم التفتُّ ذات اليمين وذات اليسار وقمت كاني اريد ان اصيد وسلَّمت الدفة للولد ووثبت على المغربي وثبة الاسد وامسكتهُ بغتةً من وسطهِ وقذفتهُ من المقدم الى لجة البحر . ولكن لم يمضِ الا كلمحة بصر حتى طفا حالاً سابحًا على وجه المياه لانهُ كان اسبح من بطَّة . فناداني طالبًا الطلوع الى الكوثر وواعدًا بانهُ يطوف العالم باسرهِ معي اذا اردت . واخذ يسبح بعزم وسرعة ورآء الكوثر . واذ كانت الريح خفيفة جدًّا ورايت انهُ لا يمضي الا قليل حتى يدركنا دخلت القمرة وخرجت وبيدي بارودة فادرتها نحوهُ وقلت لهُ يا مولا اني لم اضرك قط بشيء ولا اضرك الان اذا رجعت عما انت قاصدهُ فان البحر هادي والبر غير بعيد فانت قادر ان تصل بسهولة سابحًا الى هناك . ولكن اذا اصررت على عزمك ودنوت من الكوثر فاني اطلق عليك هذه البارودة وارميك ميتًا لاني انا طالب الفوز بحريتي . ولوقتهِ دار بوجههِ راجعًا واخذ يسبح طالبًا البر . ولست اشكُّ بانهُ وصل بسهولةٍ وسلامةٍ لانهُ كان سبَّاحًا ماهرًا

وكان يكفيني ان اغرق الولد وآخذ ذلك المغربي معي ولكن لم تكن لي جرآءة على ابقآء المغربيّ معي لعدم اركاني بهِ . ثم عند انصراف المغربي التفتُّ الى الولد وكان اسمهُ كسار فقلت يا كسار اذا كنت امينًا لي وصادقًا في خدمتي فاني اصيِّرك رجلاً كبيرًا . ولكن اذا لم تحلف لي بقاعدة دينك انك تكون امينًا لي ولا تخونني ابدًا يضطرني الامر الى ان اقذفك انت ايضًا الى لج البحر . فنظر الولد كسار اليَّ متبسمًا وكلمني ببساطة ضمير ونقاوة قلب زادا اركاني بهِ بحيث لم يبقَ لي سبيل الى

اساءة الظن فيهِ . ثم حلف لي بانهُ يكون امينًا صادقًا وبرافقني اينما توجهت فوثقت بهِ مركنًا اليهِ

واذ كنت لا ازال ارى المغربي وهو يسبح وجهت مقدم الكوثر نحو البحر ضد الريح مبلطًا لاوهم الناس اني ذاهب نحو فم الخليج لانهُ من كان يظن اننا سايرون الى جهة الجنوب الى شطوط بلاد البرابرة حقًا حيث نوقع نفسنا في خطر من ان يحيط بنا قبائل كثيرة من السودان بقواربهم الصغيرة واطوافهم ويهلكونا واذا خرجنا الى البر نعرض انفسنا للوحوش الضارية فتفترسنا او لقوم برابرة من بني البشر هم اشد شراسةً واكثر قساوةً من الوحوش نفسها فيميتوننا . ولكن لما اقبل المساءُ وخيمَّ الظلام غيَّرت طريقي وحوَّلت مقدم الكوثر نحو الجنوب الشرقي مائلاً قليلاً نحو الشرق لكي اكون دايمًا قريبًا من البر ومواجهًا لهُ. واذ كانت الريح قوية والبحر هادئًا رائقًا كنت اسير بسرعة حتى اظن اني في اليوم القادم عند العصر حين قربت من البر لم اكن بعيدًا عن جنوبي سلّي اقل من مابة وخمسين ميلاً. وذلك على بعد شاسع عن ممالك ملك مراكش وعن كل مَلِك غيرهِ في تلك الاطراف . لاننا لم نكن نرى احدًا هناك

ثم لشدة ما اعتراني من الاهوال عند المغاربة والخوف من ان اقع ثانيةً بين ايديهم لم اكفّ عن المسير ولا خرجت الى البر ولا عرَّجت الى مينا . فسافرت على هذه الحالة والريح معي مدة خمسة ايام . ولكن بعد ذلك تغيرت الريح وصارت تهبُّ من الجنوب مضادة لي . واذ كان ذلك مما قوَّى املي بتوقف ما ربما يكون ساعيًا في طلبي من المراكب لاستنساري اشتدَّ عزمي وتقدمت الى البر حتى اقبلت على مينا صغيرة على مصبّ نهر صغير. ولم اكن اعلم ماذا ولا اين ولا اي طول ولا اية بلاد ولا اي شعب ولا اي نهر. ولم ارَ ولا كانت لي رغبة في ان ارى انسانًا او جماعة اناسٍ. بل كنت اطلب على الاكثر الماءَ العذب لشدة الاحتياج اليهِ. وكان وصولنا الى فم ذلك النهر عند المساءِ . فنوينا ان نطلع الى البر سابحين حالما يخيّم الظلام. وكنا نسمع اصواتًا هايلة وصراخًا مريعًا وزئير اسودٍ ووحوش برية من

اجناس مختلفة. واما الولد كسار فانهُ عند ما سمع تلك الاصوات المختلطة الهائلة كاد يموت من شدة الخوف وطلب اليَّ بلجاجة ان لا انزل الى البر الا بعد طلوع الفجر. فاجبتهُ الى ذلك وقلت لهُ ولكن ربما راينا في النهار اناسًا اشد شراسةً واذًى من هذه الوحوش الضاربة . فضحك مقهقهًا وقال اننا نرميهم بالرصاص فيهربون منا . فسررت بما رايتهُ فيهِ من شدة الباس والحماسة وطلاقة الوجه والبشاشة فسقيتهُ قليلاً من الشراب مما في الصندوق الذي كان لمولانا لافرح قلبهُ واطربهُ وقبلت رايهُ لاني استصوبتهُ. فارسينا هناك وصرفنا ليلتنا تلك في الكوثر واحييناها بالهدو والقلق والسكينة والارق. ولم يمضِ الا ساعتان او ثلث ساعات حتى راينا خلائق كثيرة هائلة من اجناس مختلفة لم نعلم ماذا نسميها قد نزلت الى الشاطي ووثبت ثائرة الى الماء واخذت تستحمُّ متمرغةً لتبريد ابدانها . وكانت تعج عجيجًا هائلاً مريعًا لم يطرق قط اذني نظيرهُ في حياتي

وان كسار لما سمع تلك الاصوات المريعة خاف خوفًا شديدًا وخفت انا ايضًا . وزاد خوفنا حين اشعرنا ان واحدًا من تلك الخلايق الهائلة يسبح متقدمًا نحو كوثرنا. فلم نكن نراهُ لشدة الظلام بل كنا نسمع صوت زفيرهِ ولكننا لم نعلم هل هو حوت بحري هائل او وحش بري كاسر. فقال كسار انهُ سبع . وربما كان ما قال . ثم ناداني قائلاً يا معلمي ارفع المرساة ودعنا نهرب من هذه الداهية . فقلت لا يا كسار بل يمكننا ان نرخي السكَّان واضعين خشبة في طرفهِ ونتوغل في البحر. فانها لا تقدر ان تتبعنا مسافة بعيدة . ولم اتمَّ هذه العبارة حتى رايت تلك الداهية مهما كانت قد صارت على مسافة طول مجذافين منا فارتعبت قليلاً من ذلك . وفي الحال بادرت الى باب القمرة وتناولت بارودتي واطلقتها عليها فلما سمعت صوت البارود رجعت على عقبيها سابحةً الى البر

وما سمعناهُ من الاصوات الكريهة والعجيج الهائل القبيح على الشاطي وفي تلك السواحل عند وصول صوت البارود اليها مما لا يمكن وصفهُ . والظاهر ان تلك الخلايق لم تسمع قط مثل هذا الصوت . وعند ذلك ايقنت بانهُ لا سبيل لنا ان

نخرج الى البر قبل طلوع الفجر حتى اننا كنا في ريب من الامان في النهار ايضاً.
وذلك لان الوقوع في ايدي البرابرة ليس باقلّ رداءة من الوقوع في مخالب
السباع الضارية والذياب الكاسرة. وكنا كلانا خايفين من الوقوع في الخطر
الا انهُ لم يكن لنا غنًى عن النزول الى البر هنا او في مكان آخر لان الماء
العذب كان قد فرغ ولم يبقَ عندنا ولا ملءُ قدحٍ. فقال كسار اذا اذنت لي فانا
آخذ جرة وانزل الى البر وحدي فاذا وجدت ماء اتيت بقليل لنشرب الآن ثم
بعد ذلك نرى ماذا نعمل. فقلت لهُ ولماذا تذهب انت ولا اذهب انا وتبقى انت
في الكوثر. فاجاب بمحبة عظيمة جدًّا جعلتني ان اتعلق بهِ دايمًا بعد ذلك وقال
لانهُ اذا اقبل قوم من البرابرة ياكلونني وانت تسلم. فقلت لا يا كسار دعنا نذهب
كلانا معًا فاذا اتى علينا قوم من البرابرة نقتلهم ولا ندعهم ياكلون ولا واحدًا منا.
ثم اعطيتهُ كسرة خبز يابس وكاسًا مما كان في صندوق مولانا المذكور آنفًا
ونقدمنا با لكوثر نحو البر بقدر الامكان ثم خضنا وخرجنا الى الشاطي ولم ناخذ
معنا شيئًا سوى سلاحنا وجرتين فارغتين لاجل استقاء الماء

وكنت اخاف من ان ينزل قوم من البرابرة بقواربهم من النهر ولهذا لم ادع
كوثري يغيب عن ناظري. واما الولد كسار فانهُ اشرف من بعدٍ على مكان واطئٍ
على مسافة نحو ميل من الشاطي فاخذ يعدو ذاهبًا اليهِ هائمًا على وجههِ على غير
هداية. ولم يغب الا قليلاً حتى رايتهُ راجعًا نحوي ركضًا فظننت ان بربريًّا يطاردهُ
او انهُ خايف من وحش بري صادفهُ. فركضت نحوهُ طلبًا لنجدتهِ فلما دنوت منهُ
رايت شيئًا قد تدلّى على منكبيهِ فتفرست فيهِ واذا بهِ حيوان قد اقتنصهُ ولم اعلم
ما هو غير انهُ كان كانهُ ارنب الا ان لونهُ لم يكن كلون الارنب وكانت ساقاهُ
اطول من ساقي الارنب. وكيفما كان فاني سررت بهِ لان لحمهُ كان طيبًا جدًّا.
ولكن البشارة الجيدة التي اتاني كسار بها هي قولهُ لي انهُ وجد ماء عذبًا ولم يصادف
احدًا من البرابرة

ثم راينا بعد ذلك انهُ لا يلزمنا ان نكلّف انفسنا هذا المقدار من التعب في

طلب الماء. وذلك لاننا وجدنا انهُ عند هبوط المد وانخفاض مياه البحر التي لم تكن تمتدُّ الا قليلاً في ذلك النهر الذي ارسينا مقابلهُ توجد مياه عذبة فيهِ على بعد قليل منهُ. ولما ارتاح بالنا من هذا القبيل اضرمنا النار وعملنا وليمة من ذلك الصيد. ثم جعلنا نتاهب للتقدم في طريقنا واقلعنا ولم نرَ اثر اقدام بشر في تلك الجهة

واذ كنت قد سافرت مرةً قبلاً الى تلك الاطراف كنت اعلم ان جزاير ورْد لم تكن بعيدة كثيرًا عن تلك الشطوط ولكن اذ لم يكن لي آلات اتوصل بها الى معرفة الطول الذي كنا الان فيهِ ولا كنت اعرف بالتحقيق او على الاقل اذكر ما هو موقع تلك الجزاير من الطول كنت غير عارف ما هو المكان الذي يجب ان اترقبها فيهِ ولا الزمان الذي ينبغي ان احوّل فيهِ مقدم الكوثر نحو البحر في طلبها. ولو كانت لي الوسايط اللازمة لكنت الآن قد كشفت بسهولة بعض تلك الجزر. فاخذت اعلّل نفسي بالامل باني اذا ظللت سايرًا بالقرب من هذا الشط الى ان اصل الى القسم الذي كانت للانكليز عادة ان يتردَّدوا اليهِ طلبًا للتجارة ربما صادفت مركبًا من مراكبهم فاركبهُ واتخلص من تلك الحالة التعيسة

ثم بعد بذل الجهد في عمل الحساب ترجَّح عندي الظن بان المكان الذي صرت الآن فيهِ ينبغي ان يكون تلك البلاد الموحشة الواقعة بين ممالك ملك مراكش والسودان التي لا يسكنها الا وحوش البرية. وذلك لان السودان كانوا قد تركوها خوفًا من المغاربة وتوغلوا الى الجنوب والمغاربة لم يكونوا يحسبونها تستحق السكن لكونها عقيمةً. ومن جملة ما حمل الفريقين على تركها كثرة النمورة والسباع والذئاب وغيرها من الوحوش الكاسرة المتجمعة فيها. على ان المغاربة كانوا يترددون اوقاتًا اليها طلبًا للصيد فقط فكانوا يذهبون اليها نظير عسكر الفين او ثلثة الاف معًا كل مرة. وفي الحقيقة على مسافة نحو ماية ميل متواصلة على هذا الشاطي لم نكن نرى شيئًا في النهار الا فلاة مقفرة غير مسكونة ولا نسمع شيئًا في الليل الا عجيج وزمجرة وحوش ضارية

وقد تراءى لي مرة او مرتين نهارًا كاني قد رايت بيكو تناريف اي قمة جبل

نناريف في كناريا . فكان امل الوصول الى ذلك المكان يقاتلني بشدة ليحملني على التوغل في البحر فحاولت ذلك مرتين ولكن كانت الرياح المضادة تصدُّني وتدفعني بعزم نحو البر. واذ رايت ان امواج البحر قد تعاظمت وعظمت على فُلكي الصغيرة عزمت على الاخذ ايضًا في طريقي الاولى وعلى ان اداوم السير في جوار البر متسليًا بقول الشاعر

ما كلُّ ما يتمنَّى المرءُ يدركهُ تجري الرياحُ بما لا تشتهي السُفنُ

ثم بعد ما اقلعنا من هذا الموضع اضطرني الامر ان انزل مرارًا الى البر طلبًا للماء العذب . وفي ذات يوم باكرًا جدًّا القينا المرساة قبالة راس صغير من الارض مرتفع قليلاً. واذ كان المد قد ابتدا واخذ البحر يفيض وقفنا قليلاً قاصدين ان نتقدم ايضًا نحو البر. وفيما نحن في هذه الحالة كانت عينا كسار معهُ اكثر مني فدعاني بصوت منخفض وقال الاحسن ان نبعد اكثر عن البر ثم اردف ذلك بقولهِ هوذا بجانب تلك الاكمة الصغيرة وحش هائل رابض وقد استغرق في النوم . وفي الحال التفتُّ الى الموضع الذي اشار اليهِ فرايت وحشًا عظيمًا جدًّا جاثمًا على جانب الشاطي مستظلاًّ في لحف تلك الاكمة فحققت النظر فيهِ فاذا بهِ اسد كبير جدًّا هائل المنظر. فقلت لكسار يجب ان تخرج وتبطش بهِ . فلاحت عند ذلك علامات الخوف على وجه كسار وارتعدت فرايصهُ وقال أَانا ابطش بهِ انهُ يا كلني فمًا واحدًا وهو يعني لقمة واحدة . فكففت عن الكلام مع الولد الا اني قلت لهُ اهدا . ثم اخذت اكبر بارودة عندنا فدككتها دكًّا محكمًا بالبارود ووضعت فيها رصاصتين وسندتها بالقرب مني ثم دككت بارودة اخرى برصاصتين ثم دككت بارودة ثالثة لانهُ كان عندنا ثلث بواريد ووضعت في هذه خمس رصاصات صغار. فوجهت البارودة الاولى توجيهًا محكمًا نحوهُ قاصدًا اصابة راسهِ ولكنهُ كان قد وضع ساقهُ فوق خرطومهِ بقليل فاصاب الرصاص ساقهُ ممَّا يلي الركبة فكسر العظم. فوثب ثايرًا وهمر معربدًا ولكنهُ اذ كانت ساقهُ قد انكسرت سقط الى الارض . ثم طفر واقفًا على ثلث قوايم وهمر همرة من اشنع ما طرق اذني من الاصوات في حياتي . وقد اخذتني

الحيرة من اني اخطات راسهُ. ولساعتي تناولت البارودة الثانية ومع انهُ كان قد اخذ في الانتقال اطلقتها عليهِ فاصابت راسهُ فسقط منطرحًا على الارض يخبط في دمهِ من حلاوة الروح ولم يصوّت الا قليلاً. فتقوت عزايم كسار حينئذٍ وطلب مني ان اسمح لهُ با لتوجه الى البر. فقلت لهُ اذهب. وللحال قفز الى الماءَ وكان يسبح بيدهِ الواحدة وقد قبض بارودة صغيرة بيدهِ الاخرى قاصدًا البر. فلما دنا من السبع وضع فم البارودة في اذنهِ واطلقها في راسهِ وبذلك انتهت حياتهُ

ولكن هذا الصيد لم يفدنا شيئًا لان لحمهُ لا يُوكل. فتاسفت جدًّا على اضاعة البارود والرصاص في حيوان لا ننتفع منهُ شيئًا. الا ان كسار قال انهُ يريد ان ياخذ منهُ شيئًا وطلب مني الساطور. فقلت لهُ وماذا تريد ان تعمل بهِ. فقال اريد ان اقطع راسهُ. الا انهُ لم يستطع ان يقطع راسهُ فقطع رجلهُ واتى بها الى الكوثر. وكانت كبيرة جدًّا. فجال في خاطري ان جلدهُ ربما يفيدنا لامر من الامور فعزمت على سلخهِ اذا امكن. فذهبت انا وكسار واخذنا نشتغل في سلخهِ. وكان كسار امهر مني في ذلك لان معرفتي في امر السلخ كانت قليلة. وبالحقيقة اننا صرفنا النهار كلهُ في معالجتهِ. ولما فرغنا من نزع جلدهِ عن بدنهِ اخذنا الجلد الى الكوثر ونشرناهُ على ظهر قمرتنا في الشمس فجفَّ جيدًا في برهة يومين وفيما بعد استخدمتهُ نظير فراش وكنت انام عليهِ

ثم بعد هذه العاقة اقلعنا وكنا نسير نحو الجنوب من دون انقطاع مدة عشرة ايام او اثني عشر يومًا ونعيش با لتوفير والتقتير لان زادنا كان قد قلَّ جدًّا ولم نعد ننزل الى البر الا اذا اضطرنا الحال الى ذلك لاجل استقاءَ الماءَ العذب. وكان قصدي في ذلك الوصول الى نهر غمبيا او سنيغال اي الى اي مكان كان في جهات راس دي وِرْد حيث كان لي امل ان اصادف مركبًا من مراكب اوروبا لاننا اذا لم نفز بذلك لا يبقى لنا سبيل الا الذهاب الى الجزائر او الهلاك بين السودان. وكنت عارفًا ان جميع المراكب القادمة من اوروبا الى شطوط غوينيا او الى برازيل او الى الهند الشرقي تصل الى ذلك الراس او تلك الجزاير. فعلَّقت

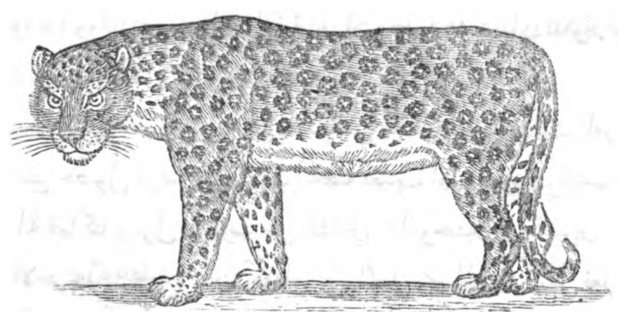
كل آمالي على هذه المادة الوحيدة وهي ان اصادف مركبًا . لانهُ لم يكن لي واسطة للخلاص الا هذه الواسطة فقط

ثم بعد ما سافرنا نحو عشرة ايام الى جهة الجنوب كما تقدم القول ابتدانا نرى ان الارض فيها سكان ورأينا في مكانين او ثلثة اماكن ونحن مارُّون اناسًا واقفين على الشاطي ينظرون الينا فامعنا النظر فيهم فوجدنا انهم سود اللون عراة الجسم . وكنت قد ملت الى التوجه اليهم الى البر ولكن راي كسار كان احسن من رايي فانهُ قال لا نتوجه . الا انني مع ذلك تقدمت قليلاً نحو البر لكي اتكلم معهم فركضوا حالاً من امامنا على الشاطي حتى ابعدوا عنا مسافة . ولاحظت فلم ارَ اسلحة بايديهم ما عدا واحدًا كان بيدهِ عصا طويلة رفيعة قال كسار انها صعدةٌ اي رمح قصير يرمونهُ مسافة بعيدة ويصيبون بهِ . فبقيت بعيدًا منهم وكلمتهم بالاشارات بقدر ما استطعت وطلبت منهم بالاشارة شيئًا للاكل . فاومأُوا اليَّ ان اقف بكوثري فياتوني بشيء من الطعام فوطأْت قلعي واوقفت الكوثر فركض اثنان منهم الى داخل البلاد . ثم في اقلّ من نصف ساعة رجعا ومعهما قطعتان من اللحم اليابس وشي من ذرة تلك البلاد . واما نحن فلم نعلم ماذا كان هذا او ذاك . ومع ذلك ارتضينا ان نقبلها . ولكن كان المشكل في طريقة التوصل اليها لاني لم ارد ان اخاطر بنفسي وانزل الى البر ولا كان خوفهما منا اقلّ من خوفنا منهما . الا انهما استعملا طريقة موافقة لنا جميعًا وهي انهما أتيا بذلك الى الشاطي ووضعاهُ على الرمل وذهبا ووقفا بعيدًا جدًّا مع البقية الى ان اخذنا هديتهما الى الكوثر ثم رجع القوم فدنوا منا ايضًا

فشكرناهم على معروفهم ولم يكن عندنا شيءٌ نكافيهم بهِ على ذلك المعروف . الا انهُ اتفق حصول فرصة في تلك اللحظة بعينها لعمل معروف عجيب معهم . وذلك انهُ فيما كنا لم نزل بالقرب من الشاطي اذا بوحشين كاسرين يطارد احدهما الاخر بجدَّة عظيمة نازلين ركضًا من الجبل نحو البحر . ولم نكن نعلم افعلا ذلك لعبًا ام غيظًا وأَ هو امر اعتيادي ام غير اعتيادي . ولكن ترجح عندي

الظن بانهُ غير اعتيادي وذلك اولاً لان هذه الوحوش الضارية يندر ظهورها نهارًا. ثانيًا لاننا وجدنا السودان قد خافوا منها جدًّا ولاسيما النساء. فالذي كان معهُ الرمح لم يهرب منها واما الباقون فانهم هربوا جميعًا ولكن بما انهما دخلا حالاً في الماء ظهر انهما لم يقصدا الهجوم على احد السودان. ثم غاصا متوغلين في البحر واخذا يسبحان ذات اليمين وذات اليسار كأنهما كانا قاصدين التروُّض والتنزُّه. ثم اخذ احدها يتقدم نحو كوثرنا. وكنت قد تهيات لهُ مستعدًا ان اقابلهُ بالرصاص. وكنا قد دككنا جيدًا البواريد الثلث التي عندنا. فلما صار مني على مسافة مرمى رصاصٍ اطلقت البارودة عليهِ فاصابت راسهُ فغطس حالاً في الماء ثم طفا عائمًا وكان يغوص تارةً ويعوم اخرى كأنهُ في حالة النزاع. ثم رجع على عقبيهِ قاصدًا البر الا انهُ بسبب الجرح المميت الذي اصابهُ وما دخل جوفهُ من المياه مات قبلما ادرك الشاطي

ولا يمكن وصف ما حصل عند اوليك السودان المساكين من العجب والحيرة عند ما سمعوا صوت بارودتي وراوا نارها. فكاد البعض يموتون خوفًا وقد سقط البعض على الارض مغشيًا عليهم من شدة الرعب. ولكن لما راوا ذلك الوحش الهائل قد مات وغرق في الماء تشجعوا واشتدت عزايمهم فاشرت اليهم ان ياتوا الى الشاطي فاتوا واخذوا يفتشون على جثة ذلك القتيل. فوجدتهُ لهم مستدلاً عليهِ من مياه البحر التي كانت قد صُبغت بدمهِ وربطتهُ من وسطهِ بحبلٍ سلمتهم طرفهُ فجرُّوهُ بهِ الى الشاطي. ولما امعنت النظر فيهِ وجدت انهُ نمر غريب في



منظرهِ وتبقُّعهِ وطول ذنبهِ وازبئرار شاربيهِ وظرافة لونهِ. واما السودان فانهم

رفعوا ايديهم نحو السماء متعجبين جدًّا من هذه الحادثة المستغربة ومن الآلة التي استعنت بها على قتلهِ. واما الوحش الآخر رفيقهُ فلما راى نار البارودة وسمع صوتها هرب خوفًا سابحًا الى البر وما صدق ان وصل الى الشاطي حتى اخذ يعدو راكضًا الى مغارهِ في تلك الجبال. ولم يمكنني ان اعرف أكان نمرًا نظيرهُ ام من جنس آخر من الوحوش وذلك لبعدهِ القاصي عني

ثم لاح لي ان اولئك السودان كانوا يريدون ان ياكلوا لحم ذلك النمر فاكرمت عليهم بهِ معروفًا مني اليهم فقبلوهُ بالشكر الجزيل والفرح واخذوا في الحال يشتغلون فيهِ. واذ لم يكن معهم سكين سلخوهُ بقطعة خشب حادة باوفر سرعة وسهولة مما يمكننا ان نعملهُ نحن بواسطة سكين. ولما انتهوا من سلخهِ واخذوا في تقطيعهِ عرضوا عليَّ قطعة من اللحم فابيت قبولها متظاهرًا باني اريد ان اوفّرها لهم الا اني اشرت اليهم باني اريد الجلد فاعطوني اياهُ حالاً بكل رضى وقبول. ثم اعطوني معهُ كثيرًا من زادهم فقبلتهُ منهم شاكرًا الا اني لم اكن اعلم ما هو. ثم طلبت منهم ماء قالبًا فم جرتي الى اسفل وقاعدتها الى اعلى اشارةً الى انها فارغة والى اني اريد ان يملأوها. فنادوا حالاً بعض اصحابهم واذا بامراتين قد اقبلتا ومعهما وعاء كبير من فخار كانهُ خابيةٌ قد شُويت بالشمس كان مملوًّا ماء. فوضعوا ذلك على حافة البحر كما فعلوا قبلاً فارسلت الولد كسار بجرارنا الثلث فملأهنَّ ورجع بهنَّ الى الكوثر. وكانت النساء عريانات بالكلية كما كانت الرجال

فصار عندنا الآن قلقاس وذُرَة وان تكن ردية وماء. ثم ودَّعت اصدقاءي السودان واخذت اسير ليلاً ونهارًا مدة عشرة ايام من دون انقطاع حتى اقبلت على راس من الارض قد امتد الى مسافة بعيدة في البحر وكان مني على بعد نحو اربعة او خمسة فراسخ واذ كان البحر اذ ذاك هاديًا رايقًا ابعدت عن الشاطي متوغلاً فيهِ لكي احيد عن ذلك الراس. واذ ملكت الراس وصرت على مسافة نحو فرسخين عن البر اشرفت على ارض على جانبهِ الاخر الى جهة البحر فتحققت ان ذلك الراس هو كاب دي ورد اي راس الخضراء وان تلك الارض هي الجزائر

المسماة جزائر كاب دي ورد . وكانت لم تزل بعيدة جدًّا . فوقعت عند ذلك في حيرة عظيمة واخذت افكار الياس والتضجر تقاتلني وكنت اقول انهُ اذا قامت عليَّ عاصف فربما لا يتيسَّر لي الوصول ابدًا الى احد الاماكن المذكورة

وفيما كنت غايصًا في بحار التفكر ومترددًا مرتبكًا في امري لا اعلم ماذا اعمل طلبت نفسي الاختلاء والانفراد فدخلت القمرة تاركًا الدفة بيد الغلام كسار وجلست هناك متوحدًا كئيبًا منكسر الخاطر كاسف البال . ولكن لم يمضِ الا قليل حتى صاح بي كسار بغتةً قايلاً بصوت مهموس مرتعد يا معلمي يا معلمي هوذا مركب بقلعٍ . وكان المسكين يظنُّ بجهل ان ذلك المركب هو احد مراكب مولاهُ قد أُرسِل في طلبنا فخاف خوفًا شديدًا . واما انا فلم يخطر ببالي شيء من ذلك لاني كنت عارفًا باننا قد ابعدنا ولم يبقَ علينا خطر من ان تدركنا . فلما سمعت صوتهُ خرجت على الفور من القمرة وتطلعت فابصرت حالاً ذلك المركب وعرفت ما هو . اي انهُ مركب برتوغاليٌّ متوجهٌ كما لاح لي الى شطوط غوينيا في طلب العبيد . ولكن لما امعنت النظر في حركة جريهِ ايقنت في الحال بانهُ قاصدٌ جهةً اخرى فاخذت اسير بقدر ما يمكنني من السرعة لعلي ادركهُ لاني كنت اريد ان اواجه رئيسهُ واكلمهُ قليلاً اذا تيسَّر لي ذلك

وكان ذلك المركب يسرع في جريهِ فخال لي اني مع كل جدي وجهدي وسرعة كوثري لا اقدر ان ادركهُ وانهُ لا بد من ان يتوارى عن نظري قبل ان ارفع لهُ علامة الاستغاثة والضيقة . ولا اقدر ان اصف ما حاق بي من القنوط والياس في تلك الساعة . ولكن الظاهر انهُ حانت منهم التفاتةٌ فراونا وظهر لهم بواسطة النظارة ان كوثرنا اوروبويٌّ وانهُ ربما كان مختصًا بمركب قد ضيّع . فخففوا القلوع واخذوا يسيرون الهُوَينا لكي يمكننا ان نصل اليهم . فسررت واشتدت عزائمي عندما رايت ذلك ونشرت لهم راية كانت لمولاي وقد بقيت في الكوثر واطلقت بارودة علامةً للضيقة . واخبروني فيما بعد انهم راوا الراية ودخان البارودة الا انهم لم يسمعوا صوت البارود . وعند ما راوا هاتين العلامتين اوقفوا المركب في وسط البحر

واقاموا هناك في انتظارنا الى ان ادركناهم بعد ذلك بثلث ساعات من الزمان
وعند ذلك حدثوني بلسان البرتوغال فلم افهم ثم بلسان صبانيا فلم افهم ثم بلسان فرنسا ولا بهذا فهمت. واتفق انهُ كان في المركب رجل من سكوتلند فاتى اليَّ وناداني فاجبتهُ وقلت لهُ انا رجل انكليزي واخبرتهُ باني قد كنت في سلّي اسيرًا بيد المغاربة فافلتُّ منهم حتى صرت الى هنا. وعند ذلك طلبوا اليَّ ان اطلع الى المركب فطلعت فترحبوا بي وحيّوني بالسلام وقبلوني بكل معروف واكرام واطلعوا كل ما كان لي من الامتعة والادوات ووضعوها في المركب بالحفظ والامان. ولا حاجة الى القول ان نجاتي هكذا من تلك الحالة التعيسة التي كنت فيها كانت لي وكنت احسبها دائمًا سبب شكر وفرح لا يُوصَف
وحالما صرت على ظهر المركب عرضت كل ما املكهُ على رئيسهِ مترجيًا اياهُ ان يقبلهُ مني وفاءً لجزء من معروفهِ نحوي بانقاذهِ اياي. فابى قبول ذلك تكرمًا وقال انهُ لا ياخذ مني شيئًا بل انما يحفظ لي كل ما لي حتى اذا وصلت الى برازيل يسلّمني اياهُ تمامًا. ثم اردف ذلك بقولهِ اني خلصت حياتك على نفس الشروط التي عليها اريد ان الآخرين يخلصون حياتي اذا اصابني لا سمح الله ما اصابك. وربما اتفق ان يكون نصيبي في احد الاوقات ان أُقبَل في نفس الحالة التي قبلتك فيها. وعدا ذلك اذا اخذت منك كل ما تملك يدك فاذا وصلت بك الى برازيل التي هي على بعد قاصٍ من بلادك فانك تموت هناك جوعًا وماذا اكون قد عملت حينئذٍ الا اني اكون كاني قد اعدمت الحيوة التي اوجدتها. لا يا سنُّور انكليز لا يا سنُّور انكليز. اني اخذك الى هناك رحمةً واحسانًا. والاشياء التي لك تبقى تحت تصرفك فتستخدمها لمشترى ما يقوم بهِ اودك ولدفع اجرة المركب الذي سترجع فيهِ الى وطنك

ربما طوى القلوع لكي تُرى الراية والدخان

الفصل الرابع

سفر روبنصن كروزي الثاني في البحر وانكسار المركب بهِ

وان ذلك الرئيس كان على جانب عظيم من الاستقامة والوفاء كما كان من المعروف وكرم الاخلاق. فانهُ تمم كل ما وعدني بهِ من دون ادنى خللٍ ولا تقصير. ونبَّه على ملاَّحيهِ ان لا يمسّوا شيئاً من امتعتي ووضع يدهُ على كل شيءٍ لي وسلمني قايمة مدققة بمفرداتهِ بالتفصيل من دون ان يغفل عن ذكر شيءٍ حتى ولا عن ذكر الجرار الثلث الخزفيَّة

ولمَّا كان يعلمهُ من حسن كوثري وجودتهِ طلب ان يشتريهُ مني لاجل خدمة مركبهِ. فسالني عن ثمنهِ فقلت لهُ اني لا اريد ان اطلب منهُ ثمناً معيَّناً بعد كل ما ابداهُ نحوي من المعروف والكرم بل انما اترك المادة لمعرفتهِ وارادتهِ. فقال انهُ يعطيني بهِ سفتجةً قيمتها ثمانون قطعة من الثمانية تُدفَع لي في برازيل. وانهُ متى وصل الكوثر الى هناك فاذا تقدم مشترٍ ودفع اكثر من ذلك يعطيني الفرق مهما كان. وهكذا تمَّمنا عقد المبيع. ثم عرض عليَّ ستين قطعة من الثمانية ثمناً لغلامي كسار فابيت القبول كارهاً ذلك لا لاني لم ارد ان اعطيهُ اياهُ بل لاني كنت اكره جدًّا بيع حرية هذا الولد المسكين الذي ساعدني بامانة هذا مقدارها في امتلاك حريتي ونجاتي من الاسر. فلما بيَّنت هذا السبب للرئيس عذرني واقرَّ بانهُ سبب مقبول. ثم قال انهُ يوجد طريق متوسط وهو انهُ يعطيهِ صكًّا باطلاق سبيلهِ وعتاقهِ في مدة عشر سنين اذا صار مسيحيًّا. واذ رايت ان كسار مائل اليهِ وراضٍ ان يذهب معهُ اجزت لهُ البيع على الشرط المذكور

وكان سفرنا الى برازيل هيناً لطيفاً. فبعد نحو اثنين وعشرين يوماً وصلنا الى موضع يقال لهُ بلسان البرتوغال كاب دي تودوس لوس سنتوس اي مينا جميع القديسين. فلما صرنا هناك قلت في نفسي ها قد نجوت من حالة هي اشقى ما يوجد في الحيوة والآن ماذا ينبغي لي ان اعمل فيما ياتي

ولا اقدر ان انسى معروف ذلك الرئيس نحوي ما دمت حيًّا. فانهُ ابى قبول شيءٍ اجرةً للمركب واعطاني عشرين ريالًا ثمن جلد النمر واربعين ريالًا ثمن جلد السبع. وحال وصولنا امر بتسليم كل ما لي في المركب واشترى مني ما اردت بيعهُ من امتعتي كصندوق القناني وبارودتين وما بقي عندي من الشمع وبالاجمال اقول اني بعت كل وسقي فبلغت قيمتهُ نحو مايتين وعشرين قطعة من الثمانية. وكان هذا راس مالي عند نزولي الى البر في برازيل

وبعد ما اقمت مدة في برازيل عرَّفني الرئيس برجل صالح امين صادق نظيرهُ كان لهُ حقل ومعمل للسكر فاقمت عندهُ مدة تعلمت فيها زرع قصب السكر وكيفية استخراجهِ. وكنت ارى الفلاحين على جانب عظيم من الراحة والرغد وان كثيرين منهم يصيرون اغنياء في وقت قصير فعزمت ان اسكن بينهم واكون فلّاحًا زرّاعًا نظيرهم اذا أُذِن لي بذلك. وكنت في هذه الاثناء اجتهد في ايجاد طريق لجلب ما كان لي في لندن من النقود. واستنادًا على ذلك بعد ما حصَّلت كتابة تعلن باني قد نُظِمت في سلك التبعة اشتريت اراضي بقيمة ما كنت انتظرهُ من المال واخذت ادبّر طريقة للزرع والسكن بقدر ما كنت احسب انهُ سياتيني من لندن من النقود

وكان لي جار من لسبون من اعمال البرتوغال قد وُلِد من ابوين انكليزيين يقال لهُ وِلْس وكان في حال كحالي تقريبًا. وقد دعوتهُ جاري لان ارضهُ كانت لصيق ارضي. فكنا نصرف اوقاتًا معًا بالانس والحظ. وكان راس مالي كراس مالهِ قليلًا زهيدًا. وقد اقتصرنا في مدة نحو سنتين على زرع اشياء للاكل فقط. الا اننا اخذنا في الزيادة شيئًا فشيئًا. وكانت ارضنا تتحسَّن وتزيد عمارًا حتى زرعنا في السنة الثالثة شيئًا من التبغ اي التتن واخذ كلٌّ منا يهيئ قطعةً من ارضهِ لزرع قصب المصّ او السكر في السنة المقبلة. غير اننا كلينا كنا في حاجة الى من يساعدنا. فاخذت اتاسف على ما فرط مني من الخطا في سماحي بغلامي كسار

ولكن وا اسفاهُ ان ارتكاب الخطا ممَّن هو مثلي لم يات قط صوابًا ليس بامر

نادرٍ ولا عجيب. الا انهُ لم يكن لي سبيل الا التجلد والثبات. فاني دخلت في عمل منافٍ جدًّا لميلي الغريزي ومضادٌ على خطٍ مستقيم للعيشة التي تروق لناظري وقد تركت حبًّا بها بيت ابي رافضًا كل نصائح امي الصالحة. وقد وضعت قدمي الآن على اول درجة من سلَّم الحالة المتوسطة او الطبقة العليا من العيشة الدنيا التي كان ابي قد اشار عليَّ بها فلم اقبل مشورتهُ ولو رضيت بها لكنت الى الآن باقيًا في البيت ولما كنت كابدت ما كابدتهُ من الاتعاب والمصائب التي مرَّت براسي. وكثيرًا ما كنت اناجي نفسي والومها قائلاً انهُ كان يمكنني ان اتعاطى اعمالاً كهذه في انكلترا بين معارفي واصدقاءي ولم تكن لي حاجة الى الابتعاد مسافة خمسة آلاف ميل لكي اتعاطاها بين اقوام غرباءَ برابرة وذلك في البرية في مكان بعيد لا يمكنني ان اسمع فيهِ شيئًا من معارفي ولا عنهم

وهكذا كنت انظر الى حالي متاسفًا جدًّا. ولم يكن لي من يكلمني الا هذا الجار وذلك احيانًا فقط. ولم يكن لي عمل اعملهُ الا بكدِّ يدي. وكنت اقول ان عيشتي اشبه بعيشة رجل قد أُلقِي في جزيرة موحشة مقفرة لا ساكن فيها غيرهُ. وكم كان ذلك بكل استحقاقٍ وعدلٍ. وان الله بعنايتهِ الفايقة قد يضطر الذين يقايسون حالتهم بمن هم في حالة اردا الى البدل وذلك لكي يقنعوا بواسطة اختبارهم بانهم كانوا في حالة سعيدة. نعم كم كنت استحق بعدل ان يكون نصيبي ما كنت اتامل فيهِ من امر المعيشة الموحشة حقًّا في جزيرة مقفرة وقد قايست بهِ مرارًا كثيرة مقايسةً غير عادلة العيشة التي كانت لي حينئذٍ والتي لو ثبتُّ عليها لكنت الآن ناجحًا جدًّا وغنيًّا

وكنت قبل سفر صديقي الودود رئيس ذلك المركب الذي كان واسطة لنجاحي قد عزمت على مداومة امر الزراعة. وبقي المركب هناك نحو ثلثة اشهر مشتغلاً في تدبير وسقهِ والاستعداد للسفر. ولما كاشفت الرئيس بما في خاطري من امر جلب المبلغ الزهيد الذى لي في لندن اشار عليَّ مشورة صديق مخلص قال يا سنيور انكليز لانهُ كان دايمًا يدعوني هكذا اذا اعطيتني كتابات ووكالة شرعية

واوامر الى الشخص الذي وضعت مالك بيدهِ في لندن طالبًا منهُ ان يرسل باموالك الى لسبون الى يد من اعينهُ انا لهُ بضاعةً تناسب سوق هذه البلاد فاني ان شآء الله تعالى آتيك بها عند رجوعي. ولكن بما ان جميع مصالح الناس هي دايماً خاضعة لتقلبات واخطار كثيرة رايي عليك ان تطلب هذه المرة ما يساوي ماية ليرا سترليني فقط وذلك هو كما فهمت منك نصف مالك. فتخاطر اولاً بهذا النصف فاذا وصل سالمًا تطلب ما بقي على هذا المنوال واذا لا سمح الله فقد يكون النصف الآخر سالمًا تستند عليهِ في امر معيشتك. وكانت هذه النصيحة جيدة جدًّا وموعبة خلوصًا وامانة حتى انهُ لم يكن لي سبيل الا الاقتناع بانها احسن طريق لي. فباشرت حالاً في تهيئة مكاتيب الى الشخص الذي ابقيت مالي بيدهِ ووكالة للرئيس البرتوغالي طبق مرغوبهِ

وكتبت الى ارملة المرحوم الرئيس الانكليزي قصة مستوفية عن اسفاري واسري وهربي ومصادفتي للرئيس البرتوغالي في البحر وما انطوت فوادهُ عليهِ من الحق والوداد وعن حالتي الحاضرة مع ما اقتضاهُ الحال من الافادات المتعلقة بامر لوازمي . فلما صار ذلك الرئيس الامين في لسبون دبَّر طريقة عن يد تجار هناك من الانكليز لارسال ذلك الامر مع اخبار مستوفية عما حدث لي الى تاجر انكليزي في لندن. وان ذلك التاجر اوصل تلك الكتابات الى الارملة المذكورة وهي في الحال سلمتهُ المبلغ المطلوب واضافت اليهِ هدية لطيفة من مالها ارسلتها للرئيس البرتوغالي مكافاةً لهُ عن معروفهِ نحوي

فاشترى ذلك التاجر بالماية ليرا بضايع انكليزية كان الرئيس البرتوغالي قد عيَّنها لهُ وارسلها الى لسبون ومن هناك اتى بها الرئيس اليَّ الى برازيل. وكان من جملتها كل ما يلزم للفلاحة والزراعة من الادوات والآلات الحديدية ممَّا كتب الرئيس في طلبهِ من دون علمي ولا طلبي. لاني اذ كنت مبتديًا في هذه الصناعة فان امورًا كهذه لم تكن تخطر ببالي. فلما وصلت البضاعة كدت اطير فرحًا وقلت ان سعدي قد تمَّ. وان الرئيس خازني الصالح استخدم الهدية التي ارسلتها لهُ صديقتي

ارملة المرحوم مكافاةً على معروفهِ وقدرها خمس ليرات انكليزية في استيجار وجاب خادم لي عقد معهُ شرطًا وربطهُ بكونتراتو اي شرطيةٌ على مدة ست سنين . ولم يرد ذلك الرئيس ان يقبل شيئًا من المكافاة على معروفهِ الا انهُ قبل مني قليلاً من التبغ جبرًا لخاطري لانهُ من اثمار ارضي ونتايج كدّي وعملي . ولما كانت جميع بضايعي انكليزية من اجواخ واقمشة واشيات وما اشبه مما يعتبرهُ الاهالي ويرغبونهُ جدًّا صادفتْ سوقًا رائجًا بينهم فبعتها بسرعة وربحت بها ارباحًا وافرة جدًّا حتى صار عندي اربعة اضعاف ارساليتي الاولى وصرت احسن جدًّا من جاري ذلك المسكين وذلك في امر الزراعة . ثم اول شيء عملتهُ بعد هذا النجاح هو اني اشتريت عبدًا زنجيًّا واستاجرت خادمًا انكليزيًّا وذلك غير الخادم الذي اتاني بهِ الرئيس من لسبون

ولا يخفى انهُ من شان اساءَة التصرف في النجاح ان تكون مرارًا كثيرة واسطة لجلب عكسهِ . وهكذا كان الحال معي . ففي السنة التالية كانت اشغالي ناجحة وزراعتي مخصبة . وكان من جملة محصولات ارضي في ذلك الموسم ماية ربطة كبيرة من التبغ الجيد غير ما كنت قد وزعتهُ سدًّا لقاطعية الجيران . وهذه الخمسون ربطة وكان وزن الواحدة منها اكثر من اربعين اقة كنت قد حزمتها حزمًا محكمًا متقنًا وهيّاتها للشحن عند رجوع المراكب من لسبون . واذ كانت اشغالي قد زادت وثروتي قد كثرت اخذ الآن راسي يمتلي من المهامّ والاعمال التي فوق طاقتي ممّا يكون حقًّا مرارًا كثيرةً واسطة لتعطيل وتشويش احسن العقول في الاشغال . فلو ثبتُّ في الحالة التي كنت الآن فيها لكان عندي محلٌّ لقبول كل ما يعرض لي من الامور الحسنة التي جزم ابي بانها تقتضي حيوة هادية منفردة وقال بصواب ان العيشة المتوسطة هي مملوةٌ منها . الا انهُ عرض لي امور اخرى . فاني كنت مزمعًا ان اجلب بيدي جميع مصايبي ونكباتي . ولكي ازيد جرم ذنبي واضاعف على نفسي سهام اللوم التي لا بدّ من ان تكون لي فرصة ارشقها بها عند وقوعي في تجاريب ومصائب مستقبلة قد حصلت لي كل هذه الامتحانات بواسطة

اصرارٍ بعناد عنيدٍ على ميلي الاحمق الذي هو ضدٌّ لكل ما عرض لي من الافكار التي كانت ترشدني الى الوسايط المحللة لاكتساب الخير لنفسي باتباعي برصانة وبساطة اثار تلك المقاصد والاعمال التي اتفقت الطبيعة والعناية على تقديمها لي وجعلها من واجباتي

واذ كنت قد فعلت هكذا مرةً قبلاً عند ما خلعت طاعة والديَّ ونبذت مشورتهما لم اكن استطيع الآن ان اقنع راضياً بحالتي . بل صارت افكاري تقاتلني لكي اذهب تاركاً ما كان لي من الامل السعيد بان اصير غنياً ناجحاً في مصلحتي الجديدة . وما ذلك الا لكي اتبع ما كان متمكناً في قلبي من الميل المنحرف العاري عن الحكمة والاعتدال ومن الرغبة في الارتقاء الى اعلى درجات السعادة بسرعة اسرع مما تسمح بهِ طبيعة الامور . وهكذا دهورت نفسي ثانية الى اعمق وهدة سقط فيها انسان من الشقاوة البشرية او مما لا يمكن ان يكون موافقاً لحسن العيشة وحالة الصحة في العالم

فلكي اصل بك بالتدريج الواجب الى تفاصيل هذا القسم من قصتي اقول . اني اذ كنت قد صرفت نحو اربع سنين في برازيل وكنت مفلحاً في اعمالي وناجحاً في زراعتي تعلمت لغة تلك البلاد وتعرفت بابناء صناعتي وتمكنت رباطات الالفة والصداقة بيني وبينهم وبين تجار سنت سلوادور وهي مينا بلدنا . وكثيراً ما قصصت على القوم اخبار سفري مرتين الى غوينيا واخبرتهم بكيفية الاخذ والعطاء مع السودان هناك وكيف يقدر المتسبب ان يشتري منهم بثمن بخس او باشياء دنيَّة نظير مسابح ولُعَيبات وسكاكين ومقصَّات وبلطات وقطع زجاج وما اشبه ذلك التبر والقطاني واسنان الافيال والعبيد ايضاً بكثرة لاجل خدمة اهالي برازيل

فكانوا يسمعون باصغاءٍ تامٍ ورغبةٍ شديدة خطبي عن هذه الموادّ ولاسيما ما يتعلق منها بتجارة الزنوج اي السودان . وذلك لان امر الاخذ والعطاء بالعبيد لم يكن ممتداً كثيراً في تلك الايام وعدا ذلك كان يلزمهُ رخصة من ملكي اصبانيا والبرتوغال ولم يكن حائزاً القبول عند الجمهور . ولهذا قلما كنت ترى

زنجيًّا يباع واذا بيع فان ثمنهُ يكون باهظًا جدًّا

واتفق اني كنت ذات يوم مجتمعًا بتجار وفلاحين من معارفي اكلّمهم بحرارة عن هذه الامور فاتى اليَّ ثلثة منهم في غد ذلك اليوم وقالوا انهم قد تاملوا كثيرًا في الليل الماضي في ما خاطبتهم بهِ فاتوا لكي يعرضوا لي امرًا سرًّا. فوعدتهم وعدًا وثيقًا بحفظ السر وقلت لهم قولوا ما بدا لكم. فقالوا اننا قاصدون ان نجهز مركبًا ونذهب بهِ الى غوينيا واذ كان لنا كما لك حقول واراضٍ لسنا بمحتاجين الى شيءٍ اكثر من الخُدَّام والعبيد. ولكن هذه التجارة لا يمكن معاطاتها ومداومتها. وذلك لاننا لا نستطيع ان نبيع الزنوج جهارًا عند رجوعنا الى بلدنا ولهذا نرغب ان نسافر مرة واحدة فقط ونأتي بالزنوج الى الشاطي سرًّا ومن هناك نفرقهم على مزارعنا. وبالاختصار ان المسئلة هي هل تريد ان تذهب معنا في وظيفة ناظر على وسق المركب ومباشر امر الشرآء على شطوط غوينيا. فاذا فعلت ذلك فاننا نعطيك سهمًا من الزنوج كواحد منا من دون ان نقدم شيئًا من راس المال

ولا يُنكَر ان ذلك امر مناسب لكل من لم يكن لهُ مقرٌّ ولا مزروعات يلزمهُ الاهتمام بها وهي في طريق النمو والزيادة الى درجة معتبرة جدًّا وقد كلفتهُ مبالغ جسيمة. واما من كان نظيري فان افتكارهُ بهذا السفر هو من اشر الامور التي يمكنهُ الافتكار بها. وذلك لاني كنت قد دخلت في الشغل وتمكنت فيهِ ولم يبقَ عليَّ الا الثبات فيهِ ومداومة ما ابتدات بهِ مدة ثلث او اربع سنين أُخَر وان ارسل فاستحضر من لندن المائة ليرا الباقية. ولو فعلت هذا الامر لكنت في ذلك الوقت مع تلك الزيادة القليلة قد صرت لا محالة صاحب ثلثة او اربعة آلاف ليرا سترليني وذلك تحت امل الزيادة ايضًا

الا اني اذ كنت لم أُولَد الا لكي اكون باحثًا على حتفي بظلفي وجالبًا تلفي بيدي لم استطع ان ادفع ما عُرِض عليَّ رافضًا قبولهُ كما اني لم اقدر ان اضبط اوهامي السخيفة عند ما ضاعت فيَّ نصيحة ابي. فاجبت الى مسئولهم وقلت لهم اني اذهب بكل قلبي اذا تعهدوا لي بانهم يناظرون في غيابي على اراضيَّ واملاكي

واذا لم ارجع من سفرتي يسلمون ذلك لمن اعيّنهُ لهم . فاجابوا الى ذلك بالرضى والقبول وكتبوا على انفسهم صكوكًا شرعية طبق مرغوبي . وعند ذلك اخذت انا القلم وكتبت وصية مستوفية الشروط الشرعية ادرجت فيها كل اعراضي وعقاراتي مصرحًا باني اذا متُّ لا سمح الله يكون الرئيس الذي خلَّص نفسي من الموت وريثًا لي في كل ما املكهُ ما عدا نصف محصولات ارضي فاني اشرطت على الرئيس المذكور ان يرسلهُ الى انكلترا . وبالاختصار عملت كل الاحتياطات اللازمة لصيانة اعراضي وعقاراتي . ولو نظرت الى صالحي بنصف هذا المقدار من الحكمة وتبصرت برصانة في ما ينبغي لي عملهُ او تركهُ لما تركت قط هذا العمل الناجح وهذه الآمال القوية طلبًا للسفر في البحر الذي لا يخفى ما يحيق بهِ عادةً من الاهوال والاخطار فضلاً عن الاسباب التي كانت لي لانتظار مصائب خصوصيَّة لذات شخصي

فركبت جناح العجلة في هذا الامر واطعت بغباوةٍ اشارات تخيلاتي دون حكم عقلي . واذ كان المركب قد تجهز وصار الوسق كاملاً وتم شركاءي في السفر كل شيء بحسب الاتفاق ركبت ظهر ذلك المركب في ساعة نحس ايضًا وذلك في اليوم الاول من شهر ايلول سنة ١٦٥٩ وهو نفس اليوم الذي فارقت فيهِ قبل ذلك بثمان سنين والديَّ في هول مرتكبًا العصيان على سلطتهما ومتصرفًا بحماقةٍ ضد صالحي

وكان محمول مركبنا نحو الف واربعماية وعشرين قنطارًا وستة مدافع وعدد رجالهِ اربعة عشر رجلاً ما عدا الرئيس وابنهُ والعبد الفقير . وكان الوسق خفيفًا مولفًا من اشياء كثيرة العدد خفيفة الحمل والقيمة نظير مسابح وقطع زجاج وصدف ومرايات صغيرة ومقصَّات وبلطات وما اشبه ذلك

وفي اليوم الذي دخلت فيهِ المركب اقلعنا وركبنا جناح السفر قاصدين شطوط افريقية . وكان الهواء جيدًا جدًّا الا انهُ كان حارًّا في الغاية في كل الطريق التي على شطوطنا . وما زال الهواء جيدًا الى ان وصلنا الى راس سنت اوغوسطين . وعند ذلك اخذنا نبعد متوغلين في البحر الى ان توارت عنا اليابسة وكنا نسير كاننا قاصدون جزيرة فرنندو دي تورونا . ولم نزل نسير في هذه الطريق مدة

اثني عشر يوماً الى ان جزنا الخط وصرنا بحسب حسابنا الاخير في سبع درجات واثنتين وعشرين دقيقة من الطول الشمالي. وفيما نحن هناك اذا بعاصفٍ او زوبعةٍ هائلة جدًّا قد ثارت علينا بغتةً من الجنوب الشرقي ممتدة الى الشمال الغربي حتى رسخت في الشمال الشرقي واخذت تهبُّ ثايرة من هناك بطريق مخيف جدًّا . فاقمنا مدة اثني عشر يوماً لا نقدر ان نعمل شيئاً الاَّ ان نجري راكضين امامها ونسلّم امرنا لها لتحملنا الى حيثما ارشدت التقادير ودفعت فتنة الرياح. ولا حاجة الى القول اني كنت كل يوم انتظر ان لجج البحر تبتلعني ذاهبة بي الى دركات الجحيم وكذلك لم يكن لاحد من ارفاقي في المركب امل بنجاة نفسهِ

واذ كنا في هذه الضيقة العظيمة وتحت تلك المخاطر والاهوال تُوُفّي واحد من بحريتنا بحمَّى خبيثة وقذفت الامواج رجلاً وولدًا من جماعتنا عن ظهر المركب الى لجج البحر. وفي اليوم الثاني عشر تقريبًا سكن النوُّ قليلاً فعمل الرئيس حسابًا على قدر امكانهِ فوجد اننا كنا في نحو احدى عشرة درجة من الطول الشمالي وفي طول اثنتين وعشرين درجة الى جهة الغرب من راس سنت اوغوسطين. فراى انهُ صار على شاطي غويانا او القسم الشمالي من برازيل عبر نهر امازون الى جهة نهر اورنوكو المعروف غالبًا بالنهر الكبير. فاستشارني ماذا يعمل واين يتوجه وقال ان المركب قد دخلهُ ماء وضعفت قوتهُ جدًّا . واراد ان يرجع على خط مستقيم الى شاطي برازيل . فقاومتهُ في رايهِ واخذت اراجع معهُ خارطة شطوط امركا فوجدنا انهُ لا يوجد بلاد عامرة نلتجي اليها الا بعد وصولنا الى دايرة جزاير كاريبي ولذلك اطبق راينا على ان نقصد بربادو وقلنا اننا اذا بقينا بعيدين عن البر هربًا من خليج مكسيكو فربما وصلنا الى هناك في نحو خمسة عشر يومًا . هذا ولم يكن ممكنًا لنا ان نسافر الى شطوط افريقية من دون مساعدة لنا ولمركبنا

وعلى ذلك غيَّرنا طريقنا واخذنا نسير نحو غربي الشمال الغربي قاصدين بعض جزائرنا الانكليزية حيث كان لي امل بالامداد . الاَّ ان حوادث الدهر قدرت لنا سفرًا آخر. فاننا فيما كنا في طول اثنتي عشرة درجة وثمان عشرة دقيقة

قام علينا نوءٌ اخر حملنا بعنف شديد كالذي قبلهُ الى جهة الغرب ودفعنا طاردًا ايانا من طريق كل تجارة بشرية حتى اننا لو خلصنا جميعًا من غضب البحر كان علينا خطر من ان نكون فريسة للبرابرة اكثر مما كان لنا امل بالرجوع الى بلادنا

وبينما نحن في هذه الضيقة والريح تهبُّ بعزم وتصفر صفيرًا هائلاً كان واحد من بحريتنا قد خرج عند الصباح باكرًا فاذا بهِ يقول برٌّ برٌّ . وما صدقنا ان سمعنا هذه الكلمة الحلوة حتى خرجنا من القمرة مسرعين لكي نتطلع فنرى اين مركزنا الآن من الدنيا . ولكن لم يمضِ الا كلمحة بصر حتى صدم المركب الرمل فسكنت حركتهُ فجاةً . فاخذت الامواج والتيارات تهجم عليهِ منفجرة على ظهرهِ بهيئةٍ هائلة جدًّا . فايقنَّا عند ذلك باننا جميعًا هالكون لا محالة . وهربنا في الحال من وجه تلك التيارات الى مخادعنا نستظلُّ فيها من رشقاتها وهجماتها

وليس امرًا سهلاً لمن لم يكن في حالة كهذه ان يصف او يدرك ما يحلُّ بالانسان من الرعب والارتباك في مثل هذه الاحوال . فلم نكن نعلم اين نحن ولا ما هي الطريق التي دُفِعنا اليها . وهل تلك جزيرة او برٌّ . وهل المكان مسكون ام غير مسكون . واذ كانت الريح لم تزل هائجة وقوية وان تكن اقلَّ مما كانت اولاً لم يكن لنا باب للامل بان المركب يبقى دقايق كثيرة من دون ان يتكسر قطعًا قطعًا الا اذا كانت الريح تتحول حالاً بنوع عجيب الى جهة اخرى . وبالاختصار اقول اننا جلسنا ننظر بعضنا الى بعض متوقعين في كل دقيقة حلول الاجل . وهكذا كان كل واحد كانهُ يستعد لعالم آخر . لانهُ لم يبقَ لنا شيءٌ او بالحري بقي لنا شيءٌ قليل نعملهُ في هذا العالم . ولكن التسلية الوحيدة التي كنا نسلّي انفسنا بها هي ان المركب لم يتكسر بعد بخلاف ما كنا نتوقعهُ وكان الرئيس يقول ان النو قد اخذ في الانحطاط والهبوط

وكانت الريح قد سكنت قليلاً الا ان المركب كان قد دخل كثيرًا غارزًا في الرمل حتى لم يبقَ امل في اخراجهِ منهُ . فكنا في حالة مهولة جدًّا . فلم يكن لنا همٌّ ولا عمل الا ان نصرف همتنا في امر نجاتنا . وقد كان عندنا قبل النوّ قارب على

المؤخّر وآخر على ظهر المركب . فاما الذي على المؤخّر فكان قد ثقب قعرهُ وافلت من مربطهِ ولا نعلم هل غرق الى القعر او تاه هاربًا في البحر . ولهذا لم يكن لنا باب للامل من هذا القبيل . واما القارب الآخر فحصل عندنا شك من جهة تنزيلهِ الى البحر ولكن لم يكن لنا وقت للجدال ولا مجال للمناقشة وذلك لاننا كنا نرى ان المركب في حالة الخطر كل دقيقة وقد قال البعض انهُ قد انشقّ قعرهُ فعلاً

وبينما نحن في هذه الحالة امسك الرئيس ذلك القارب ودلاّهُ هو وباقي النوتيّة من عن جانب المركب الى البحر . ثم دخلنا جميعنا فيهِ وكنا احد عشر نفرًا واطلقنا لهُ العنان مسلمين انفسنا لرحمة الله وهياج البحر . ومع ان النوّ كان قد خفّ كثيرًا كان لا يزال متعبًا ليّاجدًا على الشاطي حتى كان يمكننا القول كسائر النوتية البحر كبير

فكنا الآن في حالةٍ محزنة في الغاية اذ رابنا جليًا ان البحر كان هائجًا جدًا وان القارب لا يمكن ان يخلص واننا سنغرق لا محالة . ولم يكن عندنا قلع . ولو كان عندنا ذلك لما افادنا شيئًا . فكنا نستعين بالمجاذيف قاصدين البر ولكن بقلوب مكمودة كاناس يساقون الى القتل اذ كنا متأكدين ان القارب عند قربهِ من البر سيصير الف قطعة من ملاطمة التيارات والصخور . فاستودعنا انفسنا بيد الله بانكسار وتذلُّلٍ . وكانت الريح تسوقنا بعنف والمجاذيف تجذبنا بعزم نحو البر حتى كنا كأننا نعجّل قضاءنا بايدينا

ولم نكن نعلم ماذا كان الشاطي اصخرًا ام رملاً عميقًا ام رقيقًا . وكنا نعلّل انفسنا بالامل بانهُ ربما اتفق التقادير قاربنا الى خليج او فم نهر او لحف ذروة نستظل فيها . ولكننا لم نرَ شيئًا من ذلك بل كان املنا فارغًا من هذا القبيل حتى كنا كلما تقدمنا خطوة نحو البر نرى منظر الارض مرعبًا اكثر من منظر البحر

ثم بعد ان قطعنا بواسطة القوة الجاذبة او بالحري القوة الدافعة مسافة نحو فرسخ ونصف كما ظننّا اقبل علينا تيّار هائل كانهُ جبل كان يتدحرج ملتفًا وراءنا حتى دنا منا وهجم علينا هجمة مهولة صادمًا بها قاربنا فكبا بنا كبوة فظيعة فرّقت

بيننا وبينهُ وشتتت شملنا وايّ تشتيت. ولم تبقَ لنا فرصة لان نصرخ يا الله بل فتح البحر فاهُ وابتلعنا جميعًا في اقلّ من ثانية من الزمان

وما من احد يقدر ان يصف الاضطراب الذي اشعرت بهِ حين غرقت في البحر وغطّتني المياه. وكنت اعرف السباحة جيدًا ولكن لم استطع ان اتخلص من يد الامواج لكي اتنفس الا بعد ان دفعتني او بالحري حملتني موجة مسافة بعيدة نحو الشاطئ وهناك انفجرت ثم انثنت راجعة الى البحر تاركةً اياي بين حيٍّ وميتٍ من جرى التعب والمياه التي كانت قد دخلت جوفي. ولكن عقلي لم يغب ولا انقطع نَفَسي واذ رايت نفسي قريبًا من البر انتصبت واقفًا على رجليّ واخذت في التقدم نحو الشاطئ بقدر ما امكنني من السرعة خوفًا من ان تدهمني موجة اخرى وتجرّني رغمًا راجعة بي الى العمق. ولم يمضِ الا قليل حتى ظهر لي ان ذلك لا بدَّ منهُ لان البحر كان مقبلًا ورآءي كانهُ جبل وهاجمًا عليّ مزبدًا كانهُ عدوٌّ الدُّ. ولم تكن لي وسايط ولا قوة لمدافعتهِ. فلم يبقَ لي سبيل الا ضبط نَفَسي والعوم فوق المآء وبذل الجهد في طلب الشاطئ. وكان اهمّ الامور عندي ان لا ادع الموجة التي تحملني مسافةً نحو البر وهي مقبلةٌ تحملني ايضًا راجعةً بي الى البحر وهي مدبرةٌ

وما صدقت ان تخلصت من تلك الموجة حتى هجمت عليّ بغتةً موجة اخرى اكتنفتني حالًا مبتلعة اياي الى عمق عشرين او ثلثين قدمًا في جوفها. فحملتني بقوة وسرعة ذاهبة بي مسافة بعيدة نحو الشاطئ. فضبطت نَفَسي بقدر الامكان وحاولت بكل قوتي السباحة الى ما قدام. وفيما كنت قد اوشكت ان افطس او انشقّ من طول ضبط النَفَس اذا بي قد اخذت ارتفع شيئًا فشيئًا الى ما فوق الى ان صار راسي ويداي على سطح المآء. وعند ذلك اشعرت بفرج عظيم وتنفست تنفسًا مستطيلًا تجددت بهِ قوتي وعزمي. ولم يمضِ عليّ في تلك الحالة اكثر من ثانيتين من الزمان حتى غصت ثانيةً في المآء وبعد قليل عمت ثم اخذت المياه تتناقص فدفعت نفسي بعزم الى قدام هربًا من الامواج. وعند ذلك اشعرت ان رجلي قد صادمت ارضًا. فصبرت قليلًا لكي اتنفس ويقل المآء عني. ثم وقفت على رجليّ

وركضت بقدر استطاعتي نحو البر. فما ابعدت الا قليلاً حتى ادركتني موجة اخرى وحملتني راجعة بي الى البحر ثم تبعتها اخرى وفعلت بي كاختها



غرق روبنصن كروزي

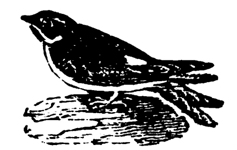
وان الموجة الاخيرة اوقعتني في خطر عظيم. وذلك لانها قذفتني بعنف على صخرة صدمت جنبي وصدري صدمة قوية حتى أُغمِي عليَّ ولم يعد لي امكان لان

اعمل شيئاً لنجاتي. ولو حملتني في رجوعها لكنت فطسمت او اختنقت لا محالة . ثم صحوت بعد هنيهة من الزمان وتشبثت بتلك الصخرة . ثم اتتني بعد ذلك موجة اخرى الا انها لم تستطع ان تاخذني عند رجوعها بل لبثت متشبثاً بتلك الصخرة الى ان سكنت . وعند ذلك ركضت مسرعاً مرةً بعد الاخرى حتى وصلت الى الشاطي وقد اعييت من شدة التعب . فاخذت احبو على يديَّ ورجلي على سفح ذلك الجبل الى ان وصلت الى بقعة فجلست هناك مضطجعاً على العشب بعيداً عن الماءِ والخطر. ففرحت فرحاً لا يُوصَف بنجاتي هذه العجيبة

فها قد وصلت الآن الى البر وصرت في دار الامان . فاخذت ارفع نظري نحو السماءِ واشكر الله على نجاتي من ذلك الخطر العظيم الذي لم يكن لي قبل قابل باب امل للنجاة منهُ . ولا يمكن وصف ما يخامر النفس من البهجة والحبور عند الفوز بخلاص كهذا كأَنهُ من مخالب الموت . فكنت اتمشى على الشاطي رافعاً يديَّ وكل وجودي نحو السماءِ مذهلاً وغائصاً في التامل في امر تلك النجاة العجيبة . والاشارات والحركات التي صدرت مني في تلك الساعة كثيرة جدًّا لا يمكنني وصفها . وكنت اتذكر ارفاقي وكيفية غرقهم ووحدتي ووحشتي واتاَمل كيف غرقوا جميعاً ولم يبقَ منهم احد غيري على ما اعلم . ولم ارَ لهم اثراً الا برنيطتين وقبعاً وحذاءَين لم يكونا توأمين متشابهين بل فذَّين مختلفين . ثم اشرفت على المركب ولكن لكثرة الامواج وزبد المياه بالكد قدرت ان اراهُ واذا بهِ بعيدًا جدًّا عن الشاطي . فاخذني العجب وقلت يا ربي كيف قدرت ان اصل الى هذا الموضع

ثم اخذت اعزّي نفسي بما كان لي الآن من الراحة والامان الا انني كنت انظر ذات اليمين وذات اليسار لارى ما هو المكان الذي كنت فيهِ وماذا ينبغي لي ان اعمل فيما ياتي . وعند ما رجع اليَّ روعي وانتبهت جيدًا الى حالي ظهر لي ان تلك النجاة هائلة واعتراني قلق عظيم . فان ثيابي كانت قد تبلَّلت ولم يكن لي شيءٌ للاكل ولا للشرب . فقلت في نفسي يا لتعاسة الحال التي وصلت اليها ليس لي ما اتوقعهُ الا الموت جوعاً او ان اقع فريسة للوحوش البريَّة . ومما كان يزيدني انزعاجاً

وقلقًا انهُ لم يكن في حوزتي آلة اصيد بها شيئًا اقتات بهِ او ادافع بها عن نفسي من عدوّ يدهمني ليقتلني ويفتات بلحمي. وكل ما كان عندي في ذلك الوقت هو سكين صغيرة وقصبة للدخان وقليل من التبغ في علبة صغيرة. فلما نظرت نفسي في هذه الحالة من القلّة والخطر كاد عقلي يطير من الاضطراب وصرت اركض الى هنا وهناك نظير مجنون خالع. ولما اقبل المساء اخذت اتامل في حالتي بقلب قد ملاتهُ كووس الكابة والحزن واخاطب نفسي قايلاً ماذا يكون حالي في الليل اذا كانت في تلك الجهات وحوش كاسرة تخرج ليلاً من مرابضها طالبة فريسة تفترسها فجال في خاطري عند ذلك اني ساصعد الى شجرة غضّة ذات اشواك كانت بالقرب مني وابيت فيها تلك الليلة ومتى اصبحت انظر ما هي الموتة التي ينبغي لي ان اموتها. لانهُ لم يكن لي امل بالحيوة. ثم اخذت افتش على ماءٍ للشرب فوجدت مطلوبي في مكان يبعد نحو غلوة عن شط البحر ففرحت بهِ جدًّا وشربت مليًّا ثم وضعت قليلاً من التبغ في فمي كنت امضغهُ سدًّا لجوعي. ثم انثنيت راجعًا الى تلك الشجرة وطلعت عليها واخذت امهّد مكانًا فيها بحيث اذا نمت اكون مرتاحًا واذا استغرقت في النوم لا اسقط الى الارض فتتكسر اضلعي. ثم قطعت نبوتًا غليظًا ووضعتهُ بجانب سريري الجديد لاجل المدافعة عن نفسي عند الاقتضاء. ولشدة التعب الذي كان حالاً بي استغرقت في النوم واشعرت براحةٍ عظيمة. واظنُّ ان قليلين في العالم كانوا يرتاحون نظيري لو كانوا في حالي. وهكذا بواسطة هذه النومة تجددت قوتي فهببت في الصباح وانا مشعر براحة لم احصل في حيوتي على راحة اعظم منها



مرّتْ بنا سحرًا طيرٌ فقلتُ لها طوباكِ يا ليتني اياكِ طوباكِ

الفصل الخامس

وجود روبنصن كروزي في جزيرة مقفرة

فلما استيقظت في الغد صباحًا رايت ان الجوّ قد راق والنوّ قد سكن والبحر قد كفّ عن زمجرتهِ وهديرهِ ولم يكن كما كان قبلاً. وما زادني عجبًا هو ان المركب كان قد نهض ليلاً من سقطتهِ وافلت من الرمل حيث تركناهُ غارزًا وقذفتهُ المياه الى ان صار قريبًا من تلك الصخرة المشومة التي صدمتني تلك الصدمة الاليمة كما سبق القول. فكان الآن واقفًا منتصبًا بعيدًا مسافة ميل عن المكان الذي كنت نازلاً فيهِ على الشاطي فوددت متمنيًا ان اكون فيهِ لكي اخلّص شيئًا من الامتعة والزاد ممّا يلزمني لراحتي وقيام اودي

ثم نزلت من مقامي في تلك الشجرة واخذت انظر الى ما حولي. فكان القارب اول شيء وقع تحت نظري. فان البحر والريح كانا قد تساعدا على دفعهِ الى الشاطي. فكان على مسافة نحو ميل عني الى جهة اليمين. فاخذت امشي على الشاطي قاصدًا الوصول اليهِ الا انني وجدت اخيرًا ان ذلك امر لا يتيسّر الحصول عليهِ. وذلك لان برزخًا من الماء عرضهُ نحو نصف ميل كان قد حال بيني وبينهُ فرجعت عنهُ على عقبي طالبًا التوجه الى المركب لعلي اجد فيهِ شيئًا اقتات بهِ واخلص من الموت جوعًا

ثم بعد الظهر بقليل وجدت البحر هاديًا جدًّا وكان المدّ قد تحول الى جزْر حتى صار ممكنًا لي ان ادنو ماشيًا الى المركب بحيث لا اكون بعيدًا منهُ الا ربع ميل. وهذا الامر كان سببًا لتجديد كآبتي. لانني رايت واضحًا اننا لو بقينا في المركب لكنا خلصنا جميعًا اي خرجنا بالسلامة الى البر ولما كنت انا وصلت الى هذا الحدّ من التعاسة حتى صرت معدمًا كل راحة وعشير. وعند ذلك اخذت الدموع تنسكب من عيني. ولكن اذ كان الفرج قليلاً من هذا الباب عزمت على التوجه الى المركب. فخلعت ثيابي وكان الهوآء حارًّا في الغاية واخذت اسبح الى ان وصلت الى

جانبهِ . وعند ذلك عظم عليَّ الخطب اذ لم ارَ لي طريقة للطلوع اليهِ . فانهُ كان قاعدًا على الارض وظهرهُ عاليًا عن سطح الماء ولم يكن لي شيء امسك بهِ مما يمكنني الوصول اليهِ . فسبحت دايرًا حولهُ مرتين وفي المرة الثانية لمحت قطعة حبل قد تدلَّت من زناجير المقدَّم وكانت واطية جدًّا فلم اقدر ان امسكها الا بصعوبة عظيمة . وقد تعجبت كيف لم ارَها من اول مرة . فامسكت من ذلك الحبل وصعدت على ما يلي المقدم من ظهر المركب . فوجدت ان جوف المركب قد دخلهُ ماء كثيرٌ لشقٍّ في اسفلهِ . واذ كان قاعدًا على جانب شفًا اي حرف من الرمل الجامد او بالحري التراب وكان موخَّرهُ مرتفعًا على ذلك الحرف متكئًا عليهِ ومقدَّمهُ منخفضًا حتى كاد يصل الى الماء كان القسم الذي يلي الموخَّر خاليًا باجمعهِ من الماء وكل ما فيهِ من المونة والامتعة كان ناشفًا جافًّا . وكان اول امر اخذت فيهِ التفتيش لارى ماذا تعطل وماذا بقي سالمًا . فوجدت اولًا ان كل مونة المركب كانت ناشفة لم يلامسها ماء . واذ كنت مشتهيًا الاكل ذهبت الى بيت الخبز وملات اجيابي من البقصماط او الكعك اليابس وكنت آكل وانا جائِل من مكان الى مكان افتش على امور اخرى . لانهُ لم يكن لي وقت اضيعهُ في الاكل . ثم وجدت في القمرة الكبيرة رومًا اي عرقًا افرنجيًّا فجرعت منهُ جرعة كبيرة . وكنت في احتياجٍ تامٍّ الى ذلك لاجل تقويتي استعدادًا لما كان امامي من الاعمال . وعند ذلك وجدت انهُ لم يبقَ لي احتياج الا الى قارب استخدمهُ في نقل اشياء كثيرة الى البرّ مما سبقت فنظرت انهُ سيلزمني جدًّا فيما ياتي

وهو باطل ان يقف الواحد من دون حركة ويتمنَّى ما لا يمكن الحصول عليهِ بدون تعب . وملاحظة هذا الامر جعلتني ابادر الى الشغل والاجتهاد . وكان عندنا في المركب فضلات كثيرة من الاخشاب الرفيعة وقطعتان او ثلث قطع غليظة ورؤُوس سواري مما لم نستعملهُ الى غير ذلك . فعزمت على الشغل في هذه . فدحرجت اولًا عن ظهر المركب كل ما امكنني دحرجتهُ الى البحر رابطًا طرفهُ بحبل لكي لا يحملهُ البحر فيهرب بهِ . ثم نزلت الى البحر الى جانب المركب وجذبت

تلك الاخشاب التي وربطت اربعًا منها معًا على هيئة طَوْفٍ على قدر معرفتي واستطاعتي ووضعت فوقها عرضًا قطعتين او ثلث قطع من الاخشاب ثم اخذت امشي عليها فرايت انها لخفّتها لم تكن تستطيع ان تحمل شيئًا ثقيلًا. فطلعت الى المركب وقطعت بالمنشار ثلث قطع من احد السواري وجمعتها اليها. وقد قاسيت من ذلك تعبًا وعناءً كثيرًا ولكن معرفتي بان ذلك لا بدَّ منهُ لاجل تجهيز ما يلزمني على اتمّ مرام حركتني الى اعمال ربما كنت اراها في وقت آخر فوق طاقتي

فصار طوفي الآن قادرًا على حمل اشياءَ ثقيلة. فاخذت اهتم في ما ينبغي لي ان احملهُ اياهُ وكيف احفظ ذلك من فقش امواج البحر. الا انني لم اصرف زمنًا طويلًا في التامل في ذلك. فاني اولًا وضعت عليهِ كل ما وجدتهُ في المركب من الالواح والاخشاب واذ كنت عارفًا جيدًا ماذا يلزمني اخذت ثلثة صناديق من صناديق البحرية كنت قد خلعت غطاءها وافرغت ما فيها فدلّيتها الى طوفي. فهذه الصناديق ملأْتها من المونة اي الخبز والارزّ وقوالب جبن فلمنكي وخمس قطع من لحم المعزى المقدّد ممّا كنا نغتذي بهِ كثيرًا وبقية قليلة من الذرة الافرنجية ممّا كنا قد ابقيناهُ مونةً لما كنا قد اتينا بهِ معنا من الدجاج ممّا كان قد ذُبح وأُكِل. وكان عندنا شيءٌ من الحنطة والشعير مخلوط معًا فوجدت فيما بعد ان الجرذان قد اكلتهُ او عطلتهُ جميعهُ فتاسفت على ذلك جدًّا. واما المشروبات فاني وجدت عدة صناديق مملوة من قناني العنبري وغيرهِ ممّا لا حاجة الى ذكرهِ هنا. فانزلت هذه الصناديق ووضعتها جانبًا على الطوف. وفيما كنت مهتمًّا منهمكًا في هذه الامور حانت مني التفاتة واذا بالمد قد ابتدأ واخذ البحر يزيد شيئًا فشيئًا ولكن من دون هياج. ثم رايت بالاسف جبتي وقميصي وصدريتي التي كنت قد خلّفتها على الشاطي تسبح طافيةً على الماءَ متوغلةً في البحر كأنّها قاصدة السفر الى بلاد بعيدة. واما سروالي وكان من كتان مفتوح الساق مما يلي الركبة وجوربايَ فاني كنت قد سبحت بها الى المركب. الا ان ذلك نبّهني الى التفتيش بكل دقة على ثياب في المركب. فوجدت ثيابًا كثيرة الا اني لم آخذ الا ما قصدت استعمالهُ

في ذلك الوقت لان عيني كانت على اشياءَ اخر حسبتها اهمّ للشغل في البر وذلك كآلات النجارة مثلاً. ولم اجد صندوق النجار الا بعد تفتيش طويل. وكان ذلك نافعًا لي جدًّا فكان اذًا يستحق التعب. وكانت قيمتهُ في ذلك الوقت اعظم كثيرًا من ملءِ مركب ذهبًا. وفي الحال انزلتهُ برمَّتهِ الى الطوف من دون ان اصرف وقتًا لانظر ما فيهِ لاني كنت عارفًا في الجملة ما اشتمل عليهِ

ثم اخذت التفت الى امر الاسلحة. فوجدت في القمرة الكبيرة بارودتين للصيد جيدتين جدًّا وزوج طبنجات وبعض تنكات فيها بارود وكيسًا صغيرًا فيهِ خردق وسيفين عتيقين قد علاهما الصدَاءُ فوضعتها جميعها جانبًا. وكنت عالمًا بانهُ يوجد ثلثة براميل مملوءة بارودًا الا اني لم اعلم اين وضعها طوبجيُّنا فاخذت افتش باجتهاد حتى وجدتها. فكان اثنان منها ناشفين جيدين واما الثالث فكان قد دخلهُ الماءُ وبلَّل ما فيهِ. فانزلت البرميلين الجيدين الى طوفي. وعند ذلك رايت ان وسقي قد صار كافيًا فاخذت اتبصر في كيفية الوصول بهِ الى البر لانهُ لم يكن لي قلع ولا مجذاف ولا دفَّة وكان قليل من الهواءِ يقدر ان يكبو بطوفي ويقلب كل ما فيهِ الى الماءِ

ولكنني لما كنت انظر الى ثلثة امور كان يشتد ساعدي ويقوى املي وهي اولاً هدو البحر وصفاؤهُ. ثانيًا وجود المدّ وامتداد الماءِ الى ابعد مدى ارغبهُ في البر. ثالثًا وجود هواءٍ قليل يدفع طوفي برفق نحو الشاطي. وكنت قد وجدت بقايا مجذافين او ثلثة مجاذيف من مجاذيف القارب ومنشارين وفاسًا ومطرقةً خارج صندوق النجار فوضعتها على الطوف. ولما فرغت من ذلك اطلقت عنان طوفي واخذت اسير نحو البر. فكان الطوف يجري جيدًا الى مسافة ميل تقريبًا الا انهُ حاد قليلاً عن الموضع الذي خرجت منهُ اولاً الى البر. فلاح لي من ذلك انهُ لا بد من ان يوجد هناك خليج وبالتالي انفتح لي باب للامل بانهُ يوجد هناك نهر او نُهَير يصبُّ فيهِ فاتخذ ذلك الموضع مينا ارسي فيها وانزل وسقي منها الى البر

فكان الامر كما ظننت. فانهُ ظهر امامي ترعةٌ او بوغاز كان يندفع اليها مياه قوية من المد فاخذت احوّل طوفي قاصدًا الدخول فيها. الا انني كنت في خطر

الغرق مرة اخرى فلو حصل ذلك لانكسر قلبي لا محالة . فاني اذ كنت جاهلاً المكان دخل طوفي الى موضع كان الماء فيهِ رقيقًا فقعد طرفهُ على الارض وكان



روبنصن كروزي على طوفهِ

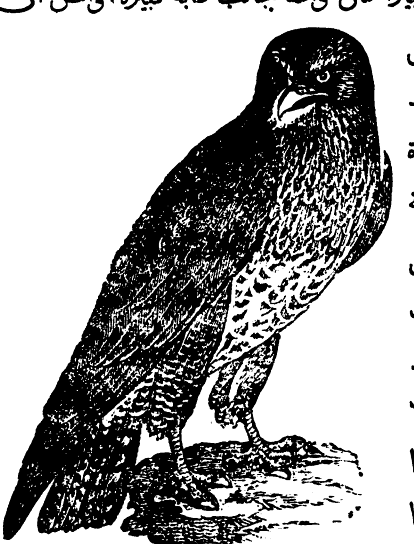
طرفهُ الاخر عائمًا في الماء. فصار طرفهُ الواحد اعلى من الطرف الآخر ولم يعد يحتاج الامر الا الى شيء قليل لكي يزحل كل وسقي منهافتًا الى الماء. فبادرت في الحال الى وضع ظهري قدام تلك الصناديق وكنت اسندها بكل جهدي واحفظها

في اماكنها. ولم اقدر بكل قوتي ان ازحزح الطوف عن الارض ولا كانت لي جسارة ان انحرك عن المركز الذي كنت فيهِ خوفًا من ان تزحف الصناديق متهافتةً الى البحر. فمضى عليَّ وانا في هذه الحالة نحو نصف ساعة. وفي هذه الفترة كان الماَء قد رفع طوفي الى موضع مستوٍ. ثم بعد قليل اذ كان الماَء لم يزل آخذًا في الارتفاع طفا طوفي عائمًا على الماَء. وعند ذلك قمت من قدام الصناديق واخذت استعين بالمجذاف الذي معي على دفعهِ الى مجرى المياه. ولم يمضِ الا قليل حتى وجدت نفسي على فم نهر صغير تحيط بي الارض من الجانبين في وسط تيَّار قوي متجهٍ نحو البر. فالتفتُّ يمينًا ويسارًا في طلب مكان جيّد يصلح للطلوع الى البر غير راضٍ ان أُدفَع مسافة بعيدة في النهر. واذ كان لي امل ان ارى في احد الاوقات مركبًا في البحر كنت قد عزمت على جعل منزلي قريبًا من الشاطي بقدر الامكان

ثم لمحت جرفًا صغيرًا بجانب النهر الى جهة اليمين. فاخذت اسير بكل عناَء وصعوبة حتى قربت اليهِ بحيث صرت قادرًا ان امسَّ الارض بطرف مجذافي فادفع الطوف بهِ في برهة قصيرة. ولكنني كنت في خطر من ان يتزحلق كل وسقي متهافتًا الى البحر كما فعل قبلاً. وذلك لان ارض الشاطي هناك كانت قائمة جدًّا بحيث لم يكن ممكنًا الطلوع اليها الا بارتفاع الطرف الواحد من الطوف وانخفاض الطرف الآخر فيكون مزحلقًا ويكون الوسق في خطر. فاضطرني الامر ان اقف هناك منتظرًا ارتفاع المدّ ووصولهُ الى اعلى درجاتهِ. واستعنت بالمجذاف على ابقاَء الطوف قريبًا من الشاطي بقرب قطعة ارض مسطَّحة كانت تغطّيها المياه عند وصول المدّ الى مداهُ. وحالما وجدت ماَء كافيًا لحمل طوفي وكان يعوم على سمك قدم من الماَء دفعتهُ الى تلك القطعة. ثم ربطتهُ الى وتدين غرزتهما في الارض الواحد على الجانب الواحد عند طرفهِ الواحد والاخر على الجانب الاخر عند طرفهِ الآخر واقمت هناك الى ان جزر البحر ورجعت المياه الى الوراَء تاركةً طوفي وكل امتعتي على الشاطي بالامان

ثم جال في خاطري ان اجسّ الارض مفتشًا على مكان جيّد اسكنهُ واضع

فيهِ امتعتي حفظًا لها من امر باتي . ولم اكن اعلم الى الآن ابن انا هل في قارَّةٍ او جزيرة في ارض مسكونة او غير مسكونة وهل انا في خطر من الوحوش البرية او في امان منها . ورايت جبلاً عاليًا صعب المرتقى على بعد ميل من المكان الذي كنت فيهِ كانت شماليَّهُ سلسلة تلال وآكام صغيرة . فتناولت بارودة صيد وزوج طبنجات وشيئًا من البارود في تنكة واخذت اسير مسلَّحًا قاصدًا قمة ذلك الجبل طلبًا للاكتشاف . فقاسيت اتعابًا وصعوبات عظيمة حتى وصلت الى اعلاهُ. وعند ذلك رايت بحزن اني في جزيرة يحيط بها البحر من كل جهة . ولم تكن هناك ارض الا بعض صخور كانت بعيدة جدًا وجزيرتان اصغر من هذه الجزيرة كانتا بعيدتين عنها نحو فرسخين الى غربيها . ورايت ايضًا ان الجزيرة التي انا فيها عقيمة ولاح لي انهُ لا يسكنها الا وحوش برية الا اني لم ارَ شيئًا منها ولكنني رايت كثيرًا من الطيور ولم اعلم ما هي . ولا كنت اعلم عند صيدها ما يُوكل منها وما لا يُوكَل . وفيما كنت راجعًا اصطدت طائرًا كبيرًا كان واقفًا بجانب غابة كبيرة . واظن ان



ذلك الطلق هو الطلق الاول الذي سمع في ذلك المكان منذ خلق العالم . وحالما اطلقت البارودة قام من جميع اطراف تلك الغابة عدد لا يُحصَى من الطيور من اجناس مختلفة واخذت تصوّت اصواتًا مشوشة فكان كل واحد منها يصيح حسب نغمتهِ المالوفة الا انني لم اعرف ولا واحدًا منها . واما الطير الذي اصطدتهُ فظننتهُ صقرًا لانهُ يشبه الصقر في لونهِ ومنقارهِ ولكن لم يكن لهُ مخالب خارقة العادة في كبرها واما لحمهُ فكان نتنًا رديًّا لا يصلح لشيءِ

ثم رجعت بعد هذا الاكتشاف الى طوفي واخذت انزل الوسق الى البرّ وصرفت في ذلك بقية ذلك النهار. الا انني لم اعلم ماذا اعمل بنفسي ليلاً ولا عرفت اين ابيت. لاني خفت من ان اضطجع على الارض فياتي وحش بري فيفترسني. غير اني وجدت فيما بعد انهُ لم يكن اساس لتلك المخاوف. فوضعت حولي صناديق والواح مما كنت قد اتيت بهِ من المركب واصطنعت منها كوخًا او بيتًا صغيرًا بتُّ فيهِ تلك الليلة. واما الطعام فكنت لا اعلم كيف احصّلهُ. وكنت قد رايت ارنبين او اكثر يركضان خارجين من الحرش عند ذلك الطلق حين اصطدت الصقر

وكنت الآن افتكر انهُ يمكنني ان استحضر ايضًا اشياءَ أُخَر كثيرة من المركب مما يكون عظيم الفائدة لي وعلى الخصوص الحبال والقلوع وما اشبه مما يمكن نقلهُ الى البر بسهولة. فعزمت على سفرة اخرى الى ذلك المركب اذا تيسَّر لي ذلك. واذ كنت عالمًا يقينًا بان اول نوّ يحصل لا بد من ان يكسرهُ ويبدّد قطعهُ بما فيهِ نويت ان اترك كل عمل واذهب اولاً فاستحضر كل ما يمكنني استحضارهُ. الا انني كنت في ريب من جهة اخذ الطوف معي او تركهِ على البر الى ان ظهر لي اخيرًا ان اخذهُ امر غير ممكنٍ. فذهبت عند زوال المد كما فعلت اولاً وقد تعرَّيت قبل خروجي من ذلك الكوخ ولم ابقِ على بدني الا قميصًا ملوّنًا وسروالاً من الكتّان وزوج جوارب على رجليَّ

فلما وصلت بالسلامة الى المركب شرعت في عمل طوف جديد. فكنت اشتغل باكثر نقانة وخفَّة مما فعلت اولاً وذلك لاني كنت قد تمرَّنت على هذا العمل بواسطة الطوف الاول. ولم اكلّف هذا الطوف فوق طاقتهِ من الاثقال. فوضعت عليهِ اشياءَ كثيرة مفيدة اي كيسين او ثلثة اكياس مملوءة مسامير من مقادير واشكال مختلفة ولولبًا كبيرًا ونحو اربع وعشرين بلطة ومسنًّا او آلة جلخ ومخلين او ثلثة وبرميلين مملوءَين رصاصًا وسبع بواريد وبارودة للصيد وشيئًا من البارود وكيسًا كبيرًا مملوًّا خردقًا وحزمةً كبيرة ثقيلة من صفائح رصاص وكل ما وجدتهُ من ملابس البحرية وقلعًا وتختًا وبعض لحف وفرش. وبعد ما وضعت كل ذلك على

الطوف اطلقت لهُ العنان ولم يمضِ الا قليل حتى وصل بي وببضاعتي الى الشاطي بالسلامة والامان. وكان ذلك عندي سبب سرور عظيم وموجب تعزية كبيرة

وفيما كنت غائبًا في المركب خالج قلبي خوف من ان ياتي شيء الى كوخي ويأكل ما عندي من المونة غير اني لما رجعت اطمأن خاطري اذ لم ارَ اثر زائر هناك. الا انهُ كان قائمًا على احد الصناديق قطة برية تجحشُ فلما رأتني وثبت من مكانها وابعدت قليلاً ثم وقفت والتفتت نحوي واخذت تتفرس بي من دون خوف ولا اضطراب كأنها ترغب ان تتعرَّف بي. فوجهت نحوها بارودتي الا انها اذ كانت لا تعلم ما هي لم تحفل بها بل بقيت في مكانها لا تتحرك. فرميت لها كسرة صغيرة من البقصماط وذلك كل ما رايت ان اسمح بهِ لان ما عندي من الزاد كان قليلاً فثارت اليها وشمَّتها ثم اكلتها. وبعد ما فرغت من اكلها رفعت راسها ونظرت اليَّ ثانية وكان يلوح على وجهها انها احبَّت ذلك وكانت تريد اكثر فشكرتها واشرت اليها بانهُ لم يمكنني ان اسمح باكثر وهكذا انصرفت عني مدبرةً

ثم بعد وصولي بهذه الوسقة الثانية الى البر شرعت في عمل خيمةٍ صغيرة من القلع ومما كنت قد قطعتهُ وهيأتهُ من الادوات لهذه الغاية. ثم صففت حول تلك الخيمة ما كان عندي من الصناديق والبراميل الفارغة تحصينًا لها مما ربما يقتحمها داهمًا اياها من الناس او الوحوش. ثم بعد ما فرغت من ذلك سددت بابها ببعض الواح من داخل وبصندوق فارغ اوقفتهُ في مدخل الباب من خارج. ثم اتيت بفراشٍ ووضعتهُ على الارض ووضعت طبنجتين عند راسي ومددت بارودتي بجانبي وهكذا ذهبت الى النوم اول مرة. فنمت نومًا هاديًا مطمئنًا الليل كلهُ. لاني كنت تَعِبًا ونعسان. وذلك لاني لم أَنمَ الا قليلاً في الليلة الماضية وكنت قد اشتغلت كثيرًا النهار كلهُ في اخراج ما اخرجتهُ من المركب وجلبهِ الى البر

فقد صار لي الآن مخزن من اكبر المخازن المختصة بانسان واحد الا اني لم اقنع بعد بل كنت احسب انهُ ما دام المركب واقفًا في مركزهِ ينبغي لي ان اخرج منهُ كل ما قدرت على اخراجهِ. وعلى ذلك كنت كل يوم تكون فيهِ المياه قليلة

اذهب اليهِ وآتي ببعض اشياءَ منهُ . وثالث مرة ذهبت فيها احضرت كل ما امكنني احضارهُ من الشراعات والحبال والخيطان واتيت ايضًا بقطعة من الجنفيص كانت قد حُفِظت لاجل ترقيع القلوع عند الاقتضاءِ وببرميل البارود المبلَّل وبالاجمال اني اتيت بكل ما وجدتهُ من القلوع الا اني كنت قد قطعتها قطعًا صغيرة تسهيلاً لنقلها لانهُ لم يبقَ لها فائدة نظير قلوع بل نظير جنفيص فقط . ومما زادني سرورًا هو اني بعد ان ذهبت خمس او ست مرات الى المركب وكنت قد قطعت الامل من ان اجد فيهِ ايضًا شيئًا يستحق الالتفات وجدت بغتةً برميلاً كبيرًا مملوًّا خبزًا وثلث دمنجانات كبيرة مملوة رومًا او ارواحًا وصندوقًا مملوًّا سكرًا وبرميلاً مملوًّا طحينًا فاخرًا مع اني لم اكن اتوقع وجود شيءٍ من الماكولات الا ما عطلتهُ المياهُ . فافرغت حالاً الخبز واخذت الفهُ في قطع القلوع رزمًا صغيرة وهكذا نقلتهُ الى البر سالمًا

وفي اليوم التالي ذهبت مرة اخرى الى المركب واذ كنت قد اخذت منهُ كل ما هو منتقل ويستحق تعب النقل ابتدات الآن في القلوس اي حبال المرساة فقطعت الفاس الاكبر قطعًا صغارًا بحيث يمكن نقلها فاخذت الى البر قلسين وشراعًا مع كل ما وجدتهُ من الآلات الحديدية واضعًا جميع هذه الاشياءَ الثقيلة على طوفٍ كبير اصطنعتهُ مما امكنني وجودهُ في المركب من الاخشاب والادوات واتيت بها نحو البر . الا ان سعدي ابتدا الآن يفارقني . فان ذلك الطوف كان غير متقن في بنائهِ وثقيل الوسق جدًّا حتى انهُ بعد دخولي في الخليج الصغير الذي انزلت منهُ قبلاً بقية امتعتي الى البر فاذ لم اقدر ان ادبرهُ بسهولة نظير الطوف الآخر كبا قالبًا بي وبوسقي الى الماءِ . فاما انا فلم ابالِ بذلك لاني كنت قريبًا من البر واما الوسق فان اكثرهُ فقد وعلى الخصوص الحديد مع انهُ كان لازمًا ونافعًا لي جدًّا . غير انني عند زوال المد اخرجت اكثر قطع القلوس وبعض الحديد . وقد كلَّفني ذلك اتعابًا وصعوبات عظيمة . لاني التزمت ان اغطس في الماءِ في طلبهِ وذلك اتعبني كثيرًا . ثم كنت بعد ذلك اتوجه كل يوم الى المركب واحضر

ما يمكنني احضارهُ من الموادّ

فقد مضى عليَّ الآن في البر ثلثة عشر يوماً وقد ذهبت في هذه المدة احدى عشرة مرة الى المركب ونقلت منهُ كل ما يمكن لرجل واحد نقلهُ في نفس المدة. واني لا اشك بانهُ لو بقي الهوآء معتدلاً لكنت اتيت بالمركب كلهِ قطعة بعد قطعة ولكن فيما كنت استعد للذهاب الى المركب المرة الثانية عشرة وجدت الهوآء قد اخذ يشتد ومع ذلك اذ كان الماءَ قليلاً ذهبت الى المركب ومع اني كنت اظن باني قد عزلت القمرة من كل ما فيها حتى لم يبقَ هناك شيءٌ اكتشفت هذه المرة على خزانة بجرّارات وجدت في احدها موسيين او ثلثًا للحلاقة ومقصاً كبيرًا وعشرًا او دزينة اي اثنتي عشرة من السكاكين والشوكات او الفركتات الجيدة. ووجدت في جرّار اخر ما يساوي نحو ست وثلثين ليرا من الفلوس بعضها معاملة اوروبا وبعضها معاملة برازيل مع بعض قطع من الثمانية منها ذهب ومنها فضة

فلما نظرت تلك الفلوس تبسّمت وصرخت قايلاً ما هي فايدتكِ ايتها الفلوس الكاسدة انكِ لا تستحقين ان ارفعكِ عن الارض. فان واحدة من هذه السكاكين هي احسن من كل هذه الصبرة. لا استطيع ان انتفع منكِ شيئاً. فابقي حيث انت واذهبي الى قاع البحر كشيءٍ لا تستحق حيوتهُ ان تُخلَّص. الا انني بعد ما تاملت قليلاً اخذت ذلك ولففتهُ في قطعة جنفيص. ثم ابتدات اهتمُّ في عمل طوف آخر. ولكن فيما كنت اهيي ذلك ابتدا الجو يعبس والهوآء يقوى. وبعد ربع ساعة ابتدا الهوآء يهبُّ نافخًا من جهة البر. فخطر لي حالاً انهُ من العبث ان احاول عمل طوف حال كون الريح من جهة البر وانهُ ينبغي لي ان انصرف قبل مجيءِ المد او الفيضان والا فربما لا يمكنني ان اصل الى البر بالكلية. ومن ثم نزلت الى الماءَ واخذت اسبح قاطعًا ما كان بين المركب والرمل من المياه فقاسيت من ذلك صعوبات كثيرة وذلك من جرى ثقل ما كان عليَّ من الاشياء وهياج البحر لان الهوآء كان يشتد بسرعة عظيمة. وقبل ارتفاع الماءَ الى اعلى درجاتهِ حدث نوٌّ. الا اني كنت قد وصلت الى منزلي واتكأت في خيمتي الصغيرة وكانت كل ثروتي

حولي بكل امان . فكانت الريح شديدة الليل كلهُ ولما نهضت صباحًا اشرفت على البحر فوجدت انهُ لم يبقَ اثر لذلك المركب . فغمَّني ذلك الا اني لدى التفكر تسليت قليلاً بكوني لم اضيّع وقتـًا ولا الوث جهدًا في اخراج كل شيءٍ منهُ مما يكون مفيدًا لي وانهُ بالحقيقة لم يبقَ فيهِ الا قليل مما كان يمكنني نقلهُ لو حصلت لي فرصة لذلك

فنزعت الآن من بالي كل فكر من جهة المركب او من جهة اخراج شيءٍ منهُ الا ما يمكن ان تدفعهُ المياهُ من قطعهِ الى الشاطي . وقد دفعت المياه فعلاً قطعًا كثيرةً منه فيما بعد الا انها كانت قليلة المنفعة لي . فاخذت اصرف اهتمامي الآن في تدبير ما يقيني من دهمات القوم البرابرة وهجمات الوحوش الكاسرة اذا وُجِدت في الجزيرة وكنت انبصر في طريقة تبلغني من هذا المقصد على احسن مرام . فكنت مترددًا بين ان اعمل لي كهفًا في قلب الارض او خيمة على وجه الارض . واخيرًا عزمت على عمل الامرين معًا . ولا باس من وصف ذلك لمن يقف على هذه القصة

اني وجدت سريعًا ان الموضع الذي كنت فيهِ لا يصلح لاقامتي وعلى الخصوص لان موقعهُ هو على ارض واطية مسبخة قريبة من البحر ومن ثم كان كما ظننت ردي الهوآء ولم يكن بقربهِ مآء عذب ولذلك عزمت على ايجاد رقعةٍ من الارض تكون احسن هوآء واكثر صلاحيةً منهُ . فاني كنت انظر الى عدة امور من جهة محل اقامتي . وذلك اولاً الهوآء والمآء العذب كما تقدم القول . ثانيًا ماوى يظللني من حر الشمس . ثالثًا ملجأً من الوحوش المفترسة والقوم البرابرة . رابعًا مواجهة البحر حتى اذا ارسل الله مركبًا الى تلك الجهات يمكنني ان اراهُ ولا اخسر فرصة لنجاتي التي لم اكن قد قطعت كل امل من الحصول عليها

وفيما كنت افتش على موضع بهذه الصفة وجدت بقعة صغيرة بجانب تلٍّ او صخر كان سفحهُ من جهة تلك البقعة قائمًا جدًّا كحائط بيت حتى انهُ لم يكن شيءٌ يستطيع ان ياتي واثبًا عليَّ من اعلاهُ وكان في ذلك الصخر مكان مجوف نظير قبة ممتدٌ قليلاً الى داخل كانهُ مدخل او باب مغارة الا انهُ لم يكن هناك في

الحقيقة مغارة ولا طريق الى داخل الصخر بالكلية

فنويت ان انصب خيمتي على تلك البقعة الخضراء امام ذلك المكان المجوف. ولم تكن تلك البقعة اكثر من ماية وخمسة وعشرين ذراعًا عرضًا وكان طولها ضعف عرضها تقريبًا وكانت نظير مرجٍ امام بابي. وكانت عند طرفها تنحدر من كل جهةٍ انحدارًا غير منتظم الى ان تتصل بالارض المنخفضة التي على حافة البحر. وكان موقعها من التل في جهة شمال الشمال بغرب وهكذا كانت مظللة من الحر الى ان تقارب الشمس الغروب وتكون قوة حرارتها قد ضعفت. وقبلما نصبت خيمتي رسمت نصف دائرة امام ذلك المكان المجوف فدخل نحو ثلثة عشر ذراعًا وثُلُث في نصف قطرهِ من الصخر ونحو ستة وعشرين ذراعًا وثُلُثين في قطرهِ من بدايتهِ ونهايتهِ. ففي نصف الدائرة هذا ضربت صفين من الاوتاد او الاعمدة القوية راكزًا اياها في الارض ركزًا قويًا وكانت رؤُوسها محددة وكان ارتفاعها على وجه الارض نحو خمسة اقدام ونصف. وكانت المسافة بين الصفين اقل من ستة قراريط

ثم اخذت قطع القلوس التي قطعتها في المركب ونظمتها صفوفًا احدها فوق الآخر داخل الفُرْجة التي بين ذينك الصفين من الاوتاد حتى ساوت في علوها رؤُوس الاوتاد واضعًا اوتادًا اخرى داخلاً على ارتفاع نحو قدمين ونصف دعمتها بها. وكان هذا السياج قويًا جدًا حتى انهُ لم يكن انسان ولا وحش يستطيع الدخول. وقد كلفني ذلك كثيرًا من الوقت والتعب وعلى الخصوص قطع الاوتاد من الحرش ونقلها الى الموضع وركزها في الارض. ولم اجعل لمنزلي هذا بابًا من جانبهِ بل عملت لهُ سلّمًا صغيرة كنت اصعد عليها الى اعلاهُ ثم ارفعها الى فوق بعد دخولي اليهِ. وهكذا كنت محصنًا تحصينًا منيعًا كما ظننت حتى انهُ لم تكن لاحد استطاعة ان يصل اليَّ. ومن ثم كنت انام ليلاً بالامن والطمانينة. ولولا ذلك لما ارتاح بالي قط. ولكن ظهر لي فيما بعد انهُ لم تكن حاجة الى كل هذه الاحتياطات والحذر من الاعداء التي كنت اخاف الوقوع في خطر منها

الفصل السادس

انتقال روبنصن كروزي الى خيمتهِ وما اشعر بهِ من الوحشة

ثم نقلت جميع ما مرَّ ذكرهُ من المونة والاثاث والامتعة الى تلك الحظيرة وقد كلَّفني ذلك اتعابًا ومشقَّات كثيرة. ثم اقمت خيمة كبيرة لاجل وقايتي من الامطار التي تكون هناك في قسم من السنة شديدة جدًّا وقد جعلتها مضاعفةً اي خيمة صغيرة من داخل وخيمة اكبر منها من خارج. ثم غطَّيت تلك الخيمة بشمَّع كنت قد احضرتهُ من المركب مع القلوع باسطًا اياهُ على ظهرها. ثم علقت تختًا كان لثاني رئيس مركبنا نظير مرجوحة وصرت انام عليهِ تاركًا النوم على الارض. ثم ادخلت الى تلك الخيمة كل مونتي وما يتعطل من المطر. ثم دبرت المدخل الذي كان لم يزل مفتوحًا وصرت ادخل واخرج منهُ بواسطة سلَّم صغيرة كما ذكرت آنفًا

ثم بعد ما فرغت من هذه الاعمال اخذت احفر في الصخر قاصدًا فتح مغارة هناك توسيعًا لدائرة منزلي واستخدمت ما خرج من التراب والحجارة في رفع ما كان داخل السور من الارض حتى صار نظير مصطبة اعلى ممَّا حولهُ مقدار قدم ونصف. ولم يمضِ الا قليل حتى صار عندي وراء خيمتي مغارة واسعة كانت نظير مخزن لمنزلي. ولا حاجة الى ذكر ما قاسيتهُ من الاتعاب والمشقات في حفر تلك المغارة. وفيما كنت منهمكًا في امر خيمتي ومهتمًّا في حفر تلك المغارة حصلت بغتة امطار غزيرة من سحابة كثيفة مظلمة تبعتها بروق ورعود قوية هايلة. وللحال خالج خاطري فكرٌ لم يكن اقلَّ سرعة من البرق وهو ان شهابًا صغيرًا يكفي للاشاة كل ما عندي من البارود. فان النار اذا لعبت في البارود تحرقني حالاً وتحرق الخيمة بما فيها. فاضطربت من ذلك جدًّا ومن ثم حالما زال ذلك العارض تركت كل اشغالي وشرعت في عمل اكياس وعلب لافرّق فيها البارود واضعةُ في اماكن متباعدة بحيث اذا لعبت النار في قسم منهُ لا يشتعل كلهُ دفعة واحدة. فوزَّعت ما كان عندي من البارود الجيد الناشف وقدرهُ نحو ماية اقة في اكثر من ماية

وعاء بين علبةٍ وكيسٍ صارفًا في ذلك نحو اسبوعين . ثم وضعت تلك الاوعية في شقوق بين الصخور لا تصل اليها رطوبة ولا ماء ملاحظًا جيدًا كل موضع كنت اضع فيهِ بارودًا . غير ان البارود الذي سبق القول انهُ تبلَّل اذ كنت لم اخف من النهابهِ وضعتهُ في مغارتي الجديدة التي كنت في توهُّمي ادعوها مطبخي

وبينما كنت مشتغلاً في تلك الاعمال كنت في تلك الاثناء اذهب بباوردتي كل يوم مرةً على الاقل طلبًا للتنزُّه وصيد شيء للاكل والاكتشاف على ما يوجد في تلك الجزيرة من الحيوانات وغيرها . ففي المرة الاولى اكتشفت حالاً انهُ يوجد فيها معزى فسرَّني ذلك جدًّا . الا اني لما رايت ان تلك المعزى بريَّة نافرة سريعة الجري جدًّا حتى ان القرب منها ومسكها كان من اصعب الامور ساءني ذلك ونغَّص سروري بوجودها . غير انني اخذت اعلّل نفسي بامل صيد شيء منها مرةً بعد اخرى كما فعلت بعد ذلك بقليلٍ . وقد وجدت بالاختبار اني اذا كنت انا في السهل وكانت هي في الوعر او على الصخور كانت تفرُّ حالاً هاربةً مني ولكن اذا كانت هي في السهل وكنت انا في الوعر او على الصخور كانت لا تبالي بي كانها لا تراني . فاستدللت من ذلك على ان تركيب مُقَلها كان على هيئةٍ مخصوصة بحيث يكون نظرها دائمًا متجهًا الى اسفل فلا تستطيع ان تبصر ما كان اعلى منها من المنظورات . ومن ثم كنت دائمًا في ما بعد عند اكتشافي الاماكن التي تتردَّد اليها أكمن لها في الوعر او على الصخور مقابل تلك الاماكن حتى اذا كانت في مراعيها في السهل ارميها من هناك بالرصاص فاصيبها من دون خطا الا نادرًا . فصدت اولاً عنزةً كان بجانبها جدي صغير ترضعهُ . فلما وقعت الام وقف الجدي المسكين بجانبها جامدًا لا يتحرك . فاثَّر ذلك المنظر جدًّا في حاسياتي حتى كدت ابكي حزنًا عليهِ وتاسفًا على قتلي والدتهُ . ثم تقدمت اليها وحملتها على منكبيَّ وسرت بها فاخذ ذلك الجدي يسعى قافزًا في اثري الى ان وصلت الى منزلي . وعند ذلك انزلت الام الى الارض وحملتهُ على ذراعيَّ وادخلتهُ الى داخل المنزل قاصدًا تربيتهُ وجعلهُ اهليًّا . ولكنني اذ رايتهُ لا ياكل شيئًا لصغرهِ اضطرني الامر ان اذبحهُ

وآكلهُ . فاغتذيت بلحمها اياماً كثيرة لاني كنت آكل قليلاً واوفر موتتي ولاسيما خبزي وذلك لقلّتهِ

ثم بعد الفراغ من تدبير منزلي اخذت اهتم في تدبيرما رايت انهُ لا بدَّ منهُ وهو مكان اشعل فيهِ النار عند الحاجة وموضع لوضع الحطب والوقود وسياتي ذكر ما عملتهُ لذلك في محل آخر. واذ كانت احوالي غريبة وهمومي في امر المعيشة غير قليلة كان لا بد من بيان ذلك وايضاحهِ مفصلاً فاقول

اني كنت كلما سمحت لي فرصة للنظر الى احوالي اشعر بحزن شديد وغمٍّ عميق لا اقدر ان اصفهما حقَّ الوصف . فان دفع العاصف كان قد حاد بي مسافة بعيدة اي ميّات من الفراسخ عن الطريق الذي قصدتهُ في طلب الاسباب والتجارة ومن ثم كنت احسب ان العناية الصمدانية قد قضت عليَّ وذلك عن سبب كبير ان اصرف ما بقي من حياتي في ذلك المكان المقفر وفي تلك الحالة الموحشة . وعند ذلك كانت الدموع تذرف على خدّي بغزارة وسخاء . وكثيرًا ما كان يخطر ببالي امور متناقضة فكنت تارةً اتذمّر متهماً على الله قائلاً في نفسي لماذا يهلك الله خلائقهُ على هذا المنوال ويوقعهم في شقاوة كهذه ويجعلهم منكسري القلب مكدّرين الى هذا الحدّ حتى يلجئهم الى انكار احسانهِ وعدم شكرهِ وتارةً أرتضي بحالتي ويوبخني ضميري على انكاري للجميل وكفري . وفيما كنت ذات يوم ماشياً على شاطئ البحر وبارودتي بيدي وكنت غائصاً في الافتكار بحالتي الحاضرة اخذت احدّث نفسي على هذا المنوال قائلاً يا نفس نعم انكِ في حالة مكربة موحشة ولكن اما تذكرين ماذا اصاب ارفاقكِ . اين هم الآن اما كنتم احد عشر نفرًا في القارب فلماذا نجوتِ انتِ وحدكِ وهل هو احسن ان تكوني هنا او هناك مشيرًا عند قولي هناك الى البحر . فان جميع الشرور يجب اعتبارها مع ما يرافقها من الخير وما يقارنها مما هو اردأ منها من الشرور

ثم تاملت عند ذلك كيف كنت حاصلاً على جميع احتياجاتي وماذا كان يصيبني لو لم يتفق ان المركب ينتقل من المكان الذي صُدِم فيهِ اولاً الى مكانهِ

الثاني حيث صار اقرب الى البر فتيسَّر لي اخراج ما اخرجتهُ منهُ من الاشياء. وذلك يندر وقوعهُ مرة في كل مائة الف مرة. وماذا كانت حالتي لو اضطرني الامران ابقى في الحالة التي كنت عليها عند خروجي اولًا الى البر حين كنت مُعدَمًا كل لوازم المعيشة والوسايط الضرورية لتحصيلها. وكنت احدّث نفسي بصوتٍ عالٍ قائلًا ماذا كنت اعمل لو لم تكن لي بارودة ولا زاد ولا ادوات للعمل ولا ثوب ولا فراش ولا خيمة ولا غطاء. هوذا كل ما احتاج اليهِ موجود ميسور وانا قادر ان اعيش من دون افتقار الى بارودتي حتى وبعد فراغ مونتي وان اصرف ما بقي من حياتي من دون اعواز. وذلك لاني كنت قد نظرت وتهيّات من البداية للقاء كل ما يصادفني من الحوادث وللايام المستقبلة ليس فقط بعد نفاد مونتي بل ايضًا بعد ضعف جسمي وخور عزمي

ولم يكن يخطر ببالي قط ان برقة من السماء كافية لان تلاشي كل ما كان عندي من البارود. ولكن لما ابتدأت تبرق وترعد خطر لي ذلك واحدث تاثيرًا قويًّا في حاسياتي كما ذكرت قبلًا. ومرادي الآن ان اذكر بالتفصيل والترتيب ما اصابني من الامور المكدرة التي لم يُسمَع قط نظيرها في العالم. وبموجب حسابي اني في ٣٠ ايلول وضعت قدمي على شاطي تلك الجزيرة المقفرة على الطريق والحالة التي ذكرتها قبلًا. واذ كانت الشمس في اعتدالها الخريفي كانت تقريبًا فوق راسي وكنت حسبما ظهر لي بواسطة الرصد والمراقبة في طول تسع درجات واثنتين وعشرين دقيقة شماليّ الخط

شعرٌ

ومن لا يزَلْ ينقادُ للغيِّ والصِّبا سيُلقَى على طولِ السلامةِ نادِمًا



الفصل السابع

ما صادفهُ روبنصن كروزي من الصعوبات لعدم وجود آلات في حوزتهِ

وبعد ان صرفت في الجزيرة عشرة ايام او اثني عشر يومًا جال في خاطري امرٌ مهمٌّ وهو حساب الوقت واذ لم يكن عندي ورق ولا حبر ولا اقلام خشيت من ان اضيع الحساب ولا اعود اميّز بين ايام الآحاد وباقي ايام الاسبوع. فلكي لا اقع في هذا المحذور اخذت خشبة كبيرة مربّعة وجعلتها على هيئة صليب كبير وركزتها عمودًا على الشاطي في الموضع الذي خرجت منهُ اولًا الى البر وخططت عليها بسكيني باحرف كبيرة حافرًا فيها هذه العبارة وهي اني خرجت هنا الى البر في ٣٠ ايلول سنة ١٦٥٩. وكان ذلك افتتاح حسابي. ثم كنت كل يوم افرض بسكيني فرضًا واحدًا على جوانب تلك الخشبة المربعة فكان كل فرض كناية عن يوم. ولاجل تمييز يوم الاحد عن باقي الايام كنت اجعل لهُ فرضًا اطول ولاجل تمييز اليوم الاول من الشهر كنت افرض لهُ فرضًا اطول من فرض يوم الاحد. وهكذا مسكت بكل تدقيق حساب الايام والاسابيع والاشهر والسنين

وفيما كنت ذات يوم اقلّب ما في الصناديق التي احضرتها من المركب وجدت اتفاقًا اشياءَ كثيرة قليلة الثمن الا انها كبيرة النفع. ومن جملة ما وجدتهُ اقلام وحبر وورق وعدة ربطات في صناديق الرئيس وثاني الرئيس والطوبجي والنجار وبركاران او ثلثة وبعض آلات هندسية ونظارات وخارطات وكتب في سفر البحر وثلث نسخ من الكتاب المقدس كانت قد أُرسلت لي من بلاد الانكليز بين بضائعي وكنت قد وضعتها بين امتعتي وبعض كتب بلغة البرتوغال ومن جملتها كتابان او ثلثة في صلوات بابوية وكتب اخرى عديدة. فميّزت تلك الاشياءَ جانبًا ووضعتها معًا بكل حرصٍ الى حين الحاجة. ولا يجب ان انسى انهُ كان عندنا في المركب كلب وقطّان وساذكر شيئًا من قصتها المشهورة في محلهِ. فاما القطّان فاني كنت قد اخذتهما معي الى البر. واما الكلب فانهُ كان قد ثار من المركب الى البحر

ولحقني سابحًا الى الشاطي وذلك ثاني يوم نزولي بوسقتي الاولى الى البر. واقام عندي مدة سنتين في الجزيرة وقد خدمني بكل امانة ونصاحة. فكان ياتيني بكل ما ارغبهُ مما كان في طاقتهِ ويقوم لي مقام جليس وعشير بقدر استطاعتهِ. الا انهُ لم يكن يكلمني كما كنت ارغب. وقد ذكرت اني وجدت حبرًا واقلامًا وورقًا واقول اني استخدمت ذلك حق استخدامهِ. وسيظهر جليًا اني كنت عند وجود الحبر اقيد كل شيء بالتدقيق الواجب ولكن بعد ان نفد حبري لم اعد استطيع ذلك. ولم اقدر على عمل حبر ولا بواسطة من الوسايط التي اخترعتها. وذلك ذكرني باني لا ازال مع كل ما كنت قد جمعتهُ في احتياج الى امور كثيرة من اخصها الحبر. وكذلك كنت مفتقرًا الى مرّ او رفش ومعول ومجرفة لاجل نقب الارض وجرف التراب والى ابر ودبابيس وخيطان. واما الحوايج والملابس الكتانية فاني تعلمت سريعًا ومن دون صعوبة الافتقار اليها

ولعدم وجود الآلات كنت اجد صعوبة في كل عملٍ اعملهُ حتى اني صرفت نحو سنةٍ كاملة في تتميم حوشي الصغير وتصوين منزلي. وكانت العوارض والاعمدة غليظة الجرم ثقيلة الحمل حتى اني اقمت زمانًا طويلاً في قطعها وتسويتها في الحرش وزمانًا اطول جدًا في نقلها الى محل اقامتي. فكنت اصرف احيانًا يومين في قطع واحد منها ونقلهِ ويومًا ثالثًا في ركزهِ في الارض. وكنت في اول الامر اركزها في الارض بواسطة قطعة ثقيلة من الخشب ولكنني في ما بعد صرت استعين بمطرقة كبيرة من الحديد ومع ذلك قاسيت في ركزها صعوبات واتعابًا كثيرة. غير اني لم اكن ابالي بطول المدة التي كنت اصرفها في عمل الاشياء لاني كنت ارى ان لي وقتًا كافيًا لعملهِ ولم تكن لي مصلحة اتسلى بها بعد الفراغ منهُ الا الطواف في الجزيرة في طلب الصيد كما كنت افعل ذلك كل يوم

ثم اخذت اتامل بالغمّ والهمّ في الحالة التي كنت عليها والظروف التي وصلت اليها. وادوّن قصتي لا بقصد ترك ذلك لمن ياتي بعدي لاني كنت كمن لا يكون وراءهُ ورثاه كثيرون بل بقصد تخليص افكاري من الانصباب عليها

يوميًّا والانزعاج بها . واذ كان عقلي قد صار قادرًا على ضبط حواسي المؤيسة اخذت اسلّي نفسي بقدر استطاعتي واضع الردي مقابل الحسن ليكون لي ما اميّز بهِ حالي من الاردأ منها . فرسمت بكل دقّة ومع نفي الغرض ما كان لي من الراحة والسعادة مقابل ما كان عليَّ من التعب والشقاوة نظير دائن ومديون تحت الشر والخير هكذا

الشر	الخير
لقد أُلقيت على جزيرة ردية مقفرة من دون ادنى امل بالنجاة	الا انني لم ازل حيًّا . ولم اغرق كما غرق جميع رفاقي في المركب
لقد أُفرِزت من العالم باسرهِ وصرت وحيدًا لاكون تعيسًا	الا انني أُفرِدت من جميع رجال المركب ونجوت وحدي من الموت . والذي انقذني من الموت بنوع عجيب بقدر ان ينقذني من هذه الحالة
لقد انفصلت عن الجنس البشري ونُفيت من عشرة بني البشر لاكون متوحدًا	الا انني لم أَمُت جوعًا في مكان عقيم لا ينتج قوتًا
ليست لي ثياب اكتسي بها	الا انني في بلاد حارة حتى لو كانت لي ثياب كنت بالكد اقدر ان اطيقها على بدني
ليست لي وسايط اقي بها نفسي من الوحوش البرّيّة والقوم البرابرة	الا انني قد طُرِحت في جزيرة لا ارى فيها وحوشًا بربة توذيني كالتي رايتها في شطوط افريقية فماذا كانت حالي لو انكسر بي المركب هناك
ليس لي انسان يكلّمني ويفرج كربتي	الا ان الله قد ارسل بنوع عجيب المركب الى القرب من البر حتى قدرت ان اخرج منهُ اشياء كثيرة لسدّ احتياجاتي او لتمكيني من سدّها ما دمت حيًّا

وبالاجمال اني صرت في حالة تعيسة هيهات ان يوجد في العالم حالة نظيرها . الا انهُ يوجد فيها امور سلبية او ايجابية تستحق ان يُشكَر الله لاجلها . ولتكن هذه مثالًا لاشقى الحالات في هذه الحيوة ممّا يمكننا دائمًا ان نجد فيهِ شيئًا نتعزّى بهِ ونقيّدهُ عند وصف الخير والشر في جانب الإلَي من الحساب

واذ وطّنت نفسي حينئذٍ على الارتضاء بحالي وكففت عن النظر نحو البحر لارى

مركبًا قادمًا او مارًّا من تلك الجهات اخذت اجتهد في تدبير امر معيشتي وتسهيل اموري بقدر الامكان

وقد مرَّ عليك وصف منزلي وعرفت انهُ كان خيمة بجانب صخر محاطة من كل جهة بدارة متينة من الاعمدة والقلوس. وكنت حينئذٍ قد اقمت حول تلك الدارة من خارج شبه حايط من تراب على سمك نحو قدمين ومن ثم صار يحقُّ لي ان اسمي ذلك سورًا. ثم بعد سنة ونصف تقريبًا سقفتها باخشاب وغطيتها باغصان من الاشجار وغير ذلك مما وصلت اليهِ يدي وقايةً لها من المطر الذي كان في فصل من فصول السنة قاسيًا جدًّا

وقد علمت مما سبق ذكرهُ كيف ادخلت جميع امتعتي الى ذلك الحوش وتلك المغارة التي حفرتها في الصخر وراءَهُ. واعلم الآن ان امتعتي كانت في اول الامر موضوعة على غير نظام ولا ترتيب ولذلك كان الحوش مملوًّا بها حتى انهُ لم يكن لي مكان التحرك فيهِ. فاخذت اوسع دائرة مغارتي واعمّقها واذ كانت ارضها رملية رخوة كانت سهلة المراس للعمل. واذ صرت اشعر بامان من هجمات الوحوش المفترسة فتحت بابًا في الصخر من الوراء كنت ادخل واخرج منهُ وبذلك اتّسع الموضع لوضع امتعتي

ثم باشرت في عمل ما رايت اني اكثر اضطرارًا اليهِ وعلى الخصوص الكرسي والطاولة. لاني بدون ذلك لم آكن اتهنَّأ بعيشتي ولا كنت اقدر ان اكتب او آكل او اتمّ بعض اعمالٍ بلذةٍ وسهولةٍ وراحة. ومع اني لم اكن نجارًا ولا ابن نجار ولا امسكت قط آلةً بيدي وجدت اني مع المواظبة بالصبر والامتحان مرة بعد مرة صرت مع تمادي الزمان قادرًا على عمل كل ما تحوجني الضرورة اليهِ وعلى الخصوص اذا كانت لي آلات مناسبة اعالجهُ بها. وقد عملت اشياءَ كثيرة من دون آلات. وعملت بعض اشياءَ ولم تكن لي آلةٌ اعالجها بها الا منجل وفاس وذلك على طرق ربما لم أُسبَق اليها. فكنت اذا احتجت الى لوح مثلًا اذهب الى الحرش واقطع شجرة وانجر جانبيها بالفاس حتى ترقَّ ثم انظفها واجلوها بالمنجل.

الا اني لم اكن استطيع ان اصطنع من الشجرة مهما كانت غليظة الا لوحًا واحدًا وذلك يحتاج كما لا يخفى الى تعب جزيل وزمان طويل. ولما كان وقتي قليل القيمة وكانت الاشجار لا قيمة لها بالكلية كنت لا ابالي بما يكلفني اياهُ لوح واحد من الوقت والاشجار. ومما تقدم تتضح هذه القضية وهي ان كل انسان يمكنهُ بواسطة المداومة والاجتهاد واستعمال قوى عقلهِ وجودة حكمهِ ان يتقن مع التمادي كل صناعة تقتضي آلاتٍ. وذلك لان العقل هو اساس ومصدر لكل مساحة او صناعة مبنيَّة على اصول مساحيَّة

فاستخدمت لعمل الطاولة والكرسي قطعًا من الاخشاب التي كنت قد اتيت بها على طوفي من المركب. ولما كثرت عندي الالواح التي عملتها من الاشجار عملت رفوفًا عرض الواحد منها قدم ونصف واضعًا احدها فوق الآخر على حايط واحد من مغارتي ووضعت عليها ما كان لي من الآلات والمسامير والحديد كلًّا على حدة لاجل سهولة تناولها عند الحاجة. ثم غرزت اوتادًا على حائط آخر منها علَّقت عليها بواريدي مع ما يمكن تعليقهُ من الاشياء الباقية. فكنت ترى مغارتي كأنها مخزن قد حوى جميع الادوات والمواعين اللازمة. وكان يسرُّني جدًّا ان ارى حوائجي مرتبة هكذا وكثيرةً بهذا المقدار

وقد ابتدأت حينئذٍ ادوّن يومًا فيومًا اخبارًا عن اعمالي واشغالي بالتفصيل في دفتر سميتهُ جرنالًا اي يومية. ولم ابتدئ بهذا الجرنال قبلًا. وذلك اولًا لاني كنت حينئذٍ مرتبكًا في اموري ومضطربًا في افكاري ثانيًا حذرًا من ان يمتلئ جرنالي من امور كثيرة لا لذة فيها ولا فائدة منها نظير الاخبار الآتية

في ٣٠ ايلول خرجت الى البر ونجوت من الغرق الا انني لم اشكر الله ولا حمدتهُ على ذلك بل انما بعد ما استفرغت الملح المالح الذي دخل جوفي من البحر بكثرة وصحوت قليلًا اخذت اركض على الشاطي كمجنون واصفق بيدي والطم راسي ووجهي وانوح نادبًا شقاوتي وسوء حظي ونحسي وما زلت افعل ذلك حتى اعييت من التعب وكدت اسقط على الارض مغشيًّا عليَّ. فانطرحت مضطجعًا على

الارض طلبًا للراحة الا اني لم أنمَ خوفًا من ان يفاجيني وحش كاسر او انسان متوحش فيفترسني. ثم بعد ذلك بايام بعد ما اخرجت كل ما امكنني اخراجهُ من المركب صعدت على راس اكمةٍ لكي اشرف على البحر لعلي ارى مركبًا قادمًا او مجتازًا. وقد تراءَى لي عند ذلك كاني كنت ارى على بعد قاصٍ قلعًا فسرَّني ذلك جدًّا. فلبثت مدَّة انظر الى ذلك القلع محدّقًا نظري فيهِ حتى كدت أُبلَى با لعمى من شدة التحديق واذا بهِ قد غاب بغتةً متواريًا عن عياني. فجلست عند ذلك انوح وابكي كولد صغير نادبًا سوء حظي. فكنت بواسطة حماقتي هذه ازيد شقاوتي واعظّم مصيبتي واحزاني وهلمَّ جرًّا من الاخبار التي ربما لا تروق لناظر احد من الناس. واما الآن فاذ كنت كاني قد استظهرت غالبًا على تلك الحاسيات والعواطف ورتبت امور بيتي ومنزلي واصطنعت طاولة وكرسيًا وصار كل ما حولي من الاثاث وغيرهِ في حالة منتظمة مرضية اخذت في مسك جرنالي. وساقدم لك صورة ذلك الجرنال الذي لم ينقطع الا بعد ان نفد حبري. وقد راجعت فيهِ ذكر كثير من القضايا المارّ ذكرها تكميلًا لهُ وايفاءً بحق المصلحة

الفصل الثامن

جرنال روبنصن كروزي

في ٣٠ ايلول سنة ١٦٥٩. انا المسكين الشقيّ روبنصن كروزي انكسر بي المركب من جرى نوءٍ هائل اصابنا ونحن على ظهر البحر فخرجت الى هذه الجزيرة الموحشة التعيسة التي سميتها بعدلٍ جزيرة اليأس وذلك بعد ما غرق جميع ارفاقي في ذلك المركب وكنت انا قد اشرفت على التلف والهلاك نظيرهم. فصرفت بقية ذلك النهار في الغمّ والهمّ والاكدار ولم يكن لي طعام اقتات بهِ ولا ثياب اكتسي بها ولا بيت آوي اليهِ ولا اسلحة ادافع بها عن نفسي ولا كان لي ادنى امل بالفرج. فلم اكن ارى شيئًا امامي الا الموت جوعًا او بيد قوم برابرة او وحوش مفترسة. وما صدقت

ان خيَّم الظلام حتى صعدت الى راس شجرة هناك هربًا من عدوٍ يفاجيني ونمت فيها نومًا مليًّا مع انهُ لم ينقطع المطر تلك الليلة كلها

في ١ تشرين الاول . هببت صباحًا منتبهًا من النوم فرايت ان المركب قد طفا ليلاً عائمًا على الماء ودفعتهُ الرياح نحو الشاطي حتى صار قريبًا من الجزيرة . فاخذت اعلّل نفسي بامل الذهاب اليهِ عند سكون الريح لاستحضار شيء من القوت والاثاث . واذ رايتهُ صحيحًا لم يتكسر تجددت احزاني على رفاقي وتاسفت من جرى ما وقع منا من الخطا في الخروج منهُ بالسرعة مع اننا لو بقينا فيهِ لكنا خلصنا كلنا او خلص البعض منا على الاقلّ فكنا اصلحناهُ او بنينا من بقاياهُ قاربًا كبيرًا يحملنا الى جهة اخرى من الدنيا . فقضيت اكثر ذلك النهار بهذه الافكار المزعجة . الاّ انني اخيرًا مشيت على الرمل بقدر الامكان ثم اخذت اسبح قاصدًا المركب . وكانت في ذلك الوقت امطار ولكن من دون رياح

من ا تٔ الى ٢٤ منهُ . صرفت هذه الايام في نقل الاشياء من المركب على اطواف اصطنعتها لهذه الغاية . وقد حصلت امطار غزيرة في تلك الايام الا انهُ كان بينها اوقات صحو . والظاهر انهُ كان حينئذٍ فصل الشتاء في تلك الجزيرة

في ٢٠ تٔ . كبا احد اطوافي بكل ما فيهِ من الوسق . ولكن اذ كانت المياه هناك غير عميقة وكان اكثر الوسق من امتعةٍ ثقيلة جمعت كثيرًا منها عند زوال المد

في ٢٥ تٔ . امطرت النهار كلهُ والليل واشتدت الرياح فكسّرت المركب قطعًا وبددتهُ ايَّ تبديد . فلم أَعُد اراهُ بل انما رايت فيما بعدُ قطعًا منهُ بالقرب من الشطّ . وقد صرفت ذلك النهار في تغطية واحراز ما خلصتهُ من الاشياء

في ٢٦ تٔ . صرفت ذلك النهار كلهُ في الجولان على الساحل مفتشًا على موضع استوطن فيهِ . وكنت مهتمًّا في ما يقيني من هجمات عدوٍ يدهمني ليلاً . فوجدت عند المساء مكانًا في لحف صخر اعجبني فعزمت على النزول هناك وتحصين قطعة من تلك الرقعة بسورٍ منيع وصنعت لها تخمًا على هيئة نصف دائرة تحديدًا لها

من ٢٦ تٔ الى ٣٠ منهُ . نقلت حوايجي ومواعيني الى منزلي الجديد وقد

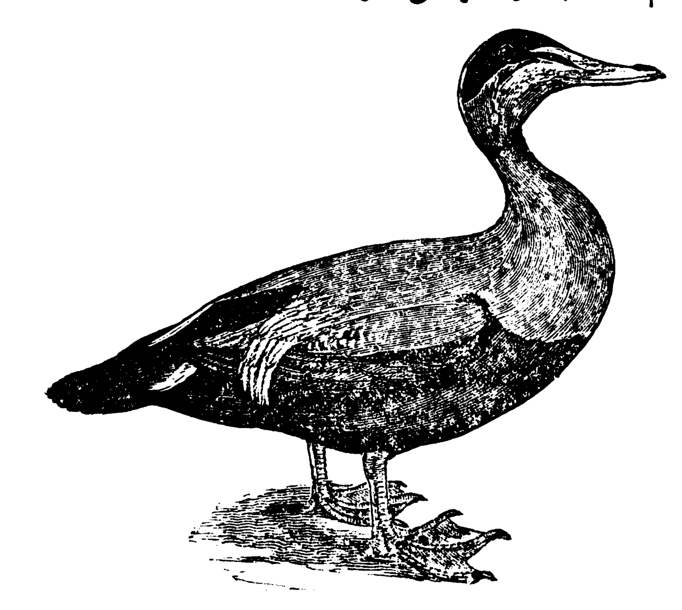
حصلت امطار كثيرة في بعض تلك الايام

في ١ ٣ تٔ . ذهبت صباحًا ببارودتي متوغلاً في الجزيرة طلبًا لاجناسها ورغبةً في الصيد . فاصطدت عنزة وتبعني جديها الى المنزل فذبحتهُ اخيرًا لانهُ كان صغيرًا رضيعًا لا ياكل شيئًا

في ١ تشرين الثاني . نصبت خيمتي في لحف صخر ونمت فيها اول ليلة . وقد كبَّرت الخيمة بقدر الامكان وغرزت اوتادًا متينة لتعليق ارجوحتي البحرية اي سريري الذي كنت انام عليهِ

في ٢ تٔ . حصنت نفسي بان صففت حولي ما كان عندي من الصناديق والالواح والاخشاب وذلك على شكل دائرة

في ٣ تٔ . خرجت ببارودتي فاصطدت طائرين من الاوزّ وكان لحمها جيدًا لذيذًا . ثم بعد الظهر شرعت في عمل طاولة



في ٤ تٔ . ابتدات بهذا الصباح ارتب اوقات الشغل والصيد والنوم والراحة .

فكنت كل يوم صباحًا اذهب ببارودني اذا لم تمطر واصرف ساعتين او ثلث ساعات في الصيد ثم ارجع واشتغل الى الساعة الخامسة من النهار ثم آكل مما حضر ثم انام من الساعة السادسة الى الساعة الثامنة لان الحرّ كان شديدًا ثم ارجع الى الشغل . وقد صرفت كل اوقات الشغل في هذا النهار والذي بعدهُ في عمل الطاولة لاني لم اكن ماهرًا بعدُ في صناعة النجارة . الا ان الوقت والضرورة جعلاني فيما بعد نجارًا ماهرًا وصانعًا طبيعيًّا كاملاً . ولا اشك انهما يجعلان غيري كذلك عند الاقتضاء اي اذا احوجهم الدهر الى ذلك نظيري

في ٥ تَ١ . خرجت ببارودتي وكلبي فاصطدت قطًّا فكان جلدهُ ناعمًا الا ان لحمهُ كان رديًّا لا يُوكَل . وكانت عادتي ان اسلخ كل ما صدته من الحيوانات واحفظ جلودها . وفيما كنت راجعًا من الصيد امشي على الشاطي صادفت طيورًا كثيرة من طيور البحر لم اعلم ما هي . الا اني رايت بغتةً طائرين لم اعلم جيدًا ما هما وفيما كنت محدّقًا فيهما وكدت اخاف منهما غاصا بغتة في الماء وهكذا فازا هذه المرة بالنجاة مني

في ٦ تَ١ . بعد رجوعي من الصيد صباحًا اخذت ايضًا في معالجة طاولتي حتى تممتها . الا انها لم تعجبني ولم يمضِ الا مدة قصيرة حتى تعلمت كيف اصلحها

في ٧ تَ١ . كان الفلك رايقًا وانقطع المطر . فصرفت كل هذا اليوم واليوم الثامن

الى اليوم العاشر وجزءا من اليوم الثاني عشر في عمل كرسيٍّ . واما اليوم الحادي عشر فلم اشتغل فيهِ لانهُ كان يوم الاحد على حسابي . وبعد تعب وارتباك عظيم تممت ذلك الكرسيَّ . وكان شكلهُ لا باس بهِ . الا انهُ لم يعجبني وكنت قد فككتهُ مرات كثيرة قبل ان تممتهُ

تنبيهٌ * اني اهملت بعد مدة قصيرة اعتبار ايام الآحاد . فلم أَعُد اضع لها علامة على العمود ولا اميّزها عن باقي الايام

في ١٣ تʼ . حصلت امطار غزيرة اراحتني وبردت بها الارض . الا انها كانت مصحوبة برعود وبروق مهولة ازعجتني جدًّا لاني خفت على البارود . فلما انقطعت الامطار اخذت في الحال افرّق البارود الى كميّات قليلة دفعًا للخطر

من ١٤ الى ١٦ تʼ . صرفت هذه الايام الثلثة في عمل عُلَب صغيرة مربَّعة تسع الواحدة منها من الاربع الى الخمس اواقيَّ من البارود . ولما فرغت من عملها ملأتها بارودًا وفرّقتها في اماكن حريزة بعيدة بعضها عن بعض بقدر الامكان . وفي احد الايام المذكورة اصطدت طائرًا كان جيّد اللحم الا اني لم اعلم ما هو

في ١٧ تʼ . شرعت في حفر مغارة وراءَ خيمتي توسيعًا لمنزلي

تنبيهٌ * شعرت بالافتقار الى ثلثة اشياءَ استعين بها في امر الحفر وهي معول ومجرفة او رفش وعربة او قفة . فتوقّفت عن العمل وكنت اتبصر كيف اتوصّل الى سدّ هذه الاحتياجات . اما المعول فاني استغنيت عنهُ بالمخل وان يكن ثقيلاً صعب المراس . واما المجرفة فلم اعلم ماذا استخدم مكانها مع انها كانت ضرورية جدًّا ولم يكن ممكنًا النجاح في عمل بدون الاستعانة بها او بما يقوم مقامها

في ١٨ تʼ . بينما كنت افتش في الاحراش وجدت شجرة يسمّونها في برازيل بشجرة الحديد وذلك لشدة صلابتها وثقلها . فقطعت منها بعد تعب عظيم قطعة كادت فاسي تتعطّل بسببها . ثم حملت تلك القطعة الى منزلي وذلك بصعوبة لانها كانت ثقيلة جدًّا . وصرفت زمنًا طويلاً في معالجتها وتجبيرها حتى صارت رفشًا . فكانت يد ذلك المرفش تشبه ايدي رفوشنا في انكلترا الا ان راحتهُ كان قفاها غير

مصفح بالحديد بخلاف رفوشنا . ولهذا ما كان يقيم مدة طويلة الاَّ انهُ كان صالحًا للاعمال التي قصدت استخدامهُ لها . واظن انهُ لم يوجد قط رفش عُمِل على هذا المنوال وكلَّف هذا المقدار من الشغل والوقت في عملهِ . وهكذا سدَّدت بابين من الابواب الثلثة فبقي عليَّ باب ثالث وهو العربة او القفة . اما القفة فكان عملها من الامور المستحيلة لانهُ لم يكن عندي موادُّ لينة كالخُوص مثلاً تصلح لذلك ولا كان احد عرف بوجود ذلك في الجزيرة . واما العربة فكان يتراءَى لي انهُ يمكنني عمل كل اجزاءِها الاَّ الدولاب فانهُ لم تكن لي استطاعة على عملهِ ولا معرفة شيء من امرهِ . وعدا ذلك لم تكن لي وسيلة لعمل مِحوَر يدور فيهِ الدولاب ومن ثم عدلت عن عمل عربة واصطنعت لنقل التراب الى خارج المغارة ماعونًا يشبه النقير الذي يحمل فيهِ الفعلة الطين للبنَّائِين . ولم اجد في ذلك صعوبة بقدر ما وجدتهُ في عمل الرفش . الا انني صرفت في عمل النقير والرفش وفي معالجة العربة من دون فائدة مقدار اربعة ايام على الاقلّ . وذلك ما عدا الوقت الذي كنت اصرفهُ في المشي صباحًا ببارودتي الذي لم اكن اتركهُ الا نادرًا وقلَّما رجعت منهُ من دون ان آتي بشيء للاكل

في ٢٣ تا . لما انتهيت من عمل تلك الآلات التي بسببها كان شغلي قد توقف رجعت الى عملي الذي كنت قد شرعت فيهِ فكنت اشتغل كل يوم بقدر طاقتي ووقتي فصرفت ثمانية عشر يومًا كاملة في توسيع وتعميق مغارتي لكي تسع امتعتي بسهولة

تنبيهٌ * اشتغلت كل تلك المدة في توسيع مغارتي بحيث تكون كافية للاستخدام نظير مخزن ومطبخ وبيت سُفْرة وبيت موُّنة او كلار . وقد جعلت الخيمة محلاً لاقامتي ونومي . الا انهُ احيانًا في فصل الشتاءِ كانت تحصل امطار شديدة حتى اني لم اكن استطيع ان امنع المطر عني فاضطرَّني الامر في ما بعدُ ان اغطّي كل موضعي داخل الحوش ساقفًا اياهُ بعوارض طويلة واغصان من الاشجار حتى صار نظير مظلّة او كوخ

في ١٠ كانون الاول . بينما كنت افتكر بان مغارتي قد كملت اذا بكمية عظيمة

من التراب والردم قد سقطت بغتة من سقفها ومن احد جوانبها . فكأني كنت قد كبّرتها اكثر من الاقتضآء . فاعتراني خوف من ذلك وليس من دون سبب لاني لو بقيت تحتها لما احتجت ابدًا الى حفّار قبر . ومن جرى هذه الحادثة صار عندي شغل كثير . لاني اضطررت ان اعزل الردم الذي سقط وان اصلح السقف بحيث لا يعود يسقط مثل ذلك في ما بعد

في ١١ كٔ . اخذت اشتغل في تحصين المغارة . فنصبت دعامتين او عمودين من الارض الى السقف وقد وضعت على راس كل منهما خشبة عرضًا . فاكملت ذلك في اليوم التالي . ثم زدت عدد الاعمدة واضعًا على راس كل منها عارضة كما تقدم وفي نحو اسبوع صار السقف متينًا امينًا . واذ كانت الاعمدة صفوفًا منتظمة استخدمتها في تقطيع مغارتي الى بيوت صغيرة

من ١٧ الى ٣٠ كٔ . صرفت هذه الايام في تركيب رفوف وغرز مسامير لاجل تعليق كل ما يمكن تعليقهُ . فصارت امتعتي حينئذٍ مرتبةً قليلاً في الداخل

في ٢٠ كٔ . نقلت كل شيء الى المغارة وشرعت في فرش منزلي وصففت قطعًا من الخشب لاجل وضع ماكولاتي عليها . الا ان الاخشاب صارت قليلة جدًّا عندي . ثم اصطنعت طاولة اخرى

في ٢٤ كٔ . حصلت امطار كثيرة الليل كلهُ والنهار فلم اخرج خارج منزلي

في ٢٥ كٔ . مطرت النهار كلهُ

في ٢٦ كٔ . لم تَمطُر . وكانت الارض ابرد والطف كثيرًا من السابق

في ٢٧ كٔ . اصطدت عنزة صغيرة وكسرت ساق اخرى حتى صارت تعرج فامسكتها واقتدتها بخيط الى المنزل . ولما وصلت الى المنزل جبرت ساقها المكسورة بوضع رفادة على موضع الكسر

صح اعتنيت جيدًا بتلك العنزة العرجآء فلم تَمُتْ وبعد مدة صحّت ساقها وصارت قويةً كعادتها . واذ بقيت عندي وكنت ادلّلها كل تلك المدة صارت انيسة اهليّةً فكانت ترعى في البقعة الخضرآء عند بابي من دون قيد ولا تهرب .

وهذه اول مرة خطر فيها ببالي ان اربّي بعض حيوانات واجعلها اهليَّةً ليكون عندي ما اقتات بهِ عند ما ينفد ما كان في حوزتي من البارود والخردق

من ٢٨ الى ٣١ كـ ا. كان الحرُّ شديدًا ولم يكن هوآءٌ ولا نسيمٌ فكنت لا اخرج خارج منزلي الا مسآء وذلك لاجل الصيد والتنزُّه. وقد صرفت تلك الايام في ترتيب الاشيآء داخلاً

في ١ كانون الثاني. كان الحرُّ مشتدًا كالايام السابقة. فخرجت ببارودتي صباحًا ومسآء واسترحت مستكنًا في منزلي في اواسط النهار. وابعدت مسآء حتى وصلت الى المروج التي في اواسط الجزيرة فوجدت هناك كثيرًا من المعزى ترعى. وكانت تلك المعزى برّيةً نافرةً يصعب الدنوُّ منها ومسكها. ثم رجعت في اليوم التالي الى هناك بكلبي لاجل صيد شيء منها. ولكن لما ثار الكلب عليها حوَّلت وجوهها نحوهُ وتهيأَت للدافعة فرجع عنها خاسئًا خوفًا من ان تسطو عليهِ

في ٣ كـ ا. شرعت في عمل سياجٍ او سورٍ. واذ كنت لا ازال في احتساب من ان يدهمني عدوٌّ مفاجئًا اياي حصنت ذلك السور تحصينًا محكمًا منيعًا

صح لا حاجة الى ذكر ما ذكرتهُ قبلاً من جهة السور واقول الآن اني صرفت من ٣ كـ ا الى ١٤ نيسان في اقامة السور وتتميمهِ مع ان مساحتهُ لم تكن اكثر من ثلثة وثلثين ذراعًا. وكان على شكل نصف دائرة ممتدًا من الجانب الواحد من التلّ الى الجانب الاخر منهُ على بعد ستة عشر ذراعًا من وجههِ. وكان باب المغارة في الوسط من الورآء

وكنت اشتغل كثيرًا في تلك الايام الا ان الامطار كانت تعيقني اوقاتًا عدة ايام واوقاتًا عدة اسابيع متوالية. وكنت احسب اني لا اكون في امان تامٍّ الا بعد قيام السور وتتميمهِ. ومما يصعب تصديقهُ الانعاب التي كابدتها في عمل كل شيء وعلى الخصوص قطع الاعمدة ونقلها من الحرش وركزها في الارض لانها كانت اكبر مما كان يقتضيهِ الحال كما ظهر لي في ما بعد

فلما انتهيت من عمل السور وتحصينهِ من خارج بسور من التراب حتى صار

مضاعفًا ومنيعًا اطمأنَّ خاطري وطابت نفسي وقرَّت عيني وقلت انهُ اذا اتفق قدوم احد الى الشاطي لا يمكنهُ ان يعرف بوجود منزل في تلك الرقعة . وفائدة ذلك السور الخارجي الذي عملتهُ من التراب ستظهر مما سيرد بيانهُ في مكانهِ

وكنت في تلك الايام اجول كل يوم في الجزيرة طلبًا للصيد اذا لم يمنعني المطر من ذلك . فكشفت اشياء كثيرة مفيدة لي ومن جملتها اليمام اي الحمام البرّي . وكان من عادة هذا الطائر ان يتخذ لنفسهِ بيوتًا او اوكارًا في شقوق الصخور لا في الاشجار خلافًا لباقي الطيور فامسكت بعض زغاليل منهُ وكنت ازقّها واربّيها حتى صارت انيسةً اهليةً . الا انها لما كبرت طارت عن آخرها هاربةً الى الفلاة طلبًا للقوت لانهُ لم يكن عندي في اول الامر ما اطعمها اياهُ مما تحبّهُ . وكثيرًا ما قصدت في ما بعد الى اوكار اليمام في الصخور واتيت بافراخها وذبحتها واغتذيت بلحومها اللذيذة

ولما شرعت في ترتيب امور منزلي وجدت ان اشياء كثيرة تعوزني ولا وجود لها عندي . وكان يلوح لي انهُ لا استطاعة لي على ايجادها ولا اصطناعها . فاني لم استطع ان اصطنع برميلًا مطوّقًا مثلًا . وكان عندي برميل او برميلان كما ذكرت قبلًا الا اني لم استطع ان اصطنع برميلًا نظيرها مع اني اجتهدت في ذلك جدًّا وصرفت عدة اسابيع في معالجتهِ . فلم استطع ان اركب راسيهِ وعوارضهُ تركيبًا محكمًا يمنع زرب الماء واخيرًا عدلت عن ذلك عجزًا وتقصيرًا . وقد كنت في حيرة عظيمة من جهة الضوء الصناعيّ فاني لعدم وجود ذلك عندي كنت اذهب الى النوم عند العشوة اي بعد المغرب بساعة . فخطر ببالي قرص الشمع العسلي الذي اصطنعت منهُ شموعًا للضوء في سفرتي الافريقية وكنت قد بعت الرئيس البرتوغالي ما بقي منهُ فتاسفت على ذلك . ولم يبقَ لي حينئذٍ ما استخدمهُ لذلك الا الشحم . ولهذا كنت كلّما ذبحت عنزة اوفّر شحمها لهذه الغاية . وهكذا بواسطة الشحم وسراج صغير اصطنعتهُ من ترابٍ وجفّفتهُ في الشمس وخيوط معربسة صنعت منها فتيلة صار عندي ضوء الا انهُ لم يكن رائقًا ولا ثابتًا كضوء الشمع كما لا يخفى

ثم بينما كنت ذات يوم افتش بين حوائجي وجدت اتفاقًا كيسًا صغيرًا كان مملوًّا من الحبوب مونةً للدجاج كما سبقت الاشارة الى ذلك. وكانت الجرذان قد قضمت ما كان باقيًا فيهِ فلم يكن هناك الا قشور وغبرة. فلما اردت استخدامهُ لامر آخر نفضت تلك الزبالة منهُ في جوار منزلي في لحف التلّ وذلك قبل وقوع المطر السابق ذكرهُ بقليل. ثم بعد ذلك بنحو شهر من الزمان اذ كنت قد نسيت امر نفضي للكيس رايت نباتًا اخضر خارجًا من الارض. فظننت ان ذلك كان هناك قبلاً ولم ارهُ. ولم يمضِ الا قليل حتى ظهرت في رؤُوسهِ عشر سنابل او اثنتا عشرة سنبلة تشبه سنابل الشعير الاوروبيّ او شعيرنا الانكليزي فاستغربت ذلك جدًّا وحرت في امري غير عالم من اين اتي ذلك الى هناك

وكنت في ذلك الوقت لا اسأَل عن امور الديانة ولا كانت حقائقها تخطر ببالي الا نادرًا. وكنت انسب كل ما حصل لي الى الصدفة. ولم اكن التفت الى مقاصد العناية الالهية في تلك الامور ولا اسأَل عن قضاياهُ تعالى في تدبيرهِ العالم. ولكن لما رايت الشعير ينبت هناك مع علمي بان الحبوب لا تعيش في تلك الجزيرة وعدم معرفتي كيف اتى الى ذلك الموضع اخذني العجب من ذلك واستغربت هذا الامر غاية الاستغراب واخيرًا حكمت بان الله انما انبتهُ باعجوبة من دون واسطة البذار لكي اقتات بهِ في ذلك المكان العقيم المقفر

فاثَّر ذلك في قلبي فاخذَت الدموع تذرف من عينَيَّ واخذت اهنيءُ نفسي بحدوث هذه الاعجوبة لاجلي. وممَّا زادني عجبًا هو اني رايت بالقرب من الشعير في لحف التلّ ايضًا نباتًا غيرهُ ظهر لي بعد تحقيق النظر فيهِ انهُ ارزٌ لما كان من المشابهة بينهُ وبين ما كنت قد رايتهُ من نبات الارزّ في سواحل افريقية

ومع اني كنت احسب ان تلك الاشياء انما وجدت باعجوبة مجردًا لاجلي انا التي كنت لا اشك في وجود غيرها في الجزيرة فاخذت افتّش في كل قرنة وتحت كل صخر من الاماكن التي تردَّدت اليها في ما مضى لعلي اجد غيرها فلم اجد. واخيرًا خطر ببالي اني نفضت الكيس الذي كانت فيهِ مونة الدجاج في ذلك الموضع

وعند ذلك اخذ عجبي يتناقص. ويجب ان اقرّ بانهُ حالما ظهر لي انهُ لم يكن في ذلك شيءٌ خارق العادة اخذ حمدي لعناية الله يضعف شيئاً فشيئاً والحال انهُ كان يجب عليّ ان احمد الله لاجل عنايتهِ هذه الفائقة التي حفظت تلك الحبوب القليلة من الجرذان فلم تاكلها مع البقية وان احسبها كالمنّ كأنها نازلة من السماء. ولست اشك الان ان تلك العناية هي التي ارشدتني الى نفض الكيس في ذلك الموضع الجيد في ظل التلّ حتى نبتت تلك الحبوب حالاً كما اني لست اشك اني لو نفضتهُ في موضع آخر في ذلك الوقت لكانت تلك الحبوب احترقت من حرارة الشمس وتلفت بالكلية

وفي اواخر شهر حزيران ادركت تلك السنابل فجمعتها واذخرتها بحرص ناوياً على زرعها ايضاً لكي تكثر فيصير عندي منها ما يكفيني لعمل الخبز. ولم آكل شيئاً من تلك الحبوب الا في السنة الرابعة وذلك بالتوفير لاني كنت قد اضعت كل ما زرعتهُ منها في السنة الاولى لاني زرعتهُ في وقت غير صالح لهُ فلم ينبت. وكان عندي اكثر من عشرين او ثلثين سنبلة من الارزّ. وكنت احرص على الارزّ جيداً واعمل منهُ خبزاً في بعض الاوقات وقد اخترعت طرقاً كثيرة لطبخهِ. هذا ولنرجع الآن الى ما كنا في صددهِ

فصرفت تلك الثلثة او الاربعة الاشهر في عمل السور. وفي ١٤ من نيسان فرغت من عملهِ. وكنت ادخل الى منزلي واخرج منهُ من اعلاهُ بواسطة سلّمٍ منتقلة كما سبق القول. ولم اجعل لهُ باباً من الحائط خوفاً من ان يكون ذلك علامة يُستدَلُّ بها على منزلي. وكان منزلي فسيحاً منيعاً لا يقدر احد ان يدخلهُ ما لم يصعد على السور اولاً

ثم بعد الفراغ من عمل السور حصل خطر عظيم على حياتي وعلى كل اعمالي. وذلك اني بينما كنت ذات يوم في باب مغارتي حدث بغتة امر راعني جداً. فاني اذ كنت منهمكاً ملتهياً بالشغل تساقط كثير من التراب دفعة واحدة من سقف مغارتي ومن حرف التلّ الذي فوق راسي وانكسر فجاةً اثنان من الاعمدة التي

سندت بها سقف المغارة واحدثا عند انكسارها صوتًا هائلًا. فهالني ذلك جدًّا ولم اعلم ما هو السبب في الحقيقة بل كنت اظنّ في اول الامر ان سقف مغارتي كان يتساقط كما فعل قبلًا. فقمت من مكاني مرتعدًا من هذه الحادثة ولخوفي من ان أُدفَن حيًّا بادرت مسرعًا الى حيث كانت السلّم واذ لم اكن استأمن على نفسي هناك ايضًا خوفًا من ان تتدحرج قطع من التلّ هاوية عليّ طلعت على السور ثم نزلت الى الارض وعند ذلك ظهر لي ان تلك زلزلة هايلة. لانني شعرت بان الارض التي كنت واقفًا عليها اهتزّت ثلث مرات في نحو ثماني دقايق اهتزازًا يكفي لان يهدم امنع الابنية. واذ كنت في هذه الحالة اذا بقطعة كبيرة من راس تلٍّ على مسافة نصف ميل من البحر قد زحلت متهافتةً الى اسفل فحدث منها صوت مهول لم اسمع مثلهُ في حياتي. وكان البحر مضطربًا اضطرابًا عظيمًا من جرى تلك الزلزلة فاستدللت من ذلك على ان الزلازل تكون تحت الماء اقوى مما تكون في جزيرة

فدُهِشت كثيرًا من جرى ذلك وصرت كميّت او كمغشيٍّ عليهِ. لانني لم اشعر قط بمثلها ولا كان احد اخبرني بانهُ شعر في حياتهِ بزلزلة نظيرها. وقد اصابني دوار من جرى حركة الارض كمن يكون في البحر وقت النوء الا ان الصوت الحادث من سقوط تلك القطعة من التلّ ايقظني. ولما رجع روعي اليّ واستفقت من غشيتي امتلأ قلبي خوفًا ورعبًا واحتسابًا من ان يسقط ذلك الجبل برمّتهِ على خيمتي واثاث بيتي فيدفن دفعة واحدة كل ما تملك يدي. وعند ذلك غاص قلبي غائرًا ثانيةً في جوفي وسقطت مغشيًّا عليّ. ولما انتهت الرجفة الثالثة التي لبثت مدة لا اشعر بها اخذت استفيق من وهلتي واخذ روعي يسكن. ولكنني كنت لا ازال خائفًا من الصعود على السور لئلّا أُدفَن حيًّا. فكنت تراني جالسًا على الارض كئيبًا كاسف البال لا اعلم ماذا اعمل. ولم يخطر ببالي في ذلك الوقت فكر صالح دينيٌّ ولا جال في خاطري شيءٌ من امور الديانة سوى هذه الطلبة الاعتيادية وهي يارب ارحم. ولما ذهبت الزلزلة ذهبت هذه الطلبة معها

وبينما كنت جالسًا في هذه الحالة التي يُرثَى لها اذا بالجو قد اغبرّ وعبس

وغطَّتهُ غيوم ماطرة. ثم اخذت الريح في الهبوب مشتدَّة شيئاً فشيئاً ولم يمضِ الاَّ نصف ساعة حتى ثارت زوبعة هائلة هاج بها البحر مزبدًا حتى غطَّت امواجهُ الشاطي وحدث نوءٌ عظيم. وقد اقتلعت تلك الزوبعة اشجارًا كثيرة من اصولها وبقيت على هذه الحالة نحو ثلث ساعات. ثم اخذت الريح تسكن شيئاً فشيئاً وبعد نحو ساعتين صار هدو عظيم فاخذت السماءُ تمطر مطرًا شديدًا. ولا اقدر ان اصف ما حلَّ بي من الخوف والغمّ من جرى هذه الحادثة. ثم خطر لي بغتةً ان تلك الرياح الشديدة والامطار الغزيرة هي مسبَّبة عن الزلزلة وانهُ اذ كانت الزلزلة قد انتهت صار يمكنني ان ادخل خيمتي ولا اخشى خطرًا. فاخذت قوتي ترجع اليَّ وكان المطر يساعد في اقناعي بالدخول فدخلت خيمتي وجلست هناك ولكن لشدة المطر اضطرَّني الامر ان ادخل المغارة خوفًا من ان تسقط خيمتي على راسي من شدة عزم المياه. غير انني كنت هناك ايضاً في حالة الخوف والاحتساب من سقوط السقف عليَّ. واذ كنت اخاف من ان يمتلئ الموضع ماءً فتحت لهُ قناةً وانبوبًا ينفذ منهُ الماءُ الى خارج السور. ثم بعد ان بقيت مدة في الخيمة لا اشعر بحركة الزلزلة اخذت اشعر بطمانينة وراحة بال. ولكيْ انبّه حاسياتي وادفع ما اعتراني من صغر النفس ذهبت الى بيت المونة وكان صغيرًا وشربت كاساً صغيرةً من الروم. ولعلمي بان متى فرغ ما عندي من ذلك الشراب لا اعود احصل على غيرهِ كنت دائماً استعملهُ بالتوفير. فدام المطر ذلك الليل كلهُ وجزءًا كبيرًا من النهار الذي يليهِ فلم اخرج من مغارتي في تلك المدة. ثم اخذت اتبصَّر في ما ينبغي لي عملهُ. لاني بعد حصول ما حصل لم أُعد استأمن على نفسي في المغارة خوفًا من الزلازل لئلا أُدفَن في احد الاوقات حيًّا. فكنت اولاً افتكر ببناءِ كوخ في موضع امينٍ ابني حولهُ سورًا كما فعلت هنا. ثم جال في خاطري ان انقل خيمتي من مكانها في لحف ذلك التل المعلَّق الذي كانت في خطر من ان يسقط عليها اذا حدثت زلزلة اخرى. فصرفت اليومين التاليين وهما التاسع عشر والعشرون من شهر نيسان في التبصر والاهتمام في نقل منزلي وتدبير المكان الذي ينبغي ان انقلهُ اليهِ. وان الخوف من ان أُدفَن حيًّا اثَّر فيَّ

جدًّا فلم اكن انام براحة بال . الا ان الخوف من ان انام خارجًا من دون سور لم يكن اقلّ من ذلك . واذ كنت انظر الى ما حولي وارى كل شيء مرتبًا وارى نفسي في امان من الوحوش والناس كنت اكره جدًّا امر الانتقال . ثم خطر لي انهُ يحتاج ذلك الى وقت طويل لتتميمهِ وانهُ ينبغي لي ان ارتضي بالبقآء في موضعي وان يكن خطرًا الى ان ادبّر مكانًا غيرهُ واحصّنهُ جيدًا وحينئذٍ انقل اليهِ .وكانت هذه الافكار المتناقضة تقاتلني دائمًا مدة مستطيلة . واخيرًا عزمت على الاخذ في الشغل بكل سرعة وبناء سور داخل دائرة كما فعلت قبلاً ونصب خيمتي داخل ذلك السور وعلى ان ابقى في منزلي الى ان ينتهي ذلك ويكون معدًّا للانتقال اليهِ . وكان ذلك في ٢١ نيسان

في ٢٢ نيسان . نهضت من النوم واخذت اهتمّ في امر الوسايط المبلّغة الى المقصد المذكور. فكنت في حيرة عظيمة من جهة الآلات فانهُ كان عندي ثلث فؤوس كبيرة وعدد كثير من البلطات ممّا كنا قد اتينا بهِ لكي نبيعهُ للهنود . الّا انها كانت جميعها قد كلّت وتثلمت من جرى كثرة استعمالها في قطع الاخشاب الصلبة الكثيرة العقد . وقد كان عندي مجلخ ولكنني لم استطع ان ادوّرهُ واجلّخ آلاتي بهِ . فصرفت وقتًا مستطيلاً في الافتكار في هذا الامر بقدر ما يصرفهُ والٍ في نهي امر سياسيٍّ مهمٍّ او قاضٍ في اخراج حكم بالموت على مذنبٍ . وفي آخر الامر اهتديت الى طريق لتدويرهِ وهو اني دبّرت لهُ دولابًا بخيط كنت ادوّرهُ بهِ برجليّ قابضًا على ما اردت تجليخهُ بيديّ كلتيهما

تنبيهٌ . لم ارَ قط في انكلترا آلة جلخٍ ولا لاحظت كيف يصطنعون ذلك فصرفت اسبوعًا بتمامهِ في عمل تلك الآلة وتكميلها وكانت كبيرة وثقيلة جدًّا

في ٢٨ و٢٩ نيسان . صرفت هذين اليومين في اصلاح آلاتي وشحذها وكنت ادوّر مجلخي بتلك الآلة التي اخترعتها لهُ بكل سهولة وراحة

في ٣٠ نيسان . كنت قد لاحظت من مدة ان ما عندي من الخبز قد ابتدأ يقلّ . وعند افتقادهِ في هذا الوقت وجدت انهُ قد قلّ جدًّا فاضطرّني الامر ان اقتصر على كعكة من البقصماط كل يوم حتى هزل جسمي وضعفت قوتي من جرى قلّة الاكل

الفصل التاسع

تابع جرنال روبنصن كروزي

في ١ ايار. لما انتبهت صباحًا من النوم تطلعت فابصرت على الشاطي شيئًا كبيرًا كانهُ برميل فذهبت اليهِ لانظر ما هو فاذا بهِ برميل صغير وقطعتان او ثلث قطع من بقايا المركب كان النوءُ الذي حصل اخيرًا قد دفعها الى البر. وكان المدُّ حينئذٍ قد خفَّ. ثم التفتُّ نحو المركب فاذا بهِ قد صار اعلى مما كان قبلاً عن سطح الماء. وكان ذلك البرميل الذي وجدتهُ برميل بارود قد دخلهُ ماءٌ فبلَّل البارود ثم جفَّ البارود وجمد حتى صار كأنهُ حجر. فدحرجتهُ مبعدًا اياهُ عن البحر ثم تركتهُ وذهبت ماشيًا على الرمل قاصدًا المركب لعلي اجد فيهِ اشياء أُخَر. فلما وصلت اليهِ اخذني العجب مما رايتهُ من تغيُّر حالهِ. فان مقدَّمهُ الذي كان قبلاً مدفونًا في الرمل كان قد ارتفع ست اقدامٍ على الاقلّ وموَخَّرهُ الذي كان قد تكسَّر وتحطَّم وانفصل عنهُ بواسطة قوة البحر وذلك بعد ان اخرجت ما اخرجت منهُ كان قد دُفِع وطُرِح جانبًا. وكان الرمل قد ارتفع على الجانب الذي يلي الموَخَّر حتى صرت قادرًا عند ذهاب المدّ على الذهاب اليهِ ماشيًا مع اني كنت قبلاً لا استطيع الذهاب اليهِ الا بقطع مسافة ربع ميل سباحةً. فخطر لي سريعًا ان هذا التغيُّر قد حصل بواسطة تلك الزلزلة. واذ كانت الزلزلة قد اضعفت عزم المركب وفرَّقت بين اجزائهِ كانت تاتي منهُ اشياء كثيرة كل يوم الى البر مما كان البحر يفككهُ والرياح والمياه تدحرجهُ شيئًا فشيئًا الى الشاطي

فعدلت من جرى ذلك عن نقل منزلي واخذت اتبصر في كيفية الدخول الى جوف المركب لعلي أُخرِج منهُ بعض اشياء مما كان باقيًا فيهِ. واذ كان جوفهُ قد امتلأَ رملاً كان املي ضعيفًا من جهة نوال هذا المرغوب. واذ كان الدهر قد علَّمني ان لا اقطع املي من شيءٍ اخذت اقطّع كل ما يمكن تقطيعهُ منهُ عالمًا بان كل ما آخذهُ منهُ اربحهُ ويفيدني في المستقبل

في ٣ ايار. قطعت بمنشاري خشبة غليظة من ظهر المركب كانت تربط

الالواح معًا ثم اخذت اعزل الرمل الذي كان في الطبقة العليا منهُ. وعند ذلك ابتدأ المدّ فتركت العمل الى وقت آخر

في ٤ ايار. ذهبت طلبًا لصيد السَمَك. فصرفت زمانًا طويلاً ولم أَصِد سمكة تصلح للاكل. وبينما كنت على همّة الترك صدت دلفينًا صغيرًا وذلك في شبكة اصطنعتها من مرس رفيع. ولم يكن عندي صنّارة. وكنت مع ذلك اصيد في الغالب كل ما احتاج اليهِ. وكنت آكل ما اصيدهُ غير مقلوٍّ ولا مشويٍّ بنار بل مجفَّفًا في الشمس

في ٥ ايار. اشتغلت في المركب وقطعت خشبة اخرى كبيرة. ثم فككت ثلثة الواح كبيرة مما كان في ظهر المركب وربطتها معًا والقيتها الى البحر لكي تسبح الى البر عند مجيء المدّ

في ٦ ايار. اشتغلت ايضًا في المركب. فاخرجت منهُ ادوات كثيرة وقضبانًا حديدية. ثم رجعت الى منزلي وقد اعييت من التعب وكرهت الشغل حتى لاح لي ان اترك العمل بالكلية

في ٧ ايار. ذهبت الى المركب ولكن لا بنيّة الشغل فوجدت ان اخشاب المركب قد انحلّت من جرى الثقل لان ما كنت قد نشرتهُ منها كان قد اضعف قوتها وكانت قطع كثيرة منهُ قد تفككت وجوفهُ قد انفتح حتى انهُ لولا كثرة الرمال والمياه كان الناظر يقدر ان يرى داخلهُ

في ٨ ايار. ذهبت الى المركب واخذت معي مخلاً من حديد ناويًا ان افكك بقية الالواح التي بُنِي منها الظهر لانهُ لم يكن هناك رمل ولا ماء. ففككت لوحين والقيتهما الى البحر لكي يحملهما المدّ الى البر. ثم انثنيت راجعًا الى منزلي وقد تركت ذلك المخل في المركب لكي استعين بهِ في العمل في اليوم القادم

في ٩ ايار. ذهبت الى المركب وفتحت بواسطة المخل طريقًا الى جوفهِ. فرايت انهُ يوجد هناك براميل كثيرة فاخذت احركها بالمخل لاجل ابعاد بعضها عن بعض وحاولت تكسيرها ورفعها من هناك ولكن من دون نتيجة. ورايت ايضًا ربطة

من صفائح الرصاص فكنت احركها بالمخل الا اني لم استطع ان ازحزحها لثقلها

من ١٠ الى ١٤ ايار. كنت اذهب كل يوم الى المركب وآتي بكثير من الاخشاب والحديد

في ١٥ ايار. ذهبت الى المركب واخذت معي بلطتين ناوياً ان اقطع ربطة الرصاص. فكنت اضع حدَّ البلطة الواحدة على الرصاص واضرب على قفاها بقفا البلطة الاخرى. ولكن اذ كان فوق تلك الربطة مقدار قدم ونصف من الماء لم يؤثّر ضربي فيها

في ١٦ ايار. هبّت رياح شديدة ليلاً. وكان يبان ان المركب قد تكسّر ونقطّع قطعاً كثيرة من قوة المياه. واذ صرفت زماناً طويلاً في الاحراش في صيد حمام اغتذي بهِ لم اذهب الى المركب في ذلك النهار خوفاً من ان يدركني المدّ

في ١٧ ايار. رايت على الشاطي على مسافة نحو ميلين من منزلي قطعة من المركب كان قد دفعها البحر الى هناك فذهبت اليها فوجدت انها قطعة من راسهِ فحاولت حملها فلم استطع لثقلها فرجعت عنها الى منزلي

من ١٨ الى ٢٤ ايار. صرفت كل تلك الايام في الشغل في المركب وبواسطة الاجتهاد ومواظبة العمل فككت اشياء كثيرة وزحزحتها من مواضعها حتى انهُ في اول مدٍّ استصحبتهُ رياحٌ سبح الى البر براميل كثيرة وصندوقان من صناديق النوتيَّة. وفي اليوم الرابع والعشرين من الشهر كانت الريح من البر فلم يخرج من البحر الاَّ قطع من الاخشاب وبرميل فيهِ لحم خنزير من برازيل كان قد تعطَّل بسبب الماء المالح والرمل. وما زلت آخذاً في ذلك العمل الى ١٥ حزيران وذلك من دون انقطاع الا ما صرفتهُ في الصيد. على اني لم اكن اذهب للصيد الا عند ارتفاع المدّ. فصار حينئذٍ عندي اخشاب والواح وادوات حديدية كافية لبناء قارب كبير الا اني كنت غير خبير في هذه الصناعة. وكان عندي كمية وافرة من صفائح الرصاص

في ١٦ حزيران. بينما كنت ذاهباً الى حافة البحر صادفت سلحفاة كبيرة لم انظر

سلحفاةً غيرها قبلاً في الجزيرة. وذلك لا لعدم وجود السلاحف او قلّتها هناك بل لسوء حظي. لاني لو ذهبت الى الجانب الآخر من الجزيرة لوجدت مئات من السلاحف كما وجدت ذلك في ما بعد الا انها كانت كلفتني كثيرًا بالهائها اياي عن الاجتهاد في تخليص ما خلصتهُ من المركب

في ١٧ حز. صرفت ذلك النهار في طبخ تلك السلحفاة وكان لحمها عندي في ذلك الوقت أَلذَّ واشهى اللحوم التي اكلتها في حياتي لانهُ لم يكن لي لحم آكلهُ في تلك الجزيرة العقيمة الا لحم المعزى والطيور. وقد وجدت في جوف تلك السلحفاة ستين بيضةً

في ١٨ حز. امطرت النهار كلهُ فلم اخرج من منزلي. فحسست بالبرد وشعرت بقشعريرة. وكنت احسب ذلك من الامور الغير النادرة في ذلك الطول

في ١٩ حز. شعرت بمرض شديد وارتجفت كما لو كان الهوآء باردًا جدًّا

في ٢٠ حز. لم استرح الليل كلهُ وشعرت بالم شديد في راسي وحمًّى في جسمي

في ٢١ حز. اشتدَّ مرضي وخفت خوفًا شديدًا من ان امرض مرضة ثقيلة وليس عندي من يخدمني. فصلَّيت الى الله وكان ذلك اول مرةٍ بعد ذلك النوء في نواحي هول. الا انني لم اعلم جيدًا ماذا قلت ولا لماذا قلت ما قلتهُ لان عقلي كان مضطربًا وافكاري معربسة

في ٢٢ حز. شعرت بشيء من الراحة الآَّ اني كنت خائفًا جدًّا من ان يشتدَّ مرضي

في ٢٣ حز. راجعني المرض اي البرد والارتجاف والوجع الشديد في راسي

في ٢٤ حز. شعرت براحة من المرض

في ٢٥ حز. حصل لي دَوْر شديد جدًّا استمرَّ تسع ساعات. فاني بردت ثم حُمِمت ثم عرقت قليلاً

في ٢٦ حز. فارقني الدور واذ لم يكن عندي طعام اقتات بهِ خرجت ببارودتي وكنت اشعر بضعف في جسمي وركبتيَّ. فاصطدت عنزة واتيت بها الى

المنزل وذلك بصعوبة فشويت قليلاً من لحمها واكلتهُ . وكان احبّ اليَّ ان اسلق اللحم واعمل منهُ مرقة الاَّ انهُ لم يكن عندي قِدر او طنجرة

في ٢٧ حز. اصابني دورٌ قويٌّ فاقمت في سريري النهار كلهُ من دون اكل ولا شرب . وكدت اهلك من شدة العطش لانهُ لم يكن عندي ماءٌ ولا كان لي قوة على السعي في جلب الماء . فصلَّيت الى الله ولكن اذ كنت اشعر بخفَّة وطياشة في راسي لم اكن اعلم ماذا اقول بل كنت اصرخ وانا منطرح على ظهري قائلاً يا رب انظر اليَّ يارب تحنَّن عليَّ يا رب ارحمني . واظنُّ اني بقيت ساعتين او ثلاثاً لا افعل شيئاً الاَّ الصراخ على هذا المنوال . وكنت شديد الجهل في امور الديانة والصلوة . ثم اخذ الدور يفارقني فنمت حينئذٍ ولم انتبه الاَّ بعد الغروب بمدة طويلة . فلما انتبهت شعرت براحة الاَّ انني كنت ضعيفاً وعطشان جدًّا واذ لم يكن عندي ماءٌ في المنزل لم يكن لي سبيل الاَّ الصبر والتجلُّد فاضطجعت الى الصباح . ثم نمت ايضاً وبينما كنت نائماً رايت حلماً مخوفاً . تراءى لي كأني جالس على الارض خارج سور منزلي حيث كنت جالساً عند هبوب الريح بعد الزلزلة واذا انسانٌ قد انحدر من سحابة سوداء كثيفة في لهيب ساطع حتى وصل الى الارض وكان كلهُ منيرًا كلهيب نارٍ حتى كنت لا اطيق ان انظر اليهِ الاَّ بصعوبة . وكان منظر وجههِ مهيباً جدًّا لا توجد كلمات لوصفهِ . فلما داس الارض برجلهِ تراءى لي كأنها ارتعدت مرتجفة كما فعلت عند الزلزلة . وكنت ارى الجوَّ كلهُ مملوءًا شهب نار . وان ذلك الانسان اخذ يمشي نحوي وبيدهِ رمح طويل قد اشرعهُ كأنهُ قاصد قتلي . فلما وصل الى موضع مرتفع بالقرب مني كلَّمني او بالحري سمعت صوتاً هائلاً لا توصف فظاعتهُ . وكل ما اقدر ان اقول اني فهمتهُ منهُ هو قولهُ اذ كانت كل هذه الامور لم تُقبِل بك الى التوبة قد استوجبت الموت لا محالة . وعند قولهِ ذلك تراءى لي كانهُ رفع رمحهُ واراد ان يطعنني بهِ . ولا استطيع ان أَصِف ما حاق بي من الاهوال عند ما حلمت ذلك الحلم ولا ما بقي في نفسي من التأَثُّر عند ما انتبهت ورايت انهُ لم يكن الاَّ حلماً

وكنت واأَسفا عاريًا بالكلية من معرفة الديانة . وما كنت قد تعلمتهُ في

صغري من ابي الصالح كان قد فقد مني بواسطة ارتكابي مدة ثماني سنين شرورًا متواصلة مما من عادة البحرية ارتكابهُ وبواسطة معاشرتي من دون انقطاع اقوامًا ارديآء وسفهآء جدًّا نظيري. ولا اظنُّ انهُ خطر ببالي في كل تلك المدة شيءٌ يحملني على النظر الى فوق نحو الله او الى داخلٍ نحوَ حواسّي للتأمُّل في طرقي. بل كان قلبي قد صار قاسيًا متمردًا ونفسي ميتة فلم اكن ارغب في شيءٍ صالح ولا اشعر بشرّ ما اعملهُ. فكنت تمامًا كما يكون اقسى واجهل واردأُ رجلٍ من عامَّة نوتيتنا. ولم اكن اشعر بخوف الله وقت الخطر ولا بشكرهِ وقت النجاة

ومما لا يصعب على قارئ قصَّتي تصديقهُ هو انهُ لم يخطر ببالي قط ان شيئًا من المصائب المتنوعة التي اعترتني هو من قِبَل الله او هو قصاص عادل لاجل خطاياي وعصياني على ابي وارتكابي معاصي كثيرة ضدهُ تعالى. واذ كنت في سفري الخَطِر على شطوط افريقية المقفرة لم يكن يخطر ببالي شيءٌ من جهة ما يصيبني ولا كانت لي ارادة ان اطلب من الله ان يرشدني اين اذهب او يحفظني مما كان محيطًا بي من الخطر من الوحوش الكاسرة والقوم البرابرة ولا كنت افتكر بالهٍ ولا بعنايةٍ بل كنت اعيش كحيوان غير ناطق تابعًا اهوآء الطبيعة وارشادات العقل الغريزي فقط. حتى اني قد خالفت هذه ايضًا مرات كثيرة. ولما انقذني الرئيس البرتوغالي وقبلني في مركبهِ واحسن معاملتي وتصرف نحوي بالانصاف والكرم والمحبة لم اشعر بادنى شكر في قلبي. وكذلك لما انكسر بي المركب واوشكت ان اهلك غرقًا على حدود هذه الجزيرة لم يبكّتني ضميري ولا اعتبرت ذلك نظير قصاص بل انما كنت اقول في نفسي اني كلب تعيس قد وُلِدت لكي اكون دائمًا شقيًّا

على انني لما وصلت الى البر في هذه الجزيرة ورايت ان جميع نوتيتنا قد غرقوا ونجوت انا وحدي اعتراني ذهول وحركات حبور لا توصَف. فلو ساعدتني نعمة الله كانت تلك الحركات ربما ساقتني الى تقديم شكر حقيقي الا انها انتهت حيث ابتدأَت اعني في فرح اعتيادي وقتي. اي اني فرحت ببقآءي حيًّا ولكنني لم التفت

بالكلية نحو جودة اليد التي خلصتني واختارتني للنجاة دون جميع رفاقي ولا نظرت الى السبب الذي لاجلهِ عاملتني العناية الصمدانية بهذا المقدار من اللطف والرحمة . وكان ما حصل لي من الفرح نظير ما يحصل عادةً من ذلك للبحرية عند نجاتهم من الغرق ووصولهم الى بر الامان فانهم يُغرِقون ذلك جميعهُ في اول كاس شراب يتناولونهُ وينسونهُ حالاً بعد زوال سببهِ . وهكذا كانت بقية حياتي . ثم لما شعرت في ما بعد بالحالة التي كنت فيها اي كيف أُلقِيت في ذلك الموضع الردي البعيد عن البشر حيث لا يوجد باب امل في الفرج والنجاة فحالما لاح لي باب امل في الحياة وفي اني لاموت جوعًا فارقتني كل حاسيات الحزن وابتدات اشعر بالراحة واتعاطى باجتهادٍ الاعمال الضرورية لوقايتي وحياتي . وكنت بعيدًا جدًّا عن الشعور بالحزن من جرى حالتي باعتبار كونها قضاءً من السماءِ او كونها علامةً لغضب الله عليَّ . فان هذه الامور قلّما كانت تخطر ببالي

وقد ذكرت آنفًا في جرنالي كيف كان التاثُّر الذي حدث في نفسي عند ما رايت ذلك الزرع نابتًا وكيف كنت اتخشَّع متذلّلاً عند الافتكار بانهُ انما وُجِد هناك باعجوبةٍ لاجلي . وكيف انهُ لما ذهب من عقلي هذا الفكر ذهب معهُ كل ذلك التاثُّر . حتى ان الزلزلة نفسها التي لا يمكن وجود شيءٍ اهول منها طبعًا ولا ادلّ منها على قوة الله الغير المنظورة التي هي وحدها قادرة على اعمال باهرة كهذه زال ما احدثتهُ فيَّ من التاثُّر مع زوال حاسيات الخوف منها . ولم اكن اشعر بوجود الله ولا باحكامهِ ولا بان ما اصابني من التجارب والمحن كان بامرهِ اكثر مما كنت اشعر بذلك لو كنت في احسن حال واعظمها نجاحًا . واما الآن فاذ قد اعتراني مرض وحصلت لي فرصة للنظر الى شقاءِ الموت وغصصهِ وكُبِتت عواطفي الجامحة من جرى ثقل المرض وضعفت طبيعتي من جرى شدة الحمَّى ابتدأ ضميري ينتبه من رقادهِ المستطيل واخذت ابكّت نفسي موبخًا اياها على سلوكي الماضي الذي اغضبت بهِ عدل الله بواسطة رداءتي المفرطة حتى القاني تحت ضربات خارقة العادة وعاملني بهذا المقدار من الصرامة انتقامًا مني . فهذه التاملات ضايقتني في اليوم الثاني

والثالث من مرضي. واذ كنت في ضيقة من الحمّى ومن تقريعات ضميري اخذت اتلفظ بكلمات كأنها صلوة الى الله. ولا اقدر ان اقول ان تلك الصلوة كانت ناتجة عن رغبة او مصحوبة برجاء بل انما كانت بالحري اصواتًا ناتجة عن خوفٍ صرفٍ وضيقةٍ محضة. وكانت افكاري معربسة مرتبكة والشعور بشر الخطية وقباحتها ثقيلاً عليَّ. وكان الرعب من الموت في تلك الحالة التعيسة يجعل الابخرة تتصاعد الى راسي. واذ كنت في تلك الحالة المكربة كنت لا اعلم ماذا ينطق بهِ لساني. وكاني كنت اصرخ هكذا يا ربي ما اعظم شقاوتي. اذا اصابني مرض ثقيل اموت لامحالة لعدم وجود من يخدمني ويعتني بي. وماذا يصيبني حينئذٍ. وعند ذلك اخذت الدموع تهطل منحدرة على خدَّيَّ. فاقمت مدة صامتًا لا استطيع ان اتكلَّم. وفي تلك الاثناء خطرت ببالي نصيحة ابي الصالحة ونبوتهُ التي ذكرتها في اول هذه القصة وهي اني اذا بقيت مصرًّا على عزمي فان الله لا يبارك عليَّ وانهُ سيكون لي فرصة في ما ياتي لان اتذكر اني قد تهاونت بمشورتهِ ولا يكون من يساعدني في النجاة. وعند ذلك قلت بصوت عالٍ ان كلمات ابي قد تمَّت وقد ادركني عدل الله وليس من يساعدني ولا يسمع صراخي. فاني قد رفضت صوت العناية التي وضعتني برحمةٍ في مركزٍ كان يمكنني فيهِ ان اكون سعيدًا مرتاحًا. الا اني لم اشأْ ان ارى ذلك ولا ان اتعلم من والديَّ معرفة بركاتهِ. فقد تركتهما لكي انوح على حماقتي فتُركت لكي انوح تحت نتائجها. وقد رفضت مساعدتهما وموازرتهما مع انهُ كان لهما قدرة وارادة ان يلقيا نظرهما عليَّ في العالم ويسهّلا اموري. واما الآن فان امامي صعوبات انكبّدها مما هو فوق طاقة الطبيعة نفسها وليس لي مساعدة ولا تعزية ولا مشورة. وعند ذلك صرخت قائلاً يا رب كن لي عونًا فاني في ضيقة عظيمة. فهذه هي الصلوة الاولى التي صلَّيتها في مدة سنين كثيرة اذا كان يحقُّ لي ان ادعوها صلوةً

شعرٌ

هِيَ الدُّنيا تقولُ بملْءِ فيها حَذارِ حَذارِ من بَطْشي وفَتْكي
فلا يَغرُرْكُمُ مِنّي ابتِسامٌ فقَولِي مُضحِكٌ والفِعلُ مُبْكِي

الفصل العاشر

تابع جرنال روبنصن كروزي

في ٢٨ حز. استرحت قليلاً بواسطة النوم وفارقني الدور منقطعًا عني بالكلية فنهضت صباحًا من فراشي. ومع ان ما اعتراني من الخوف والرعب بسبب ذلك الحلم كان عظيمًا جدًّا كنت احسب ان الدور سيرجع في اليوم التالي ولهذا اخذت في تلك الفترة ادبّر شيئًا ارطّب بهِ مزاجي واسند بهِ قلبي وقت الدور. واول شيء عملتهُ هو اني ملأْت زجاجة مربَّعة ماءٍ ووضعتها على طاولتي بجانب سريري وقد مزجت ذلك الماءَ بقليل من الروم دفعًا لرطوبتهِ. ثم اتيت بقطعة من لحم المعزى وشويتها على الجمر الاَّ اني لم آكل منها الاَّ قليلاً جدًّا. وكنت اتمشَّى الاَّ اني كنت ضعيف الجسم جدًّا وكان قلبي موعبًا غمًّا وهمًّا وكآبةً من جرى حالتي الشقية وخوفي من رجوع الدور في اليوم التالي. واذ اقبل المساءُ اخذت ثلاث بيضات من بيض تلك السلحفاة وشويتها في الرماد الحارّ واكلتها بقشرها عشاءً لتلك الليلة. وعلى ما اذكر ان تلك هي اول لقمة من الطعام طلبت قبلها بركة الله في كل حياتي. وبعد العشاءِ حاولت المشي الاَّ اني كنت اشعر بضعف شديد حتى كنت لا اقدر ان احمل البارودة التي لم اكن اخرج بدونها الاَّ عن عجزٍ. ولم امشِ الاَّ مسافة قصيرة حتى اعييت فجلست على الارض مقابل البحر واخذت اتامل فيهِ وكان حينئذٍ هاديًا رائقًا او كما يقال غلينة. وبينما كنت جالسًا هناك جالت في خاطري افكارٌ وهي ما هي هذه الارض وهذا البحر اللذان رايتهما مرارًا كثيرة في حياتي. ومن اين اتيا او كيف وُجِدا. وماذا انا وباقي الخلائق الناطقة والغير الناطقة ومن اين نحن. لا شكَّ اننا جميعنا خلائق قد صنعتنا قوة لا نُدرَك وهي التي خلقت الارض والبحر والهواءَ والفلك. وما هي تلك القوة. فنتج من ذلك بالضرورة ان الله هو الذي صنع الجميع. ثم خطر لي انهُ اذ كان الله قد خلق كل هذه الاشياءَ لا بدَّ من ان يكون هو الذي يدبّرها ويعتني بها وبما فيها. ومن ثمَّ لا يمكن حدوث شيء في دائرة اعمالهِ العظيمة من دون علمهِ وقضائهِ وامرهِ

واذ كان لا يحدث شيءٌ من دون علمهِ تعالى لا بدَّ انهُ يعلم باني انا موجود هنا وباني في هذه الحالة المهولة. واذ كان لا يحدث شيءٌ من دون امرهِ وقضآئهِ لا بدَّ من انهُ يكون قد قضى بوقوع ذلك عليَّ. ولم يعرض لخاطري شيءٌ ينقض هذه القضايا. ومن ثمَّ رسخ في ذهني ان الله قد قضى بوقوع تلك الامور عليَّ واني لم أَصِل الى تلك الحالة التعيسة الا بامرهِ لانهُ هو المسلَّط عليَّ وعلى كل ما يحدث في العالم. وعند ذلك خطر ببالي هذا السؤَال وهو لماذا فعل الله بي هكذا وماذا فعلت حتى استوجبت المعاملة منهُ على هذا المنوال. ولكن ضميري وبَّخني على هذا الفكر كأَني قد جدَّفت. وتراءَى لي كاني كنت اسمع صوت الضمير يقول يا شقيُّ أَيحقُّ لمن كان مثلك ان يسأَل قايلًا ماذا فعلت. انظر الى سيرتك الماضية التي صرفتها في الخطايا والمعاصي ثم اسأَل نفسك ما هو الشيءُ الذي لم تفعلهُ. اسأَل لماذا لم تُهلَك منذ زمان مديد. ولماذا لم تغرق في مواني يرموث. ولماذا لم تُقتَل في الحرب عند ما استأْسر مركب سلّي الحربيُّ المركبَ الذي كنت فيهِ. ولماذا لم تفترسك الوحوش البرّية على شطوط افريقية. ولماذا لم تغرق هنا عند ما غرق جميع من في المركب ونجوت انت وحدك. ايحقُّ لك ان تسأَل ماذا عملت. فلما تصوَّرت جميع هذه الامور امام عينيَ عقلي دُهِشت وأُبكِمت مُفحَمًا ولم يكن لي ما اقولهُ او اجاوب بهِ نفسي. ثم نهضت من مكاني وانا متفكّر حزين وانثنيت راجعًا الى خلوتي وصعدت على السور ذاهبًا الى النوم. الا ان افكاري كانت مضطربة ولم يكن لي ميل الى النوم ولذلك جلست على الكرسي واضأْت سراجي لان الظلام كان قد ابتدأَ يخيّم وجعلت اتاَمَّل في تلك الامور

واذ كنت منزعجًا جدًّا من جرى احتسابي من رجوع الدور خطر ببالي ان اهالي برازيل لا يستعملون دوآءً لاكثر امراضهم الا التبغ. وكان عندي في احد الصناديق قليل من التبغ اليابس جيدًا وقليل من الاخضر. فعمدت الى ذلك الصندوق ولست اشك ان الله ارشدني اليهِ وذلك لاني وجدت فيهِ علاجًا للنفس والجسد جميعًا. ولمَّا فتحتهُ وجدت فيهِ التبغ مطلوبي ووجدت ايضًا نسخة الكتاب

المقدس التي ذكرتها قبلاً ولم تحصل لي فرصة في ما مضى لفتحها ولا رغبة في قراءتها. فاخرجت تلك النسخة والتبغ واتيت بهما الى الطاولة ووضعتهما عليها. فاما التبغ فلم اكن اعلم كيف استعمله دواءً لمرضي ولا هل هو نافع لعلتي او مضرٌ لها. الاَّ اني اختبرته على طرق شتَّى مؤمّلاً ان اصيب في احدها. فوضعت اولاً قليلاً من الورق في فمي وجعلت امضغهُ. فكاد في اول الامر يخدّر دماغي لانهُ كان اخضر وقويًّا ولم اكن متعودًا عليهِ. ثم اخذت قليلاً من التبغ ونقعتهُ نحو ساعة او ساعتين في قليل من الروم لكي اشربهُ عند النوم. ثم وضعت قليلاً من التبغ في كانون من نار الفحم ووضعت انفي فوق دخانهِ قريبًا منهُ ولبثت على هذه الحالة بقدر احتمالي للحرارة والدخان اي الى ان ضاق صدري واوشكت ان احترق. وكنت في اثناء هذه العمليَّات الثلاث اتناول الكتاب المقدس واقرأُ فيهِ. الاَّ ان التبغ احدث في راسي دُوارًا فلم يعد يمكنني ان اقرأَ في ذلك الوقت. واتفق ان الكلمات الاولى التي وقعت تحت نظري عند فتحي الكتاب كانت قولهُ تعالى أُدعُني في يوم حزنك فأُنقذك وتمجّدني. وهذه الكلمات كانت تطابق جدًّا حالتي فاحدثت عند قراءتهـا بعض التاثير في نفسي الا ان تاثيرها في ما بعد كان اشدَّ واعظم. واما قولهُ فأُنقِذك فانهُ يمكنني ان اقول انهُ كان لا معنى لهُ بالنظر اليَّ. فان امر إِنقاذي كان على قدر معرفتي وادراكي للامور مستبعدًا جدًّا وضربًا من المحال. فابتدأْت اقول هل يقدر الله ان يُنقِذني من هذا الموضع وذلك كما قال بنو اسرائيل بحماقةٍ وكفرٍ عند ما وعدهم الله بلحم لياكلوا هل يقدر الله ان يهيّئ مائدة في البرّية

واذ مضى سنون كثيرة قبلما انفتح لي باب للامل من هذا القبيل كان هذا الامر يغلبني مرارًا كثيرة ويوقعني في حالة الياس. الا ان تلك الكلمات احدثت فيَّ تاثيرًا عظيمًا حتى اني كنت اتامل فيهـا مرارًا كثيرة. واذ كان قد مضى جزءٌ عظيم من الليل وكان التبغ قد احدث دوارًا وخدرًا في راسي عبث النعاس بعيني فتركت سراجي مُوقدًا في المغارة لعلّي احتاج الى شيءٍ ليلاً وذهبت الى سريري.

وقبلما اضطجعت لأنام فعلت شيئًا لم افعلهُ قط في حياتي كلها وهو اني ركعت على ركبتيَّ وصلَّيت الى الله طالبًا منهُ انجاز وعدهِ نحوي وهو ان ينقذني اذا دعوتهُ في وقت ضيقي. وبعد ان فرغت من تلك الصلوة الغير الكاملة شربت الروم الذي نقعت فيهِ التبغ وكان قويًا جدًّا ولذاعًا حرّيفًا حتى اني لم استطع ان ابتلعهُ الا بصعوبة عظيمة فلما فرغت من شربهِ اضطجعت. وللحال تصاعدت ابخرة الروم الى راسي بعزم شديد فاستغرقت في النوم وعلى ما لاح لي من ملاحظة الشمس اني لم انتبه من النوم الا بعد الظهر بثلث ساعات تقريبًا. غير اني الى الآن اظن باني نمت ذلك النهار كلهُ مع ليلهِ وبقيت نايمًا الى نحو الساعة الثالثة بعد الظهر من النهار الذي يليهِ. والاَّ فلا اعلم كيف اضعت يومًا في حسابي لايام الاسبوع كما ظهر لي ذلك بعد عدة سنين. فلو كنت قد اضعت ذلك بواسطة اعادة العلامة لكان يجب ان اكون قد اضعت اكثر من يوم. فاني متحقق باني قد اضعت يومًا في حسابي ولكن لا علم لي كيف كان ذلك. وكيفما كان الامر اقول اني شعرت عند انتباهي براحة عظيمة ونشاط وانشراح صدر وكنت اكثر قبولاً للاكل واقوى من اليوم السابق. وبالاختصار اقول ان الدور لم ياتني في اليوم التالي بل كنت انقدم متجهًا نحو الصحة. وكان ذلك اليوم التاسعَ والعشرين من شهر حزيران

في ٣٠ حز. اذ لم يكن ذلك اليوم يوم دوري خرجت ببارودتي كجاري عادتي الاَّ اني لم ابعد كثيرًا عن منزلي حتى اصطدت طائرًا او طائرين من طيور البحر يشبهان البط ودجاجةَ ارضٍ واتيت بها الى المنزل. الاَّ اني خفت ان آكل لحمًا فاكلت بعضًا من بيض السلحفاة وذلك باللذة.

ولما اقبل الليل نقعت التبغ في الروم كما فعلت قبلاً وتناولت ذلك عند النوم الاّ انني لم امضغ الورق ولا تبخرت با لدخان . غير اني شعرت في اليوم التالي وهو اول يوم من تموز بدور خفيف من البرد ولم اشعر براحة كاليوم الماضي

في ٢ تموز. استعملت الطرق الثلاث من العلاج التبغيّ فاصابني دوار كالسابق وكنت قد تناولت ضعف ما كنت تناولتهُ قبلاً

في ٣ تموز. تركني الدور بالكلية الاّ اني لم ابرأ بالتمام الاّ بعد مضيّ عدة اسابيع . وكنت كلّما تقدمت نحو الصحة اتامل كثيرًا في هذه العبارة من الآية المارّ ذكرها وهي قولهُ تعالى فأُنقذك . الا ان استحالة نجاتي كانت تؤَثّر كثيرًا في عقلي وتسدُّ كل باب للامل من هذا القبيل . وبينما انا في هذه الحالة من اليأْس خطر لي ان امر نجاتي من المصيبة العظمى قد أَلهاني عن النجاة التي حصلت عليها فاخذت اسأَل نفسي قائلاً يا نفس اما نجوتِ بنوع عجيب من المرض الذي كان يخيفكِ جدًّا . فهل اعتبرتِ ذلك حقّ اعتبارهِ وعملتِ ما يجب عليكِ . ان الله قد انقذكِ واما انتِ فلم تمجّديهِ. اي لم تقرّي بان تلك نجاة ولا ادّيتِ الشكر لاجلها. وكيف يسوغ لكِ ان تنتظري او تطمعي في نجاةٍ اعظم منها . وان هذه التأمُّلات احدثت في نفسي تاثيرًا عميقًا فركعت للحال منتصبًا على ركبتيَّ وشكرت الله بصوت عالٍ على شفاءي من المرض

في ٤ تموز. فتحت الكتاب المقدس وجعلت اقرأُ باصغاءٍ مبتديًا في العهد الجديد . وفرضت على نفسي ان اصرف كل يوم مدة صباحًا ومساءً في القراءة فيهِ . ولم افرض على نفسي عددًا معينًا من الفصول بل تركت ذلك لرغبتي . وبعد ان واظبت ذلك مدةً من الزمان احدثت رداءة سيرتي الماضية تاثيرًا عميقًا ثابتًا في قلبي وتجدّدت تاثيرات ذلك الحلم . وكانت كلمات ذلك الانسان وهي ان جميع هذه الامور لم تُقبِل بك الى التوبة تتردّد في عقلي وتؤثّر في ضميري فاخذت اطلب الى الله بحرارة ان ينعم عليَّ بالتوبة . وبينما كنت اقرأُ ذلك اليوم في الكتاب المقدس اتفق اني عثرت بنوع عجيب على هذه الكلمات وهي قد رُفِع رئيسًا ومخلصًا ليُعطي

التوبة وغفران الخطايا . ومن ساعتي القيت الكتاب الى الارض وركعت منتصباً ورفعت يدىَّ وعينيَّ وقلبي نحو السماء كمن خُطِفَتْ روحهُ فرحًا وصرخت بصوتٍ



روبنصن كروزي يصلي

عالٍ قائلاً يا يسوع ابن داود يا يسوع المرفوع رئيسًا ومخلّصًا أعطِني التوبة وغفران الخطايا حسب وعدك . وتلك هي اول مرة يمكنني ان اقول بحقٍّ اني صلّيت فيها في

كل حياتي. وذلك لاني صلَّيت حينئذٍ شاعرًا بحالتي وراجيًا رجآءً حقيقيًا مبنيًا على كلام الله وصدق مواعيدهِ قبول صلوتي. ويمكنني ان اقول اني صرت من ذلك الوقت فصاعدًا ارجوان الله يُصغي اليَّ ويستجيب لي

فاخذت حينئذٍ افسّر قولهُ تعالى أُدعُني فأُنقذك تفسيرًا يختلف عن تفسيري السابق. وذلك لاني لم اكن احسب قبلاً نجاةً الاَّ نجاتي من تلك الحالة الموحشة التي كنت فيها. ومع اني لم اكن مقيَّدًا في ذلك الموضع كانت تلك الجزيرة عندي سجنًا من اشنع السجون. ولكني تعلَّمت حينئذٍ فهم ذلك بمعنى آخر. فاني راجعت حياتي الماضية بكراهة عظيمة وظهرت خطاياي شنيعة وفظيعة جدًّا حتى اني لم اكن اطلب من الله الاَّ النجاة من ثقل الذنوب والخطايا التي كانت تنزع كل راحتي. ولم تكن وحدتي شيئًا بالنظر الى ذلك حتى اني لم اصلِّ ان أُنقَذ منها ولا كنت أحفَل بها. وقد ذكرت ذلك هنا لكي ابيّن لكل واقف على قصَّتي انهُ متى ادرك الامور على حقها يجد النجاة من الخطية بركةً اعظم جدًّا من النجاة من المصيبة مهما كانت عظيمة. فصارت حينئذٍ حالتي اسهل بالنظر الى عقلي الاَّ انها لم تكن اقلَّ شقآءً بالنظر الى طريقة معيشتي. واذ كانت افكاري بواسطة مواظبة قرآءة الكتاب المقدس والصلوة الى الله تتجه الى امور هي في ذاتها افضل كنت اشعر في باطني بتعزية عظيمة لم اكن اشعر بشيءٍ منها في ما مضى. وكذلك اذ رجعتْ صحَّتي وقوَّتي كنت اسعى بنشاط في تدبير كل ما احتاج اليهِ وفي ترتيب حياتي بقدر استطاعتي

من ٤ الى ١٤ تموز. صرفت تلك الايام في التمشّي من مكان الى مكان وبارودتي بيدي وكانت العافية تاتيني شيئًا فشيئًا. وكان قد هزل جسمي وضعفت قوتي جدًّا. والعلاج الذي استعملتهُ لمرضي كان بتمامهِ جديدًا وربما لم يقطع قط دَورًا. ولا اريد ان أُشير على احد ان يستعملهُ لذلك بنآءً على تلك التجربة. وهو مع انهُ قطع الدور عني زادني ضعفًا وهزالاً وكان على مدةٍ يُحدِث ارتعاشًا ورعدةً في عصبي واطرافي. وقد تاكد لديَّ عند ذلك ان خروجي في اوقات المطر هو مضرٌّ جدًّا لصحَّتي وعلى الخصوص في الامطار التي كانت مصحوبةً بالانوآء والزوابع

الشديدة . واذ كانت الامطار الحادثة في ايام الصحو مصحوبةً غالبًا بزوابع قويةً ظهر لي انها اكثر خطرًا من الامطار التي تقع في شهرَي ايلول وتشرين الاول

وكان قد مضى عليَّ في تلك الجزيرة المقفرة اكثر من عشرة اشهر . وكنت احسب ان نجاتي من تلك الحالة الموحشة هي ضرب من المحال . وقد تاكَّدت من دون ادنى ريب انهُ لم يضع قط انسانٌ قدمهُ على تلك الاراضي . واذ كنت قد حصَّنت منزلي تحصينًا محكمًا حسب زعمي مالت نفسي ميلاً قويًّا الى الجولان في تلك الجزيرة والفحص عنها وعمَّا يوجد فيها من الحيوانات والنباتات

في ١٥ تموز . ابتدأت ذلك النهار في اجتساس الجزيرة بطريق اخصّ . فطلعت اولاً في ذلك الوادي الذي يجري فيهِ ذلك النهر الذي كنت قد خرجت بطوفي عند مصبهِ كما ذكرت قبلاً . وبعد ان ابعدت فيهِ مسافة نحو ميلين وجدت ان المدَّ لم يتجاوز تلك المسافة وان ذلك النهر لم يكن الا جدولاً او ساقية ذات ماءٍ بارد عذب . واذ كان حينئذٍ فصل الصيف كان المطر قليلاً في بعض المواضع . ولم يكن هناك نبع . وكانت على جانبَي تلك الساقية سهول بهجة مغطاة بالعشب وعلى اطراف تلك السهول ممَّا يلي الارض العالية التي على ما يُظَنُّ لم تكن تفيض عليها المياه كثيرٌ من نبات التبغ بساقٍ غليظٍ وقويٍّ جدًّا . وكانت هناك نباتات اخر مختلفة لم اعرف ما هي ولا ما هي منافعها وخاصيَّاتها . ولا بدَّ من انها كانت ذات خاصيَّات خاصَّة بها ولكن لم يكن ممكنًا لي التوصُّل الى معرفتها . فاخذت افتّش على عرق الشربس الذي يعمل منهُ الهنود خبزهم فلم اجدهُ . ومن جملة ما وجدتهُ هناك نباتات كبيرة من الصبر ممَّا لم اكن اعرف قوّتهُ وكثير من قصب السُكَّر الاَّ انهُ كان برّيًّا غير كامل لعدم الاعتناءِ بهِ . وبعد ان اكتشفت هذه الاشياءَ انثنيت راجعًا الى منزلي . وكنت اتامل كيف يمكنني ان اتوصل الى معرفة خاصيةً وصلاحيةً ما اكتشفتهُ من الاثمار والنباتات ولكن من دون نتيجة . وبالاختصار اقول اني اذ كنت في برازيل لم اكن التفت الى ملاحظة ما حولي من الامور فكانت معرفتي في امر النباتات قاصرة وقليلة جدًّا حتى اني لم أَستفِد منها شيئًا عند وقوعي في تلك الضيقة

في ١٦ تموز. طلعت في الطريق نفسهِ وابعدت قليلاً اكثر من اليوم السابق فوجدت ان النهر والسهول حولهُ ابتدأت تنقطع وصارت الاشجار هناك اكثر من باقي الاماكن. وكانت هناك اثمار مختلفة وفواكه كثيرة كالبطيخ والعنب. ورايت كثيرًا من رؤوس البطيخ منطرحًا على الارض وكثيرًا من عناقيد العنب مدلّى على رؤوس الاشجار التي كانت الدوالي معترشةً عليها. وكان العنب ناضجًا ولذيذًا جدًّا. فلما اكتشفت ذلك كدت اطير فرحًا. الا اني كنت قد تعلّمت بالاختبار ان لا آكل كثيرًا من العنب وذلك لاني كنت قد رايت وانا على شطوط الجزائر ان الاكثار من اكل العنب كان سبب موت كثيرين من رجالنا الانكليز الذين كانوا ماسورين هناك لانهُ رماهم في امراض الاسهال والحميّات. الا اني وجدت طريقة حسنة لاستعمال العنب وهي ان اجنّفهُ في الشمس وأُذخِرهُ كما يُذخَر الزبيب لوقت الحاجة اذ كنت اعلم انهُ لا يضرُّ في تلك الحالة بل يكون غذآءً فاخرًا لذيذًا عند عدم وجود العنب

فلما اقبل الليل طلعت الى راس شجرة ونمت هناك متهنئًا. فصرفت تلك الليلة في ذلك الموضع. وكانت اول ليلة بتُّ فيها خارج منزلي. فلما تبلّج الفجر قمت من النوم واخذت اتقدم في طريقي متجهًا باستقامة نحو نقطة الشمال حتى قطعت مسافة اربعة اميال تقريبًا كما ظهر لي من طول الوادي وكان على جانبيَّ من جهتَي الشمال والجنوب سلسلة جبال. وفي نهاية تلك المسافة كانت ثغرة او فرجة بين جبلين كانت الاراضي عندها كأَنَّها تمتدُّ منحدرة نحو الغرب. وكان بالقرب من تلك الثغرة ينبوع صغير من المآء العذب خارج من لحف الجبل يجري نحو الجهة المقابلة اي نحو نقطة الشرق. وكانت الارض هناك مغطّاة بالنباتات الخضرآء الناضرة وذات منظر بهج مفرّح كانها جنّة صناعيةٌ في وسط فصل الربيع. فاخذت انصبّب منحدرًا في تلك البقاع البهجة واجول فيها لافحص عن احوالها. وكنت اشعر بلذة سريّة ناتجة من النظر الى ان تلك الاماكن هي باسرها ملكي وتحت مطلق تصرفي واني انا مَلِك ومولًى لتلك البلاد باجمعها وليس من يعارضني في التسلط عليها ولا

ينازعني فيها ولا في ما حوتهُ من الخلائق والموجودات . ووجدت هناك كثيرًا من شجر النارجيل اي الجوز الهندي والبردقان والليمون والأترج الا ان اكثر تلك الاشجار كان بريًّا ولم يكن عليهِ ثمر الا القليل . غير اني قطفت شيئًا من الليمون الحامض فكان لذيذ الطعم ونافعًا للصحة . وقد مزجت في ما بعد عصيرهُ بماءٍ بارد فصار باردًا مرطّباً وكبير المنفعة . فصار عندي حينئذٍ شغل كثير وهو قطف الفواكه ونقلها الى منزلي . فاني عزمت على ان أذخر من العنب والليمون الحامض ما يكفيني لفصل الشتاء الذي كان قد صار على الابواب . فجمعت من العنب والليمون صُبَرًا صُبَرًا في اماكن مختلفة ثم انثنيت راجعًا الى منزلي وقد اخذت معي قليلاً من كل صنف ناويًا ان ارجع الى هناك مرة اخرى بكيسٍ او عدلٍ او وعاءٍ آخر ممَّا يمكنني وجودهُ او عملهُ وانقل ما بقي منها الى بيتي . وصرفت في هذا السفر ثلاثة ايامٍ . فلما وصلت الى منزلي كان العنب قد تشقّق وزرب ماؤُهُ لشدة نضجهِ وثقلهِ ولم يبقَ الا العماشيش فاصبح قليل الفائدة او لا فائدة بهِ اصلاً . واما الليمون فانهُ لم يتعطَّل الا ان ما اتيت بهِ منهُ كان قليلاً

وفي اليوم التالي وهو التاسع عشر من شهر تموز رجعت الى ذلك الموضع وقد اخذت معي كيسين عملتها لاجل الاتيان بما كنت قد جمعتهُ من الفواكه . فلما وصلت الى المكان اخذني العجب اذ رايت ان العنب الذي كان عند قطفهِ وجمعهِ لطيفًا ظريفًا قد تبدّد وتعصَّر وسُحِب بعضهُ الى هنا وبعضهُ الى هناك وأُكِل كثير منهُ . فاستدللت من ذلك على انهُ يوجد وحوش بريّة في تلك الجهات وانها هي التي فعلت ذلك الا اني لم اعلم ماذا كانت . فلما وجدت انهُ لا سبيل الى جمع ذلك العنب كومًا ولا الى حملهِ في عدل او كيس الى البيت من دون تعطيلهِ وخسارتهِ قطفت منهُ كمية كبيرة وعلَّقتها على اذبال الاشجار من خارج لاجل تيبيسها هناك . واما الليمون الحامض فاني اخذت منهُ كل ما استطعت حملهُ

ثم بعد رجوعي هذه المرة الى منزلي اخذت اتامَّل بلذة عظيمة في جودة ذلك

المكان وخصبهِ وظرافة مركزهِ وعدم تسلط الزوابع عليهِ وكثرة المياه والاشجار فيهِ .
ولاح لي عند ذلك اني اخترت لنفسي مكانًا للاقامة من اردإِ الاماكن في الجزيرة .
فاخذت اتامل في وجوب نقل مسكني والتفتيش على موضع حصين نظير المكان
الذي كنت حينئذٍ فيهِ . وجال في خاطري النزول في ذلك القسم الظريف
الخصب من الجزيرة

فبقيت مدة مستطيلة اتامل في ذلك الامر وكنت كلَّما تذكرت محاسن ذلك
الموضع الجديد ازيد غرامًا بهِ ورغبةً في الانتقال اليهِ . غير اني لدى مراجعة القضية
في فكري وجدت انهُ لا ينبغي ان انتقل من ذلك الموضع مطلقًا لانهُ كان بجانب
البحر فربما يتفق لاجل خيري ان النحس الذي قذفني الى هناك يقذف ايضًا بعضًا
من المنكودي الحظ الاشقياءَ الى ذلك الموضع بعينهِ . ومع ان وقوع ذلك كان
من الامور النادرة جدًّا حسبت حصري نفسي بين تلك الاودية والاحراش في
وسط الجزيرة ادخالاً لها سلفًا في المنفى ومن شانهِ ان يجعل ذلك الامر بالنظر اليَّ
ليس نادرًا فقط بل مستحيلاً ايضًا . ولكن لشدَّة حبّي لذلك المكان الجديد صرفت
فيهِ كثيرًا من الايام الباقية من شهر تموز . واخيرًا نصبت هناك خيمةً صغيرة
احطتها عن بُعدٍ بسور حصين مضاعف عالٍ على طول قامتي . وكنت اقيم
هناك مطمئنًا مدة ليلتين او ثلاث ليالٍ . وكنت اتسوَّر السور على سلَّم كما كنت
افعل قبلاً . فصار عندي حينئذٍ بيتان الواحد في الساحل والاخر في الجبل . وقد
صرفت في عمل ذلك بقية شهر تموز اي الى اوائل شهر آب

ولما فرغت من عمل السور وابتدأت اتمتع بثمرة تعبي حصلت امطار غزيرة
حبستني في منزلي الاول . وكانت خيمتي هناك كالاولى من قِطَع من القلوع محكمة
متقنة الا انها لم تكن في لحف جبل يقيها من العواصف ولا كانت وراءها مغارة
يمكنني ان اهرب اليها واستظلُّ فيها عند ما تكون الامطار اقوى واشدّ من
مالوف العادة

وفي اول آب فرغت من عمل تلك الخيمة وابتدأت أتهنَّأُ بعيشتي . وفي اليوم

الثالث من الشهر المذكور كان العنب الذي علّقتهُ على الاشجار قد يبس جيدًا وصار زبيبًا فاخرًا فانزلتهُ عن الاشجار. وقد احسنت في ما عملتهُ لاني لو لم انزلهُ في ذلك الوقت كانت الامطار التي حدثت بعد ذلك بقليل عطلتهُ وكنت خسرت احسن صنف مما اعددتهُ موُنةً للشتاء. وكان عندي من ذلك العنب اليابس اكثر من ماية عنقود. ولم انتهِ من انزال ذلك ونقل اكثرهِ الى منزلي حتى ابتدأت تمطر. ومن ذلك اليوم وهو اليوم الرابع عشر من شهر آب كانت تمطر كل يوم من دون انقطاع الى اواسط شهر تشرين الاول. وكنت امكث اوقاتًا داخل المنزل لا استطيع ان اخرج منهُ اياما كثيرة متوالية وذلك لشدة المطر

من ١٤ الى ٢٦ آب. حصلت في تلك الايام في ضيقة من جهة الطعام لانى كنت محبوسًا من شدة الامطار ولم اكن اخرج الى خارج خوفًا من ان اتبلّل. الا اني خرجت مرتين رغمًا عني من شدة الجوع فصدت في المرة الاولى عنزة وفي المرة الثانية وجدت سلحفاة كبيرة جدًا فعملت منهـا وليمةً. وكان ذلك في اليوم الرابع والعشرين من آب. وكنت قد رتبت امر اكلي هكذا. فكنت آكل عنقود زبيب صباحًا وقطعة من لحم المعزى او السلاحف عند الظهر وبيضتين او ثلاثًا من بيض السلاحف مساءً. وكنت آكل اللحم مشويًا لانهُ لعظم نحسي لم يكن عندي قِدْر ولا مقلاة اسلقهُ او اقلوهُ فيها

واذ كنت محبوسًا هكذا داخل خيمتي من جرى كثرة المطر كنت اشتغل كل يوم ساعتين او ثلثًا في توسيع مغارتي ولم ازل كذلك حتى وصلت الى اخر التلّ من الجانب الواحد فانفتح هناك باب خارج السور كنت ادخل واخرج منهُ. الاّ ان بالي كان مضطربًا من ذلك الباب الجديد فلم اكن انام براحة وطمانينة كما كنت افعل قبلاً حين كنت داخل سور مسدود من كل جهة مع اني لم ارَ انهُ يوجد حيٌّ يُخشَى لقاؤهُ. لان اعظم ما كنت قد صادفتهُ من الحيوانات الى ذلك اليوم هو المعزى

في ٣٠ ايلول. وصلت الى ذلك اليوم التعيس الذي أُلقيت فيهِ منذ سنة

على تلك الجزيرة . وقد جمعت العلامات او الخطوط التي حفرتها على ذلك العمود المربّع فبلغ مجموعها ثلثماية وستين علامةً اي يومًا . فصرفت ذلك اليوم في الصوم والتذلل والرياضة الدينيّة . وخررت على الارض بتواضع عميق وخضوع وخشوع معترفًا لله بخطاياي ومقرًّا بعدل حكمهِ عليَّ وصلّيت اليهِ تعالى ان يرحمني اكرامًا ليسوع المسيح . ولم أذُق شيئًا مدة اثنتي عشرة ساعة اي الى المغرب . فلما غابت الشمس اكلت كعكة وقليلاً من الزبيب وذهبت الى فراشي خاتمًا ذلك النهار بالصلوة كما افتتحتهُ . واذ كنت كما علمت سابقًا قد ضيّعت يوم الاحد قسمت ايام تلك السنة الى اسابيع وافرزت كل يوم سابع للاحد وكنت كما تقدم القول قد ضيّعت يومًا او يومين في حسابي . ثم بعد ذلك بقليل قلّ حبري فاخذت اوفّرهُ واقتصر على كتابة اهمّ حوادث حياتي

وظهر لي حينئذٍ ان فصل الشتاء وفصل الصحو كانا منتظمين فعلمت كيفية قسمتها لاجل الاستعداد لها . الاَّ ان كل ما تعلمتهُ بالاختبار لم يأتني بالسهولة بل كلّفني اتعابًا كثيرة . ومن اتعس الامتحانات التي عملتها في حياتي ما سيأتي ذكرهُ

ذكرت لك قبلاً امر سنابل الشعير والارزّ التي وجدتها وظننت انها كانت نابتة من ذاتها . وكان عدد سنابل الارزّ نحو ثلثين سنبلة وسنابل الشعير نحو عشرين . فظننت ان زرع ذلك بعد تلك الامطار كان امرًا جيدًا لان الشمس كانت في جهة الجنوب ذاهبة عني . فاخذت رفشي وكان من خشب كما علمت وفلحت بهِ قطعة ارض وقسمتها الى قسمين وزرعت فيها البذار . وبينما كنت ازرع لاح لي ان لا ازرع كل البذار في ذلك الوقت لاني لم اعلم ما هو الوقت الاصلح لزرعهِ ومن ثم زرعت نحو ثلثيهِ وتركت الثلث الآخر وكان نحو ملءِ قبضة من كل صنف . وكان عليَّ هذا سبب فرح عظيم لي في ما بعد لانهُ لم ينبت شيءٌ من كل ما زرعتهُ في ذلك الوقت . لان زرعهُ كان عند قدوم اشهر القيظ فلم يقع على الارض مطر بعد الزرع لإنباتهِ فبقي مدفونًا تحت الارض الى فصل الشتاء القادم وعند ذلك نبت كانهُ قد زُرِع حديثًا . فتبيّن لي من ذلك ان الزرع لم ينبت

لعدم المطر. فاخذت افتش على بقعة ارض رطبة لاجل الامتحان ايضًا. فوجدت بقعة بهذه الصفة في جوار خيمتي الجديدة فاصلحتها وزرعت فيها ما بقي عندي من البذار. وكان ذلك في شهر شباط قبل الاعتدال الربيعي بقليل. واذ وقعت عليهِ امطار اذار ونيسان نبت كلهُ وكان ناميًا جيدًا فاتى بغلةٍ حسنة جدًا. ولكن اذ كان البذار قليلاً وكنت لم ازرع كل ما عندي خوفًا من عدم طلوعهِ كانت غلتهُ قليلةً اي نحو ربع مدٍ من كل صنفٍ. وبواسطة هذه الامتحانات تعلمت جيدًا صناعة الزراعة وعرفت اوقات الزرع وانهُ يمكنني ان آكل موسمين كل سنة

واذ كانت تلك الحبوب آخذةً في الزيادة شيئًا فشيئًا اكتشفت شيئًا استفدت منهُ في ما بعد وان يكن في ذاتهِ زهيدًا. فانهُ حين انقطعت الامطار واستقام الهواء وذلك بالقرب من شهر تشرين الثاني ذهبت لزيارة منزلي الجديد في الجبل. وكنت قد غبت عنهُ عدة اشهر فوجدت مع ذلك كل ما تركتهُ على حالهِ. فان الحائط او السياج المضاعف كان كما تركتهُ من دون تغيُّر. وكانت الاعمدة التي كنت قد قطعتها من بعض اشجار هناك وعملت منها السياج قد عاشت وارسلت اغصانًا طويلةً كما ترسل شجرة صفصاف في السنة الاولى بعد قطع راسها. ولم اعلم ماذا كانت تلك الشجرة التي قطعت منها تلك الاعمدة. فاخذني العجب من ذلك وسررت بهِ جدًا. فاخذت اربّي تلك الاشجار الصغيرة لكي تكون جميعها على هيئة واحدة ومقدار واحد. ولم يمضِ عليها الا ثلاث سنين حتى صارت اشجارًا كبيرة جميلة وظريفة جدًا في منظرها وامتدت اغصانها بسرعة حتى غطت ذلك السياج وكان محيطهُ نحو ثلثة وثلثين ذراعًا وظللت عليهِ وعلى ما حولهُ حتى صار يمكن الانسان ان يصرف كل ايام الصحو في ظلها. فنويت عند ذلك على عمل سياج نظير هذا على شكل نصف دائرة حول سوري اي حائط منزلي الاول وقد تمت ذلك فعلاً. فغرست الاعمدة صفين على بُعْد نحو اثني عشر ذراعًا عن السور فنبتت حالاً. فكانت سترًا ظليلاً لطيفًا وسياجًا حريزًا ظريفًا لزينة منزلي ووقايتهِ ايضًا كما سترى في سياق هذه القصة

الفصل الحادي عشر

طواف روبنصن كروزي في الجزيرة وعملهُ السلال

وبعد ان صرفت كل تلك المدة في الجزيرة ظهر لي ان قسمة فصول السنة فيها تختلف عن قسمتها في اوروبا . فان ايام المطر والصحو كانت غالبًا هكذا . من اواسط شباط الى اواسط نيسان ايام مطر . وذلك لان الشمس تكون حينئذٍ في خط الاستوآء او بالقرب منهُ . ومن اواسط نيسان الى اواسط آب ايام صحو . وذلك لان الشمس تكون حينئذٍ شماليَّ الخط . ومن اواسط آب الى اواسط تشرين الاول ايام مطر . وذلك لان الشمس تكون حينئذٍ قد رجعت الى الخط . ومن اواسط تشرين الاول الى اواسط شباط ايام صحو . وذلك لان الشمس تكون حينئذٍ جنوبيَّ الخط . غير ان ايام المطر والصحو كانت اوقاتًا اطول واوقاتًا اقصر بحسب الرياح . وما ذكرتهُ هو الغالب فيها

ووجدت بالاختبار عظم الضرر الناتج لصحتي من خروجي من منزلي في ايام الشتآء فاخذت اهتمُّ في ايام الصحو في تدبير ما احتاج اليهِ حتى لا يضطرَّني الامر الى الخروج في ايام المطر . فكنت اصرف ايام المطر داخل منزلي وانعاطى اعمالًا كثيرة توافق المكان والزمان . وقد وجدت نفسي في احتياجٍ الى امور كثيرة لا تُنال الَّا بالكدّ ومواظبة العمل . ومما شعرت بالاحتياج اليهِ السلال . فحاولت عمل سلٍّ الَّا ان جميع ما امكنني الحصول عليهِ من القضبان لهذا العمل كان صلبًا غير طائع فكان اذا لويتهُ او عكفتهُ ينكسر حالًا فلا يصلح للمطلوب . وكانت لي عادة في ايام صباي ان اقف امام دكَّان عامل سلالٍ في بلدة ابي اتفرَّج عليهِ واسرُّ بالنظر الى عملهِ والاحظ جيدًا كيف يصطنع ذلك وكنت مرارًا اساعدهُ في تقديم القضبان او مسكها حتى صارت لي بهذه الواسطة معرفة تامَّة بهذه الصناعة . ولم يكن ينقصني شيءٌ الَّا الموادُّ اللازمة لها . وعند ذلك جال في خاطري ان قضبان تلك الشجرة التي قطعت منها تلك الاعمدة التي عاشت ربما كانت ليِّنة طائعة نظير قضبان الصفصاف وغيرهِ ممَّا نعمل منهُ السلال في انكلترا . فعزمت

على امتحان ذلك . فذهبت في اليوم التالي الى منزلي في الجبل وقطعت منها بعضاً من القضبان الرفيعة فجاءت طبق مرغوبي . ولذلك اتيت في اليوم التالي بفاسي وقطعت ما يلزمني من تلك القضبان وكانت كثيرة في ذلك الموضع . ثم وضعت ما قطعتهُ داخل دائرتي او سياجي لكي يذبل في الشمس . فلما ذبل وصار صالحاً للشغل ادخلتهُ الى مغارتي . فعملت من ذلك هناك حسب معرفتي عدة سلال لاجل حمل التراب او لاجل نقل اشياء اخر او وضعها فيها عند الاقتضاء . وتلك السلال مع انها لم تكن لطيفة متقنة كانت نافعة لي جدًّا ومن ثم كنت كلَّما عتقت اعمل غيرها . وقد عملت سلالاً كبيرة عميقة قاصدًا استخدامها لاجل وضع الحبوب فيها عند ما يكثر ذلك عندي

فلما غلبت على هذه الصعوبة ونجحت في عملي بعد صرف زمان طويل فيهِ اخذت اتبصر كيف اصطنع شيئين آخرين كنت في احتياج شديد اليهما . فانهُ لم يكن عندي وعاء لوضع شيء سيَّال الا برميلان صغيران كان فيهما روم وبعض قناني من زجاج ودمجانات لوضع الماء والارواح وما اشبه ذلك . ولم يكن عندي قدْر لسلق ما اريد سلقهُ بل كان عندي مرجل كبير او خلقين خلصتهُ من المركب الَّا انهُ لكبرهِ لم يكن يصلح لسلق اللحم او عمل مرقتهِ . ثم الشيء الآخر الذي كنت مفتقرًا اليهِ هو قصبة او آلة لشرب التبغ فلم استطع ان اصطنع ذلك غير اني في ما بعد اخترعت آلةً لذلك ايضاً . فاشتغلت كل فصل الصحو او الصيف في غرس الصف الثاني من الاعمدة وفي عمل السلال . ثم عرض لي شغل اخذ من وقتي اكثر مِمَّا كان يمكنني انْ استغني عنهُ من دون صعوبةٍ

ذكرت قبلاً انهُ كانت لي رغبة شديدة في التفرُّج على الجزيرة والجولان فيها واني سافرت في ذلك الوادي الى الموضع الذي بنيت فيهِ خيمتي حيث كانت ثغرة تُطِلُّ على البحر من الجانب الآخر من الجزيرة . فعزمت هذه المرة ان اتجاوز ذلك الموضع الى ان اصل الى الشاطي الذي على الجانب الآخر . فتناولت بارودتي وبلطة وكمية وافرة من البارود والخردق وزادًا من البقصماط والزبيب واخذت

في طريقي آخذًا الكلب معي . فلما تجاوزت الوادي الذي كانت خيمتي فيهِ كما تقدم القول اطللت مشرفًا على البحر من جهة الغرب . واذ كان الفلك رائقًا جدًّا لمحت ارضًا ولم اعلم هل كانت قارّة او جزيرةً . الا انها كانت مرتفعة كثيرًا وممتدَّة من الغرب الى غربي الجنوب الغربي على بعد قاصٍ مني واظنُّ انها لم تكن بعيدة عن ذلك الموضع اقلَّ من خمسة عشر او عشرين فرسخًا

فلم اعلم ايَّ قسمٍ من العالم كانت تلك الارض الا اني ظننت انها قسم من بلاد امركا وحكمت بعد المراقبة المدقَّقة ان موقعها في القرب من املاك صبانيا وان سكانها ربما كانوا جميعًا من البرابرة واني اذا ذهبت اليها اكون في حالة اردأ من حالتي الحاضرة . فسلَّمت كل اموري للعناية الالهية التي كنت قد ابتدأت حينئذٍ اقرُّ بوجودها واعتقد بانها تحوّل كل شيء للخير . وبهذه الواسطة سكَّنت قلقي ولم اعد ازعج نفسي بالرغبة الفارغة في ان اكون في تلك الاراضي . وعدا ذلك بعد ان تاملت جيدًا في هذا الامر قلت لو كانت تلك الارض هي شطوط صبانيا كنت لا محالة ارى في احد الاوقات المراكب تجتاز من هناك ذهابًا او ايابًا . فيجب ان تكون اذًا شطوط بلاد البرابرة الواقعة بين بلاد صبانيا وبرازيل التي سكانها من اردإ البرابرة لانهم ياكلون لحوم الناس ويفترسون كل من وقع في ايديهم من بني البشر

واذ كنت اسير رُوَيدًا رُوَيدًا متقدمًا في طريقي وجدت ان ذلك الجانب من الجزيرة اشرح من الجانب الذي اتخذتهُ لي مسكنًا . فان البقاع هناك كانت ظريفة مزيَّنة بالازهار والاعشاب ومملوة من الآجام والغيطان اللطيفة . ووجدت كثيرًا من طير الدرّ او الببغال فاشتهيت ان امسك واحدًا منها واربيهُ واعلمهُ التكلُّم . ثم بعد التعب امسكت ببغا لا صغيرًا وذلك اني ضربتهُ بعصًا فوقع الى الارض فلقطتهُ واتيت بهِ الى منزلي . الا انهُ لم يتعلم التكلُّم الا بعد عدة سنين . وقد علَّمتهُ ان يناديني باسمي فكان يفعل

ذلك جيدًا . ثم حدث امر في ما بعد يستحقّ الذكر وان يكن في ذاتهِ زهيدًا فانشرح صدري وتسلّيت كثيرًا بذلك السفر . وقد وجدت في الاراضي المنخفضة طوايف من الارانب والثعالب الا انها تختلف قليلاً عمّا كنت قد صادفتهُ منها في اماكن اخرى فاصطدت شيئًا منها الا اني لم اشأْ ان آكل لحومها وذلك لان لحوم المعزى واليمام والسلاحف اغنتني عنها . واذا نظرنا الى حالة وعدد الآكلين فان مايدتي كانت من افخر الموائِد تحتوي على اصناف كثيرة من المآكل والنقولات من العنب وغيرهِ . ومع ان حالتي كانت تعيسة في الغاية كان لي اسباب عظيمة لان احمد الله واكون شكورًا . لاني لم اصل الى غاية الاحتياج في امر القوت بل بالحري كان لي كفاءة وزيادة حتى من الاشياءَ الفاخرة ايضًا

ولم اكن اقطع في هذا السفر على خط مستقيم اكثر من ميلين في اليوم بل كنت اميل مرارًا كثيرة عن الطريق وارجع احيانًا الى الوراءَ لاجل الاكتشاف حتى اني كنت اصل الى المبيت كليلاً من التعب . وكنت في اخر السفر انام في راس شجرة او على الارض وذلك بعد ان احصّن نفسي باعمدة اركزها حولي في الارض او امدّدها من شجرة الى شجرة بحيث لا يستطيع وحش برّيّ ان ياتي اليَّ من دون ان استيقظ

فلما وصلت الى الشاطي تعجّبت من اني اخترت نزولي في اردإِ قسم من الجزيرة فان الشاطي هناك كان مملوًّا من السلاحف بخلاف الموضع الذى استوطنت فيهِ فاني لم اصادف فيهِ منها الاَّ ثلاثًا وذلك في مدة سنة ونصف . وكان هناك طوايف كثيرة من الطيور المختلفة ممَّا كنت قد رايت بعضًا منهُ قبلاً وكثير منها كان لحمهُ جيدًا لذيذًا الا انني لم اكن اعرف اسامي اكثرها

وكان يمكنني ان اصطاد من تلك الطيور قدر ما اريد الا اني كنت اوفر بارودي وخردقي . ومن ثم كنت اميل الى اصطياد عنزة اذا تيسّر لي ذلك لان ذلك انفع لي . ومع انهُ يوجد هناك معزى كثيرة اكثر ممَّا يوجد على الجانب الآخر من الجزيرة حيث كنت نازلاً كان القرب منها صعبًا جدًّا لان الجزيرة في تلك

الاطراف كانت مستسهلة مستوية فكانت المعزى تراني باوفر سرعة مما لو كنت على تلٍّ او صخرٍ اعلى منها لِمَا علمتهُ قبلاً

ولا اقدر ان انكر ان تلك الجهة من الجزيرة احسن واشرح من جهتي الاَّ انهُ لم يكن لي ادنى ميل الى الانتقال اليها وذلك لاني كنت قد استوطنت في منزلي وصرت اميل اليهِ طبعاً حتى كنت اشعر في مدة سفري هذا كأني في غربة بعيد عن وطني. فقطعت بجانب البحر نحو الشرق مسافة اثني عشر ميلاً وركزت عموداً كبيراً على الشاطي نظير علامة وعزمت على الرجوع الى منزلي وعلى اني في المرة الاخرى اسافر في الجهة الاخرى من الجزيرة اي شرقيَّ منزلي وادور حولها حتى اصل الى مركزي كما سيأتي بيانهُ في مكانهِ

فرجعت من طريق غير الطريق التي ذهبت بها لاني حسبت اني اقدر بسهولة ان اظلَّ ناظراً قسماً كافياً من الجزيرة بحيث لا اضيع منزلي بواسطة الجولان فيها. الاَّ اني وجدت نفسي في غلط من هذا القبيل لاني بعد ان قطعت في رجوعي مسافة ميلين او ثلثة اميال وجدت نفسي قد ابتدأت انصبُّ منحدراً في وادٍ كبير جدًّا محاط بجبال مغطاةٍ بالاحراش حتى اني لم أَعُد اعرف ما هي طريقي الا بواسطة الشمس وذلك لا دائماً بل فقط حينما كنت اعرف مركز الشمس في ذلك الوقت من النهار. واتفق لزيادة نحسي ان الفلك كان مغبرًّا مظلماً مدة ثلثة او اربعة ايام وانا في ذلك الوادي. واذ كنت لا ارى الشمس كنت تائهاً منزعجاً جدًّا حتى التزمت اخيراً ان اطلب العمود الذي ركزتهُ على الشاطي وارجع من نفس الطريق التي اتيت منها. فلما وصلت اليهِ انثنيت راجعاً الى منزلي قاسماً المسافة الى مراحل هيّنة لان الهواءَ كان حارًّا جدًّا وكانت بارودي وزادي وبلطتي واشياءُ أُخَر ثقيلة عليَّ في الغاية

شعرٌ

ولو كانَ همٌّ واحدٌ لاتقيتهُ ولكنهُ همٌّ وثانٍ وثالثُ

الفصل الثاني عشر

رجوع روبنصن كروزي الى منزلهِ ونجاحهُ في امر الزراعة

وان كلبي طارد في ذلك السفر جديًا صغيرًا وقبض عليهِ. وكنت قد ركضت لامسكهُ فامسكتهُ وخلَّصت حياتهُ من الكلب. وكنت مائلاً جدًّا الى اخذهِ معي الى البيت لاني كنت مرارًا كثيرة افتكر ان أَلقط جديين او اكثر واربيهما واحصل بهذه الواسطة على قطيع من المعزى الاهلية استند عليهِ في امر عيا التي متى نفد ما عندي من البارود والخردق. فصنعت طوقًا لذلك الجدي الصغير وربطتهُ منهُ بمرس اصطنعته من خيطان لم اكن اخلو منها واقتدتهُ ورآءي وذلك بصعوبة الى ان وصلت بهِ الى خيمتي في الجبل وهناك زربتهُ وتركتهُ لئلا يعيقني في الطريق. لاني كنت مشتاقًا جدًّا الى الوصول الى منزلي اذ كنت قد غبت عنهُ اكثر من شهر

ولا اقدر ان أَصِف كم حصل لي من السرور عند ما وصلت الى منزلي القديم واضطجعت في سريري اي ارجوحتي. وكان سفري او بالحري تيهي القصير من دون ان يكون لي مقرٌّ اقيم فيهِ ثقيلاً عليَّ جدًّا حتى ان منزلي وكنت ادعوهُ بيتي كان عندي مسكنًا حقيقيًّا ووطنًا ثابتًا بالنظر الى ذلك. وكان كل شيء فيهِ مريحًا لي قريب التناول حتى عزمت على اني لا ابعد عنهُ ايضًا كثيرًا ما دام نصيبي البقآء في تلك الجزيرة

فاقمت هناك اسبوعًا لكي استريح واتهنأ بعيشتي بعد سفري الطويل. وصرفت اكثر ذلك الاسبوع في امرٍ مهمٍّ وهو عمل قفص لببغالي الذي كان حينئذٍ قد صار اهليًّا انيسًا يعرفني جيدًا. ثم اخذت افتكر في ذلك الجدي المسكين الذي زربتهُ داخل دائرتي الصغيرة في الجبل فعزمت على الاتيان بهِ الى البيت او اطعامهِ شيئًا هناك. فتوجهت اليهِ فوجدتهُ حيث تركتهُ لانهُ كان لا يستطيع الخروج وكان قد قارب الموت جوعًا. فقطعت بعض اغصان من تلك الاشجار وطرحتها امامهُ وبعد ان اكل ربطتهُ كما فعلت قبلاً الا انهُ كان قد ذلَّ وهزل جدًّا من الجوع حتى لم يكن اقتضآء لربطهِ لانهُ كان يتبعني مثل كلب. واذ كنت

اطعمهُ وادلّلهُ والاطفهُ صار محبًّا ولطيفًا وذا دالّة عظيمة فصرت احسبهُ كواحد من العائلة ولم يَعُد يشاء ان يفارقني بل كان دائمًا ملاصقًا لي

وكان حينئذٍ وقت المطر في الفصل الخريفيّ قد اقبل فصرفت اليوم الثلاثين ن شهر ايلول باحتفال كما صرفتهُ قبلاً لانهُ هو اليوم الذي نزلت فيهِ الى البرّ. وكان قد مضى عليَّ هناك سنتان. ولم يكن لي حينئذٍ امل في النجاة اكثر مما كان لي في اول يوم وضعت فيهِ قدمي على تلك الجزيرة. فصرفت النهار كلهُ في العبادة والشكر لله على البركات الكثيرة العجيبة التي كانت وحدتي محفوفةً بها والتي لولاها لكنت في حالةٍ اشقى وانعس جدًّا. وقدمت الشكر القلبي لله لانهُ ارتضى ان يكشف لي اولاً انهُ امرٌ ممكن ان اكون اكثر سعادة في تلك الحالة الموحشة مما اكون في عشرة الناس متمتعًا بجميع لذّات العالم. ثانيًا انهُ تعالى يقدر ان يعوّض عليَّ تمامًا عن نقايص حالتي المتوحدة وعن عدم وجود اناس اعاشرهم بواسطة حضورهِ معي وحلول نعمتهِ في نفسي وعضدهِ وتعزيتهِ لي وبواسطة تقويتهِ اياي ان اتكل على عنايتهِ في هذه الحيوة وارجو ان اكون معهُ الى الابد في الحيوة الآتية

وابتدأت حينئذٍ اشعر بقوةٍ ان عيشتي في ذلك الوقت كانت مع رداءتها اكثر سعادةً وغبطة من العيشة الردية الاثيمة المكروهة التي قضيتها في الايام السالفة. فتغيّرت حينئذٍ احزاني وافراحي وعواطفي وصارت لذّاتي جديدة تختلف اختلافًا تامًّا عمّا كانت عند دخولي اولاً في تلك الجزيرة او بالحري في السنتين الماضيتين. لاني عند ما كنت اجول سابقًا في الجزيرة كان الاضطراب من النظر الى حالي يدهمني بغتةً ويزعجني جدًّا. واذ كنت التفت الى الاحراش والجبال والوعور التي أُلقيت في وسطها كان قلبي يمتلئ كآبةً ويكاد يجمد من شدة الحزن وعلى الخصوص حين كنت اتامّل كيف كنت محبوسًا في برية موحشة وقد أُغلقت عليَّ ابواب النجاة وقُفِلت باقفال الاوقيانوس الابديّة حتى لم يكن لي باب امل في الفرج والخلاص من تلك الحالة التعيسة. وكانت تلك التصوُّرات تثور عليَّ بغتةً في اوقات هدوّي نظير عاصفة قاصفة وتؤثّر فيَّ تاثيرًا شديدًا. فكنت اصفق يديَّ

وابكي نظير طفل صغير. وكانت تاتيني احيانًا داهمةً اياي في وسط الشغل وتربط حالاً يديَّ فاقف متنهدًا واصرف ساعةً او ساعتين محدّقًا نظري نحو الارض غائصًا في بحار التفكُّر. وكان ذلك مضرًّا لي في الغاية. ولو استطعت ان افرج كربي بواسطة ذرف الدموع او اطلاق عنان الحاسيَّات بواسطة التكلُّم لكانت نيران كآبتي تخمد شيئًا فشيئًا ويزول غمّي همّي

الاَّ اني اخذت حينئذٍ اشغل نفسي بافكار جديدة. وكنت اتصفَّح كل يوم كلام الله وانسب كل تعزياتهِ الى حالتي. وبينما كنت ذات يوم صباحًا كئيبًا جدًّا فتحت الكتاب المقدس واول آيةٍ وقعت تحت نظري كانت هذه الآية وهي قولهُ تعالى اني لا اتركك ولا اخذلك. فجال في بالي حالاً ان تلك الكلمات تتَّجه نحوي والاَّ فلماذا وقع نظري عليها في نفس الدقيقة التي كنت اندب فيها حالي كمتروك ومخذولٍ من الله والناس. فقلت عند ذلك في نفسي اذا كان الله لا يتركني فاذا تركني العالم باسرهِ لا ابالي ولكن اذا كان لي العالم باسرهِ وخسرت رضى الله وبركتهُ فان الخسارة تكون اعظم بغير قياس

فابتدأت من ذلك الوقت افتكر في نفسي انهُ يمكنني ان اكون اكثر غبطة في تلك الحالة الموحشة المنفردة مما اكون في حالة اخرى مهما كانت. وعند ذلك هممت بتقديم الشكر لله على اتيانهِ بي الى ذلك الموضع. الا ان شيئًا لم اعلم ما هو حال حالاً دوني ودون ذلك فلم اتجرَّأ ان اتلفظ بكلمات الشكر. بل قلت لنفسي بكلمات مسموعة كيف يمكنكِ ان تكوني مرائيةً بهذا المقدار وتتظاهري بتقديم الشكر على حالةٍ احبُّ اليكِ ان تصلّي بحرارة طالبةً ان تُنقَذي منها مهما اجتهدتِ في الارتضاء بها. ومع انهُ لا يحقُّ لي ان اقول اني حمدت الله او شكرتهُ على وجودي هناك يسوغ لي القول اني شكرتهُ تعالى شكرًا قلبيًّا على فتحهِ عينيَّ عقلي بواسطة اعمال عنايتهِ وان تكن محزنة الى نظر سيرتي الماضية والنوح على خطاياي السالفة والرجوع اليهِ تعالى بالتوبة الصادقة. وكنت كلَّما فتحت الكتاب المقدس او اطبقتهُ احمد الله على الهامهِ صديقتي في انكلترا ان تضع ذلك الكتاب بين

امتعتي وذلك من دون طلب مني وعلى مساعدتهِ اياي على تخليصهِ في ما خلَّصتهُ من المركب

فبهذه الحاسيَّات افتتحت سنتي الثالثة . ولا اثقّل على القارئ بتفاصيل اخبار ما عملتهُ في تلك السنة ولكنني اقول بالاجمال اني لم اكن اصرف الوقت بالبطالة الا نادرًا بل كنت اقسّم وقتي بالترتيب على ما كان امامي من الاشغال اليوميَّة . فكنت اولاً اتمّ واجباتي لله واقرأُ كلامهُ تعالى ثلاث مرات كل يوم . ثانيًا كنت اخرج ببارودتي طلبًا للصيد فاصرف ثلاث ساعات في ذلك كل يوم اذا لم يمنعني عنهُ المطر . ثالثًا كنت ارتّب واُصلح واقدّد واملّح واطبخ ما اصيدهُ فاصرف في ذلك قسمًا كبيرًا من النهار . ولا يجب ان نغفل عن هذا الامر وهو اشتداد الحرّ هناك عند ما تكون الشمس في كبد الفلك في اواسط النهار ولهذا لم اكن استطيع حينئذٍ الخروج خارج منزلي ومن ثم لم يكن لي استطاعة على الشغل بعد الظهر الا مدة اربع ساعات فقط . على اني كنت في بعض الايام ابادل بين اوقات الصيد والشغل فاشتغل قبل الظهر واذهب الى الصيد بعدهُ

وفضلاً عن قصر اوقات الشغل كانت اعمالي متعبة وصعبة المراس جدًّا . فاني لعدم وجود آلات ولا مسعفين ولقلّة اختباري كنت اصرف ساعات كثيرة في كل شيء اعملهُ وكان كل ذلك يذهب من وقتي . فاني مثلاً صرفت اثنين واربعين يومًا كاملة في عمل لوح طويل جعلتهُ رفًّا في مغارتي مع انهُ يمكن اثنين من النشّارين ان ينشرا ستة الواح نظيرهُ من نفس الشجرة التى نشرتهُ منها في نصف نهار اذا كانت لهما آلات معدّة لذلك . واما انا فاذ كان مطلوبي لوحًا عريضًا طويلاً اضطرّني الامر ان اقطع شجرة كبيرة . فصرفت ثلاثة ايام في قطع تلك الشجرة ويومين في قطع اغصانها حتى لم يبقَ منها الاَّ قائمة بدنها . ثم صرفت اياماً كثيرة في تجبيرها وتخفيفها وترقيقها وقد قاسيت في ذلك اتعابًا شاقَّة لا تُوصَف . ثم صرفت مدة في جلائها وتنظيفها من جانبيها وهكذا كنت اقلّبها من جانب الى آخر وانجّرها حتى دقّت ورقّت وصارت لوحًا سمكهُ ثلثة قراريط فقط . ولا

وابكي نظير طفل صغير. وكانت تاتيني احيانًا داهمةً اياي في وسط الشغل وتربط حالًا يديَّ فاقف متنهدًا واصرف ساعةً او ساعتين محدّقًا نظري نحو الارض غائصًا في بحار التفكُّر. وكان ذلك مضرًّا لي في الغاية. ولو استطعت ان افرج كربي بواسطة ذرف الدموع او اطلاق عنان الحاسيَّات بواسطة التكلُّم لكانت نيران كآبتي تخمد شيئًا فشيئًا ويزول غمّي وهمّي

الّا اني اخذت حينئذٍ اشغل نفسي بافكار جديدة. وكنت اتصفَّح كل يوم كلام الله وانسب كل تعزياتهِ الى حالتي. وبينما كنت ذات يوم صباحًا كئيبًا جدًّا فتحت الكتاب المقدس واول آيةٍ وقعت تحت نظري كانت هذه الآية وهي قولهُ تعالى اني لا اتركك ولا اخذلك. فجال في بالي حالًا ان تلك الكلمات تتّجه نحوي والّا فلماذا وقع نظري عليها في نفس الدقيقة التي كنت اندب فيها حالي كمتروك ومخذولٍ من الله والناس. فقلت عند ذلك في نفسي اذا كان الله لا يتركني فاذا تركني العالم باسرهِ لا ابالي ولكن اذا كان لي العالم باسرهِ وخسرت رضى الله وبركتهُ فان الخسارة تكون اعظم بغير قياس .

فابتدأْت من ذلك الوقت افتكر في نفسي انهُ يمكنني ان اكون اكثر غبطة في تلك الحالة الموحشة المنفردة ممَّا اكون في حالة اخرى مهما كانت. وعند ذلك هممت بتقديم الشكر لله على اتيانهِ بي الى ذلك الموضع. الا ان شيئًا لم اعلم ما هو حال حالًا دوني ودون ذلك فلم اتجرَّأ ان اتلفظ بكلمات الشكر. بل قلت لنفسي بكلمات مسموعة كيف يمكنكِ ان تكوني مرائيةً بهذا المقدار وتتظاهري بتقديم الشكر على حالةٍ احبُّ اليكِ ان تصلّي بحرارة طالبةً ان تُنقَذي منها مهما اجتهدتِ في الارتضاءِ بها. ومع انهُ لا يحقُّ لي ان اقول اني حمدت الله او شكرتهُ على وجودي هناك يسوغ لي القول اني شكرتهُ تعالى شكرًا قلبيًّا على فتحهِ عينَي عقلي بواسطة اعمال عنايتهِ وان تكن محزنة الى نظر سيرتي الماضية والنوح على خطاياي السالفة والرجوع اليهِ تعالى بالتوبة الصادقة. وكنت كلَّما فتحت الكتاب المقدس او اطبقتهُ احمد الله على الهامهِ صديقتي في انكلترا ان تضع ذلك الكتاب بين

امتعتي وذلك من دون طلب مني وعلى مساعدتهِ اياي على تخليصهِ في ما خلَّصتهُ من المركب

فبهذه الحاسيَّات افتتحت سنتي الثالثة . ولا اثقل على القارئ بتفاصيل اخبار ما عملتهُ في تلك السنة ولكنني اقول بالاجمال اني لم اكن اصرف الوقت بالبطالة الا نادرًا بل كنت اقسّم وقتي بالترتيب على ما كان امامي من الاشغال اليوميَّة . فكنت اولاً اتمّ واجباتي لله واقرأ كلامهُ تعالى ثلاث مرات كل يوم . ثانيًا كنت اخرج ببارودتي طلبًا للصيد فاصرف ثلاث ساعات في ذلك كل يوم اذا لم يمنعني عنهُ المطر . ثالثًا كنت ارتّب واُصلح واقدّد واملّح واطبخ ما اصيدهُ فاصرف في ذلك قسمًا كبيرًا من النهار . ولا يجب ان نغفل عن هذا الامر وهو اشتداد الحرّ هناك عند ما تكون الشمس في كبد الفلك في اواسط النهار ولهذا لم اكن استطيع حينئذٍ الخروج خارج منزلي ومن ثم لم يكن لي استطاعة على الشغل بعد الظهر الا مدة اربع ساعات فقط . على اني كنت في بعض الايام ابادل بين اوقات الصيد والشغل فاشتغل قبل الظهر واذهب الى الصيد بعدهُ

وفضلاً عن قصر اوقات الشغل كانت اعمالي متعبة وصعبة المراس جدًّا . فاني لعدم وجود آلات ولا مسعفين ولقلَّة اختباري كنت اصرف ساعات كثيرة في كل شيء اعملهُ وكان كل ذلك يذهب من وقتي . فاني مثلاً صرفت اثنين واربعين يومًا كاملة في عمل لوح طويل جعلتهُ رفًّا في مغارتي مع انهُ يمكن اثنين من النشَّارين ان ينشرا ستة الواح نظيرهُ من نفس الشجرة التي نشرتهُ منها في نصف نهار اذا كانت لهما آلات معدَّة لذلك . واما انا فاذ كان مطلوبي لوحًا عريضًا طويلاً اضطرَّني الامر ان اقطع شجرة كبيرة . فصرفت ثلاثة ايام في قطع تلك الشجرة ويومين في قطع اغصانها حتى لم يبقَ منها الاَّ قائمة بدنها . ثم صرفت اياماً كثيرة في تجبيرها وتخفيفها وترقيقها وقد قاسيت في ذلك اتعابًا شاقَّة لا توصَف . ثم صرفت مدة في جلائها وتنظيفها من جانبيها وهكذا كنت اقلّبها من جانب الى آخر وانجّرها حتى دقَّت ورقَّت وصارت لوحًا سمكهُ ثلثة قراريط فقط . ولا

يصعب على احد ان يتصوَّر كم تعبَتْ يداي بهذا العمل المتعب. الا اني بالاجتهاد والمواظبة بالصبر تمَّمت هذا العمل واعمالاً اخر كثيرة نظيرهُ . وقد ذكرت ذلك لكي ابيّن كيف صرفت اوقاتاً كثيرة على اشغال قليلة وان ما يكون عملاً صغيرًا مع الآلات والمساعدين قد يكون عملاً كبيرًا مع عدمها. وان الاجتهاد والصبر يعملان عجائب. وسيظهر ممَّا سياتي اني بواسطة هاتين المزيّتين عملت اشياء كثيرة اي كل ما احوجني الدهر الى عملهِ

وكنت في تلك الايام في شهرَي تشرين الثاني وكانون الاول انوقّع حصاد الشعير والارزّ. ولم تكن الارض التي زرعتها من هذين الصنفين واسعة الدائِرة. لان ما كان عندي من البذار كان قليلاً كما سبق القول. فاني كنت قد اضعت موسمًا كاملاً بسبب الزرع في وقت القيظ. ولكن موسمي حينئذٍ كان جيدًا الاَّ انهُ كان في خطر من اعداء مختلفة كالمعزى وبعض حيوانات برّيّة كنت اسمّيها ارانب. فان تلك الحيوانات كانت لا تفارق مزروعاتي بل كانت تقيم في وسطها نهارًا وليلاً ولِمَا كانت تجدهُ فيها من الحلاوة كانت ترعاها الى اسفلها ولم تكن تدع لها وقتًا للنمو والاتيان بالثمر. فساءَني ذلك واضطرّني الامر الى عمل سياج حولها يحيط بها من كل جهة ويمنع تلك الحيوانات من الدخول اليها فكلّفني ذلك تعبًا جزيلاً وعلى الخصوص لاني عملتهُ بالسرعة. وصرفت في عمل ذلك السياج ثلثة اسابيع فقط لان ارضي المزروعة كانت قليلة على قدر بذاري. وكنت ارمي بعض تلك الحيوانات بالرصاص نهارًا دفعًا لاذيّتها واربط كلبي الى عمود بجانب الباب ليحمي مزروعاتي منها ليلاً. فكان المسكين يُحيي الليل كلهُ واقفًا عند ذلك الباب ينبح باعلى صوتهِ ترهيبًا لها. فلم يمضِ الا مدة قصيرة حتى فارقَتْ تلك الاعداء ذلك الموضع فاخذ الزرع ينمو ويُدرِك بسرعةٍ

وما صدَّقت ان خلصت من اذيّة تلك الحيوانات التي كانت تاكل الزرع قبل ادراكهِ حتى اهتدت الطيور عليهِ وكادت تتلفهُ عند استفراكهِ. فاني بينما كنت ذات يوم مجتازًا من هنالك لاتفقّد احوالهُ رايت طيورًا من اجناس مختلفة

محدقة بهِ من كل جهة . فاطلقت عليها بارودتي التي لم اكن أَدَعها تفارقني فطارت للحال من وسط الزرع ومِمّا حوله طوائفُ كثيرة من الطيور كادت تحجب اشعة الشمس لكثرتها فدُهِشت من ذلك لاني لم ارَ قبل الطلق الا القليل منها . فغمّني ذلك جدًّا لاني رايت انهُ لا يمضي الا ايام قليلة حتى تُفنِي تلك الطيور كل آمالي وغلّتي فاموت جوعًا . فحرت في امري ولم اعلم ماذا اعمل . الا اني عزمت ان احفظ غلّتي ولو الجأني الحال الى حراستها ليلاً ونهارًا . فاخذت اجول بين تلك الزروع لارى كم حصل من الاذيّة فوجدت ان كثيرًا منها قد تلف الاّ انها اذ كانت لم تُدرِك بعدُ كان التعطيل غير باهظ وان ما بقي اذا امكنت وقايتهُ ينتج منهُ غلّةٌ وافرة

ثم وقفت جانبًا ودككت بارودتي . وبينما كنت راجعًا رايت ان تلك اللصوص كانت واقفةً على ما حول الموضع من الاشجار كأنها تنتظر انصرافي من هناك . وحالما غبت عن نظرها اخذت تنزل بالتتابع الى الزرع فغاظني ذلك ولم استطع ان اصبر عنها الى ان تنزل كلها او ياتي غيرها لاني علمت ان كل حبةٍ تاكلها ستكون رغيفًا كبيرًا في نتايجها بل تقدمت الى جانب السياج ورميتها بالرصاص فاصبت ثلثة منها فسرّني ذلك جدًّا فعمدت اليها وعاملتها كما نعامل في انكلترا اللصوص المشهورين اي علّقتها بسلاسل على راس خشبةٍ ركزتها في وسط الزرع لتكون ترهيبًا وعبرةً لغيرها . وكان تاثير ذلك مِمّا يصعب تصديقهُ . فان تلك الطيور لم تكتفِ بانها لم تَعُد تاتي الى الزرع بل اعتزلت هاجرةً تلك الناحية من الجزيرة حتى اني لم أَعُد ارى طائرًا في ذلك الموضع ولا في جوارهِ في كل المدة التي كانت فيها تلك الخيالات معلّقةً هناك . ولا حاجة الى بيان ما حصل عندي من الفرح بهذا التوفيق والنجاح . وفي اواخر شهر كانون الاول وهو وقت الموسم الثاني في كل سنةٍ حصدت مزروعاتي وذلك بمنجل اصطنعتهُ حسب معرفتي من سيف عريض كنت قد خلصتهُ من المركب لانهُ لم يكن عندي منجل يصلح لذلك . على انهُ اذ كان موسمي ذلك قليلاً لم اقاسِ صعوبةً كبيرة في

حصاده . وبالاختصار اقول اني حصدتهُ حسب معرفتي ولم اقطع من الزرع الاَّ السنابل . فوضعت تلك السنابل في سلٍّ كبير كان عندي ثم نقيتها فاركًا اياها بيديَّ . فلما فرغت من الحصاد والتنقية وجدت ان غلتي من تلك الكمية القليلة من البذار كانت نحو مدَّين من الارزّ واكثر من مدَّين ونصف من الشعير وذلك على سبيل التخمين لانهُ لم يكن لي في ذلك الوقت مكيال اكيلها بهِ

الا ان ذلك كان واسطة لتنشيطي وتقوية املي . ورايت اني مع التمادي استطيع ان وفَّق الله ان احصّل كفاءةً من الخبز . غير اني كنت مرتبكًا في ذلك ايضًا . لاني لم اعلم كيف الطحن ذلك ولا كيف النخلهُ ولا كيف اخبزهُ . واذ كانت تلك الصعوبات تقوّي رغبتي في احراز كميَّة وافرة طلبًا لزيادتها عزمت على اني لا اذوق شيئًا من تلك الغلَّة بل احفظها جميعها بذارًا للوسم المقبل وعلى ان ابذل جهدي واصرف اوقات الشغل في تلك الاثناء في تتميم هذا العمل العظيم وهو ان احصّل كفاءتي من الحبوب والخبز

ويمكنني ان اقول بحقٍّ اني صرت حينئذٍ اكدُّ واعرق لاجل خبزي . وهو امر عجيب لا يخطر الاَّ ببال قليلين من الناس كم يلزم من الاشياء الصغيرة للحصول على هذا الصنف الوحيد وهو الخبز . واذ كنت قد وصلت الى الحالة الطبيعيَّة من هذا القبيل كان النظر الى ذلك يضعف املي كل يوم وكنت اشعر بصعوبة ذلك كل ساعة حتى وبعد ان صار في حوزتي ملء راحة من البذار الذي سبق القول انهُ اتى بغتةً ومن دون سعي ولا انتظار

فانهُ اولاً لم يكن عندي محراث اشقُّ بهِ الارض ولا معول انقبها بهِ . الا اني استغنيت عن ذلك بالرفش الخشبيّ كما تقدم القول غير ان ذلك كان صعب المراس قليل الفعل . ومع اني صرفت اياماً كثيرة في عملهِ لم يَقُم الا مدة قصيرة . لانهُ لم يكن مصفحًا بالحديد . وفضلاً عن ذلك كان الشغل بهِ اصعب والعمل غير متقن . الاَّ اني احتملت ذلك ورضيت ان اشتغل بالصبر واصبر على رداءة الشغل . ولما بذرت البذار ولم يكن عندي آلة لتغطيتهِ التزمت ان اقطع غصنًا ثقيلاً

من شجرةٍ واجرّهُ عليهِ لكي يغرق او ينقلب عليهِ تراب فيغطيهِ . وقد ذكرت آنفًا اني من حين زرعهِ الى ان ادرك احتجت الى امورٍ كثيرة لاجل تصوينهِ وحراستهِ وحصادهِ وجمعهِ ونقلهِ الى البيت ودرسهِ وتنقيتهِ من التبن ووضعهِ في محلٍّ امين . ثم احتجت الى طاحون اطحنهُ بها ومنخل انخلهُ بهِ وخميرة وملح لعجنهِ وتنُّور اوفرن او صاج لخبزهِ . الاَّ اني استغنيت عن ذلك جميعهِ كما سأُبيّن ذلك في مكانهِ . وكانت الحبوب نافعة لي جدًّا وسبب تعزية لا تُوصَف ولهذا لم اكن ابالي بما كانت تكلّفني اياهُ من الوقت والمشقّات مما لا غِنَى عنهُ لنوال المرغوب . ولا كان الوقت الذي كنت اصرفهُ في ذلك خسارة لي لاني اذ كنت قد قسمت الوقت كنت قد خصّصت بتلك الاعمال حصة منهُ في كل يوم . واذ كنت قد عزمت على ان لا اعمل شيئًا من تلك الحبوب خبزًا الى ان يصير عندي منها كمية وافرة فرَّغت السنة الاشهر التالية لاختراع وعمل الآلات اللازمة لاصطناع الخبز

الفصل الثالث عشر

اصطناع روبنصن كروزي الخزف واختراعهُ آلات لعمل الخبز

فكان عليَّ حينئذٍ ان اعدَّ ما يكفي لزرع بذار فدان من الارض . وقبل الشروع في ذلك صرفت اسبوعًا على الاقلّ في عمل رفش . فلما فرغت من عمل الرفش وجدتهُ خشنًا وثقيلاً جدًّا يقتضي الشغل بهِ تعبًا مضاعفًا . الاَّ اني استظهرت على تلك الاتعاب وزرعت بذاري في قطعتين كبيرتين مستويتين من الارض بقرب منزلي بقدر الامكان والصلاحيةّ واقمت سياجًا جيدًا يحيط بهما من كل جهة . وقد قطعت جميع اخشاب ذلك السياج من الاشجار الناتجة من الاوتاد التي غرزتها قبلاً عالمًا بانها تعيش . وكنت اعلم انهُ في مدة سنة من الزمان سيكون لي سياج حيٌّ نامٍ لا يحتاج الاَّ الى تعبٍ قليل لاصلاحهِ . وقد صرفت في ذلك العمل ثلثة اشهر كاملة . وذلك لان قسمًا كبيرًا من الوقت كان في فصل الشتاء فلم اكن استطيع

الخروج خارجًا. واذ كان المطر يمنعني من الخروج كنت اشتغل في امور سياتي بيانها. وكنت دائمًا اتسلّى عند العمل بالكلام مع الببغال وتعليمهِ التكلُّم. فعلَّمتهُ سريعًا معرفة اسمهِ وهو فُول ثم التلفُّظ بهِ بصوتٍ عالٍ. وتلك هي الكلمة الاولى التي طرقت اذني في الجزيرة من فم حيٍّ غير فمي. فلم يكن ذلك اذًا شغلي بل مساعدًا في شغلي. لانهُ كان عندي حينئذٍ شغل كثير كما سبق القول. فاني كنت قد صرفت مدة طويلة انبصّر في عمل بعض آنية خزفية كنت محتاجًا اليها ولكنني لم اعلم كيف السبيل الى الوصول اليهِ. واذ لاحظت شدة الحرّ في الجزيرة لم يكن عندي شكٌّ اني اذا وجدت ترابًا يصلح لعمل الخزف يمكنني ان اصطنع منهُ وعاءً اذا جُفّف في الشمس يكون صلبًا وقويًّا يمكن حملهُ ووضع بعض اشياء ناشفة فيهِ ممَّا يقتضي الحال بقاءهُ هكذا. واذ كان ذلك ضروريًّا لحفظ الحبوب والطحين وما اشبه ممَّا كنت مهتمًّا في امرهِ عزمت على عمل بعض اوعية كبيرة بقدر الامكان تُوقَّف نظير الخوابي وتُوعي ما يُوعَى فيها من الغلال

ولعلَّ القارئ يشفق او بالحري يضحك عليَّ اذا اخبرتهُ كم كان منظر ما عملتهُ شنيعًا عاريًا من كل نقانة وظرافة وكم مرة كان يسقط الى داخل وكم الى خارج لان التراب كان غير ناشف ولا قادر ان يحمل ثقل نفسهِ. وكم مرة تشقَّقت تلك المواعين من شدة حرارة الشمس لانها عُمِلت بسرعة زائدة. وكم تكسَّر منها عند نقلها قبل تجفيفها وبعدهُ. وبالاختصار كيف اني بعد ان تعبت في ايجاد التراب وتنقيتهِ وجلبهِ الى البيت ودعكهِ لم استطع ان اعمل الا وعاءَين كبيرين شنيعين لا اتجاسر ان اسميهما خابيتين صارفًا نحو شهرين في معالجتهما

واذ جفَّفت الشمس جيدًا ذينك الوعاءَين نقلتهما بلطافة ورفقٍ الى داخل ووضعتهما في سلَّين كبيرين عملتهما لهما لكي لا يتكسَّرا. ثم اخذت قشًّا من الشعير والارزّ وحشوت حشوًا محكمًا الفراغ الذي كان بين كلٍّ منهما وجوانب السلّ بحيث لا يتحرَّكان. ووضعتهما في مكان لا تصل اليهِ رطوبة ولا ماء قاصدًا استخدامهما نظير مخزنٍ لوضع ما كنت انتظرهِ من الغلَّة او الطحين

ومع اني لم انوفّق في عمل خوابئ كبيرة توقّفت قليلاً في عمل اوعيةٍ كثيرة صغيرة نظير كاسات مدوّرة وبواطي واباريق وقدور وما اشبه ذلك ممّا امكنني عملهُ . وجفّفت تلك الاوعية في الشمس حتى صارت صلبة جدًّا . الّا ان كل تلك الادوات لم تصلح لمطلوبي الاصليّ لانها لم تكن تضبط الاشياء السيّالة ولا تحتمل حرارة النار . واتفق اني بعد ذلك بمدة اشعلت نارًا كبيرة للطبخ فلما قصدت اطفاءها بعد ان فرغت منها وجدت فيها شقفة فخّار ممّا كنت قد اصطنعتهُ واذا بها قد شُويت حتى صارت كحجر في صلابتها وكقرميد في حمرتها . فاخذني العجب وفرحت جدًّا حين رايتها وقلت في نفسي انهُ يمكن ان يُشوَى الفخّار اذًا وهو صحيحٌ كما يُشوَى وهو شقفٌ

فاخذت عند ذلك انبصّر كيف ارتّب النار لاجل شيّ بعض قدور . ولم اكن اعرف شيئًا من امر التنّور او الاتّون الذي يشوي فيهِ مصطنعوا الفخار فخارهم ولا طريقة طلي ذلك او تمويههِ . وقد كان عندي قليل من الرصاص يصلح للطلي . فاخذت ثلاث قدور كبيرة وكاستين او ثلاثًا وجعلتها كومة واحدة متراكمة وجعلت حولها حطبًا واضعًا تحتهُ كمية كبيرة من رماد حارّ كان بينهُ جمرات صغيرة من النار وبقيت اضع الحطب حول النار وفوقها حتى رايت القدور قد احمرّت كلها من الحرارة ولم تتشقّق . ثم تركتها ايضًا هناك في وسط النار نحو خمس او ست ساعات حتى اخذت واحدة منها تذوب وتسيل الا انها لم تتشقّق . وذلك ان ما كان قد اختلط بالطين من الرمل ذاب من شدة الحرارة ولو داومت الإيقاد كان تحوّل الى زجاج . فاخذت عند ذلك اخفّف النار شيئًا فشيئًا فكان احمرار القدور يقلّ بالتدريج مع خمود النار . وقد سهرت الليل كلهُ في ذلك العمل خوفًا من ان تخمد النار او تنطفئ دفعة واحدة . فلما اصبحت صار عندي ثلاث قدور جيدة ولا اقدر ان اقول ظريفة وكاستان مشويتان صلبتان على قدر المطلوب كانت احداها جيدة جدًّا وممّوهة بواسطة ما ذاب من الرمل من احدى القدور

الخروج خارجًا . واذ كان المطر يمنعني من الخروج كنت اشتغل في امور سياتي بيانها. وكنت دائمًا اتسلّى عند العمل بالكلام مع الببغا ل وتعليمهِ التكلُّم . فعلَّمتهُ سريعًا معرفة اسمهِ وهو فُول ثم التلفُّظ بهِ بصوتٍ عالٍ . وتلك هي الكلمة الاولى التي طرقت اذني في الجزيرة من فم حيٍّ غير فمي . فلم يكن ذلك اذًا شغلي بل مساعدًا في شغلي . لانهُ كان عندي حينئذٍ شغل كثير كما سبق القول . فاني كنت قد صرفت مدة طويلة انبصَّر في عمل بعض آنية خزفية كنت محتاجًا اليها ولكنني لم اعلم كيف السبيل الى الوصول اليهِ . واذ لاحظت شدة الحرّ في الجزيرة لم يكن عندي شكٌّ اني اذا وجدت ترابًا يصلح لعمل الخزف يمكنني ان اصطنع منهُ وعاءً اذا جُفِّف في الشمس يكون صلبًا وقويًّا يمكن حملهُ ووضع بعض اشياءَ ناشفة فيهِ ممَّا يقتضي الحال بقاءَهُ هكذا . واذ كان ذلك ضروريًّا لحفظ الحبوب والطحين وما اشبه ممَّا كنت مهتمًّا في امرهِ عزمت على عمل بعض اوعية كبيرة بقدر الامكان تُوقَّف نظير الخوابئ وتُوعي ما يُوعَى فيها من الغلال

ولعلَّ القارئَ يشفق او بالحري يضحك عليَّ اذا اخبرتهُ كم كان منظر ما عملتهُ شنيعًا عاريًا من كل نقانة وظرافة وكم مرة كان يسقط الى داخل وكم الى خارج لان التراب كان غير ناشف ولا قادر ان يحمل ثقل نفسهِ . وكم مرة تشقَّقت تلك المواعين من شدة حرارة الشمس لانها عُمِلت بسرعة زائدة . وكم تكسَّر منها عند نقلها قبل تجفيفها وبعدهُ . وبالاختصار كيف اني بعد ان تعبت في ايجاد التراب وتنقيتهِ وجلبهِ الى البيت ودعكهِ لم استطع ان اعمل الا وعاءَين كبيرين شنيعين لا اتجاسر ان اسمّيها خابيتين صارفًا نحو شهرين في معالجتها

واذ جفَّفَت الشمس جيدًا ذينك الوعاءَين نقلتها بلطافة ورفقٍ الى داخل ووضعتها في سلَّين كبيرين عملتها لها لكي لا يتكسَّرا . ثم اخذت قشًّا من الشعير والارزّ وحشوت حشوًا محكمًا الفراغ الذي كان بين كلٍّ منها وجوانب السلّ بحيث لا يتحرَّكان . ووضعتها في مكان لا تصل اليهِ رطوبة ولا ماءٌ قاصدًا استخدامها نظير مخزنٍ لوضع ما كنت انتظرهِ من الغلَّة او الطحين

ومع اني لم انوفّق في عمل خوابئ كبيرة توقّفت قليلاً في عمل اوعيةٍ كثيرة صغيرة نظير كاسات مدوّرة وبواطي واباريق وقدور وما اشبه ذلك مّما امكنني عملهُ . وجفّفت تلك الاوعية في الشمس حتى صارت صلبة جدًّا . الّا ان كل تلك الادوات لم تصلح لمطلوبي الاصليّ لانها لم تكن تضبط الاشياء السيّالة ولا تحتمل حرارة النار . واتفق اني بعد ذلك بمدة اشعلت نارًا كبيرة للطبخ فلما قصدت اطفاءها بعد ان فرغت منها وجدت فيها شقفة فخّار ممّا كنت قد اصطنعتهُ واذا بها قد شُوِيت حتى صارت كحجر في صلابتها وكقرميد في حمرتها . فاخذني العجب وفرحت جدًّا حين رايتها وقلت في نفسي انهُ يمكن ان يُشوَى الفخّار اذًا وهو صحيحٌ كما يُشوَى وهو شقفٌ

فاخذت عند ذلك انبصّر كيف ارتّب النار لاجل شيّ بعض قدور . ولم اكن اعرف شيئًا من امر التنّور او الاتّون الذي يشوي فيهِ مصطنعوا الفخار فخارهم ولا طريقة طلي ذلك او تمويههِ . وقد كان عندي قليل من الرصاص يصلح للطلي . فاخذت ثلاث قدور كبيرة وكاستين او ثلاثًا وجعلتها كومة واحدة متراكمة وجعلت حولها حطبًا واضعًا تحتهُ كمية كبيرة من رماد حارّ كان بينهُ جمرات صغيرة من النار وبقيت اضع الحطب حول النار وفوقها حتى رايت القدور قد احمرَّت كلها من الحرارة ولم تتشقّق . ثم تركتها ايضًا هناك في وسط النار نحو خمس او ست ساعات حتى اخذت واحدة منها تذوب وتسيل الا انها لم تتشقّق . وذلك ان ما كان قد اختلط بالطين من الرمل ذاب من شدة الحرارة ولو داومت الإيقاد كان تحوّل الى زجاج . فاخذت عند ذلك اخفّف النار شيئًا فشيئًا فكان احمرار القدور يقلّ بالتدريج مع خمود النار . وقد سهرت الليل كلهُ في ذلك العمل خوفًا من ان تخمد النار او تنطفئ دفعة واحدة . فلما اصبحت صار عندي ثلاث قدور جيدة ولا اقدر ان اقول ظريفة وكاستان مشويتان صلبتان على قدر المطلوب كانت احداها جيدة جدًّا ومموّهةً بواسطة ما ذاب من الرمل من احدى القدور

وبهذه الواسطة تعلّمت عمل الاواني الخزفيّة فكنت كلّما احتجت الى شيء منها اعملهُ من دون صعوبةٍ . الا اني اقرُّ بان شكلها كان من دون نظام ولا قانون لانهُ لم يكن عندي قالب ولا رسم لذلك بل كنت اعملها كما يعمل ذلك الاولاد الصغار عندما يلعبون في الطين او كما تعمل الفطائِر امراةٌ لم تعجن قط . وليس فرحٌ بشيء زهيد كهذا يوازي فرحي بنجاحي في عمل قِدْر تحتمل النار. وما صدّقت ان بردت تلك القدور حتى ركّبت احداها على النار واضعًا فيها ماء لاجل سلق قطعة من لحم المعزى . ولم يمضِ الا قليل حتى سُلِقت تلك القطعة جيدًا وكانت مرقتها ذات دَسَم ولذيذةً جدًّا . الا انها كانت تحتاج الى بعض بهارات لكي تكون طبق مرغوبي تمامًا

ثم اخذت اهتمُّ في تدبير جرن او هاون من حجر لاجل سحق بعض الحبوب . لانهُ لم يكن لي امل في الوصول الى درجة كاملة من الصناعة بواسطة زوج من الايادي لكي اعمل طاحونًا . وكنت في حيرة من جهة عمل الجرن . لاني كنت قاصرًا في صناعة نقر الحجارة كما كنت في باقي الصنائع ولم تكن لي آلات استعين بها . فصرفت اياما كثيرة في التفتيش على حجر كبير انقرهُ جرنًا فلم اجد حجرًا يصلح لذلك الاّ ما كان منصلاً بالصخر مما لم يكن لي سبيل الى قطعهِ منهُ . وزِدْ على ذلك ان صخور الجزيرة لم تكن صلبةً بقدر المرغوب بل كانت جميعها رمليّة رخوة تتفتّت بسهولة ولا تحتمل ثقل مدقّة ثقيلة ولا تُدَقُّ فيها الحبوب من دون ان تمتلئ رملاً . وبعد ان اضعت مدة في التفتيش على حجر عدلت عن ذلك واخذت افتّش على قطعة كبيرة من الخشب الصلب لاني رايت ان الخشب يكون اسهل مراسًا . فوجدت قطعة كبيرة كنت بالكدّ اقدر ان احرّكها لثقلها فاخذت ادوّرها وانجّرها من خارج بواسطة الفأس والبلطة ثم نقرتها مجوّفًا اياها من داخل بواسطة النار كما يجوّف الهنود في برازيل قواربهم . ثم عملت مدقّة كبيرة ثقيلة من خشب صلبٍ يُعرَف بخشب الحديد . فلما انتهيت من عمل الجرن وضعتهُ جانبًا الى ان ياتي وقت الحصاد والغلّة فاطحن فيهِ حينئذٍ الحبوب لاجل عمل الخبز

ثم جعلت اهتمُّ في امر المنخل او الغربال لاجل تمييز الدقيق من النخالة

والقشور لانهُ لم يكن لي سبيل الى عمل الخبز من دون تلك الآلة . فكان عمل ذلك والافتكار بهِ من اصعب الامور عندي . لانهُ لم يكن في حوزتي شيءٌ يشبه او يقارب ما يُصطنَع ذلك منهُ اي قماش رقيق ينفذ منهُ الدقيق . فوقفت عند تلك المسألة اشهرًا كثيرة ولم اعلم ماذا اعمل . فان ما كان عندي من الكتّان لم يبقَ منهُ الاّ خِرَق بالية . وكان عندي شعر معزى الا اني لم اكن نوريًّا ولا ابن نوريٍّ ولا عشير النَّوَر فلم تكن لي معرفة بنسجهِ ولا بغزلهِ حتى اني لو عرفت ذلك لم تكن لي آلات استخدمها لمعالجتهِ . ثم خطر ببالي انهُ كان عندي بين ملابس البحرية التي خلّصتها من المركب بعض ربطات للرقبة من الشيت او الموصلينا فاصطنعت من تلك الربطات ثلاثة مناخل صغيرة تصلح للنخل فاكتفيت بها عدة سنين وسأُبيّن في ما ياتي ما فعلتهُ بعد ذلك

ثم اخذت انبصّر في كيفية عمل الخبز عند ما يصير عندي طحين او بالحري جريشٌ . فانهُ اولاً لم يكن عندي خميرة ولا كان لي امل بوجود ذلك ولهذا السبب لم أُتعِب سرّي بشانهِ . وقد حرت في امري من جهة فرن او تنور اخبز فيهِ الاّ اني كشفت اخيرًا طريقًا يغنيني عن ذلك . وذلك اني اصطنعت بعض ادوات خزفيّة نظير معاجن واسعة قليلة العمق كان قطرها نحو ذراع وعمقها نحو تسعة قراريط . فشويت تلك الآنية في النار كما فعلت قبلاً ثم وضعتها جانبًا الى حين الحاجة . فلما اردت ان اخبز في ما بعد اشعلت نارًا كبيرة في موقدتي وكنت قد رصفتها مصفّحًا اياها بقطع قرميد مربّعةٍ من شغلي غير انهُ لا يحقُّ لي ان اقول انها مربّعة . فلما صار الحطب جمرًا بسطت الجمر فارشًا اياهُ في الموقدة حتى تغطّت جميعها وابقيتهُ هناك حتى صارت الموقدة حامية جدًّا . ثم كنست الجمر ووضعت رغيفي او ارغفتي مكانهُ على القرميد . ثم غطّيتها بوعاءٍ من الاوعية الخزفية المذكورة ثم احطت ذلك الوعاء بجمر من الخارج حفظًا للحرارة وطلبًا لزيادتها في الداخل . وعلى هذا المنوال كنت اخبز ارغفتي او بالحري ملاّتي الشعيريّة على اكمل حال . وصرت بعد مدة من الزمان خبّازًا طبّاخًا ليس لهُ نظير . وقد اصطنعت من الارزّ كثيرًا من

الكعك والبوذينو الذي هو شيخ محالي السفرة عندنا كالخبيصة عند عرب البادية ولكنني لم اعمل معجَّنات لانهُ لم يكن لي ما احشوها بهِ الاَّ لحم المعزى او لحم الطيور وذلك لا يكفي

ولا يُعجَب من اني صرفت اكثر ايامي من السنة الثالثة في معالجة تلك الامور. ولا يجب ان يُنسَى اني كنت في تلك الاثناء اشتغل في تدبير غلَّتي الجديدة وعمل ارضي واصلاحها. وقد حصدت مزروعاتي في اوقاتها ورجدتها الى منزلي واذخرتها في سلالي الكبيرة التي هيَّأْتها لها الى ان حصلت لي فرصة لفتّها وفركها بيدي لانهُ لم يكن لي بيدر ادرسها عليهِ ولا نورج ادرسها بهِ

ثم عزمت على توسيع مخازني لان غلتي كثرت وصار عندي نحو عشرين مدًّا من الشعير وقدر ذلك او اكثر من الارزّ وان آكل كفاَيتي من الخبز لان ما كان عندي من الخبز العتيق كان قد نفد من مدة مستطيلة وعلى ان اعمل معدَّل قاطعيَّتي من الخبز في السنة وان لا ازرع الا مرة واحدة في كل عام. ولكي لا اطيل الشرح اقول اني وجدت ان الاربعين مدًّا من الشعير والارزّ تزيد عن قاطعيَّتي في سنة واحدة ولذلك عزمت على ان ازرع كل سنةٍ قدر ما زرعتهُ في السنة الاخيرة لان ما ينتج من ذلك يكون كافيًا لي لعمل الخبز والبوذينو وما اشبه ذلك من المحالي والمعجَّنات

شعرٌ

ضاقَ صَدْري وطالَ في طَلَبِ الرِّزقِ قِيامي وقلَّ عنهُ قُعُودي

ابدًا أَقْطَعُ البلادَ ونجْمِي في نُحوسٍ وهِمَّتي في سُعُودِ

ولَعلّي مؤمِّلٌ بعضَ ما أَبْلُغُ باللطفِ من عزيزٍ حميدِ



الفصل الرابع عشر

استعداد روبنصن كروزي لمفارقة الجزيرة

ولا حاجة الى القول اني بينما كنت مشتغلاً في تلك المهمّات كانت افكاري تشتغل اوقاتاً كثيرة في امر التوجُّه الى تلك الاراضي التي اشرفت عليها في ما كنت على الجانب الآخر من الجزيرة. وكانت لي رغبة وشوق شديد ان اكون على تلك الشطوط. وكان يلوح لي بعد اكتشافي تلك البلاد العامرة انهُ يمكنني ان اخترع طريقة للانتقال اليها ومباينة تلك الجزيرة المشومة والنجاة من ذلك السجن الردي الاّ اني كنت في كل تلك المدة لا احسب الاخطار التي تكون عليَّ هناك من البرابرة الذين هم اردأ من سباع افريقية ونمورها. وكنت قد سمعت مرارًا ان سكان سواحل كاربي غيلانٌ ياكلون لحوم الناس. ولدى مطالعة الخارطة ظهر لي ان تلك الاراضي لم تكن بعيدة عن تلك السواحل. ومن ثَمَّ لاح لي انهُ اذا لم ياكلني اهلها لا يبعد ان يقتلوني كما قتلوا رجالاً كثيرين من الاوربيين الذين وقعوا في ايديهم وقد كانوا اوقاتاً عشرة او عشرين معًا. فكيف يكون فعلهم بي انا الوحيد. فاني لا اقدر ان ادافع عن نفسي الاّ قليلاً او ربما لا تكون لي فرصة للمدافعة بالكلية. فهذه الامور التي كان ينبغي لي ان اعتبرها حقَّ الاعتبار كما فعلت في ما بعد لم تخطر ببالي قط ولا كنت احتسب منها بل كان راسي ممتلئًا من افكار التوصُّل الى ذلك البرّ والوصول اليهِ

وكنت حينئذٍ اتمنَّى ان يكون عندي غلامي كسار وذلك الكوثر الذي سافرت فيهِ اكثر من الف ميلٍ على شطوط افريقية. وكنت اتأسَّف متحسّرًا على فقدهما ولكن لم تكن لي فائدة من الاسف على ما فات. وعند ذلك خطر لي ان اذهب وانظر قارب المركب الذي كان البحر قد قذفهُ مسافة بعيدة على الشاطي في ذلك النوء المهول الذي غرقنا فيهِ. وكان لم يزل في الموضع الذي دُفع اليهِ اولاً تقريبًا وكانت قوة الامواج والرياح قد قلبتهُ الى جانب تلٍّ موءلَّف من

الرمل الخشن والحصى وكان الاَّ قليلاً اسفلهُ الى فوق واعلاهُ الى تحت الاَّ انهُ لم يكن بجانبهِ ماءٌ كما كان قبلاً. فلو كان لي من يساعدني في اصلاحهِ وتنزيلهِ الى البحر لكان جاءَ طبق مرغوبي وكنت رجعت فيهِ بسهولةٍ الى برازيل. وكان يمكنني ان ارى انهُ لم تكن لي استطاعة على تحريكهِ وحدي اكثر مما كان لي استطاعة على تحريك الجزيرة التي كان مُلقًى عليها. على اني مع ذلك ذهبت الى الحرش وقطعت عَتَلاً واسافين ثم انثنيت راجعًا بها اليهِ لاجرّب قدرتي فيهِ. وكنت اقول في نفسي اني اذا قدرت على قلبهِ وتيسّر لي اصلاح ما تعطّل منهُ يصير قاربًا جيدًا اقدر ان اسافر فيهِ حيثما شئت

فبذلت جهدي في ذلك العمل وصرفت في معالجتهِ نحو شهر من الزمان ولكن من دون ادنى فائدة. واذ وجدت انهُ لا يمكنني تحريك ذلك القارب من مكانهِ ولا قلبهُ اخذت احفر ما تحتهُ من الرمل والحصى لكي يسقط الى اسفل. ووضعت هناك قطعًا من الخشب لاجل دفعهِ باستقامة نحو الجهة المقصودة. ولكنني مع ذلك لم استطع ان ازحزحهُ ولا ان ادخل تحتهُ ولا ان ادفعهُ متقدمًا بهِ نحو الماءَ فاضطرّني الامر الى تركهِ والرجوع عنهُ خائبًا. ومع اني قطعت املي من ذلك القارب لم تنقطع رغبتي في الخروج من تلك الجزيرة مع تعذُّر الوسايط المبلّغة الى ذلك المقصد بل كانت تزيد

ثم اخذَتْ افكاري تشتغل في عمل قارب جديد او زورق من قطعة واحدة نظير القوارب التي يصطنعها اهالي تلك البلاد من جذوع اشجار كبيرة. وذلك من دون آلات وكان يمكنني ان اقول ومن دون ايادٍ ايضًا. وكان ذلك يظهر لي ممكنًا وهيّنًا. وكان مجرّد الافتكار بهذا الامر وبوجود آلات كثيرة في حوزتي لهذا العمل مما لا وجود لهُ عند الزنوج او الهنود يملأُ قلبي سرورًا واملاً. واما الصعوبات الخصوصيَّة التي كانت عليَّ ولم تكن على الهنود وهي عدم وجود ايادٍ لنقل ذلك بعد تتميمهِ الى البحر فهذه لم تخطر لي ببالٍ مع انها اعظم من الصعوبات الناتجة من عدم وجود الآلات. لاني اذا كنت بعد بذل الجهد في التفتيش على شجرة تصلح

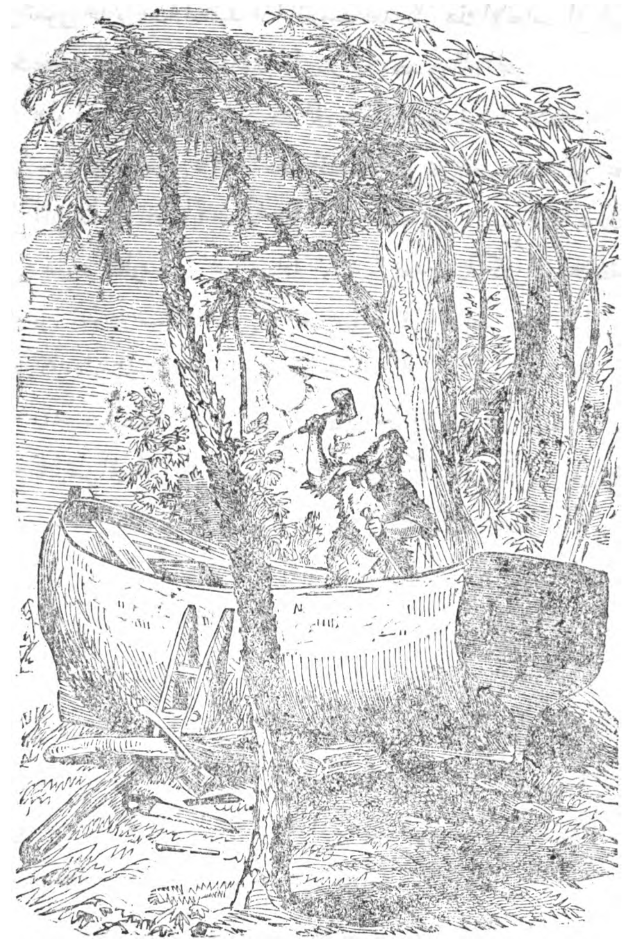
لذلك ومقاساة التعب الجزيل في قطعها وتجبيرها من خارج بواسطة آلاتي القليلة القاصرة على شكل قارب ثم احراقها او حفرها من داخل لكي تكون مجوّفة وصالحة لان تكون قاربًا فماذا أستفيد اذا التزمت بعد كل هذه الاتعاب ان اتركها حيث وجدتها وذلك لعدم استطاعتي على تنزيلها وحدي الى البحر

فلو تصرّفت بالحكمة ونظرت الى حالتي الضعيفة عند الاهتمام بعمل القارب لكان جال في خاطري لامحالة عدم اقتداري على تنزيلهِ وحدي الى البحر. الاَّ ان عقلي كان منصبًّا انصبابًا عظيمًا على السفر فكأَنهُ كان لا يسع فكرًا غيرهُ. والحال ان تسيير القارب في البحر مسافة خمسة واربعين ميلاً كان في الحقيقة اسهل في ذاتهِ من تسييرهِ مسافة خمس واربعين قامةً على الارض لكي يصل من المكان الذي كان فيهِ الى موضع من البحر يوجد فيهِ ماءٌ قادرٌ على حملهِ

فاخذت اشتغل في عمل القارب نظير احمق لا ينظر الاَّ الى ما قدامهُ. وكنت افرح بالنظر الى العمل من دون ان انظر هل يمكنني التوصُّل بهِ الى نوال الغاية المقصودة منهُ. هذا على ان صعوبة تنزيلهِ الى البحر كانت تخطر مرارًا ببالي الاَّ اني كنت لا اريد ان اتوسَّع في النظر فيها بل كنت ادفعها من عقلي بهذا الجواب الاحمق وهو اعمل يا صبيُّ اولاً القارب فمتى تمَّمتهُ فحينئذٍ تنظر في امر تنزيلهِ لانهُ لا بدَّ من ان تُوجَد طريقة لذلك

وكان ذلك حماقةً مني. ولكن شدة رغبتي غلبت على عقلي فشرعت في العمل وقطعت شجرة ارزٍ كبيرةً اظنُّ ان سليمان نفسهُ لم يكن عندهُ شجرة مثلها لبناءِ الهيكل في اورشليم. فان محيطها كان خمس اقدام وعشرة قراريط. وكان محيط راسها حيث تفرَّعت اغصانها خمس اقدام واحد عشر قيراطًا. وكان طول ساقها عشرين قدمًا. وقد كلَّفني قطعها اتعابًا لا تُوصَف. فاني صرفت عشرين يومًا في الضرب بالفاس والحفر بالمنقار على قاعدتها لاجل رميها واربعة عشر يومًا في قطع اغصانها واعمدتها وراسها. ثم صرفت بعد ذلك شهرًا في تجبيرها وتفصيلها على هيئة قارب يعوم قائمًا على الماءِ. ثم صرفت ثلاثة اشهر في نقر لبّها وتنظيف جوفها. وقد فعلت ذلك من

دون نارٍ بل بواسطة المطرقة والمنقار والتجلُّد على التعب فصارت قاربًا ظريفًا لطيفًا يحمل ستة وعشرين راكبًا ويكفي لحملي وحمل كل ما عندي من الوسق



روبنصن كروزي ينقر قاربهُ

فلما انتهيت من ذلك العمل سررت جدًّا . وكان ذلك القارب اكبر قاربٍ عُمِل قطعةً واحدةً ممَّا رايتهُ في حياتي الاَّ انهُ كلَّفني اتعابًا جزيلة كما تقدم القول .

ولم يبقَ عليَّ الاَّ تنزيلهُ الى البحر. ولو تيسَّر لي ذلك لكنت اخذت في سفر من اتعس الاسفار واقلّها املاً في النجاح والتوفيق. ولكن لعظم سعدي ذهبَتْ سُدًى جميع الوسائِط التي استخدمتها لتنزيلهِ الى البحر وقد كلَّفتني اتعابًا لا تُوصَف. فانهُ كان بعيدًا عن الماءَ نحو ماية وخمس وثلاثين ذراعًا لا اكثر من ذلك. ولكن الصعوبة كانت من جهة ان الارض التي بينهُ وبين الخليج الذي قصدت تنزيلهُ اليهِ كانت مرتفعةً صاعدةً فاضطرَّني الامر ان احفر كاشطًا وجه الارض لكي تكون منخفضةً منحدرةً. فكابدت في ذلك مشقَّات كثيرة الاَّ اني لم ابالِ بها لان نجاتي كانت تجعلني انسى كل تعبٍ يسهّل لي الحصول عليها. فلما انتهيت من تسوية الارض طبق المرغوب رايت ان الصعوبة لم تزل تقريبًا كما كانت قبلاً. فاني لم اقدر ان ازحزح او احرّك ذلك القارب من مكانهِ اكثر مما امكنني ان افعل ذلك بالقارب الآخر العتيق. واذ وجدت نفسي عاجزًا عن اخذ القارب الى الماءَ عزمت على قياس الارض وحفر ترعةٍ او قناةٍ عميقةٍ واسعةٍ لاجل جلب الماءَ اليهِ. ولكن قبل الاخذ في هذا العمل حسبت كم ينبغي ان يكون عمق الترعة وعرضها وكيف ينبغي تفريغها من التراب وكم كان عدد الايادي التي عندي وكيف انهُ لم يكن عندي الاَّ يداي. فوجدت ان ذلك العمل لا يتمُّ في اقلّ من عشر او اثنتي عشرة سنة. لان ارض الشاطي ربما كان ارتفاعها في اعلى جهاتها عشرين قدمًا على الاقلّ. ومن ثم الجأني الحال ان اترك هذا العمل وان يكن ذلك ضدَّ خاطري وميلي. فغمَّني ذلك جدًّا ورايت حينئذٍ وان يكن ذلك متأخِرًا عظم حماقة من يبتدئ بعملٍ ولا يحسب كلفتهُ اولاً ولا ينظر قبل الشروع فيهِ هل لهُ قدرة ان يكملهُ

واذ انا في وسط هذا العمل اكملت سنتي الرابعة في تلك الجزيرة وقضيت عيدي السنويَّ في العبادة والتاملُّ كالسنة الماضية. لاني بواسطة مواظبة درس كلمة الله والتأمُّل فيها وبنعمتهِ تعالى اكتسبت معرفة تختلف عن معرفتي السابقة. وكان نظري الى الاشياءَ يختلف عمَّا مضى. فاني صرت انظر الى العالم كشيءٍ بعيدٍ عني ليس لي معهُ عمل ولا انتظر منهُ شيئًا ولا رغبة لي فيهِ وبالاختصار لم يكن لي

اختلاطٌ بهِ ولا كان يُؤَمَّل ذلك. وكان يتراءَى لي كأَنَّ منظرهُ كان حينئذٍ كما سيكون عند ما انظر اليهِ في ما بعد اي نظير مكانٍ سكنت فيهِ ثم خرجت منهُ. وكان يحقُّ لي ان اقول لهُ كما قال ابونا ابرهيم للرجل الغنيّ بيني وبينك هوَّة عظيمة قد أُثبِتَتْ

فاني كنت هناك بعيدًا عن جميع شرور العالم. فلم تكن لي شهوة الجسد ولا شهوة العيون ولا تعظُّم المعيشة. ولم يكن شيءٌ اشتهيهِ لانهُ كان لي حينئذٍ كل ما كان يمكنني ان اتمتَّع بهِ. وكنت مسلَّطًا على كل املاكي وكان يمكنني اذا حسن عندي ان ادعو نفسي ملك او امبراطور تلك البلاد باسرها لاني كنت مستقلاًّ في سياستها وادارتها ولم يكن من يزاحمني فيها. ولا كان لي شريك في ملكي ولا من يعارضني في اوامري ونواهيَّ. وكان يمكنني ان ازرع من الحبوب ما يَنتج منهُ وسقات مراكبٍ كثيرة من الغلال. ولكن لم يكن لي منها منفعة. ولهذا لم ازرع الاَّ ما كان يلزمني لسدّ احتياجاتي. وكان هناك سلاحف كثيرة فوق احتياجي واخشاب تكفي لعمل عمارة من المراكب وعنب يُعمَل منهُ خمر وزبيب لتجهيز وسقٍ لكامل تلك العمارة اذا أُكملت

ولم تكن قيمة الاَّ لما كان يمكنني استعمالهُ. فانهُ كان عندي كفاءَة للاكل وسدّ باقي الاحتياجات وماذا كانت قيمة ما زاد على ذلك عندي. فلو كان عندي اكثر مما يلزمني من اللحم مثلاً كان الكلب ياكلهُ او كان ينتن ويجوى. ولو زرعت قمحًا اكثر من قاطعيتي لكان يتعطَّل لا محالة. وكانت الاشجار التي قطعتها منطرحة على الارض ينخرها السوس وتبلى داثرةً من الشمس والهواءَ والماءَ وليس من يسأَل عنها. ولم يكن لي منها فائدةٌ الاَّ لاشعال النار وذلك للطبخ فقط

وبالاختصار اقول اني تعلَّمت بواسطة الملاحظة والاختبار ان جميع الاشياءَ الحسنة في هذا العالم لا تفيدنا الاَّ على قدر ما نستعملهُ وننتفع بهِ منها. وان كل ما نجمعهُ لكي نبذلهُ للآخرين لا نستفيد منهُ الاَّ بقدر ما نستخدمهُ لقضاءِ حاجاتنا وليس اكثر. فلو وجد في حالتي البخل انسان في العالم لكان لا محالة شُفِي من رذيلة البخل وصار كريمًا. وذلك لانهُ كان لي اكثر جدًّا مما كان يمكنني الانتفاع بهِ.

ولم يكن لي باب لان اشتهي شيئاً الاَّ ما كان غير موجود عندي . وكان ذلك بالنظر الى باقي الاشياء زهيدًا جدًّا . الاَّ انهُ كان في الحقيقة مع ذلك كبير الفائدة بالنظر اليَّ . وكان عندي كما ذكرت صرَّة فلوس من ذهب وفضة نحو خمسة آلاف غرش . ولكن تلك الصرَّة النجسة الدنيَّة المهينة كانت محذوفةً جانبًا ولم يكن لها عندي ادنى مصلحة ولا فائِدة . وقد افتكرت مرارًا كثيرة انني كنت اعطي منها قبضةً بدل حزمةٍ من قصبات الدخان او جاروش او رَحىً لطحن ما عندي من الحبوب او اعطيها كلها بدل ما يساوي عشر بارات من بزر الملفوف او الكرنب من بزور انكلترا او بدل حفنة من العدس او الفول او بدل قنينة من الحبر . لانهُ لم يكن لي منها باعتبار ذاتها ادنى منفعة او فائدة . بل كانت موضوعة في جرَّار وكان قد علاها العفن من رطوبة المغارة في ايام المطر . حتى لو كان ذلك الجرَّار مملوًّا من الماس لكان الحال كما ذكرت اي لم تكن لهُ عندي ادني قيمة لانهُ لا فائِدة لي منهُ

وكنت حينئذٍ قد حصلت على راحة اكثر مما كان لي قبلاً . واذ كان قد هدأ بالي واستراح جسدي كنت اجلس مرارًا على الطعام بالشكر واحمد الله الذي هيَّأ لي مائِدة حافلة في بريَّةٍ مقفرة . وصرت انظر الى الجهة النيِّرة من حالتي اكثر من الجهة المظلمة واعتبر ما كنت حاصلاً عليهِ اكثر من اعتباري ما كنت فاقدهُ . وكان ذلك يحوّلني في بعض الاوقات تعزيات سريَّة لا اقدر ان أَصِفها . وقد ذكرت ذلك هنا نظير نموذج للذين لا يقدرون ان يتمتعوا مرتضين بما اسبغهُ الله عليهم من البركات وذلك لانهم يرون اشياءَ مما لم يُعطِهم اياهُ فيشتهونها . وقد ظهر لي ان عدم ارتضائنا الناتج من عدم حصولنا على بعض ما نرجوهُ مسبَّبٌ عن عدم تأدية الشكر على ما نحن حاصلون عليهِ

ويوجد امرٌ آخر افادني فائِدة عظيمة ولا بدَّ انهُ يفيد كل من وقع في ضيقةٍ نظير ضيقتي . وهو مقابلتي حالتي حينئذٍ بالحالة التي كنت انتظرها في اول الامر اي بالحالة التي كنت وصلت اليها لا محالة لو لم يامر الله بجودة منهُ بانتقال المركب الى القرب من البر حيث صرت قادرًا على الوصول اليهِ وجلب ما جلبتهُ

منهُ لاجل فرجي وراحتي . ولولا ذلك من اين كنت آتي بآلات للشغل واسلحة لوقاية نفسي وبارود وخردق لصيد ما اقتات بهِ واحفظ بهِ حياتي

فصرفت ساعات كاملة ويمكنني ان اقول اياماً في التأمُّل في تلك الامور . وكنت اسأل نفسي قائلاً ماذا كنت اعمل لو لم أُخرج شيئاً من المركب او كنت لم أَجِد الّا السمك والسلاحف التي ربما كانت مضت مدة مستطيلة قبل وجودي شيئاً منها . اني كنت لا محالة هلكت جوعاً . واذا لم اهلك جوعاً تكون عيشتي كعيشة بربريٍّ متوحّشٍ . لاني كنت اذا تيسَّر لي قتل عنزة او طائرٍ مثلاً لم تكن لي طريقة لفزر ذلك المقتول او سلخهِ او تجويفهِ او تقطيعهِ . بل كنت التزم ان انتشهُ باسناني واقتصّهُ باظافيري نظير وحش مفترسٍ

وكان التأمُّل في تلك الامور يجعلني اشعر بجودة الله نحوي وعنايتهِ بي واشكرهُ شكرًا جزيلاً على تلك الحالة وان تكن مقرونة بصعوبات ومصائب كثيرة . والآن اطلب الى من يقول اذا وقع في مصيبةٍ هل توجد مصيبةٌ كمصيبتي ان يتأمَّل في ذلك وينظر الى من هم في حالةٍ اردأ من حالتهِ . او ينظر الى نفس حالتهِ ويرى كم يمكن ان تكون اردأ ممَّا هي اذا اراد الباري تعالى ان يجعلها كذلك

وقد كان لي امرٌ آخَر يساعدني ايضًا في تعزية نفسي وتقوية رجاءي وهو مقابلة حالتي الحاضرة بالحالة التي استوجبْتُها خطاياي وكان لي لذلك سببٌ لانتظارها من يد العناية الالهية . لاني كنت قد عشت عيشةً قبيحةً عاريةً بالكليَّة من معرفة الله وتقواهُ . وكان أَبَواي قد علَّماني امورًا كثيرة واجتهدا بقدر استطاعتهما في ان يغرسا باكرًا في قلبي خوف الله ويرسِّخا في نفسي شعورًا بواجباتي وبالغاية العُظمَى التي خُلقِت لاجلها . ولكن وا أَسفا اني دخلت باكرًا في عيشةٍ بحريَّةٍ وهي كما لا يخفى ابعد عيشة عن خوف الله مع ان اهوالهُ تعالى وعِبَرهُ هي دائمًا امام اعين اصحاب تلك العيشة . فزال مني كل ما كان لي من تلك الحاسيَّات والشعور القليل بامور الديانة . وذلك لسبب تهاوني بالاخطار وازدراءي بمناظر الموت حتى قسا قلبي عليها وصارت مالوفةً عندي لا اعتدُّ بها ومن جرى اعتزالي زمنًا طويلاً عن

عشرة اصحاب التقوى والديانة وعن استماع كلامٍ صالح او ما يتعلّق بالامور الصالحة. فكنت عاريًا بالكلية من كل صلاحٍ ومن ادنى شعورٍ بما كنت عليهِ قبلًا وبما ساكون فيهِ في ما بعدُ حتى انهُ في اعظم خلاصٍ حصلت عليهِ كنجاتي من سلّي مثلًا لم تكن تخطر ببالي هذه الكلمات وهي الشكر لله ولا كنت اتلفَّظ بها بفمي ولا جال في خاطري ان اصلّي اليهِ تعالى او اقول يارب ارحمني حتى ولا ان اذكر اسم الله الا على سبيل الحلف بهِ او التجديف عليهِ عزّ وجلّ

وكانت تاتيني افكار مخيفة كانت تزعجني مدة اشهر كثيرة كما سبق القول وكانت تلك الافكار ناتجةً من النظر الى رداءة سيرتي وقساوة قلبي في ما مضى. ولمَّا نظرت الى ما حولي وتأمَّلت في ما اسبغهُ الله عليَّ من النعم والبركات من حين اتياني الى ذلك الموضع الى ذلك الوقت وكيف عاملني باللطف والجودة ولم يقاصصني على قدر استحقاق ذنوبي بل يسَّر لي كل ما احتاج اليهِ صار عندي امل قويٌّ في ان الله قد قبل توبتي وانهُ تعالى قد حفظ لي رحمةً للمستقبل

ثم بعد هذه التأمُّلات عزمت على ان اسلِّم اموري الحاضرة لارادة الله وان اشكرهُ تعالى شكرًا خالصًا على حالتي ولا اتذمَّر من اعمال عنايتهِ تعالى بعد ان ابقاني حيًّا ولم يقاصصني حسب استحقاق خطاياي بل اسبغ عليَّ بركات كثيرة لم يكن لي باب لانتظارها او الطمع فيها في ذلك الموضع العقيم. وعلى ان افرح مرتضيًا بحالي واشكرهُ تعالى شكرًا يوميًّا على ذلك الخبز اليوميّ الذي لم يكن ممكنًا ايجادهُ الا بعجائب كثيرة. وعلى ان احسب ان عيالتي كانت باعجوبةٍ عظيمة كما كانت عيالة إيليًا بواسطة الغربان. وصرت اعتبر انهُ لا يوجد في القسم المعمور من العالم مكان يكون لي فيهِ هذا المقدار من البركات ولا يكون فيهِ وحوش كاسرة ولا ذئاب خاطفة او ضباع مفترسة ولا اشياء مسمَّة تؤذيني اذا اغتذيت بها ولا اقوام برابرة تفتك بي وتبتلعني. وبالاجمال اقول كما كانت حياتي ذات احزان ومصائب من الجهة الواحدة كانت ذات بركات ومراحم من الجهة الاخرى. ولم يكن ينقصني شيءٌ لجعلها مرضيةً لي وذات راحة وغبطة الاَّ الشعور بجودة الله نحوي وعنايتهِ

تعالى بي في تلك الحالة. فلمّا اعتبرت تلك الامور حقّ اعتبارها تسلّيت متعزّيًا ولم أَعُد اشعر بالحزن والكآبة كجاري عادتي

وكان قد مضى عليّ مدة مستطيلة في ذلك الموضع حتى ان كثيرًا من الاشياء التي خلّصتها من المركب كان قد نفد او تعطّل اوكاد ينفد. فان ما كان عندي من الحبر مثلاً كان قد قلّ منذ مدة كما اشرت الى ذلك قبلاً ولم يبقَ منهُ حينئذٍ الّا قليلٌ كنت ازيدهُ ماء حتى صار لونهُ ابيض فلم يَعُد يحدث رسمًا واضحًا على الورق. واذ كان عندي حبر كنت ادوّن الحوادث المهمّة من حياتي. ثم لما قابلت في ما بعد تلك الحوادث مع الايام رايت انهُ يوجد بينها اتّفاقاتٌ غريبة. فلو كنت ممّن يعتبر الخرافات والفالات ويميّز بين الايام باعتبار السعد او النحس لكان لي وجهٌ للنظر الى ذلك بكل استغرابٍ ودهشة

فاني وجدت ان اليوم الذي هربت فيهِ من بيت ابي وتركت اقاربي ذاهبًا الى هول بنيّة السفر في البحر ففيهِ نفسهِ وقعت في ما بعد اسيرًا بيد مركب سلّي الحربيّ وصرت رقيقًا. واليوم الذي نجوت فيهِ من الغرق في جهة موانى برموث ففيهِ نفسهِ هربت بعد عدّة سنين من سلّي في ذلك الكوثر وخلصت من الاسر. واليوم الذي ولدت فيهِ وهو ٣٠ ايلول ففيهِ نفسهِ نجوت بنوعٍ عجيبٍ بعد ست وعشرين سنةً عند ما طُرِحت على الشاطي في جزيرة اليأس. وعلى ذلك تكون حياتي الرديّة وحياتي الموحشة قد ابتدأتا كلتاهما في يوم واحد باعتبار السنة

ثم بعد نفاد الحبر نفد ما كان عندي من الخبز اعني ما كنت قد خلّصتهُ من المركب من البقصماط مع اني كنت قد استعملتهُ بكل توفيرٍ حتى اني كنت مدة سنة لا آكل منهُ الا كعكة واحدة في اليوم كما ذكرت قبلاً. فلبثت مدة سنة من دون خبز بالكليّة وذلك قبل ان صار عندي خبزٌ من غلّتي بسنةٍ من الزمان تقريبًا. واذ كان وجود ذلك عندي بنوعٍ عجيبٍ كان لي سبب عظيم لان اكون شكورًا واحمد الله على وجودهِ

ثم ان ثيابي ايضًا اخذت تبلى رائثًا بسرعةٍ. فامّا الملابس الكتّانيّة فكانت قد

نقطّعت ورثّت منذ مدة مستطيلة ما عدا بعض اقمصةٍ مخطّطةٍ كنت قد وجدتها في صناديق بعض بحريّتنا واحترصت عليها جدًّا لعظم منفعتها . لاني كنت اوقاتًا كثيرة لا اطيق على بدني الاّ القميص فقط . وكان عدد ما وجدتهُ منها بين ثياب البحريّة نحو ستة وثلاثين قميصًا . وكان عندي ايضًا بعض اردية او كبابيت من ثياب البحرية الاّ انها لم تكن تصلح لايام الحرّ لثقلها . ومع انهُ كان يمكنني ان استغني عن الثياب بالكلية لشدة الحرّ هناك لم استطع ان اكون عريانًا بالكلية ولا كنت اطيق الفكر ان اكون كذلك مع اني كنت ارى نفسي مائلاً اليهِ ولم يكن هناك من يعيبني او اخجل منهُ . ومما جعلني لا اريد ان اكون عريانًا بالكلية عدم اقتداري على احتمال حرارة الشمس في حالة العري كاقتداري على احتمالها وانا مكتسٍ . لان الحرّ كان قد احرق جلدي مرارًا كثيرة . لاني اذا كنت لابسًا قميصًا كنت اشعر برطوبة بخلاف ما اذا كنت عريانًا . وذلك لان الهواء كان يتحرّك قليلاً ويتلاعب متنسمًا داخل القميص فيدفع الحرارة . ولا كنت اقدر ان اقنع نفسي بالخروج في الشمس وقت الحرّ من دون ان يكون على راسي قبعٌ او قلنسوة . لان شدة حرارة الشمس في ذلك الموضع كانت تُحدِث الما قويًّا في راسي اذا كان مجرّدًا . وذلك لان اشعتها كانت ترشقني على خطٍ مستقيم كانها نبال حادّة لا تُطاق . الاّ ان القبع كان يدفع قوّتها ويحمي راسي من رشقاتها

وعند ذلك اخذت اهتمّ في ان اجمع معًا ما كان عندي من الخِرَق الرثيثة وكنت ادعوها ثيابًا . وكان كل ما كان لي من الصداري قد تخرّق ونقطّع فاخذت اشتغل في عمل صداري من الاردية والموادّ التي كانت عندي . وهكذا شرعت في الاشتغال في الخياطة او بالحري الترقيع والتلفيق . لاني كنت عكِشًا في هذه الصناعة وكانت اشغالي عديمة الاتقان . فعملت صدريتين او ثلاثًا مؤمّلاً انها تقيم عندي زمنًا طويلاً . ثم عملت لباسًا او بنطالونًا واذا شئت فسمِّهِ سروالاً وكان مضحكًا في تفصيلهِ وخياطتهِ الاّ اني اكتفيت مرتضيًا بهِ الى حين

وقد ذكرت اني كنت احتفظ على جلود جميع ما كنت اقتلهُ من الحيوانات

اعني ذوات الاربع واعلّقها في الشمس بعد ان انشرها باسطاً اياها على قضبانٍ لتجفَّ. وبهذه الواسطة صار بعضها جافًّا وقاسيًا جدًّا لا ينفع لشيءٍ. الاَّ ان بعضها كان نافعًا لي كثيرًا. فاوّل شيءٍ اصطنعتهُ من تلك الجلود بُرْنُسٌ اي قبعٌ كبير لراسي جعلت شعرهُ من خارج لدفع مياه المطر. وقد نجحت في عمل ذلك وإحكامهِ حتى اني اصطنعت في ما بعد بدلة ثياب كلها من الجلود. اعني صدريةً طويلة ولباسًا مفتوحًا عند الركبة. وجعلتهما كليهما واسعين. لان المقصود الاكبر فيهما انما كان التبريد لا التدفئة. ولا يجب ان اغفل عن الاقرار بان عملهما كان غير مُتقَنٍ ولا محكَم. لاني كما كنت بئْس النجّار كنت ايضًا بئْس الخيّاط. غير انهما كانا احسن من العدم فاستخدمتهما مدةً. وكنت اذا اتفق ان تمطر وانا خارج منزلي لا اتبلَّل. لان شعر بُرْنُسي وصدريتي كان من خارج فكان يقيني من المطر

ثم صرفت زمنًا طويلاً وقاسيت تعبًا جزيلاً في عمل شمسيةٍ او خيمةٍ. وكنت في احتياج شديد اليها كما كانت لي رغبة قويّة في عملها. وكنت قد رايت قومًا يعملون شمسيّات في برازيل حيث كانت الشمسيّات دارجة ونافعة كثيرًا في اوقات الحرّ لانهُ كان شديدًا هناك. وكنت قد شعرت بان الحرَّ في جزيرتي كان شديدًا كما في تلك الاطراف او اشدّ منها لانها اقرب منها الى خطّ الاستواء. ثم اذ كنت مضطرًّا الى الخروج من منزلي اوقاتًا كثيرة كانت الشمسيّة عندي من انفع الادوات. فصرفت اوقاتًا كثيرة محاولاً عمل شمسيّة وبعد ان عطّلت اثنتين او ثلاثًا تيسّر لي ذلك وعملت شمسيّةً جاءَت على عقلي. وكانت الصعوبة الكبرى في عملها ان اجعلها تنطبق وتنطوي الى داخل فاني لم اجد صعوبة كبيرة في جعلها تنفتح وتنتشر الى خارج. لانها اذا كانت لا تنطبق وتنطوي الى داخل لا يمكنني حملها الاَّ مفتوحةً فوق راسي ولا يخفى ما في ذلك من الصعوبة. الاَّ اني اخيرًا عملت شمسيّةً تنفتح وتنطبق حسب المرغوب. وقد غطّيتها بجلود جاعلاً جهة الشعر الى خارج. فكانت تمنع خرق الماءَ كما يمنعهُ بيت منحني السقف. وكانت ايضًا تمنع حرارة الشمس تمامًا حتى انهُ كان يمكنني ان اتمشّى بها خارجًا في احرّ الازمنة باكثر راحةٍ ممّا كان يمكنني ذلك

بدونها في ابردها . وكنت اذا لم احتجْ اليها اطبقها واحملها تحت ابطي

وكنت حينئذٍ اعيش بالرغد واللذّة لان بالي كان قد فاز براحة عظيمة بواسطة تسليمي اموري لارادة الله والقاءي نفسي بالتمام على تدبير عنايتهِ تعالى . وصارت حياتي احسن ممَّا لو كان لي من اعاشرهُ واستأنس بهِ . وكنت اذا ابتدأْت اتأسَّف من انهُ لا يُوجَد من يكلّمني اسأَل نفسي قائلاً أَليس الكلام بيني وبين نفسي ومخاطبتي الله بالطلبات احسن من افضل معاشرة في العالم واعلّلها بما قيل اذا لم يكن ما تُرِيد فأَرِدْ ما يكون

شعرٌ

ملكُ القناعةِ لا يُخشَى عليهِ ولا يُحتاجُ فيهِ الى الأَنصارِ والخُوَلِ

الفصل الخامس عشر

عمل روبنصن كروزي قاربًا صغيرًا وما قاساهُ من الاخطار في البحر

لا استطيع ان اقول انهُ في مدة خمس سنين بعد ذلك الوقت صادفني شيءٌ خارق العادة . فاني كنت اعيش كجاري عادتي في نفس المركز والموضع الذي كنت فيهِ قبلاً . والاشياء التي كنت مشتغلاً فيها على الاكثر هي اشغالي الاعتيادية وذلك كالخروج كل يوم ببارودتي وزرع الشعير والارزّ وعمل الزبيب . وكان دائمًا عندي من ذلك موءُنة كافية لسنة واحدة سلفًا . وكان عندي ايضًا شغل آخر وهو عمل قارب صغير . ولما اكملتهُ حفرت ترعةً عرضها ستُّ اقدام وعمقها اربع اقدام ونقلتهُ الى خليج كان بعيدًا عنهُ مسافة نصف ميل تقريبًا . واما القارب الاول الذي كان كبيرًا جدًّا كما سبق وكنت قد عملتهُ من دون ان انظر قبلاً كيف انزلهُ الى البحر بعد تتميمهِ فاذ لم استطع قطُّ ان انزل بهِ الى البحر ولا ان اصعد بالبحر اليهِ الجأَني الحال الى تركهِ قائمًا في مكانهِ ليكون عبرةً اتعلَّم منهُ ان انصرَّف في اموري في ما بعد باكثر حكمة . ومع اني في المرة الثانية لم استطع ان اجد شجرةً تصلح لعمل

قارب الاَّ في مكان لم اكن اقدر ان آتي بالماء اليهِ على بُعدٍ اقلَّ من نصف ميل كما تقدم القول فاذ وجدت بعد التأمل ان ذلك ممكنٌ باشرت فيهِ ولم اكفُّ عنهُ حتى اكملتهُ. ومع اني صرفت مدة نحو سنتين في معالجتهِ لم اتذمر قط من التعب والشغل. لان امل الحصول على قارب اسافر فيهِ في البحر كان ينسيني كل ذلك ويخوّلني لذةً في التعب

وكان قاربي الثاني لا يصلح لصغرهِ للغاية التي قصدتها عند عملي القارب الاول وهي السفر الى تلك الارض الثابتة اي القارّة حيث كانت المسافة اكثر من اربعين ميلاً عرضًا. ومن ثمَّ كان صغر قاربي يساعدني على ان اطرد من بالي ذلك المقصد الذي لا يُطمَع في نوالهِ حتى اني لم أعُدْ افتكر فيهِ بالكلية. واذ صار عندي قارب عزمت على الطواف حول الجزيرة. لاني اذ كنت قد ذهبت الى الجانب الآخر منها برًّا كما ذكرت قبلاً جعلتني الاكتشافات التي اكتشفتها في ذلك السفر القصير ارغب جدًّا في ان ارى اماكن اخرى من السواحل

واذ كنت منصبًّا انصبابًا عظيمًا على السفر بحرًا وكان قد صار عندي قارب اسافر فيهِ فلكي افعل كل شيء بالحكمة والاحتياط ركزت ناصبًا ساريًا صغيرًا في ذلك القارب وعملت لهُ قلعًا من قلوع المركب التي كان عندي منها جانب عظيم محفوظًا بحرصٍ لحين الحاجة. ثم عملت في كل طرف من طرفَي القارب صندوقًا او خزانة لاجل وضع الزاد والادوات وباقي اللوازم حفظًا لها من المطر وماء البحر. وحفرت بيتًا اي تجويفة صغيرة مستطيلة في قعر القارب لاجل وضع بارودني وعملت لها غطاء اغطّيها بهِ لكي لا تنبلّ. ثم نصبت شمسيتي ناشرًا اياها على درجةٍ عند المؤخّر نظير قلع لكي تكون فوق راسي وتظلّلني من الشمس. وهكذا كنت حينًا بعد حينٍ اسافر سفرًا قصيرًا في البحر. الاَّ اني لم ابعد قطُّ عن ذلك الخليج ولا توغّلت في البحر. واذ كنت ارغب الاطّلاع على محيط مملكتي الصغيرة ووجدت بعد الامتحان ان قاربي يسير جيدًا عزمت على الطواف حول الجزيرة. فجهّزت قاربي للسفر ووضعت فيهِ اربعة وعشرين رغيفًا او ملّةً من خبز الشعير

وجرَّة فخّار مملوَّة من الارزّ المحمَّص ممَّا كنت اغتذي بهِ كثيرًا وقنينة صغيرة مملوَّة من الروم وشقَّة عنزةٍ وبارودًا وخردقًا للصيد وكبُّوتَين ممَّا ذكرت اني خلَّصتهُ من صناديق البحريَّة قاصدًا ان افرش احدهما تحتي واتغطَّى بالآخر ليلًا

وفي اليوم السادس من شهر تشرين الثاني في السنة السادسة من سلطنتي وان لم يعجبك ذلك فقُلْ اسري اخذت في ذلك السفر ووجدتهُ اطول كثيرًا ممَّا كنت اظنّهُ . ومع ان الجزيرة نفسها لم تكن كبيرة جدًّا رايت عند وصولي الى جانبها الشرقيّ راسًا او سلسلة عظيمة من الصخور ممتدَّةً مسافة نحو فرسخين في البحر بعضها تحت الماء وبعضها فوقهُ . وكان وراءها حرفٌ من الرمل ممتدٌّ خارج البحر نحو نصف فرسخ ايضًا . ولما رايت ذلك الراس ووجدت انهُ يلزمني ان اتوغّل مبعدًا كثيرًا في البحر لكي ادور حولهُ حرت في امري وهممت على ان اعدل عن السفر وأَنثني راجعًا الى منزلي . لاني لم اكن اعلم كم يلزمني ان ابعد في البحر ولا كيف ارجع من سفري اذا ابعدت متوغلًا فيهِ . وعند ذلك ارسيت القارب مستعينًا بمرساةٍ كنت قد اصطنعتها من قطعة حديد خلَّصتها من المركب . وبعد ان القيت المرساة وربطت قاربي ربطًا محكمًا تناولت بارودتي وخرجت الى البرّ واخذت اصعد على تلٍّ هناك كان يلوح لي انهُ يُطِلُّ على ذلك الراس . فلما وصلت الى اعلاهُ اشرفت منهُ على آخِر الراس . ثم نزلت عازمًا على ركوب البحر والمخاطرة ايضًا

ثم لمَّا كنت على ذلك التلّ كنت قد اطللت مشرفًا على البحر فرايت تيَّارًا قويًا ومخيفًا جدًّا كان يجري نحو الشرق الى ان يصل الى جانب ذلك الراس . وقد لاحظتهُ على الاكثر لاني رايت انهُ ربما وُجِد هناك خطر من انني اذا دخلت فيهِ يحملني رغمًا متوغلًا بي في البحر فلا يعود يمكنني الرجوع الى الجزيرة . وحقًّا اني لو لم اصعد اولًا على ذلك التلّ لاصابني ذلك لا محالة . لانهُ كان تيَّار آخر على الجانب الآخر من الجزيرة يمتدُّ الى مسافة ابعد . وقد رايت انهُ يوجد تيَّار قويٌّ من جهة الشاطئ . وهكذا كنت اذا خرجت من التيَّار الواحد ادخل في التيَّار الآخر

فاقمت في ذلك المَرسَى يومين . لان الريح كانت تهبُّ هبوبًا قويًّا من شرقيّ

الجنوب مضادةً للتيار المذكور. ولذلك كانت الامواج تندفع بعزم نحو البرّ وتلاطم ذلك الراس متدفقةً عليهِ. فكنت في خطر من الامواج اذا بقيت بالقرب من الشاطي وفي خطر من التيار اذا ابعدت عن الشاطي متوغلاً في البحر

وفي اليوم الثالث صباحًا سكنت الريح وصار البحر هاديًا. فاقلعت واخذت اسير في طريقي حتى صرت اخيرًا عبرةً لكل ديدبٍ جاهلٍ ومدبرٍ جسور. وذلك لاني حالما وصلت الى الراس ولم اكن بعيدًا عن الشاطئ مقدار طول قاربي صرت في لجّة عميقة من المياه وتيار قويٍ جدًّا كالماء الذي يُدير حجر الطحن. فحمل ذلك التيار قاربي وسار بهِ بقوةٍ وعنفٍ شديدٍ حتى اني لم استطع بكل عزمي وجهدي ان ابقى بهِ على حافتهِ. وكان ذلك التيار يحمل القارب دافعًا اياهُ بعنفٍ ويبعدهُ شيئًا فشيئًا عن تيار آخر كان عن يساري. ولم تكن هناك ريح تهبُّ فتساعدني ولا كان تجذيفي بالمجاذيف يغني شيئًا او يُحدِث ادنى تاثير. فابتدأت حينئذٍ أيأس واقطع الامل من النجاة. وذلك لانهُ اذ كان التياران على جانبَي الجزيرة كانا لا بدَّ من ان يلتقيا معًا بعد مسافة اميال قليلة فلا يعود لي امكان للخلاص. واذ كنت لا ارى لي بابًا للحايدة ذلك كنت لا ارى امامي الاَّ الهلاك وذلك لا بواسطة البحر لانهُ كان حينئذٍ هاديًا بل بواسطة الجوع. وكنت قد وجدت على الشاطئ سلحفاةً كبيرة بقدر ما استطيع حملهُ فطرحتها في ارض القارب. وكان عندي من الماء العذب ملءُ جرّة كبيرة من الجرار الخزفيَّة التي عملتها. ولكن ماذا كان ذلك كلهُ بالنظر الى التيه في الاوقيانوس العظيم حيث لا يوجد شاطئٌ ولا قارَّةٌ ولا جزيرةٌ على مسافة الف فرسخ على الاقلّ. وحينئذٍ تبيَّن لي كم هو سهل على العناية الالهية ان تجعل اشقى حالات الانسان اكثر شقاوةً ايضًا مما هي. وعند ذلك صارت عندي جزيرتي الموحشة المقفرة ابهج مكان في العالم. حتى ان كل السعادة التي كان قلبي يتمناها كانت الرجوع اليها. فبسطت حينئذٍ يديَّ نحوها متحسرًا على فراقها وقلت بلهفٍ هل يقسم لي الله نصيبًا ان اراكِ ايتها الجزيرة البهجة السعيدة. وا أسفا اني لن اراكِ ايضًا الى الابد. يا لشقاوتي وسوء حظّي الى اين انا ذاهبٌ. ثم اخذت اوبّخ

نفسي على انكاري الجميل وتذمُّري في ما مضى من جرى وحدتي مع اني كنت ارغب حينئذٍ ان أُعطي كل ما لي لأكون هناك. وظهر لي عند ذلك كيف اننا لا نرى ابدًا حقيقة حالنا الاَّ اذا قابلناها باضدادها. ولا نعتبر قيمة ما نتمتَّع بهِ الاَّ بعد فقدهِ. ويصعب تصوُّر او وصف ما اعتراني من الاضطراب والاسف عند ما دُفِعت عن جزيرتي المحبوبة البهجة في الغاية كما كانت تظهر لي حينئذٍ مُبعَدًا عنها الى لجج الاوقيانوس العظيم حتى صارت مني على مسافة نحو فرسخين ولم يبقَ لي امل في العودة اليها. الاَّ اني مع ذلك كنت اشتغل بكل نشاطٍ حتى كدت اعيى من شدة التعب وقد ابقيت قاربي بقدر استطاعتي في ناحية الشمال الى جانب التيَّار ولم أزل كذلك الى قرب الظهر عند ما مالت الشمس عن خطّ نصف النهار. وكان يتراءَى لي حينئذٍ كأنّي اشعر بنسيمٍ لطيفٍ في وجهي يهبُّ من جنوبيّ الجنوب الشرقيّ. فسرَّني ذلك قليلاً وانشرح بهِ صدري وعلى الخصوص عند ما هبَّت بعد ذلك بنحو نصف ساعةٍ ريحٌ رقيقةً من تلك الجهة. وكنت حينئذٍ قد ابعدت بعدًا قاصيًا عن الجزيرة. فلو حصل اقلُّ شيء من الغيم او الاغبرار كنت وقعت في خطرٍ من جهةٍ اخرى ايضًا. وذلك لانهُ لم يكن عندي حكٌّ في القارب. ولذلك لو غابت الجزيرة لحظةً عن ناظري لما عرفت قطُّ كيف اوجّه مقدَّم قاربي نحوها. ولكن اذ كان الهوآء لم يزل رائقًا افرغت جهدي في نصب ساريّ ونشر قلعي واخذت ابعد بقاربي الى جهة الشمال بقدر استطاعتي هربًا من التيَّار

وحالما نصبت ساريّ ونشرت قلعي واخذ القارب يمشي ظهر لي من ملاحظة صفآء المآء ان التيَّار سيتغيَّر حالهُ بعد قليلٍ. لانهُ حيث كان التيَّار قويًّا كان المآء كدِرًا ولكن حيث كان المآء صافيًا كان التيَّار ضعيفًا. ولم يمضِ الاَّ قليلٌ حتى رايت الى جهة الشرق على بعد نحو نصف ميل امواج البحر تلاطم بعض صخور. وكانت تلك الصخور تجعل التيَّار ينقسم ايضًا الى شطرين. واذ كان اقواهما يجري مائلاً اكثر الى جهة الجنوب تاركًا الصخور الى جهة الشمال الشرقيّ كانت الصخور تدفع القسم الآخر فيرجع الى الورآء فيكون منهُ تيَّار قويٌّ حادٌّ جدًّا يجري راجعًا

الى جهة الشمال الغربيّ

فالذين يعرفون قيمة ورقة العفو او الامان التي تاتيهم وهم في المشنقة او قيمة الخلاص من ايدي لصوص هامّين على قتلهم او النجاة من مصائب كبرى يمكنهم ان يعرفوا كم حصل عندي من الفرح والسرور عند ما دخلت بقاربي الى ذلك التيّار وابتدأت الريح تهبُّ ضاربةً قلعي المنشور وتستكدُّ قاربي دافعةً اياهُ حتى كان يسير امامها بسرعة ورفق على متن تيّار قويّ تحتهُ

وان ذلك التيّار حملني مسافة نحو فرسخ راجعًا بي باستقامة نحو الجزيرة الاَّ انهُ دفعني نحو الشمال مسافة نحو فرسخين اكثر من التيّار الذي حملني اولاً ذاهبًا بي عنها. ولهذا لما قربت من الجزيرة وجدت نفسي مقابل شاطيها الشمالي اي الطرف المقابل للطرف الذي خرجت منهُ عند سفري منها

ثم بعد ان قطعت بمساعدة ذلك التيّار مسافة اكثر من فرسخ من طريقي وجدت انهُ انقطع ولم يَعُد يفيدني شيئًا. الاَّ اني اذ كنت بين تيّارَين اي التيّار الذي الى جهة الجنوب الذي حملني ذهابًا والتيّار الذي الى جهة الشمال الذي كان على مسافة نحو فرسخ من الجهة الاخرى وجدت الماء بين ذينك التيّارين هاديًا لا يجري الى جهة. واذ كان لي نسيم يهبُّ سايرًا معي اخذت انقدّم باستقامة طالبًا الجزيرة. الاَّ ان سيري كان اقلّ سرعةً من السابق

واذ صرت عند العصر على مسافة فرسخ من الجزيرة وجدت ان ذلك الراس الذي احدث تلك المصيبة وكان ممتدًّا الى جهة الجنوب كما ذكرت قبلاً وقد دفع التيّار الى الجهة الجنوبيّة كان قد احدث تيّارًا آخر الى جهة الشمال. وكان ذلك التيّار قويًّا جدًّا الاَّ انهُ لم يكن يجري في طريقي الى نحو نقطة الغرب بل كان يجري نحو نقطة الشمال تقريبًا. غير اني اذ كانت الريح معي قويةً قطعت ذلك التيّار مائلاً نحو الشمال الغربيّ. وبعد نحو ساعة من الزمان صرت على مسافة نحو ميل من الشاطئ. واذ كان البحر هناك هاديًا وصلت سريعًا الى البرّ

فلمّا خرجت الى البرّ ركعت على ركبتيّ وحمدت الله شاكرًا اياهُ على نجاتي

التي كنت انسبها كلها اليهِ تعالى ولم انسب شيئًا منها الى قاربي ولا الى قوتي. ثم اكلت شيئًا مما حضر ودنوت بقاربي من الشاطئ الى بوغاز صغير كنت قد لمحتهُ تحت اشجار هناك واضطجعت لانام اذ كنت قد عييت من تعب الطريق ومشقة السفر

وكنت حينئذٍ في حيرة عظيمة من جهة الطريق التي ينبغي ان ارجع فيها بقاربي الى منزلي. واذ كنت قد وقعت في اخطار كثيرة وعرفت بالاختبار احوال الطريق التي اتيت منها لم اكن اطيق الافتكار بالرجوع من تلك الطريق عينها. ولا كنت اعلم كيف كانت الاحوال من جهة الناحية الاخرى اي الغربية. ولا كانت لي ارادة ان أُلقي نفسي في المخاطر مرةً اخرى. غير اني عزمت فقط عند الصباح ان اسير نحو الغرب بجانب البرّ لعلي اجد نهرًا اربط عندهُ قائقي بالامان تاركًا اياهُ هناك الى حينٍ. وبعد ان قطعت مسافة نحو ثلاثة اميال بالقرب من الشاطئ وصلت الى خليج او بوغاز ممتدٍ نحو ميل في البر كان يصغر متناقصًا شيئًا فشيئًا الى ان صار نظير جدول. فوجدت هناك ميناء امينة لقاربي كأنها قد عُملت لهُ قصدًا. فارسيت في تلك الميناء وبعد ان ربطت القارب ربطًا محكمًا خرجت الى البرّ لكي ارى اين كنت من الجزيرة

ثم وجدت بعد قليل اني لم اتجاوز كثيرًا الموضع الذي وصلت اليهِ قبلاً عند ما سافرت برًّا الى تلك الجهة. فاخذت في طريقي ولم آخذ معي من القارب شيئًا الاَّ بارودتي وشمسيتي لان الحرّ كان شديدًا. وكانت الطريق هيّنة بالنسبة الى ما قاسيتهُ في سفري بحرًا. فوصلت مساءً الى خيمتي القديمة في الجبل فوجدت كل شيءٍ هناك مرتبًا كما فارقتهُ. لاني كنت دائمًا ارتب الاشياءَ هناك جيدًا. لان ذلك الموضع كان كما ذكرت قبلاً مسكني الجبلي

فصعدت على الحائط واضطجعت في الفيء لاريح اضلاعي لاني كنت تعبًا جدًّا. فعبث النعاس بعينيّ فنمت مستغرقًا. ومَن مِن قارئي قصتي يقدر ان يتصوَّر ما اعتراني من الدهشة والذهول عند ما ايقظني من النوم صوت داعٍ يناديني

باسمي تكرارًا قائلاً روبن روبن روبن كروسو. مسكين روبن كروسو. اين انت يا روبن. اين كنت يا روبن

وكنت حينئذٍ مستغرقًا مستثقلاً في نومي كأنّي ميّت. لاني كنت قد تعبت جدًّا من التجذيف او كما يقال التقذيف. واذ كان نومي في اوائل النهار وانتباهي في اواخرهِ لم انتبه تمامًا بل كنت بين منتبهٍ ونائمٍ. فخُيّل لي اني كنت احلم ان واحدًا يكلّمني. ولكن اذ كان الصوت لا يزال يطرق اذني قائلاً روبن كروسو روبن كروسو اخذت ازيد انتباهًا. وكنت في اول الامر قد خفت جدًّا واضطربت اضطرابًا عظيمًا. ولكن حالما فتحت عينيّ رايت ببغالي او ببغاءي واقفًا على اعلى السياج. فللحال عرفت انهُ هو الذي كان يناديني لاني كنت في ما مضى اكلّمهُ واعلّمهُ التكلم بتلك النغمة المحزنة. وكان قد تعلّمَ ذلك جيدًا حتى كان يقف على ابهامي ويضع منقارهُ بالقرب من خدّي ويصرخ قائلاً مسكين روبن كروسو. اين انت يا روبن. اين كنت يا روبن. كيف جئت الى هنا يا روبن

وما اشبه ذلك من العبارات التي كنت قد علّمتهُ اياها

ومع اني عرفت ان الذي ناداني هو الببغال وانهُ لا يمكن ان يكون ذلك حيًّا غيرهُ بقيت مدة قبل ان هدأ روعي وسكن قلقي. فاني اولاً تعجبت منذ هلاّ كيف اتى الى ذلك الموضع ثم كيف امكنهُ ان يقيم بالقرب من ذلك المكان ولم يذهب الى مكان آخر غيرهِ. الاّ انني اذ كنت متحققًا انهُ لا يمكن ان يكون ذلك الاّ ببغالي الامين الودود زال ما اعتراني من الذهول. فمددت يديّ نحوهُ ودعوتهُ باسمهِ قائلاً فُول فُول تعالَ. ففي الحال اتى اليّ ذلك الطائر الانيس واستقرّ على راس

ابهامي كعادتهِ وكان يناديني قائلاً مسكين روبن كروسو . كيف اتيت الى هنا يا روبن . ابن كنت يا روبن . وكان يتراءى كأنهُ قد طار فرحًا عند ما رآني . فحييتهُ بالسلامة وقبّلت عينهُ وحملتهُ هكذا ذاهبًا بهِ الى البيت

وكنت حينئذٍ قد اكتفيت الى مدةٍ من سفر البحر . وكان لي عملٌ يكفيني مدة ايام وهو البطالة والتأمُّل في الخطر الذي كنت فيهِ . وكنت اتمنّى ان يتيسَّر لي الاتيان بقاربي الى تلك الجهة من الجزيرة الأ اني لم اكن اعلم كيف آتي بهِ الى هناك . فاما الجهة الشرقيَّة من الجزيرة التي كنت قد درت حواليها فاني كنت اعلم جيدًا انهُ لا سبيل الى السفر فيها . حتى انهُ كان يختلج قلبي ويجمد دمي من مجرَّد الفكر بذلك . واما الجهة الاخرى من الجزيرة فلم اكن اعلم كيف يكون الحال فيها . ولكن اذا كان التيّار يجري نحو الشاطي الى جهة الشرق بنفس العزم الذي كان يجتاز بهِ بجانبهِ من الجهة الاخرى فاني اقع في الخطر نفسهِ من ان أُدفَع الى التيّار وتحملني الجزيرة كما كنت قبلاً في خطرٍ من ان أُحمَل عنها . فلما لاحظت ذلك ارتضيت ان اكون بدون القارب وان كنت قد صرفت اشهرًا كثيرة واتعابًا شاقَّة في عملهِ واكثر من ذلك جدًّا في تنزيلهِ الى البحر

فلبثت حاكمًا هكذا على طبعي نحو سنة من الزمان . وكنت اعيش عيشة هادية جدًّا ومتوحدة كما لا يخفى . واذ كنت قانعًا بحالتي ومتسليًا بتسليم اموري لتدبير العناية الالهية كنت احسب نفسي اني كنت عائشًا حقًّا عيشة راحة ورفاهية من كل وجهٍ ولم اكن اتنغَّص لشيء الأ العشرة والمسامرة

وكنت انقدَّم في ذلك الوقت في الصنائع التي كانت الضرورة تدعوني الى الانعكاف عليها . واظنُّ اني عند الحاجة كنت نجارًا ماهرًا وعلى الخصوص اذا اعتبرنا كم كانت الآلات قليلةً عندي

وعدا ذلك صرت ماهرًا خبيرًا في صناعة الفخّار واحسنت في استخدامي دولابًا لعملهِ ووجدت ذلك اسهل مراسًا واحسن . لان ما عملتهُ حينئذٍ كان متقنًا وذا هيئة ظريفة مع انهُ كان قبلاً شنيع المنظر جدًّا . واظنُّ انني لم اعجب قط مفتخرًا بعمل عملتهُ

ولا فرحت بشيءٍ مما اخترعتهُ اكثر من اقتداري على عمل آلة لشرب التبغ . وكانت تلك الآلة شنيعة المنظر وعارية من كل نقانةٍ في عملها وكانت مشوية حمراء فقط نظير باقي الفخار الَّا انها اذ كانت قاسيةً وقويةً لسحب الدخان سررت بها جدًّا لاني كنت دائمًا معتادًا على شرب التبغ . وقد كان في المركب آلات لشرب التبغ الَّا اني كنت قد غفلت عنها في اول الامر غير ظانٍّ انهُ يوجد تبغ في الجزيرة . ثم لمَّا فتَّشت عليها في ما بعد في المركب لم اجد شيئًا منها

وتقدَّمت كثيرًا ايضًا في عمل السلال وعملت كثيرًا من السلال اللازمة بحسب معرفتي ومع انها لم تكن ظريفة كانت نافعة كثيرًا لوضع الاشياء او جلبها من الحقل الى المنزل . فاني كنت اذا اصطدت عنزة مثلًا في البرّيَّة اعلّقها على شجرة واسلخها وافرزها واقطّعها ثم آتي بها في سلَّة الى البيت . وهكذا كنت افعل اذا اصطدت سلحفاةً فاني كنت اشقُّها وانزع البيض منها وآخذ قطعة او قطعتين من لحمها وآتي بها جميعًا في سلَّةٍ الى البيت واترك ما بقي في البرّيَّة . وعملت ايضًا سلالًا كبيرة عميقة لخزن غلَّتي التي كنت دائمًا افتها حالما تيبس جيدًا وانقّيها ثم احصّلها في سلالٍ كبيرة

وظهر لي حينئذٍ ان ما كان عندي من البارود قد نقص وقلَّ كثيرًا . وهو من الاشياء التي لم يكن يمكنني اصطناعها . فجعلت اتفكَّر باهتمامٍ ماذا ينبغي لي ان اعمل متى نفد بارودي اي ماذا اعمل لاصطياد المعزى . وقد ذكرت قبلًا انهُ كان عندي في السنة الثالثة من دخولي تلك الجزيرة جديٌ صغيرٌ كنت اربّيهِ واعتني بهِ مؤمّلًا ان تكثر المعزى عندي بواسطتهِ . الَّا انهُ شاخ ولم يكن لهُ انثى من جنسهِ فمات من الكِبَرَ ولم يترك نسلًا . ولم أَستفِد منهُ شيئًا لان قلبي كان لا يطاوعني على ذبحهِ والانتفاع بلحمهِ وجلدهِ

شعرٌ

اذا قَرُبَتْ يداكَ الى مرامٍ وقلتَ تخوَّلتْ نفسي مُناها
فلا تأْمَنْ منَ الدهرِ اختلاسًا يحولُ فمكرُهُ في ذا تناهَى

الفصل السادس عشر

تربية روبنصن كروزي قطيعًا من المعزى وكيفية معيشتهِ وزيادة نجاحهِ

اذ كان قد مضى عليَّ نحو احدى عشرة سنة في جزيرة اليأْس وكانت ذخيرتي من البارود والخردق قد كادت تنفد كما تقدم القول اخذت اتبصَّر في اختراع طريق لاصطياد المعزى حيَّةً. فاصطنعت لذلك فخاخًا. واظنُّ انها علقت بها مرارًا ولكن اذ كانت آلاتي غير جيدةٍ لانهُ لم يكن عندي لها شريطٌ كنت اجدها دائِمًا مقطَّعةً والطعم ماكولاً. فعزمت اخيرًا على عمل مطمورات اي حفائِر في الارض. فحفرت حفرًا كبيرة في الاماكن التي كنت ارى المعزى تتردَّد اليها لترعى فيها ووضعت على تلك الحفر اخشابًا على شكل شبكة من شغل يدي وثقَّلتها باشياءَ ثقيلة وكنت اوقاتًا أُلقي هناك سنابل شعير وارزٌ من دون ان انصب الفخَّ. الاَّ ان المعزى كانت تدخل الحفائِر وتاكل السنابل لاني كنت ارى آثار اظلافها هناك ولا تعلق. ثم اني نصبت في احدى الليالي ثلاثة فخاخ ولما ذهبت في الغد لافتقدها وجدتها جميعها لم تزل منصوبةً الاَّ ان الطعم كان قد أُكِل. فضعف املي عند ذلك. الاَّ اني لم اكفف بل غيَّرت الفخاخ. ولكي لا اثقّل على القارئ بذكر كل ما حصل بالتفصيل اقول اني ذهبت ذات يوم صباحًا لاتفقَّد تلك الحفائِر فوجدت في احداها تيسًا كبيرًا من المعزى وفي حفيرة اخرى ثلاثة جداءَ ذكرًا واثنتَين

اما التيس المُسِنُّ فلم اعلم ماذا اعمل بهِ. فانهُ اذ كان قويًّا شرسًا جدًّا لم اتجاسر على النزول اليهِ الى الحفيرة لكي امسكهُ حيًّا حسب مرغوبي. فانهُ كان يمكنني قتلهُ الاَّ ان ذلك لم يكن مصلحتي ولا كان يوافق مقصدي. فافلتُّهُ واطلقت سبيلهُ فاخذ يركض كأنهُ قد جُنَّ وطار عقلهُ من شدة الخوف. وقد غفِلت حينئذٍ عمَّا تعلَّمتهُ في ما بعد وهو ان الجوع يذلّل الاسد نفسهُ حتى يصير انيسًا. فلو تركت ذلك التيس هناك ثلاثة او اربعة ايام من دون اكلٍ ولا شربٍ ثم اخذت لهُ قليلاً من الماءِ ليشرب وقليلاً من الشعير لياكل لكان ذلَّ لا محالة وصار اهليًّا كجدي. لان

المعزى حكيمة جدًّا وسريعة الانقياد اذا عُومِلت بالحُسنَى . على اني اطلقت سبيلهُ حينئذٍ لان ذلك كان حدَّ معرفتي في ذلك الوقت . ثم تقدَّمت الى الاجدية الثلاثة وامسكتها الواحد بعد الآخر وربطتها معًا بحبلٍ وذهبت بها جميعًا الى منزلي وذلك بصعوبةٍ كما لا يخفى

فبقيَتْ مدة لا تاكل شيئًا ثم القيت لها قليلاً من الشعير فلما ذاقت حلاوتهُ اكلتهُ واخذت تؤالف شيئًا فشيئًا . فوجدت حينئذٍ اني اذا اردت ان يكون عندي كفاءَتي من لحم المعزى بعد نفاد بارودي وخردقي لم يكن لي طريق لنوال هذا المقصد الاَّ بواسطة تربية قليل من المعزى لكي تكون حول منزلي نظير قطيع من الغنم . ولكن جال في خاطري حينئذٍ انهُ يجب فصل ما كان منها اهليًّا ممَّا كان بريًّا والاَّ فانها متى كبرت تصير جميعها بريَّةً وتهرب مني . ولم يكن باب لنوال هذا المرغوب الاَّ باحاطة قطعة من الارض بسياجٍ محكَم متين وذلك من الاشواك او العوارض لكي تكون حظيرة ازربها فيها بحيث لا يستطيع ما كان منها داخلاً ان يخرج ولا ما كان منها خارجًا ان يدخل

ولا يخفى ان ذلك عملٌ كبيرٌ على زوج واحدٍ من الايادي . الاَّ انني اذ رايت انهُ لا بدَّ منهُ لنوال المرغوب اخذت اولاً في التفنيش على قطعة ارض تصلح لذلك يكون فيها عشبٌ ترعاهُ وماءٌ تشربهُ واشجارٌ تظلّلها من الشمس . فالذين لهم معرفة في امر السياجات يفتكرون باني كنت قليل التدبير عند ما اخترت لذلك قطعة تشتمل على هذه الشروط جميعها اي مرجةً مستسهلةً مطمئنّةً منفرجةً فيها نبعان او ثلاثة ينابيع عذبة وفي احد اطرافها كثير من الاشجار . وربما يتبسَّمون من قلَّة درايتي او بالحري من جنوني عند ما اقول لهم اني باشرت في تسييج تلك القطعة بطريق يلزم منهُ ان تكون مساحة دائرة سياجي ميلين على الاقلّ . ولم يكن جنوني في ذلك من جهة اتساعهِ لانهُ لو كانت دائرتهُ عشرة اميال لما كان يبعد ان يكون لي وقت واقتدار لتتميمهِ بقدر ما كان من جهة عدم اعتباري لهذا الامر وهو ان المعزى تكون دائمًا نافرةً بريّةً في موضع متّسع كهذا كما تكون لو كانت لها كل الجزيرة ويكون لها

ايضًا موضع واسع جدًّا للهرب مني اذا ركضت وراءها لأُمسِكها حتى يكون مسكها امرًا مستحيلًا. واظنُّ انهُ عند ما اتاني هذا الفكر كنت قد عملت من السياج نحو سبعين ذراعًا. فكففت في الحال متوقفًا عن العمل وعزمت ان اسيّج في البداية قطعةً طولها نحو مايتي ذراع وعرضها نحو مابة وثلاث وثلاثين ذراعًا فقط. وذلك يسع كل ما اجمعهُ في مدة طويلة واذا كثرت المعزى عندي يمكنني ان اوسّعهُ باضافة قطعة او قطع اخرى اليهِ

واذ كان عملي هذا لا يخلو من حكمةٍ اخذت فيهِ بنشاط ورغبة. فصرفت نحو ثلاثة اشهر في تسييج تلك القطعة. وبينما كنت اشتغل فيها كنت اطوّل للاجدية الثلاثة في احسن قسم منها واعوّدها ان ترعى بالقرب مني بقدر الامكان لكي تؤالف. وكنت مرارًا كثيرة اذهب وآتي ببعض سنابل شعير او حفنة ارزّ واطعمها من يدي. حتى انها بعد ان كمل سياجي واطلقتها داخلهُ كانت تتبعني من مكانٍ الى مكانٍ تثغو ماعيةً في اثري طالبةً كمشةً من الحبوب

فجاء ذلك طبق مرغوبي. ثم بعد سنة ونصف تقريبًا صار عندي قطيعٌ نحو اثني عشر راسًا من الجداء وغيرها. ثم بعد ذلك بسنتين صار عندي ثلاثة واربعون راسًا وذلك عدا ما كنت قد ذبحتهُ واكلتهُ. ثم سيّجت خمس قطعٍ من الارض في اماكن مختلفة لارعاها فيها وجعلت فيها صِيَرًا صغيرةً كنت ازربها فيها واخرجها منها متى شئت. وفتحت ابوابًا بين تلك القطع تؤدّي من الواحدة الى الاخرى تسهيلًا لأخذها

ولم يكن عندي حينئذٍ لحم معزى فقط اغتذي بهِ متى شئت بل صار عندي حليب ايضًا. فان الدرّ لم افتكر فيهِ في الابتداء ولا كان يخطر ببالي. فلما خطر ببالي كدت اطير فرحًا بهِ. فاخذت حينئذٍ احلب المعزى فكان يوجد عندي كل يومٍ كمية وافرة من الحليب. وكما ان الطبيعة التي تعطي كلّ خليقة ما يكفيها من الغذاء ترشدها طبعًا الى طريقة استعمالهِ هكذا كان الحال بالنظر اليّ. فانّي كنت لم احلب قطُّ عنزةً ولا بقرةً ولا رايت قطُّ احدًا يصطنع جبنًا او سمنًا الاَّ في ايام

صباءي فقط ولكن بعد امتحانات كثيرة تيسّر لي اخيرًا عمل جبنٍ وسمنٍ وملحٍ ايضًا . الأ اني كنت اجد الملح على بعض صخور في البحر مطبوخًا قليلاً بواسطة حرارة الشمس فكنت اجمعهُ واصلحهُ على النار ولم يَعُد ينقطع من عندي في ما بعد . فما أقدرَ الباريَ تعالى على معاملة خلائقهِ بالرحمة حتى في الاحوال التي يكونون فيها كأنهم محاطون بالهلاك من كل جهةٍ . وكيف يقدر سبحانهُ ان يجعل امرّ اعمال عنايتهِ حلوًا ويحملنا على ان نحمدهُ على السجون والحبوس ايضًا . فما افخر المائدة التي هُيِّئت لي هناك في بريّة لم أرَ فيها شيئًا في اول امري الأ ان اهلك جوعًا

ومن كان يستطيع ان يضبط نفسهُ عن الضحك لو رآني وعايلتي الصغيرة نجلس على الطعام . فانهُ كان هناك جلالتي انا والي الجزيرة باسرها وملكها صاحب السلطان المطلق على حيوة جميع رعاياي اشنق من اشاَء واعفو عمّن اشاَء واطلق واستاسر من اريد ولم يكن بين جميع تبعتي من يعصاني . ومن كان يقدر ان براني اتغذى نظير ملك وحدي والانصار والحشم حواليّ من كل جانب ولا يُغرِب في الضحك . ولم يكن ماذونًا لاحدٍ من اولئك الجلساَء ان يكلّمني الأ فُول وحدهُ فانهُ كان ينادمني كأنهُ اعظم المقرَّبين عندي . فاما كلبي الذي كان قد شاخ جدًّا وخرف ولم يخلّف نسلاً فكان دائمًا يجلس عن يميني عند الاكل . وكانت عندي قطّتان كانتا تجلسان دائمًا معي الواحدة على الجانب الواحد والاخرى على الجانب الآخر من المائدة تموّان منتظرتين مرةً بعد اخرى كسرة خبز او لقمةً من يدي على راس الفركينة علامة الرضى عنهما

شعرٌ

فَهْوَ الامير ولا امر يُطاعُ بهِ   مثلُ العروضِ لهُ بحرٌ بلاَ ماَءَ

وكانت تانك القطّتان غير القطّتين اللتين اتيت بهما معي من المركب لان تينك كانتا قد ماتتا ودفنتهما بيدي في جوار منزلي . الأ انهما كانتا من نسلهما . وكان لهما اولاد كثيرة لم اعرف ماذا كان جنس ابيها . وكنت قد ربّيت هاتين منهما وابقيتهما عندي . اما البقية فانها هربت الى الاحراش وصارت بريّة وكانت

تزعجني كثيرًا اذ كانت تاتي مرارًا الى منزلي وتسرق او تخطف ما تجدهُ من
الماكولات. فاضطرَّني الامر اخيرًا ان ارميها بالرصاص واقتل كثيرًا منها حتى
تركتني. وهكذا كنت اعيش محفوفًا بتلك الانصار والحشم والخيرات والنعم حتى
انهُ لم يكن يصحُّ القول انهُ لا ينقصني الاَّ الجُلَساءَ. ولكنني كنت بعد ذلك بقليل في
خطرٍ من ان يكون لي جُلَساءَ اكثر من مرغوبي كما سترى

وكنت كما ذكرت قبلاً متشوّقًا الى استعمال قاربي الاَّ اني كنت اكره جدًّا ان
اخاطر ايضًا بنفسي. فكنت اوقاتًا اجلس واتبصَّر في ايجاد طريق لجلبهِ الى القرب
من منزلي واحيانًا اقنع مرتضيًا بان اكون بدونهِ. غير انهُ كانت لي رغبةٌ غريبةٌ في
النزول الى الموضع الذي ذكرت اني في سفرتي الاخيرة صعدت منهُ الى التلّ
لانظر كيف كان الشاطي والتيَّار وارى ماذا ينبغي لي ان اعملهُ. وكانت تلك الرغبة
تزيد كل يومٍ حتى عزمت اخيرًا ان اسافر الى هناك برًّا ماشيًا على حافَّة الشاطي.
وقد فعلت ذلك. ولكن لو اتَّفق ان رجلاً من بلاد الانكليز صادفني في ذلك
السفر ورآني في تلك الحالة لكان خاف جدًّا او ضحك مستغربًا. واذ كنت أَقِف
مرارًا كثيرة لأَنظر كيف كان منظري لم اكن استطيع ان اتمالك نفسي من ان
ابتسم عند ما كنت افتكر بالسفر في لندن او باريس بتلك العدَّة وذلك الملبوس.
فان حسن عندك ان تصوَّر صورتي فصوّرها كما ياتي

اني كنت لابسًا على راسي قبعًا كبيرًا طويلاً عديم النظام مصنوعًا من جلد
المعزى لهُ ذنب من خلف مدلًّى على كتفي لاجل منع حرارة الشمس ونفوذ المطر
الى عنقي. لانهُ لم يكن شيءٌ في تلك الجهات اكثر ضررًا من ان يمسَّ المطر الجلد تحت
الثياب. وكنت لابسًا على بدني صدريةً قصيرةً من جلد المعزى ايضًا يصل ذيلاها
الى وسط الفخذ ولباسًا مفتوحًا عند الركبة عملتهُ من جلد تيسٍ مُسِنٍ كان شعرهُ
طويلاً مدلًّى من كل جانبٍ حتى كان يصل نظير بنطالون الى وسط ساقيَّ. ولم
تكن لي جوارب ولا احذية. الاَّ انني عملت شيئًا لا اكاد اعلم ماذا اسمّيهِ كان اشبه
بلفافة كنت الفُّهُ على ساقيَّ واربطهُ بشرائط من طرفيهِ. وكان منظرهُ كما كان منظر

سائر ملابسي شنيعًا جدًّا

وكنت متمنطقًا بزنّار عريض من جلد المعزى كزنّار مُكارٍ او جمّال كنت اشدّهُ رابطًا طرفيهِ بسيرين من الجلد ايضًا عوض الازرار والعُرَى. وكان معلّقًا بشبه حميلة على جانبي الزنّار مكان السيف منشارٌ صغير على الجانب الواحد وبلطةٌ على الجانب الآخر. وكان لي سيرٌ افلُ عرضًا من الزنّار مشدود في كتفي معلّق في طرفهِ تحت ابطي الايسر جرابان من جلد المعزى احدهما للبارود والآخر للخردق. وكنت حاملاً على ظهري سلّةً وعلى كتفي البارودة وفوق راسي شمسيةً كبيرة شنيعة من جلد المعزى ايضًا الاّ انها كانت مع ذلك اهمّ الاشياءَ التي معي بعد بارودتي. واما وجهي فان لونهُ لم يكن تمامًا كلون وجه حبشيٍّ كما يكون انسانٌ يسكن على مسافة تسع او عشر درجات فقط عن خطّ الاستواءَ ولا يعتني بوجههِ. واما لحيتي فاني كنت قد أرخيتها واطلقت لها العنان حتى صار طولها نحو ثُلُث ذراع ولكن اذ كان عندي كثير من المقارض والمواسي كنت اقصّرها. واما شارباي فاني أرخيتهما حتى صارا طويلين كشوارب بعض العرب الذين رايتهم في الجزائر ولا اقول انهما كانا طويلين بحيث اقدر ان اعلّق برنيطتي بهما بل كان طولها وشكلها على جانب عظيم من الشناعة حتى يصحّ القول ان منظرهما كان يُحسَب في انكلترا من المناظر المرعبة

وقد ذكرت جميع ما ذكرتهُ من هذا القبيل على سبيل الاستطراد. لان منظري كان كيفما كان لا طائل تحتهُ لان الذين يلاحظون ذلك كانوا قليلين جدًّا عندي. ولهذا اقتصر على ما تقدم وارجع الى ما كنت في صددهِ فاقول. اني بتلك الهيئة سافرت سفري الجديد وغبت عن منزلي خمسة او ستة ايام. فسافرت اولاً على شاطئ البحر ذاهبًا باستقامة الى المكان الذي ارسيت اولاً فيهِ قاربي بالقرب من التل الذي صعدت عليهِ قبلاً. واذ لم يكن لي حينئذٍ قاربٌ اهتمّ بهِ ذهبت برًّا في طريق اقرب الى قمّة ذلك التلّ. فلما اشرفت على الراس الذي ذكرتهُ قبلاً ورايت البحر ساكنًا هادئًا ولم أرَ هناك هياجًا ولا حركةً ولا تيّارًا اكثر ممّا يوجد في باقي

الاماكن تعجبت متحيرًا من ذلك التغير ولكن لم اعلم ما هو سببهُ . فعزمت ان اصرف مدة في مراقبتهِ لارى اذا لم يكن ذلك مسببًا عن المدّ . ولم يمضِ الاّ قليلٌ حتى ظهر لي سرُّ ذلك واضحًا وهو ان المدّ الذي كان يبتدئُ من جهة الغرب ويتّصل بمجري مياه نهر كبير ينحدر من البرّ يجب ان يكون سببًا لذلك التيّار وانهُ بقدر قوة هبوب الريح من جهة الغرب او الشمال كان ذلك التيّار يقرب من الشاطي او يبعد عنهُ . لاني اذ اقمت هناك الى المساء صعدت على التلّ ثانيةً واذ كان المدُّ قد انكفأ عند ذلك راجعًا الى الوراء رايت واضحًا هذه المرة ايضًا التيّار كالسابق الاّ انهُ جرى الى مَدًى ابعد حتى صار على مسافة نحو نصف فرسخ عن الشاطي مع انهُ في ذلك السفر بقي بجانب الشاطي وحملني بقاربي بسرعةٍ كما علمت ولو اتّفق الامر في وقت آخر لما فعل ذلك كما لا يخفى

فعلمت من ذلك انهُ ليس عليَّ الاَّ ان اراقب فيض المدّ ورجوعهُ لكي يمكنني ان ادور بسهولةٍ بقاربي حول الجزيرة راجعًا بهِ الى منزلي . الاَّ انني لما ابتدأت افتكر في اجراء ذلك فعلاً احدث فيَّ تذكُّر ما وقعت فيهِ قبلاً ارتعاشًا قويًّا حتى انّي لم أَعُد اقدر ان اطيق الافتكار بهِ . فعزمت على امرٍ آخر كان اقلّ خطرًا وان يكن اكثر تعبًا وهو ان أَبني او بالحري اصطنع قاربًا آخر فيكون عندي قاربان احدهما للجانب الواحد من الجزيرة والآخر للجانب الآخر منها

شعرٌ

اذا لم تستطع شيئًا فَدَعْهُ وجَاوِزْهُ الى ما تستطيعُ

وينبغي ان تعلم انهُ كان لي حينئذٍ مزرعتان في الجزيرة . فالمزرعة الاولى كانت على الشاطي وهي قلعتي الصغيرة او خيمتي المسوَّرة في لحف التلّ والمغارة التي وراءها التي كنت في ذلك الوقت قد كبرّتها وقسمتها الى منازل او مغاير صغيرة مختلفة احداها داخل الاخرى . فكان في احدى تلك المغاير وهي اكبرها وانشفها وذات باب ينفذ خارج سوري او قلعتي اي خارج الموضع الذي يلتقي فيهِ حائط سوري بحضيض التلّ آنيةُ فخّار كبيرة ممّا سبق شرحهُ واربع عشرة او خمس عشرة سلّةً كبيرة تسع

الواحدة من خمسة الى ستة امداد كنت قد أُوعيت فيها مؤُنتي وعلى الخصوص غلّتي بعضها في السنابل وبعضها حبٌّ منقّى كما علمت ذلك قبلاً

واما الاعمدة والاوتاد التي عملت منها السياج فكانت قد عاشت جميعها حتى صارت اشجارًا وكانت حينئذٍ قد كبرت جدًّا وصارت غيضةً ملتفّةً متكاثفةً حتى انهُ لم يكن احد يستطيع ان يرى المنزل وراءها

وبا لقرب من مسكني هذا ولكن ابعد منهُ قليلاً عن البحر كانت قطعتا الارض اللتان كنت احرثهما جيدًا وازرع فيهما بذاري وكانتا تأْتياني بغلّتهما في حينها. الاَّ انهما كانتا ابعد من مسكني عن البحر واقلّ ارتفاعًا منهُ. وكانت لي في جوارهما ارض جيّدة نظيرهما كان يمكنني الزرع فيها اذا احتجت اليها

واما المزرعة الاخرى فكانت في الجبل اوكما يقال في البرّ. وكانت لي هناك عدّة مزروعات وخيمتي الصغيرة التي كنت دائمًا ارتّبها واحترص عليها واحافظ دائمًا على السياج المحيط بها بحيث يكون دائمًا على ارتفاعهِ المعتاد. وكانت السلَّم منصوبةً هناك دائمًا داخل السياج. والاشجار التي لم تكن اولاً الاَّ اوتادًا وكانت قد صارت حينئذٍ قويَّةً جدًّا ومرتفعة كنت دائمًا اربّيها واعتني بها حتى امتدَّت وصارت كغوطة غضَّة ذات ظلٍّ لطيفٍ طبق مرغوبي. وكانت خيمتي مضروبةً في وسط تلك الاشجار ولم تكن الاَّ قطعة قلع منشورةً على اعمدةٍ ركزتها هناك لتلك الغاية. ولم تكن تحتاج الى اصلاح او تجديدٍ. ونصبت في تلك الخيمة سريرًا من جلود الحيوانات ومن اشياءَ أُخَر ناعمة وبسطت عليهِ لحافًا من لحف البحريَّة نظير فراش ووضعت فوق اللحاف كبُوتًا كنت اتغطّى بهِ. فكنت اذا غبت عن مسكني الاصليّ على الشاطي انزل في ذلك المسكن في الجبل

وكان با لقرب من مسكني الجبليّ صِيَرٌ لِما كان عندي من المواشي اي المعزى. واذ كنت قد كابدت اتعابًا لا تُوصَف في تسييج وتصوين تلك الارض كنت احترص عليها واحفظها كاملة خوفًا من ان تفلت منها المعزى. ولهذا لم اتركها الاَّ بعد ان ركزت بتعب جزيل اوتادًا صغيرة متقاربة خارج السياج حتى صار يستحقّ

ان يُسمَّى سورًا لا سياجًا . وكانت الاوتاد قريبة بعضها من بعض حتى انهُ لم يكن يمكن دخول يدٍ بينها . ولهذا لمَّا عاشت تلك الاوتاد في ما بعد في الشتآء كان ذلك السياج قويًّا نظير سور او بالحري اقوى من سورٍ

وذلك يشهد لي اني لم اكن كَسِلاً في استحصال ما كان يظهر لي انهُ ضروريٌّ لراحتي في امر المعيشة . لاني لاحظت ان تربية بعض حيوانات اهليَّة على يدي تكون ذخيرةً حيَّة من اللحم واللبن والسمن والجبن استخدمها ما دمت في الجزيرة ولو بقيت هناك اربعين سنةً وان تيسير ذلك لي متوقف بتمامهِ على تتميم سياجاتي الى درجة تمكّنني من ابقآئها معًا . وقد نلت مرغوبي هذا بواسطة الطريقة التى استنبطتها حتى انهُ لما ابتدأَت تلك الاعمدة الصغيرة تنمو اضطرَّني الامر الى اقتلاع البعض منها لانّي كنت قد غرستها قريبة جدًّا بعضها الى بعض

وكان عندي في ذلك المكان كثير من العنب كنت استند عليهِ على الاكثر في موُّنة الشتآء من الزبيب . وكنت احسب الزبيب من الفخر وألذّ ما كان عندي هناك من الاطعمة . وكان فضلاً عن لذّتهِ نافعًا للصحة وشافيًا ومغذّيًا ومرطّبًا الى الغاية

واذ كان مسكني هذا في اواسط الطريق بين قلعتي والموضع الذي خلّفت فيهِ قاربي كنت غالبًا ابيت فيهِ عند سفري الى ذلك الموضع ذهابًا وايابًا . لاني كنت اتفقّد قاربي مرارًا كثيرة واحافظ عليهِ وعلى ادواتهِ بكل حرصٍ . وكنت اوقاتًا انزل فيهِ لاجل التنزُّه الّا اني لم اكن ابعد اكثر من رمية حجرٍ او رمية رصاصٍ عن الشاطي خوفًا من ان يدفعني بغتةً تيّارٌ او ريح او حادث آخر ذاهبًا بي حيث لا ادري . وكنت قد وصلت حينئذٍ الى مناظر جديدة من حياتي كما سيرد بيانهُ

شعرٌ

رماني الدهرُ بالارزآء حتى ... فوآدي في غشاهُ من نبالِ

فصرتُ اذا اصابتني سهامٌ ... تكسَّرتِ النصالُ على النصالِ

الفصل السابع عشر

خوف روبنصن كروزي من أثر قدم رآهُ بغتةً على الرمل وتحصينهُ قلعتهُ



أثر القدم على الرمل

واتّفق ذات يوم عند الظهر بينما كنت ذاهبًا نحو قاربي اني رايت بغتةً أثَرَ قدم انسان حافٍ على الرمل فدُهِشت متعجبًا من ذلك ووقفت جامدًا كمن اصابتهُ

صاعقة او ابصر خيالاً او كما يُقال جنيَّةً . فتنصتُّ والتفتُّ ذات اليمين وذات اليسار فلم اسمع صوتاً ولا رايت شيئاً . ثم صعدت على رابية لكي اتطلَّع من هناك وكنت اصعد وانزل على الشاطي فلم أرَ شيئاً ولا اثر شيء الاَّ ذلك الرسم . ثم ذهبت اليهِ لارى هل يوجد غيرهُ بالقرب منهُ او هو وهمٌ وتخيُّل مني . فلم أرَ غيرهُ الاَّ انهُ لم يكن محلٌّ للشبهة في كونهِ رسم قدم لان اثر الاصابع والعقب وكل جزء من القدم كان واضحًا جيدًا . ولكن لم اعلم كيف كان ذلك ولا امكنني ان اتصوَّر شيئاً من امرهِ . وبعد تخمينات وافكار كثيرة انثنيت راجعًا الى قلعتي مضطربًا ومنزعجًا جدًّا حتى اني من شدة الخوف والرعب لم أكن اشعر بالارض التي كنت ادوسها . وكنت كلَّما خطوت خطوتين او ثلاث خطوات ألتفت الى خلفي . وكنت اخاف من كل شجرة او صخر اراهُ . وكل شجرةٍ كنت اراها عن بُعدٍ كنت احسبها انسانًا . ولا يمكن وصف الاشباح الكثيرة المختلفة التي كانت مخيَّلتي تصوّر لي الاشياء بها ولا وصف التصوُّرات الموحشة المتنوّعة التي خالجت خاطري وانا ماشٍ في الطريق

فلما وصلت الى قلعتي لاني هكذا كنت ادعو دائمًا منزلي بعد ذلك الوقت وثبت داخلاً اليها كمن يطاردهُ عدوٌّ . ولا اعلم هل دخلت عن السلَّم كما كنت افعل اولاً او من الثقب الذي في الصخر الذي كنت اسميهِ بابًا . ولا كان يمكنني ان اذكر ذلك في غد ذلك اليوم ايضًا لانهُ لم يهرب قطُّ ارنبٌ خائفٍ ولا ثعلبٌ جافلٌ الى وجارهِ باكثر رعبٍ ممَّا اصابني لما هربت تلك المرة

ولم أنَم تلك الليلة قطُّ . وبقدر ما كنت ابعد عن مسبّب خوفي كان احتسابي منهُ اعظم . وذلك ضد طبيعة مثل هذه الاشياء وعلى الخصوص ضد مألوف عادة جميع الخلائق في خوفهم . الاَّ اني اذكنت مرتبكًا ومنزعجًا من تصوراتي المخيفة لم يكن يخامر فكري الاَّ اوهامٌ مكدّرة مع اني كنت حينئذٍ بعيدًا كثيرًا عن ذلك الاثر الذي سبَّب لي تلك المخاوف . وكنت اتصوَّر متوهمًا احيانًا انهُ ينبغي ان يكون ابليس هو الذي فعل ذلك وكان عقلي يوافقني على هذا الوهم لاني كنت اقول كيف يمكن لغير ابليس ان ياتي الى ذلك المكان . وكيف امكن انسانًا واحدًا ان

يصل الى هناك. واين المركب الذي اتى بهِ. واين أثر قدمٍ او اقدامٍ أُخَر. الاَّ انهُ كان يصعب عليَّ احياناً ان اصدّق ان ابليس يتخذ لهُ صورة انسان في مثل ذلك الموضع حيث لا يوجد وجهٌ ولا سببٌ يحملهُ على ذلك الاَّ ترك رسم قدمهِ وذلك من دون غايةٍ ايضاً. لانهُ لم يكن يعلم يقيناً اني اراهُ. وزِدْ على ذلك اني كنت عالماً بان ابليس يمكنهُ ان يجد طرقاً اخرى كثيرة لتخويفي غير تلك الطريقة وهي ترك اثر قدم واحد. واني اذ كنت ساكناً على الجانب الآخر من الجزيرة لا يمكن ان يكون جاهلاً بهذا المقدار حتى يترك رسماً في مكان نسبة نظري اياهُ فيهِ الى عدمهِ كنسبة واحد الى عشرة آلاف. وذلك في الرمل ايضاً حيث كان في خطر عظيم من ان تفيض عليهِ مياه البحر عند اشتداد الريح وتمحوهُ بالكلية. ومن ثمَّ كان بيان ذلك كلهُ منقوضاً باعتبار الشيء في ذاتهِ وباعتبار كل ما نعهدهُ من خبث ابليس ومكرهِ

واذ كانت امور اخر كثيرة تساعد في اقناعي بكون ذلك ليس من عمل ابليس جزمت حالاً بانهُ ينبغي ان يكون عمل حيٍّ اكثر خطراً منهُ. اي انهُ ينبغي ان يكون بعض برابرة من اهالي القارة التي كانت عبر البحر مقابلي قد تاهوا بقواربهم في لجج البحر ودُفِعوا اما بتيَّار او بريح مضادَّةٍ الى الجزيرة وخرجوا الى البرّ ثم انثنوا حالاً راجعين الى البحر. وربما كان ذلك لانهم كرهوا الاقامة في تلك الجزيرة المقفرة كما كنت انا ايضاً اكره اقامتهم فيها

واذ كانت تلك الامور تتردَّد في عقلي شكرت الله في ضميري على حسن حظّي في اني لم اكن في تلك الجهة في ذلك الوقت وعلى انهم لم يروا قاربي. لانهم لو رأوا القارب كانوا استدلُّوا منهُ على وجود سكَّان في الجزيرة وربما كانوا فتَّشوا عليَّ. ثم اخذت افكارٌ هائلة تزعجني من جهة وجودهم القارب واستدلالهم بهِ على وجود سكَّانٍ هناك. واذا صحَّ ذلك فلا بدَّ من انهم سياتون ثانيةً جمهوراً اكبر ويقتلونني ويأكلون لحمي. وانهُ اذا اتفق انهم لا يجدون احداً لا بدَّ من ان يجدوا قلعتي ويتلفوا كلَّ ما كان عندي من المعزى الاهليَّة فاهلك اخيراً من الجوع والعازة

وهكذا كان خوفي ينفي كلَّ رجاءي الدينيّ وكلَّ اتكالي السابق على الله المبنيّ

على اختبارٍ عجيب لجودتهِ كأنَّ ذلك الذي عالني الى ذلك الوقت باعجوبةٍ لا يقدر ان يحفظ بقوّتهِ القوت الذي يسَّرهُ لي بجودةٍ منهُ . وكنت اوبّخ نفسي على كسلي لاني لم ازرع حبوبًا في سنة تكفيني للسنة المقبلة ايضًا كأنهُ لا يمكن حدوث عارض يمنعني من التمتّع بالغلّة الباقية في الحقل ايضًا . وكنت احسب نفسي مصيبًا في ذلك التوبيخ حتى عزمت على ان احصّل في المستقبل سلفًا غلّةً تكفيني سنتين او ثلاثًا حتى اذا حصل عارضٌ مهما كان لا اهلك لعدم وجود الخبز

فما اغرب حيوة الانسان في تقلّباتها بواسطة تدبير العناية الربّانيَّة . وما اعظم اختلاف الاسباب التي تحرّك عواطفنا بحسب اختلاف احوالنا وظروفنا . فاننا نحبُّ اليوم ما سنبغضهُ غدًا . ونطلب اليوم ما نتجنَّبهُ غدًا . ونرغب اليوم في ما نخافهُ ونرتعد احتسابًا منهُ غدًا . وقد تمَّ جميع ذلك فيَّ في ذلك الوقت بطريق موثّرٍ وواضح جدًّا . فاني انا الذي كانت مصيبتي الوحيدة اني كنت في ظاهر الامر منفيًّا من عشرة بني البشر ووحيدًا ومحاطًا بالاوقيانوس الذي لا حدَّ لهُ ومنقطعًا عن البشر ومقضيًّا عليَّ بالعيشة الصامتة وكأنَّ الله نظر انني لا استحق ان أُحصَى في عدد الاحياء او اظهر بين بقية مخلوقاتهِ وكنت احسب ان نظري الى واحدٍ من جنسي بني البشر اقامةٌ لي من الموت الى الحيوة واكبر البركات التي يقدر الله نفسهُ ان يمنحها بعد بركة الخلاص الفائقة كنت في ذلك الوقت ارتجف مرتعدًا من مجرَّد الاحتساب من ان ارى انسانًا . وكنت اكاد اغرق في الارض من علامةٍ او رسمٍ صامتٍ يدلُّ على ان انسانًا ما قد وضع قدمهُ في تلك الجزيرة . فهذه هي حالة العيشة البشرية الكثيرة التغيُّر والتقلُّبات . ولما هدأ روعي وسكن قلقي في ما بعد من تلك الوهلة اخذت افتكر افتكارات عجيبة غريبة . فافتكرت ان تلك العيشة هي التي قضت لي بها عناية الله ذات الحكمة والجودة الغير المتناهيتين واني لا استطيع ان انظر سلفًا ما هي غايات الحكمة الالهية في ذلك جميعهِ ولهذا لم يكن لي حقٌّ ان اقاوم سلطنةُ المطلقة . وذلك لاني اذ كنت خليقتهُ كان لهُ حقٌّ لا ريب فيهِ ان يتسلّط عليَّ ويتصرف بي تصرُّفًا مطلقًا كما يحسن لديهِ . واذ قد اغظتهُ ايضًا كان

لهُ حقٌّ شرعيٌّ ان يحكم عليَّ بالقصاص الذي يرتضي بهِ . واذ كنت قد اخطات اليهِ كان من واجباتي ان احتمل غضبهُ بخضوعٍ . ثم نظرت لدى التأمُّل ان الله الذي هو عادل وقادر على كل شيء ايضاً كما حسن لديهِ ان يقاصّني ويؤدّبني هكذا يقدر ان يتراءَف عليَّ وينقذني . وانهُ اذا لم يحسن لديهِ ان يعاملني هكذا يجب عليَّ مع ذلك ان اسلّم نفسي لارادتهِ تسليمًا كاملاً مطلقًا وان أتّكل عليهِ واصلّي اليهِ واخضع لاحكامهِ وتدبير عنايتهِ الفائقة

فصرفت في هذه الافكار ساعات كثيرة واياماً لا بل اسابيع واشهرًا ايضاً . وقد احدثَتْ فيَّ تلك التأمُّلات تاثيرًا قويًّا يستحقُّ الذكر . فاني في ما كنت ذات يوم صباحًا مضطجعًا في فراشي ومضطربًا جدًّا من الافكار الكثيرة التي انتني من جهة الخطر الذي كنت فيهِ من البرابرة اذا بالكلمات الآتية قد خطرت ببالي وهي أدعُني في يوم حزنك فأُنقذك وتمجّدني . وعند ذلك نهضت من سريري بفرح وخامرَتْ قلبي تعزيةٌ جديدةٌ وارشدني الله وقوَّاني بنعمتهِ ان اصلّي اليهِ بحرارة واطلب منهُ تعالى ان ينقذني حسب وعدهِ . ولما فرغت من الصلوة تناولت الكتاب المقدس وفتحتهُ لاقرأ فيهِ . فكانت الكلمات التي وقع نظري عليها اولاً هي قولهُ تعالى اصطبر للرب يتشدَّد ويتجلَّد قلبك وانتظر الله . ولا يمكنني وصف ما شملني عند ذلك من الحبور والتعزية . فوضعت الكتاب عند ذلك بجانبي ولم يَعُد يخامرني كآبة اقلَّهُ في ذلك الوقت

وبينما كنت في وسط تلك الاضطرابات والاحتسابات والتأمُّلات خطر ببالي في احد الايام ان ذلك ربما كان جميعهُ مجرَّد وهمٍ مني وان ذلك الأثر ربما كان أثر قدمي عند خروجي من قاربي الى البرّ . فسرَّني ذلك قليلاً واخذت اقنع نفسي بان ذلك كلهُ انما هو وهمٌ وبان الاثر هو اثر قدمي لا محالة . واخذت اخاطب نفسي قائلاً أما كان ممكنًا اني اكون قد رجعت من القارب في تلك الطريق كما كنت ذاهبًا فيها اليهِ . وعدا ذلك انهُ لم يكن ممكنًا لي بالكليَّة ان اعلم حقًّا اين دست واين لم أدُس . واذا ظهر في آخر الامر ان ذلك الاثر انما هو اثر

قدمي اكون قد تصرّفت نظير بعض الحمقاء الذين يلفّقون حكايات كاذبة عن الخيالات والجانّ ثم يخافون منها اكثر من الآخرين

فاخذت حينئذٍ اتشجّع واتطلّع الى خارج. وكنت قد بقيت ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ لا اخرج من قلعتي حتى صرت في حاجة عظيمة الى الطعام. لانهُ لم يكن عندي في المنزل الاّ بعض ارغفة شعير. وكنت اعلم ان المعزى ترغب ان تُحلَب لاني كنت احلبها كل يوم مساءً. وكانت المسكينة متالمّة جدًّا من امتلاء وتمزُّق دُرَرها وقد تعطَّل بعضها وكاد حليبها ينشف. واذ شجّعت نفسي بالاعتقاد بان ذلك ليس الاّ رسم احدى قدميَّ وبانهُ يصحُّ القول عني اني اخاف من خيالي ابتدأت اخرج من منزلي. ثم ذهبت الى مسكني الجبلي لكي احلب قطيعي. ولو وُجِد من يرى كيف كنت امشي وانا خائف وكم مرّة كنت التفت الى ورائي وكيف كنت مستعدًّا مرّةً بعد الاخرى ان ارمي سلّتي الى الارض واركض طلبًا للنجاة لظنَّ بي اني متعبٌ من ضميرٍ شريرٍ داخلي او انهُ قد اعتراني موخرًا رعبٌ مفرطٌ او داءُ جنونٍ. وكان الامر في الحقيقة كذلك. ولكن اذ كنت اسير هكذا مدّة يومين او ثلاثة ايام ولم اصادف شيئًا اخذت ازيد جراءةً وابتدأت افتكر انهُ لم يكن شيءٌ في ذلك الاّ تصوُّراتٌ واوهامٌ فارغة. الاّ اني لم أستطع ان اوطّن نفسي على هذا الفكر واقنعها بهِ تمامًا الاّ بعد النزول ثانيةً الى الشاطي لارى اذا كان بين ذلك الاثر وبين قدمي شيءٌ من المشابهة كافٍ لاقناعي بانهُ رسم قدمي. ولكن لمّا وصلت الى الموضع ظهر لي واضحًا انهُ لا يمكن ان اكون قد ذهبت الى تلك الجهة من الشاطي عند ما ربطت قاربي هناك. ثم لمّا قست ذلك الاثر على قدمي وجدتهُ اكبر منها بكثير. فلمّا لاحظت هذين الامرين امتلأ عقلي افكارًا وتصوُّرات جديدة وراجعتني مخاوفي بعزم شديدٍ حتى برد دمي وارتعدت فرائصي وكنت ارتجف كمن يكون في دورٍ من البرد. فانثنيت راجعًا الى البيت معتقدًا بانهُ لا بدَّ من ان يكون انسان او اكثر قد زار تلك البقعة وان الجزيرة مسكونة وانهُ ربّما يدهمني عدوٌّ بغتةً على غفلة مني. وكنت في حيرةٍ عظيمة لا اعلم ماذا اعمل لكي اكون في

امانٍ وطمانينة

ومن عادة الناس عند ما يستولي عليهم الخوف ان يهمُّوا بعمل اشياء مضحكة في الغاية . وذلك لان الخوف يعدمهم الانتفاع من الوسائط التي يقدمها العقل لاجل راحتهم . فاول شيء جال في خاطري هو اولاً ان اهدم كل صِيَري واطلق جميع مواشيَّ الاهليَّة في الاحراش خوفًا من ان يجدها العدوُّ ويتردَّد الى الجزيرة لاجلها او لاجل سلب ما يشبهها . ثانيًا ان اقتلع مزروعاتي من الارزّ والشعير لئلا يجد الاعداء ذلك هناك فيحملهم على التردُّد الى الجزيرة . ثالثًا ان اهدم خيمتي وقلعتي وامحو رسمها لكي لا يروا آثار مسكن فياخذوا في التفتيش على الساكن

فكان ما تقدَّم موضوع تاملاتي في الليلة الاولى بعد رجوعي الى البيت . وذلك عند ما كانت الاحتسابات التي غلبت هكذا على عقلي لم تزل حديثةً وكان راسي لم يزل مملوًّا من الاوهام . وهكذا الاحتساب من الخطر هو اهول جدًّا مما يكون الخطر نفسهُ عند ما يظهر لابصارنا . وقد نجد خوفنا اعظم كثيرًا من الشرّ الذي نخاف منهُ . والذي كان اردأ من ذلك جميعهِ هو اني لم احصل في ذلك القلق كما كنت اومّل على الراحة الناتجة من التسليم لارادة الله كجاري عادتي . وكان منظري كما ظننت نظير منظر شاول الملك الذي كان يتشكَّى ليس فقط من ان الفلسطينيين كانوا عليهِ بل ايضًا من ان الله تركهُ وخذلهُ . لاني حينئذٍ لم استعمل الطرق الواجبة لاجل تسكين قلقي بواسطة الصراخ الى الله عند ضيقتي والاتكال على عنايتهِ تعالى في امر صيانتي ونجاتي . فلو فعلت ذلك لكنت على الاقلّ حصلت على المساعدة اللازمة في ذلك الاضطراب وربما كنت خلصت منهُ باوفر نشاط

فاحييت ذلك الليل كلهُ بالافكار المزعجة الاَّ انني عند الصباح نمت . واذ كنت قد تعبت وضعفتْ همتي من كثرة الافكار استغرقت في النوم . ثم انتبهت براحة وهدو اكثر مما حصلت عليهِ من ذلك في حياتي . فاخذت حينئذٍ اتفكَّر برصانة وامعان نظر . وبعد محاورات مستطيلة بيني وبين نفسي حكمت ان تلك الجزيرة البهجة والكثيرة الخصب والتي كنت قد رايت انها لم تكن بعيدة عن القارَّة الاَّ قليلاً

لم تكن مهجورةً بالكلية من الناس كما كنت اتوهَّم وانهُ اذا كان لا يوجد هناك سكَّان مقيمون دائمًا فيها ربما كان ياتي اليها احيانًا قوارب من البحر إمَّا قصدًا او ربما جبرًا وذلك عند ما تدفعها رياح مضادةٌ بمن فيها الى تلك الجزيرة . واني قد اقمت هناك خمس عشرة سنة ولم اصادف قطُّ شبح او صورة انسانٍ . ومن ثم لاح لي ان البرابرة اذا دُفِعوا اليها احيانًا رغمًا عنهم ربما كانوا يرجعون منها بقدر ما يمكنهم من السرعة كأنهم لم يستحسنوا الاقامة فيها . وان الخطر الوحيد الذي لاح لي انهُ يُخشَى عليَّ منهُ انما كان على الاكثر من جهة نزول قوم منهم بالصدفة والعرض الى البرّ وذلك ممكن كما لا يخفى . ولكن اذا دُفع اولئك الى الجزيرة رغمًا عنهم بكون وجودهم فيها ضد خاطرهم وارادتهم ولهذا لا يقيمون هناك بل يرجعون بكلّ سرعة . وقلَّما كانوا يقيمون ليلةً واحدة على البرّ خوفًا من ان يفقدوا مساعدة المدّ وضوءِ النهار في رجوعهم . وبناءً على ذلك لم يكن عليَّ الآنَ التبصُّر في ملجإٍ امينٍ اتحصَّن فيهِ اذا اتَّفق خروجهم بالصدفة الى البرّ كما تقدَّم

وحينئذٍ اخذت اندم متاسفًا على اني وسَّعت مغارتي حتى انفتح لها بابٌ خارج ملتقى السور والتلّ كما ذكرت قبلاً . ولدى التأمُّل واجادة النظر عزمت على ان اعمل سورًا آخر على شكل نصف دائرة ايضًا بعيدًا عن سوري الاول اي في الموضع الذي غرست فيهِ من مضي نحو اثنتي عشرة سنة صفَّين من الاشجار كما علمت . واذ كانت تلك الاشجار قريبةً جدًا بعضها الى بعض لم تكن تحتاج الآن الى ركز اوتاد قليلةٍ بينها لكي تكون امنع واقوى وهكذا ينتهي سوري سريعًا ويصير لي حينئذٍ سور مضاعف . ومكَّنت سوري الخارجي بقطع من الاخشاب العتيقة واشياءَ أُخَر فصار قويًّا منيعًا . وجعلت في ذلك السور سبعة اثقاب او مَرَامٍ مستديرة على قدر يدي . وجعلت عرض سوري الداخليّ نحو عشر اقدام . فكنت دائمًا اخرج التراب من مغارتي واضعهُ عند اسفلهِ وامشي عليهِ لكي يتلبَّد . واجتهدت ان اضع في المرامي السبع البواريد السبع التي خلصتها من المركب واحتفظت عليها الى ذلك الوقت . ووضعت تلك البواريد على عجلات تجرُّها نظير مدافع حتى كان يمكنني ان اطلقها

جميعها في دقيقتين من الزمان . فصرفت عدة اشهر وقاسيت اتعابًا جزيلة في عمل ذلك السور الاَّ اني لم اشعر قطُّ بطمانينةٍ الاَّ بعد تكميلهِ

فلمَّا فرغت من عمل السور غرست في جميع الارض خارجهُ على مسافة بعيدة من كل جهة اوتادًا او عيدانًا متقاربة بقدر الامكان من شجر يشبه الصفصاف ممَّا وجدتهُ يعيش وينمو بسرعة . وربما كان عدد ما نصبتهُ من ذلك عشرين الفًا تقريبًا . وقد تركت فسحة واسعة بينها وبين السور لكي يكون لي مكان ارى منهُ العدوَّ اذا اقبل ولكي لا يكون لهُ ملجأ في ظلّ الاشجار الصغيرة اذا حاول الدنوَّ من سوري الخارجيّ

وهكذا في مدة سنتين صار عندي غابةٌ مشتبكةٌ ملتفَّةٌ وفي مدة خمس او ست سنين صار عندي امام منزلي حرش ظليلٌ وعاصٍ جدًّا يتعسَّر الاجتياز فيهِ ولا يمكن لاحد من الناس ايًّا كان ان يفتكر انهُ يوجد وراءَهُ شيءٌ وبالاحرى منزلٌ . ولم افتح لتلك الدائرة في السور معبرًا للدخول والخروج بل كنت ادخل واخرج على سلَّمين اصطنعتهما لذلك فكنت اذا رفعت السلَّمين لم يكن انسان يستطيع ان ينزل اليَّ من دون ان يعرض نفسهُ للاذى حتى اذا نزل ايضًا يكون مع ذلك خارج سوري الخارجيّ

وهكذا اخترعت لصيانتي كل ما يمكن للحكمة البشرية اختراعهُ من الوسايط . وسيظهر ممَّا سياتي بيانهُ ان تلك الوسايط لم تكن بجملتها من دون سبب كافٍ وان كنت لم ارَ شيئًا في ذلك الوقت الاَّ ما اراني ايَّاهُ مجرَّد خوفي . واذ كنت مشتغلاً في ذلك لم اكن اغفل عن مصالحي الأُخَر . لاني كنت مهتمًّا جدًّا بقطيعي الصغير من المعزى . فانهُ كان موءُنةً معدَّةً لي في كل وقت وكان قد صار كافيًا لعيالتي من دون كلفة البارود والخردق وكان يوفّر ايضًا عليَّ تعب السعي في صيد الحيوانات البرّيَّة

فبعد امعان النظر والتأمُّل مدةً مستطيلةً لم يخطر ببالي الاَّ طريقان لحفظ ذلك القطيع . احدهما ان اجد مكانًا آخر يصلح لان احفر فيهِ مغارةً تحت الارض

ازربهُ فيها كل ليلة . والآخر ان اقيم سياجًا حول قطعتين او ثلاث قطع من الارض في جهات مختلفة معتزلة بعضها عن بعض تكون مستترة بقدر الامكان ويمكنني ان اضع في كلٍّ منها نحو ستة جداءٍ حتى اذا حصلت داهية على القطيع في الجملة يمكنني ان اربيها بتعب قليل ووقت قصير . ومع ان ذلك يستلزم وقتًا طويلاً وتعبًا جزيلاً لم يكن حسب معرفتي طريق اصلح منهُ للحصول على المرغوب ومن ثمَّ صرفت مدة في التفتيش على القِطَع الاكثر انفرادًا في الجزيرة . فوجدت قطعة منفردة صغيرة رطبة في بقعةٍ منخفضةٍ في وسط احراشٍ مشتبكة حيث كدت اضيع قبلاً بينما كنت راجعًا في تلك الطريق من جهة الجزيرة الشرقية كما ذكرت آنفًا . وكانت جرداء لا شجر فيها مساحتها ثلاثة فدادين واذ كانت محاطةً بالاحراش من كل جهة كانت كأنَّها حظيرة طبيعيةٌ ولم تكن تحتاج تعبًا لجعلها حظيرةً صناعيةً يقارب ما كابدتهُ من الاتعاب في تحصين بقية القِطَع

الفصل الثامن عشر

تدابير روبنصن كروزي واطلاعهُ على ان البرابرة كانوا يتردَّدون الى الجزيرة

فاخذت حالاً اشتغل في تلك القطعة وفي اقلَّ من شهر احطتها بسياجٍ من كل جهة حتى ان قطيعي الذي كان قد صار اهليًّا كان يقيم فيها بامانٍ وطمانينة . ثم نقلت سريعًا اليها عشرًا من الاناث واثنين من الذكور من جداء المعزى . وبينما كنت هناك كنت اشتغل في تكميل السياج حتى صار مكينًا منيعًا كالذي عملتهُ قبلاً باكثر تأنٍّ وصرفت عليهِ وقتًا اكثر . والذي حملني على ذلك انما هو مجرَّد ما خامرني من الاحتساب من جرى اثر تلك القدم . لاني الى ذلك الوقت لم أرَ انسانًا اتى الى الجزيرة . وكنت حينئذٍ قد قضيت سنتين في تلك المخاوف التي جعلت عيشتي اقلَّ راحةً وهناءً من السابق كما لا يخفى عمَّن يعرف عيشة من كان دائمًا ومن دون انقطاع في حالة الخوف من الناس . ويغمُّني ان اقول ان

اضطراب عقلي أثّر تأثيرًا مفرطًا في افكاري الدينيَّة. لان الخوف والاحتساب من الوقوع في ايدي البرابرة والغيلان كانا يؤثّران جدًّا في حاسيَّاتي حتى اني كنت لا اجد نفسي الاَّ نادرًا في حالة مناسبة للالتجاء الى خالقي بالهدو والسكينة والتسليم لارادتهِ كما كنت افعل قبلاً. بل كنت اصلّي الى الله كأنّي واقعٌ في مصيبة عظيمة وانضغاط عقل شديد ومحاطٌ بالاخطار من كل جهة ومنتظرٌ كل ليلةٍ ان أُقتَل وأُبتلَع قبل طلوع الفجر. ويجب ان اشهد اني وجدت بالاختبار ان من كان في حالة السلامة والشكر والمحبة والمودة يكون اكثر استعدادًا للصلوة ممَّن يكون في حالة الخوف والاضطراب. وان من كان في حالة الاضطراب والخوف من الوقوع في مصيبة لا يكون مستعدًّا كما يجب لتكميل واجبات الصلوة الى الله والحصول على تعزية منها اكثر ممَّا يكون مستعدًّا للتوبة من كان على فراش الموت. وذلك لان حالة الاضطراب تؤثّر في العقل كما تؤثّر حالة المرض في الجسم. وتعب العقل يجب بالضرورة ان يوقع صاحبهُ في العجز عن الصلوة بقدر تعب الجسم او اكثر منهُ. وذلك لان الصلوة الى الله هي من اعمال العقل لا من اعمال الجسم. واذ قد علمت ذلك فلنرجع الى ما كنا في صددهِ

فبعد ان احرزت على هذا المنوال قسمًا من موجوداتي الحيَّة القليلة اخذت اجول في الجزيرة مفتّشًا على موضع آخر منفرد لكي أُودِع فيهِ وديعة أخرى. وبينما كنت هائمًا في الجهة الغربية من الجزيرة ومتوغلاً فيها اكثر ممَّا فعلت من حين دخولي اليها تطلّعت نحو البحر فتراءى لي كأنّي كنت ارى قاربًا على ظهر البحر على بعدٍ قاصٍ جدًّا. وكنت قد وجدت نظّارة او نظّارتين في احد صناديق البحرية التي خلصتها من المركب ولكن لم تكن حينئذٍ معي وكان ما نظرتهُ بعيدًا جدًّا حتى اني لم اعلم حقًّا ما هو مع اني لبثت احدّق فيهِ حتى جمدت عيناي ولم يَعُد يمكنني ان انظر ايضًا. ولم اعلم هل كان ذلك قاربًا او شيئًا آخر. ولكنني لما نزلت عن التلّ لم أعُد اراهُ فلم أعُد اسأل عنهُ. الاَّ اني عزمت على ان لا اخرج في ما بعد الاَّ ونظّارتي في جيبي. فبعد ان انحدرت من التلّ الى مكانٍ من الجزيرة لم اذهب قطّ

اليهِ قبلاً قنعت حالاً ان نظر اثر قدم في الجزيرة لم يكن امرًا مستغربًا كما توهمت . واني لو لم أُلقِ بعناية خصوصية على الجانب الذي لم يدخلهُ البرابرة قطّ كنت عرفت بسهولة انهُ لم يكن شيءٌ اكثر وقوعًا من مجيءِ قوارب البرابرة من القارَّة الى تلك الجهة من الجزيرة قاصدين الدخول الى مينا امين عند ما تدفعهم الرياح والامواج الى مَدًى بعيد في البحر. وكذلك اذ كان البرابرة من عادتهم ان يلتقوا معًا ويتحاربوا في قواربهم كانت الفئة الظافرة اذا استاسرت بعضًا من الاعداءِ تاتي بهم الى ذلك الشاطي وبما انهم جميعًا غيلان ياكلون لحوم الناس كانوا كجاري عادتهم القبيحة يذبحونهم ويأكلونهم هناك كما سياتي بيانهُ

فلما هبطت عن التلّ الى الشاطي كما سبق وذلك في الجهة الجنوبيَّة الغربيَّة من الجزيرة ارتبكت الى الغاية ودُهِشت . ولا اقدر ان أَصِف ما اعتراني من الارتعاب والرعشة عند ما رايت الشاطي مغطًّى بجماجم وابدٍ وارجل وعظام اخرى من اجسام بشرية . ولا سيما اذ رايت مكانًا فيهِ آثار نارٍ ضمن دائرةٍ قد حُفِرت في الارض على شكل حلقة كان البرابرة الاشقياءُ يجلسون حسب ظني حولها يتنعَّمون بولائم من اجسام اخوتهم بني البشر

فدُهِشت جدًّا من ذلك المنظر الفظيع ولبثت مدةً غافلاً عمَّا كان عليَّ من الخطر منهم . فان جميع مخاوفي ضاعت بين افكار تلك القساوة الوحشيَّة الجهنميَّة المتجاوزة الحد وفساد الطبيعة البشرية المفرط الذي كنت قد سمعت عنهُ مرارًا كثيرة الاَّ اني لم انظر تاثيرهُ قطُّ نظرًا قريبًا بهذا المقدار. وبالاختصار اني حوَّلت وجهي بكراهةٍ عن ذلك المنظر القبيح وجاشت نفسي وكدت اقع مُغمًى عليَّ واخذت استفرغ استفراغًا مزعجًا . فحصلت على شيء من الراحة بواسطة دفع الطبيعة ما كان يزعجني في معدتي الاَّ اني لم أُطِق الاقامة هناك ولا دقيقةً من الزمان . ومن ثم صعدت على التلّ بقدر ما امكنني من السرعة وانثنيت راجعًا نحو منزلي

فلما ابعدت قليلاً عن ذلك القسم من الجزيرة وقفت مدة منذهلاً مندهشًا . ولما سكن روعي بعد قليلٍ رفعت نظري نحو السماءِ بانشغاف شديد وشكرت الله

بدموع غزيرة على اني اخترت نصيبي في مكانٍ منفرد عن خلائق مهولة كتلك الخلائق وعلى انهُ قد خوَّلني بركات جزيلة في تلك الحالة التي لم ارتضِ بها حتى ان الاشياءَ التي كان يجب عليَّ ان اشكرهُ تعالى لاجلها كانت اكثر من الاشياءَ التي كان يحقُّ لي ان اتذمر عليهِ بسببها. وعلى الخصوص على اني كنت قد حصلت في تلك الحالة التعيسة على تعزيةٍ ناتجةٍ من معرفتهِ ورجاءَ بركاتهِ. وكان ذلك سعادة توازي جميع المصائب التي كابدتها والتي كنت مزمعًا ان اكابدها

فبتلك الحاسيَّات وذلك الشكر ذهبت راجعًا الى قلعتي وصرت اشعر براحة من جهة الامان على نفسي اكثر من السابق. لاني لاحظت ان اولئك الاشقياءَ لم ياتوا قطُّ الى تلك الجزيرة لاجل التفتيش على بعض اشياءَ مما يمكنهم وجودهُ. وربما لم يطلبوا ولا ارادوا شيئًا ولا طمعوا في وجود شيءٍ هناك. ويجب ان يكونوا قد تردَّدوا مرارًا لا محالة الى الجهة المغطَّاة بالاحراش فلم يجدوا شيئًا مما يرغبونهُ. وكان قد مضى عليَّ في تلك الجزيرة ثماني عشرة سنة تقريبًا ولم أرَ فيها ادنى اثر لقدم انسانٍ. وكنت اسلّم انهُ يمكنني ان ابقى ثماني عشرة سنة اخرى من دون ان يعلموا بوجودي هناك ما لم اظهر لهم نفسي ولكن لم يكن لي ادنى رغبة في ذلك لان صالحي انما كان ان ابقى مختبئًا بالتمام في مكاني الاَّ اذا وجدت جنسًا احسن من جنس الغيلان اكشف لهم ذاتي. وكنت اكره جدًّا اولئك البرابرة الاشقياءَ وعادة الناس القبيحة في افتراس واكل بعضهم البعض حتى اني بقيت مدة غائصًا في بحار التفكر ومكتئبًا جدًّا من جرى ذلك. وبقيت داخل دائرتي مدة سنتين بعد ذلك الاكتشاف. وعند ما اقول دائرتي اعني بها مزارعي الثلاث اي قلعتي ومنزلي الجبلي الذي كنت ادعوهُ خيمتي وحظيرتي في الحرش. ولم اكن انظر الى تلك الحظيرة الاَّ نظير مزرب للمعزى. لان النفور الذي حصل عندي من اولئك الاشقياءَ كان قويًّا جدًّا حتى اني كنت اشمئزُّ من نظرهم كما اشمئزُّ من نظر الشيطان نفسهِ. وفي كل تلك المدة لم اذهب لاجل افتقاد قاربي بل ابتدأت بالحري افتكر بعمل قارب آخر. لاني لم اكن اطيق الفكر ان احاول ايضًا الاتيان بالقارب حول الجزيرة الى

موضعي خوفًا من ان اصادف بعض اولئك الاشقياء في البحر. لاني كنت اعلم جيدًا ماذا يكون نصيبي اذا وقعت في ايديهم

الاَّ اني مع تمادي الوقت واعتقادي بانهُ لا يوجد عليَّ خطر من ان يجدوني اخذ يزول شيئًا فشيئًا خوفي منهم وابتدأت اعيش براحة بالٍ وطمانينةٍ كالسابق الاَّ انني كنت اكثر حذرًا وانتباهًا ممَّا مضى لئَلا ينظروني اتفاقًا في وقتٍ ما. وكنت احترز على الخصوص من اطلاق بارودتي لئَلا يتفق عند اطلاقها ان يكون بعضهم في الجزيرة فيسمع صوتها. وكان من حسن سعدي اني كنت قد ربَّيت قطيعًا من المعزى لاجل عيالتي والاستغناء بهِ عن الطواف في الاحراش لاجل صيد المعزى ورميها بالرصاص. وكنت بعد ذلك اصطاد ما اصطادهُ بالفخاخ والاشراك كما كنت افعل قبلاً. واظنُّ اني بقيت مدة سنتين لا اطلق بارودتي. على اني كنت لا اخرج خارج منزلي بدونها. وعدا ذلك اذ كنت قد خلَّصت ثلاث طبنجات من المركب كنت دائمًا احملها جميعًا او اقلهُ اثنتين منها شاكًّا فيها في زنَّاري الذي كان من جلد كما علمت وقد صقلت شاحذًا يطقانًا كبيرًا ممَّا كنت قد خلَّصتهُ من المركب وعملت لهُ سيرًا كنت اعلّقهُ فيهِ. وهكذا كان منظري مهيبًا مفزعًا عند السفر ولاسيما اذا اضفت الى ما سبق من شرح حالي البارودتين ويطقانًا كبيرًا عريضًا معلَّقًا على جانبي بسيرٍ ولكن من دون قراب

فاذ كانت الامور تسري على هذا المنوال مدة من الزمان كان يبان ان حالتي حينئذٍ كانت الاَّ في امورٍ قليلةٍ كحالتي الماضية من جهة الهدو والسكينة. وكانت تلك الامور تُريني اكثر فاكثر كم كانت حالتي بعيدةً عن ان تكون تعيسةً بالنسبة الى احوال اخر كثيرة ممَّا كان ممكنًا ان يكون نصيبي لو شاء الله ان يجعلهُ كذلك. وكانت تجعلني انظر كم يكون التذمُّر قليلاً بين الناس من جرى احوالهم مهما كانت اذا قابلوها بما هو اردأ منها لان ذلك يجعلهم يرتضون بها ويشكرون الله من اجلها بخلاف ما اذا قابلوها بما هو احسن منها لان ذلك من شانهِ ان يزيدهم تشكّيًا وعدم ارتضاء

ومع اني لم اكن في تلك الحالة في احتياج الى اشياء كثيرة في الحقيقة كنت احسب ان المخاوف التي اعترتني من جهة اولئك البرابرة الاشقياء واهتمامي في وقاية نفسي من الوقوع في ايديهم قد ألهتني عن الاهتمام بتدبير ما يلزم لراحتي. وكنت قد تركت مقصدًا جيدًا كنت منصبًا عليهِ انصبابًا مفرطًا وهو عمل بيرا اي ماء الشعير. وكان توخّي ذلك من باب الحماقة. وكنت اوبّخ نفسي مرارًا بسببهِ. لاني وجدت لدى التأمُّل ان عملهُ يقتضي ادوات وموادّ كثيرة ممَّا لا استطاعة لي على وجودهِ او ايجادهِ. فانهُ لم يكن عندي براميل لاجل وضعهِ ولا كانت لي استطاعة على عمل ذلك وكنت قد صرفت اياما واسابيع واشهرًا ايضًا في معالجتهِ ولكن من دون فائدة كما علمت قبلاً ولم يكن عندي من الاجزاء اللازمة لهُ الاَّ الشعير. وذلك لا يكفي وحدهُ كما لا يخفى. ولكن لولا المخاوف والاحتسابات من البرابرة التي كانت تزعجني وتشوّش افكاري كنت مع تعذُّر ما تقدَّم باشرت في عمل ذلك لا محالة وربما كنت نجحت فيهِ كما نجحت في غيرهِ. لاني قلَّما اخذت في شيء بنشاطٍ ثم رجعت عنهُ من دون تتميمهِ. الاَّ ان اهتمامي حينئذٍ كان متَّجهًا الى جهة اخرى. لاني لم اكن اقدر ان افتكر ليلاً ولا نهارًا الاَّ في كيفية التوصُّل الى اهلاك البعض من اولئك المسوخ عند ما يكونون جلوسًا على ولائمهم القاسية الدمويَّة وتخليص من يمكنني ان اخلّصهُ من ايديهم ممَّن ياتون بهِ الى هناك من اسراهم لاجل الفتك بهِ واهلاكهِ. ويحتاج الامر الى كتاب اكبر ممَّا قصدت ان اجعل هذا الكتاب لاجل تدوين جميع الحِيَل والتدابير التي جالت في خاطري لاجل اهلاك اولئك الغيلان او تخويفهم على الاقلّ بحيث يمتنعون عن التردُّد الى ذلك الموضع. الاَّ ان كل تلك الحِيَل والتدابير كانت قاصرة لا يُتوصَّل بها الى المقصود. ولم يكن ممكنًا عمل شيء لنوال المرغوب على اتمّ مرامٍ ما لم اكن انا بنفسي هناك لاجربهُ بيدي. ولكن ماذا يقدر رجل واحد ان يعملهُ بينهم اذا اتّفق ان يوجد عشرون او ثلاثون منهم معًا بمزاريقهم او قسيّهم وسهامهم التي يصيبون بها كما اصيب انا ببارودي

وكان يلوح لي احيانًا ان احفر مطمورةً تحت الموضع الذي كانوا يشعلون فيهِ

نارهم واضع هناك اقتين او اكثر من البارود حتى اذا اشعلوا نارهم يشتعل البارود حالاً ويُهلِك كل ما حولهُ . الاَّ انني لم أُرِد ان اضيع فيهم هذا المقدار من البارود لانهُ لم يبقَ من ذلك عندي الاَّ نحو برميل وكنت لا اعلم يقينًا انهُ يشتعل في وقت يُؤمَّل فيهِ انهُ يدهمهم بغتةً حتى انهُ اذا صحَّ ذلك لا يكون منهُ الاَّ قذف النار الى ما حول آذانهم واخافتهم وذلك لا يكفي لان يحملهم على هجر الموضع . ومن ثم عدلت عن هذا الراي واخذت افتكر ان أَكمِن لهم في مكانٍ مستتر ببواريدي الثلاث المزدوجة مدكوكةً دكًّا محكمًا واطلقها عليهم بينما يكونون في وسط ولائمهم الدمويَّة . ولا بدَّ من اني اقتل او اجرح في كل طلقٍ اثنين او ثلاثة منهم . ثم احمل كارًّا عليهم بطبنجاتي الثلاث وسيفي . ولم اكن اشكُّ اني اقدر ان اقتلهم جميعًا ولو كانوا عشرين نفرًا . فصرفت عدة اسابيع اسلّي نفسي معلّلاً اياها بهذه الآمال . وكان راسي مملوءًا من تلك الافكار حتى اني كنت احلم بها مرارًا . وقد حلمت مرارًا في نومي كأني هاجمٌ على رميهم بالرصاص . وكنت مهتمًا منهمكًا جدًّا في ذلك حتى اني صرفت اياماً كثيرة في التفتيش على اماكن تصلح لان أَكمِن لهم فيها واترصَّدهم كما سبق . وقد ذهبت مرارًا الى نفس الموضع الذي كانوا يتردَّدون اليهِ لانهُ كان قد صار مأنوسًا عندي ولم أَعُد اخاف من منظرهِ . واذ كان راسي مملوءًا من افكار الانتقام وقتل عشرين او ثلاثين منهم كانت كراهتي للموضع ولسماجة اعمال اولئك البرابرة الوحشيَّة الغريبة في ابتلاع بعضهم البعض تزيدني غضبًا ورغبة في اهلاكهم . واخيرًا وجدت مكانًا كنت اقدر بحسب زعمي ان أُقيم فيهِ بامانٍ انتظر هناك قدوم قواربهم . حتى اذا اقبلوا على الشاطئ فقبل ان يخرجوا الى البرّ انتقل خفيةً الى غابةٍ ظليلة في جوار تلك التلة كان في وسطها شجرة كبيرة مجوَّفة كافية لان اختبئ فيها واجلس هناك أُلاحِظ اعمالهم الدمويَّة وعند ما اراهم مجتمعين معًا اوجّه بارودتي توجيهًا محكمًا نحو رؤُوسهم ومن هناك ارميهم بالرصاص فاجرح ثلثة او اربعة منهم في الطلق الاول . فعزمت على ان أَكمِن في ذلك الموضع وهيَّأْت بارودتين وبارودة الصيد المعلومة . فدككت كلاًّ من البارودتين برصاصتين كبيرتين واربع او خمس

رصاصات صغار ودككت بارودة الصيد بحفنةٍ من الخردق الخشن من اكبر ما يوجد. ثم دككت الطبنجتين برصاصٍ واضعاً في كلٍّ منهما نحو اربع رصاصات. واذ كنت في تلك الحالة وكان عندي من البارود ما يكفي لثاني وثالث طلق تأهّبت للسفر

وبعد ان دبّرت اموري على هذا المنوال واجريتها في تخيّلي كنت اذهب كل يوم صباحاً الى راس التلّ الذي كان على مسافة ثلثة اميال او اكثر عن قلعتي لاتطلّع لعلي انظر قوارب في البحر قريبةً من الجزيرة او مقبلةً نحوها. الاّ اني بعد ان صرفت مدة شهرين او ثلثة اشهر في المراقبة من دون انقطاع ولم يظهر شيءٌ في كلّ تلك المدة على الشاطي ولا بالقرب منهُ ولا في الاوقيانوس كلهِ بقدر امتداد نظري ونظّارتي من كل جهةٍ مللت متضجّراً من ذلك العمل المملّ وكففت عنهُ

وكنت في كل المدة التي كنت اذهب فيها الى ذلك التلّ لاجل المراقبة مصرّاً بعنادٍ على عزمي ومستعدّاً دائماً لذلك العمل الفظيع اي قتل عشرين او ثلاثين من البرابرة العراة لاجل عملٍ لم انظر اليهِ في فكري الاّ من حيث جعلهِ فيّ حاسيات غضب ناتجة من كراهتي للعادة الرديّة المضادّة للطبيعة الجارية عند اهالي تلك البلاد الذين يبان ان الله بعنايتهِ وتدبيرهِ بحكمةٍ للعالم قد تركهم من دون مرشدٍ يرشدهم الاّ شهواتهم الرديّة المكروهة. ومن ثمّ أُهمِلوا وبقوا على هذا الحال مدة اجيال يعملون اعمالاً قبيحةً كهذه ويقبلون عاداتٍ فظيعةً لا يمكن ان يكون قد ادخلها بينهم الاّ طبيعةٌ متروكةٌ بالكلية من الله ومحرّكةٌ بفسادٍ جهنّميٍّ. الاّ اني لمّا ابتدأْت املُّ متضجراً كما تقدّم القول من سفر طويل عديم الثمر كنت قد داومتهُ كل يومٍ صباحاً زماناً طويلاً بهذا المقدار وذلك من دون فائدة اخذ رايي في ذلك العمل نفسهِ يتغيّر. وبينما كانت افكاري اكثر هدوءا وسكينة اخذت اتأمّل في ما كنت مزمعاً ان ارتكبهُ قائلاً في نفسي ايُّ سلطان لي ومن انتخبني لان اكون قاضياً ومؤدّباً لاولئك الناس كمذنبين مع ان الله قد استحسن ان يتركهم اجيالاً كثيرة من دون قصاص وسمح ان يبقوا في حالتهم ويكونوا كانهم يجرُون احكامهُ

تعالى بعضهم ضدّ بعضٍ. وما هو ذنب هولاءِ الناس اليَّ واي حقٍ لي ان اتعرَّض للمطالبة بذلك الدم الذي كانوا يسفكونهُ بعضهم من بعض من دون مبالاةٍ. وكنت اجادل نفسي عن هذا الامر مرارًا هكذا من ابن اعرف ما هو حكم الله نفسهِ في هذه المسئلة الخصوصيَّة. فهو موَّكد ان اولئك القوم لم يكونوا يرتكبون ذلك كذنبٍ. ولم يكن ضدَّ ضمائرِ توبخهم ولا ضدَّ معرفة تونّبهم. ولا يعلمون ان ذلك ذنب فيرتكبونهُ افتراءً على عدل الله كما نفعل نحن في جميع الخطايا التي نرتكبها الاَّ ما قلَّ منها. ولا يفتكرون عن قتل اسيرٍ ماخوذ في الحرب انهُ حرام اكثر مما نفتكر نحن عن قتل ثورٍ. وهم يستبيحون اكل لحم الناس كما نستبيح نحن اكل لحم الغنم

فلمَّا امعنت النظر في ذلك قليلاً ظهر لي بالضرورة اني كنت مخطئًا في حكمي فحكمت حينئذٍ ان اولئك البرابرة ليسوا قَتَلَةً بالمعنى الذي حكمت عليهم بهِ قبلاً في ضميري اكثر مما هم باقي الشعوب الذين يقتلون عادةً الاسرى الذين يستاسرونهم في الحرب او الذين مرارًا كثيرة يُعملون السيف في جماهير كاملة من الناس ولا يعفون عنهم وان القوا سلاحهم وسلَّموا. ثم لاح لي ايضًا انهُ وان يكن تصرُّفهم بعضهم نحو بعض وحشيًّا وقاسيًا لم يكن يعنيني في الحقيقة. فانهم لم يذنبوا اليَّ ولا الحقوا بي اذًى. فاذا جرَّبوني او نظرت انهُ ضروريٌّ لاجل وقايتي والمدافعة عن نفسي ان اقع بهم يكون لي حينئذٍ عذر مقبول. الاَّ اني كنت الى ذلك الوقت بعيدًا عنهم وكانوا غير عارفين بي ومن ثمَّ لم يكن لهم نيَّةٌ للتعرُّض لي ولهذا ليس لي حقٌّ ان اتعرَّض لهم. ولو جاز لي ذلك لما كان لومٌ على اهالي سبانيا من جرى اعمالهم البربرية في امركا حيث اهلكوا ملايين كثيرة من اولئك البرابرة الذين مع انهم كانوا وثنيين ومتوحشين وكان لهم عادات ورسوم دمويَّة وحشيَّةٌ كتضحية الناس لاصنامهم كانوا بالنظر الى اهالي سبانيا ابرياء تمامًا. والحال ان امر استئصالهم من البلاد بذكرهُ في هذه الايام الشعوب المسيحية في اوروبا واهالي سبانيا انفسهم بكل كراهة واشمئزاز نظير مذبحة قبيحة وقساوة دموية بربرية مشجوبة من الله والناس. حتى ان اسم اهالي سبانيا صار بسبب ذلك العمل يُحسَب مخيفًا وكريهًا

عند جميع اصحاب الانسانية والشفقة المسيحية في العالم. وكان بلاد سبانيا قد اشتهرت بنوع خصوصي بسبب ذلك العمل بكونها قد احتوت على جنس من الناس عارين من مكارم الاخلاق ومبادي الرقّة او احشآء الرافة نحو المساكين

فوقفت عند هذه الملاحظات وتوقّفت عن العمل واخذت اعدل شيئًا فشيئًا عن قصدي وحكمت باني قد اخطأْت في عزمي على التعرُّض للبرابرة. وبانهُ لم يكن لي حقٌّ ان انعرَّض لهم ما لم يتعرَّضوا هم لي اولاً. وانهُ يجب عليَّ الاجتهاد على قدر طاقتي في تجنُّبهم ومحايدتهم. ولكن اذا اتّفق انهم يجدونني ويتعدَّون عليَّ فاني اعرف حينئِذٍ واجباتي. ثم اخذت احاجُّ نفسي واقنع ذاتي ان ذلك ليس هو الطريق لانقاذ نفسي بل لتطويحها واهلاكها. لاني اذا لم اتحقّق باني اقدر ان اقتل كل من كان منهم حينئِذٍ في الجزيرة وكل من ياتي في ما بعد اليها بحيث لا يفلت منهم من يرجع فيخبر ابنآء بلادهم ماذا اصابهم فياتون اليَّ الوفًا لياخذوا ثار اصحابهم مني اكون قد جلبت على نفسي مصيبةً كان لي حينئِذٍ غنًى عنها. وبعد ملاحظة كل ما تجب ملاحظتهُ حكمت بانهُ لا يجوز ذمّةً ولا يوافق الصالح ان انعرّض بوجهٍ من الوجوه لذلك الامر وبان واجباتي هي ان استعمل كل ما يمكن استعمالهُ من الوسايط للاختبآء عنهم وان لا أَدَع لهم ادنى علامة تجعلهم يظنُّون انهُ يوجد خلايق حيّة في الجزيرة اعني من جنس البشر. وكانت الديانة توافق على هذا الرأْي الناتج عن حكمةٍ. وثبت عندي حينئِذٍ بطرق شتّى اني كنت بالتمام خارج دائرة واجباتي عند اتخاذي ما اتخذتهُ من التدابير الدمويّة لاهلاك اولئك القوم الذين كانوا ابريآء بالنظر اليَّ. واما ذنوبهم بعضهم ضدَّ بعض فهذه لم تكن تعنيني ولا تُطلَب مني. فانها كانت جنسيّةً ولهذا كان يجب عليَّ تركها لعدل الله الذي هو مدبّر الشعوب ويعلم كيف يقاصُّ بعدلٍ الذنوب الجنسيّة بقصاصاتٍ جنسيّةٍ ويُنزِل احكامًا جهاريّةً بالذين يرتكبون ذنوبًا جهاريّةً كما يحسن لديهِ تعالى. وصار ذلك حينئِذٍ واضحًا لديَّ جدًّا حتى انهُ لم يكن شيٌّ يسرُّني اكثر من النظر الى اني لم أُهمِل لافعل شيئًا كنت قد صرت حينئِذٍ ارى سببًا كافيًا لان يحملني على

الاعتقاد باني لو ارتكبتهُ لما كان ذلك خطيئةً اقلَّ ذنبًا من خطيئة القتل عمدًا .
فركعت حينئذٍ منتصبًا على ركبتيَّ وشكرت الله على حفظهِ اياي هكذا من خطية
القتل القبيحة وطلبت منهُ تعالى ان يحميني بعنايتهِ من الوقوع في ايدي البرابرة او
من القاء يديَّ عليهم الَّا عن دعوة سموية أوضح وذلك لاجل المدافعة عن حياتي

شعرٌ

تريدين ادراكَ المعالي رخيصةً ولابدَّ دونَ الشهدِ من إبَرِ النحلِ

الفصل التاسع عشر

وجود روبنصن كروزي مغارة يستظلُّ فيها من البرابرة

فبقيت بعد ذلك مدة سنةٍ في تلك الحالة. وكنت بعيدًا عن الرغبة في
الحصول على فرصة للتعرُّض لاولئك الاشقياء حتى اني في تلك المدة لم اصعد قطُّ
على التلّ لارى هل يوجد احدٌ منهم في تلك الجهات او هل نزل احد منهم الى
البرّ. وذلك خوفًا من ان أُجرِّب بتجديد شيء من حِيَلي ضدَّهم او التحرُّك بواسطة
ما يمكن ظهورهُ بوقتهِ من الاسباب الى الوقوع والفتك بهم. غير اني فعلت هذا
فقط وهو اني ذهبت ونقلت قاربي من مكانهِ الى الطرف الشرقيّ من الجزيرة وهناك
دخلت بهِ الى مغارة صغيرة وجدتها تحت بعض صخورٍ مرتفعة عالمًا انهُ بسبب
التيَّارات لا يجسر البرابرة او اقلَّهُ لا يرغبون ان ياتوا بقواربهم الى هناك لاجل ايَّة
علَّة كانت. ونقلت مع قاربي كل ما كنت قد تركتهُ هناك ممَّا يختصُّ بهِ وان لم يكن
ضروريًّا لنقلهِ الى تلك المغارة. وذلك كالساري والقلع اللذين عملتهما لهُ واداة
تشبه الأنجر اي المرساة. ولكن في الحقيقة لا تجوز تسميتها بذلك وان كانت
احسن ما امكنني عملهُ من المراسي. وكان قصدي في نقل ذلك جميعهِ لكي لا يكون
ادنى سبيل لاكتشاف او ظهورِ قاربٍ او مسكنٍ بشريٍّ في الجزيرة. وعدا ذلك
كنت اختلي مختبئًا بقدر الاستطاعة وقلَّما كنت اخرج من صومعتي الَّا لاجل اشغالي

الاعتيادية. وذلك لحلب عنزاتي والاهتمام بقطيعي الصغير الذي كان في وسط الاحراش. واذ كان ذلك في الجهة الاخرى من الجزيرة كان بعيدًا عن الخطر. لان اولئك البرابرة الذين كانوا يتردّدون احيانًا الى الجزيرة لم يتصوّروا قطّ انهم يجدون فيها شيئًا ومن ثَمَّ لم يكونوا يبعدون عن الشاطي متوغّلين فيها. ولست اشكّ في انهم اتوا مرارًا الى الشاطي بعد ان صرت على حذرٍ منهم كما كانوا ياتون قبلاً. وكنت انظر بالارتعاش الى الحالة التي كنت لا محالة وصلت اليها لو اتّفق انهم صادفوني عند ما كنت اطوف جائلاً في الجزيرة من مكان الى مكان افتّش باحثًا على ما يوجد فيها وانا عريان وغير متسلّح الّا ببارودةٍ واحدةٍ كانت غالبًا مدكوكة بخردق فقط. وماذا كانت حالتي لو كنت عند وجودي اثر القدم قد صادفت عوض ذلك خمسة عشر او عشرين من البرابرة ورايتهم يسعون ركضًا في اثري طالبين قتلي وليس لي سبيل الى ان انجو منهم. وكان مجرّد الافتكار في ذلك يجعل قلبي يغور غائصًا في جوفي ويزعجني جدًّا حتى اني كنت ابقى مدةً مستطيلةً لا استطيع ان ادفع هذا الفكر ولا اتخلّص منهُ وهو ماذا كنت اعمل لو اصابني ذلك وكيف كنت لا اقدر ان ادفعهم ولا يكون عندي وعيٌ لاعمل ما كان يمكنني ان اعملهُ لو كنت صاحيًا حتى اني في هذا الوقت بعد كل ذلك التفكر والاستعداد ماذا كنت اقدر ان اعملهُ لو دهموني بغتةً. وبعد التامُّل برصانة في تلك الامور وتحقيق النظر فيها كانت تعتريني كآبة كانت تستمرُّ احيانًا مدةً طويلةً. غير اني كنت اخيرًا احوّل ذلك جميعهُ الى تأدية الشكر للعناية الالهية على تخليصها ايّاي من مخاطر كثيرة غير منظورة وحفظها ايّاي من مهالك هائلة لم يكن لي ادنى قدرة على تخليص ذاتي منها ولا كان لي اقلُّ فكرٍ في وجودها او على الاقلّ اقلُّ احتسابٍ من امكان وقوعها. فذكّرني ذلك بقضيةٍ كانت تخطر مرارًا ببالي في السابق عند ما ابتدأت اولاً انظر الى اعمال العناية الالهيّة ورحمة الله نحونا عند وقوعنا في اخطار هذه الحيوة وهي كيف انهُ عند ما نقع في مشكل كالشكّ او التردُّد في السلوك في هذا الطريق او ذاك مثلاً يوجد محرّكٌ سرّيٌّ يحرّكنا الى السلوك في هذا الطريق مع اننا

نميل الى السلوك في ذاك. حتى انهُ عند ما تدعونا حاسيّاتنا وميلنا وربما اشغالنا نادبةً ايّانا الى طريق ما قد يوجد محرّكٌ او منبهٌ سرّيٌّ لا نعلم من اين هو ولا بايّة قوّة يصدر يوءثر في عقولنا تاثيرًا عجيبًا ويدعونا نادبًا ايّانا الى طريق آخر. ثم يظهر في ما بعد اننا لو سلكنا في الطريق التي كنا مائلين اليها كنا تلفنا وهلكنا لا محالة.

وبناءً على هذه الملاحظات وملاحظات أُخر كثيرة تشبهها اتخذت في ما بعد نظير دستور لعملي القاعدة الآتية وهي انني متى شعرت بمنبّهٍ سرّيّ لعمل شيء يخطر لي او لعدم عملِهِ او للسلوك في هذه الطريق او تلك اتبع دائمًا ذلك المنبّه السرّيّ وان كنت لا اعلم سببًا لاتباعهِ الاّ وجودهُ في عقلي او الالهام بهِ. ويمكنني ان اورد امثلة كثيرة تبرهن نجاحي في تصرُّفاتي من اتباع هذه القاعدة وعلى الخصوص في المدة الاخيرة من اقامتي في تلك الجزيرة. وسيزيد ذلك وضوحًا في سياق هذه القصّة

واظنُّ ان القارئ عند ما أَعترف لهُ ان تلك الاضطرابات والمخاطر المتواصلة التي كنت فيها والهموم التي كانت عليَّ حالت دون كلّ الاختراعات والتدابير التي كنت عملتها لاجل راحتي وقضاء حاجاتي في المستقبل لا يستغرب ذلك. لان همّي حينئذٍ انما كان بسلامتي اكثر من عيالتي. وكنت حينئذٍ لا اتجاسر ان ادقّ مسمارًا او اقطع عصًا لئلا يُسمَع صوت ذلك العمل. ولا كنت اطلق بارودتي لاجل السبب نفسهِ. حتى ان اشعال النار كان يزعجني جدًّا. لانني كنت اخاف من ان الدخان الذي يُرَى عن بُعْدٍ بعيدٍ نهارًا يكون واسطةً لكشف موضعي. ومن ثَمَّ نقلت ما يحتاج الى نارٍ من اشغالي كشيّ القدور وآلات التبغ وهلمَّ جرًّا الى منزلي الجديد في الاحراش حيث وجدت بعد ان اقمت هناك مدةً مغارةً طبيعيةً في الارض ممتدّةً جدًّا حتى انهُ اذا وصل احد البرابرة الى بابها لا يتجرأُ على ظني ان يدخل اليها ولا يتجاسر على ذلك انسانٌ آخرَ الاّ من كان مثلي لا يطلب شيئًا بقدر طلبهِ ملجأً امينًا. ولا حاجة الى شرح ما حصل عندي من الفرح عند ما وجدت تلك المغارة

وكان باب تلك المغارة مستحكمًا تحت صخرٍ كبيرٍ حيث كنت بطريق الصدفة او بالحري بتدبير العناية الالهيّة اقطع حطبًا لاجل عمل فحمٍ. واعلم ان السبب

الذي حملني على عمل ذلك الفحم هو اني كنت اخاف من ان أُشعِل نارًا بالقرب من منزلي لما ذكرتهُ قبلاً. واذ كنت لا اقدر ان اسكن هناك من دون نارٍ لخبز خبزي وطبخ طعامي اضطرَّني الامر الى ان احرق هناك حطبًا في مشجرة كما يفعلون في بلاد الانكليز واعمل منهُ فحمًا ثم انقلهُ الى منزلي واستخدمهُ عوض الحطب لانهُ لا يدخّن. واذ قد علمت ذلك نرجع الى ما كنا في صددهِ. وبينما كنت اقطع حطبًا هناك رايت انهُ يوجد ورآء تلك الاشجار الظليلة مكانٌ مجوَّفٌ فاردت ان اعرف ماذا كان ذلك. فلما دخلت بابهُ وذلك بصعوبةٍ وجدت انهُ كبير اي كافٍ لان اقف فيهِ منتصبًا وربما كان يسع انسانًا آخر معي. ولكن يجب ان اقرَّ لك اني خرجت منهُ باكثر عجلة ممَّا دخلت اليهِ. وذلك لاني عند ما اطلقت نظري الى داخل وكان ظلمة سودآء رايت عينين كبيرتين تبرقان ولم اعلم هل كانتا عينَيْ شيطان او عينَيْ انسان. وكانتا ترفّان لامعتين كانهما كوكبان اذ كان النور الضعيف المنبعث من باب المغارة يمتدُّ على خطٍّ مستقيم الى داخل ثم ينعكس راجعًا الى خارج. الاَّ اني بعد ان وقفت قليلاً سكن روعي وابتدأْت ادعو نفسي الف مجنون وافتكر ان الذي يخاف ان يرى الشيطان لا يليق ان يسكن عشرين سنة في جزيرةٍ منفردًا وحدهُ وانهُ يسوغ لي ان احسب انهُ لا يوجد شيءٌ في الجزيرة اكثر اخافةً مني. وعند ذلك تشجَّعت واخذت مشعلاً ووثبت هاجمًا الى داخل والمشعل يلتهب بيدي. ولم انقدَّم اكثر من ثلاث خطوات حتى اعتراني خوفٌ كالسابق تقريبًا لاني سمعت انينًا قويًّا جدًّا كأَنين انسان في المٍ شديد كان يتبعهُ صوتٌ مقطَّع نظير كلمات يُنطَق بنصفها ثم يتبع الصوت انينٌ عميقٌ ايضًا. فاجفلت راجعًا الى الورآء وقد اعتراني ارتعاش شديد حتى عرقت عرقًا باردًا. ولو كان على راسي برنيطة لكان انتفاش شعري من الخوف رفعها دافعًا ايَّاها عنهُ. الاَّ اني سكّنت قلبي بقدر استطاعتي واخذت اشجّع نفسي قليلاً بهذا الفكر وهو ان الله موجودٌ بقوَّتهِ وحاضرٌ في كل مكان وانهُ قادرٌ ان يحفظني. ثم تقدَّمت ايضًا الى ما قدام وبواسطة نور المشعل الذي كنت رافعًا اياهُ قليلاً فوق راسي رايت تيس معزى هائل المنظر منطرحًا

على الارض قد اشرف على الموت من شدَّة الكِبَر وكأنهُ كان يكتب وصيتهُ .
فحرَّكتهُ قليلاً لارى اذا كنت اقدر ان اخرجهُ خارجًا . فاحتفز المسكين منهيئًا للقيام
الَّا انهُ عجز عنهُ . ثم جال في خاطري ان اتركهُ مضطجعًا هناك لانهُ كما اخافني يخيف
لا محالة من تجاسر من البرابرة ان يدخل الى هناك وهو باقٍ في الحيوة

ثم بعد قليلٍ سكن روعي فاخذت انظر الى ما حولي فوجدت ان المغارة
انما كانت صغيرة جدًّا اي ربما كان طولها نحو اثنتي عشرة قدمًا الَّا انهُ لم يكن لها هيئة
مخصوصة . فلم تكن مدوَّرة ولا مربَّعة . اذ كانت لم تشتغل قطُّ يدٌ في عملها الَّا يد
الطبيعة فقط . ورايت ايضًا انهُ يوجد مكان في اقصاها ممتدٌّ الى داخل الَّا انهُ كان
واطيًا جدًّا حتى كان يلزمني ان احبو مدبدبًا على يديَّ وركبتيَّ لكي يمكنني الدخول
اليهِ . واذ لم يكن معي شمعة لم احاول ذلك حينئذٍ بل رجعت عنهُ عازمًا على ان
ارجع اليهِ في اليوم القادم وآخذ معي شمعًا وزنادًا وصوَّانة وصوفانة في علبةٍ كنت
قد عملتها من قندق احدى البواريد وقليلاً من فحم الصفصاف في كانون

ثم في غد ذلك اليوم اتيت ومعي خمس شمعات كبار ممَّا كنت قد سكبتهُ بيدي .
وكنت حينئذٍ اعمل شمعًا فاخرًا من شحم المعزى الَّا اني قاسيت صعوباتٍ كثيرة في
عمل فتائل لذلك اذ كنت استعمل احيانًا خرقًا او كتيتًا من الحبال واحيانًا القشر
الداخلي من بعض نباتات تشبه القرَّيص . ودخلت ذلك الموضع الواطي مدبدبًا
على الاربع كما سبق القول مسافة خمس عشرة ذراعًا . وكان ذلك مخاطرة وجسارة
اذا اعتبرنا اني لم اكن اعلم مقدار امتداد الموضع ولا ما يوجد داخلهُ . فلما قطعت
المضيق وجدت ان ارتفاع السقف هناك كان نحو عشرين قدمًا حسب ظنّي . الَّا
انهُ يمكنني ان اقول انهُ لم يُرَ قطُّ في الجزيرة كلها منظر مجيد كمنظر حيطان وسقف
تلك القبة او المغارة . انهُ كان ينعكس اليَّ عن الحائط من نور الشمعتين الموقدتين
بيدي آلافٌ من الاشعة . ولم اكن اعلم ماذا كان في الصخر اماسٌ ام حجارة اخرى
كريمة ام بالحري ذهبٌ كما ترجَّح الظنُّ عندي . فكان الموضع الذي كنت فيهِ ابهج
مغارة او كهف الَّا انهُ كان مظلمًا الى الغاية . وكانت ارضهُ ناشفة ومطمئنَّة ومغطَّاة

بحصًى صغيرة محلولة حتى انهُ لم يكن فيهِ هوامّ كريهة ولا دبيب مسمّ ولا كانت رطوبة ولا تبلُّل في الحيطان ولا في السقف. وكانت الصعوبة الوحيدة من جهة ضيق مدخلهِ. الأَّ انهُ اذ كان محلَّ امانٍ ومهربًا مستترًا كان ملائمًا للمقصود. ومن ثَمَّ فرحت مبتهجًا بهذا الاكتشاف وعزمت ان آتي من دون ابطاءٍ ببعض ما كنت اكثر خوفًا عليهِ الى ذلك المكان. وعلى الخصوص ما بقي عندي من البارود وما كان يمكنني الاستغناءَ عنهُ من الاسلحة وهو بارودتان للصيد لان جملة ما كان عندي منها ثلاث وثلاث بواريد مزدوجة وجملة ما كان عندي من ذلك ثماني قطع. وهكذا بقي عندي في القلعة ثماني بواريد فقط كانت مركَّبة على عجلات معدة نظير مدافع وموضوعة على سوري الخارجيّ. وكان يمكنني متى شئت ان انقلها من هناك بالسرعة. وبينما كنت مشتغلاً في نقل ذخيرتي فتحت اتفاقًا برميل البارود الذي اخرجتهُ من البحر وكان مبللاً فوجدت ان الملح كان قد نفذ في البارود مقدار قيراطين او ثلاثة قراريط فقط من كل جانب وجفَّفهُ وجعلهُ نظير كعكة مستديرة صلبة وبهذه الواسطة حُفِظ ما كان داخلها من البارود الذي لم يتبلَّل وكان نحو اثنتي عشرة اقة كما يُحفَظ النوى في غلافهِ. وكان ذلك ذا قيمة كبيرة عندي فنقلتهُ الى هناك. ولم اكن أُبقِي في قلعتي من البارود اكثر من اقة خوفًا من ان يدهمني داهم مفاجئًا اياي. ونقلت ايضًا كل ما وفَّرتهُ من صفائح الرصاص لعمل الخردق والرصاص

وكنت حينئذٍ انظر الى نفسي كاحد الجبابرة القدماءَ الذين قيل عنهم انهم كانوا يسكنون في الكهوف وشقوق الصخور حيث لا يقدر احد على الوصول اليهم. لاني ايقنت في نفسي وانا هناك انهُ اذا فتَّش عليَّ خمسماية من البرابرة لا يمكنهم ان يجدوني. واذا اتفق انهم يجدونني لا يتجاسرون على الهجوم عليَّ في ذلك الموضع. والتيس الذي وجدتهُ في حالة النزاع مات في فم المغارة في غد اليوم الذي وجدتهُ فيهِ. ووجدت انهُ اسهل كثيرًا عليَّ ان احتفر حفيرة بجانب مكانهِ وارميهُ فيها واطمرهُ بالتراب من ان اجرَّهُ ساحبًا اياهُ الى خارج. وهكذا دفنتهُ هناك لكي اريح

منخريَّ من رائحتهِ الكريهة

وكنت قد دخلت حينئذٍ في السنة الثالثة والعشرين من سكناي في تلك الجزيرة وكان الموضع وطريقة المعيشة قد صارا يلايمان مزاجي حتى اني لوكنت خالصًا من المخاوف والاحتسابات من دهمات البرابرة كنت قنعت مرتضيًا بصرف باقي مدَّتي هناك الى آخر دقيقة اي الى ان امدَّد واموت في تلك المغارة نظير ذلك التيس المُسِنّ. وصرت اتشاغل ببعض ملاهٍ وكان عندي بعض اشياءَ اتسلَّى بها حتى كنت اصرف اوقاتي باكثر حظٍّ ولذَّةٍ من السابق. لاني علَّمت ببغالي التكلُّم كما ذكرت قبلاً فاتقن ذلك وكان يتكلَّم بكل وضوح ويحسن اللفظ جيدًا حتى كنت التذُّ بمسامرتهِ لاني اظنُّ انهُ لم يتعلَّم قطُّ طائرٌ التكلُّم باكثر وضوح منهُ. وقد عاش عندي ستًّا وعشرين سنة ولا اعلم كم عاش بعد ذلك. الاَّ اني اعلم ان الناس في برازيل يقولون ان طائر الببغال يعمّر ماية سنة. وكان حيوة كلبي رفيقًا انيسًا وصديقًا ودودًا نحوي مدة ست عشرة سنة من الزمان وبقي عندي حتى انهكتهُ الشيخوخة ومات من الكِبَر. واما قطاطي فانها تكاثرت جدًّا كما ذكرت حتى التزمت اخيرًا ان اقتل كثيرًا منها لامنعها عن ان تاكلني وناكل كل ما عندي وان اطرد ما بقي منها ولا ادعها تاكل معي حتى صارت جميعها بريةً وأَوَت الى الاحراش الاَّ اثنتين او ثلاثًا منها كانت عزيزة عليَّ فابقيتها اهليَّةً عندي وكنت أُغرِق دائمًا ما تلدهُ وكانت قسمًا من عائلتي. وعدا ما تقدَّم كان دائمًا عندي جديان او ثلاثة جداءَ بيتيَّةٍ كنت اعلّمها ان تاكل من يدي. وكان عندي ايضًا ببغالان كانا يحسنان التكلُّم ويصيحان كلاهما قائلين روبن كروسو ولكن لم يكونا كببغالي الاول ولا اعتنيت بتعليمها وتدليلها كما فعلت بهِ. وكان عندي ايضًا عدة من طيور البحر لم اعلم اسماءَها كنت قد امسكتها عن الشاطي وقصصت اجنحتها فكانت تسكن في الغابة التي غرستها وتبيض وتفقس هناك وكان ذلك يسرُّني كثيرًا. وهكذا ابتدأْت اقنع مرتضيًا بعيشتي الاَّ انها لم تكن تخلو من الكدر بسبب الاحتسابات والمخاوف التي كانت عليَّ من البرابرة كما سبقت الاشارة الى ذلك.

ولكن لم يكن لي مناص من ذلك ولا حيلة في قضآء الله . ويفيد الذين يقرأُون فصّتي هذه ان يستنتجوا منهـا النتيجة الآتية وهي انهُ قد يتّفق مرارًا كثيرة في حياتنا ان نفس الشر الذي نبذل كامل جهدنا في تجنُّبهِ ومحايدتهِ واذا وقعنا فيهِ نجدهُ هائلاً في الغاية قد يكون اوقاتًا كثيرة الواسطة او الباب لنجاتنا ونهوضنا من المصيبة او التجربة التي وقعنا فيها . وكان يمكنني ان أُورِد امثلة كثيرةً في سياق قصّتي هذه الغريبة لاجل اثبات ذلك وعلى الخصوص في حوادث السنين الاخيرة من اقامتي المتوحّدة في تلك الجزيرة

شعرٌ

انَّما الدنيـا فنـآءٌ ليس للدنيا ثبوتْ
انَّما الدنيـا كبيتٍ نسجهُ من عنكبوتْ
ولقد يكفيك منها ايُّها العاقلُ قوتْ
ولعمري عن قليلٍ كلُّ من فيها يموتْ

الفصل العشرون

مجيء البرابرة ثانية الى الجزيرة ورقصهم هناك وانكسار مركب بالقرب من شاطيها

وكان حينئذٍ شهر كانون الاول وذلك من سنتي الثالثة والعشرين كما تقدَّم . وكانت ايام الحصاد عندي . ولهذا كان يلزمني ان اصرف كثيرًا من وقتي خارجًا في الحقل . وبينما كنت ذات يومٍ منطلقًا باكرًا جدًّا اي قبل الفجر الى الحقل رايت بغتةً ضوء نارٍ على الشاطي على مسافة نحو ميلين مني في الجهة التي كنت قد لاحظت ان قومًا من البرابرة قد اتوا اليها كما سبق القول . ولم يكن ذلك على الجانب الآخر من الجزيرة بل كان لسوء حظي على الجانب الذي كنت مقيمًا فيهِ . فدُهِشت منذهلاً من ذلك المنظر ووقفت في غابتي لا اتجاسر ان اخرج منها خوفًا من ان يدهموني . حتى اني كنت هناك ايضـًا غير مطمئنٍ وذلك لاني كنت اخشى

من ان اولئك البرابرة اذا طافوا في الجزيرة ووجدوا زرعي قائمًا او مقطوعًا او شيئًا آخر من اعمالي واصلاحاتي يستدلُّون منه حالًا على وجود سكَّان هناك فلا يكفُّون الى ان يجدوني. واذ انا في تلك الحالة المزعجة انثنيت راجعًا باستقامةٍ الى قلعتي وانزلت السلَّم ورآءي وجعلت منظر ما كان خارجًا موحشًا وطبيعيًّا بقدر استطاعتي

ثم اخذت اتهيَّأ داخل قلعتي للمدافعة. فدككت طبنجاتي وكلَّ بواريدي وكنت اسمّيها مدافعي وكانت موضوعة على سوري الجديد عازمًا على المدافعة عن نفسي الى آخر نسمة من حياتي. ولم اغفل عن تسليم نفسي بيد الله وتسليم اموري لحماية عنايتهِ تعالى والصلوة اليهِ بحرارة ان ينقذني من ايدي البربر. وبقيت في تلك الحالة نحو ساعتين. وكنت ارغب جدًّا ان ياتيني خبرٌ من خارج لانهُ لم يكن عندي جواسيس ارسلهم لياتوني بالاخبار. وبعد ان اقمت ايضًا مدة اتبصَّر في ما ينبغي لي ان اعملهُ فرغ صبري ولم يَعُد يمكنني ان اطيق الجهل بامورهم فنصبت سلَّمي الى جانب التلّ وصعدت على مكانٍ مسطَّحٍ هناك ثم رفعت السلَّم ورآءي ونصبتها ايضًا راكزًا اياها على ذلك المكان المسطَّح وصعدت عليها طالعًا الى راس ذلك التلّ. ثم انتزعت نظَّارتي من جيبي وكنت قد اخذتها معي قصدًا وتمدَّدت مضطجعًا على بطني على الارض واخذت افتّش على الموضع وفي الحال وجدت تسعة من البرابرة العراة جلوسًا حول نار صغيرةٍ اشعلوها لا لكي يصطلوا عليها لعدم الاحتياج الى ذلك لان الهوآء كان حارًّا في الغاية بل لكي يشووا عليها كما ظننت طعامهم من لحم الناس الذين كانوا قد اتوا بهم معهم الى هناك ولا اعلم هل اتوا بهم احيآء او امواتًا

وكان معهم قاربان كانوا قد اجتذبوهما وجرُّوهما الى البرّ. واذ كان حينئذٍ جزرٌ لاح لي انهم كانوا منتظرين المدّ لكي يسافروا راجعين من الجزيرة. وليس هو امرًا سهلًا تصوُّر ما اعتراني من الاضطراب بسبب ذلك المنظر وعلى الخصوص اذ رايتهم قد اتوا الى الجانب الذي كنت فيهِ من الجزيرة وكانوا قريبين مني بهذا المقدار. ولكن لمَّا اعتبرت ان مجيئهم يجب ان يكون دائمًا مع تيَّار المدّ ابتدأت

اشعر في ما بعد باكثر طانينةٍ عالماً انهُ يمكنني ان اخرج خارج قلعتي بامانٍ في كل اوقات فيض المدّ اذا اتفق انهم لم يكونوا على الشاطي قبلهُ . ولدى ملاحظة ذلك ذهبت الى الحقل باكثر طانينةٍ وراحة بالٍ لاجل الحصاد

فكان الامر كما ظننت . فانهُ حالما ابتدأ المدّ ينكفئ راجعاً الى جهة الغرب رايتهم قد ركبوا القاربين واخذوا يقذفون راجعين عن الجزيرة . ومما يجب ذكرهُ انهم قبل انصرافهم بساعة او اكثر كانوا يرقصون وكنت ارى جيداً بواسطة نظارتي حركاتهم واشاراتهم في الرقص . وكانوا عراةً بالكلية كما خلقهم ربهم الاّ اني لم أستطع ان اميّز هل كانوا رجالاً او نساءً

ثم حالما رايتهم قد ركبوا قواربهم وانصرفوا اخذت بارودتين على كتفي وطبنجتين في زناري وتقلّدت على جنبي بيطقاني الكبير من دون غمدٍ وذهبت بقدر ما يمكنني من السرعة قاصداً التلّ الذي كشفت منهُ اولاً تردُّدهم الى هناك . واذ لم يكن يمكنني الركض لثقل ما كنت حاملاً اياهُ من السلاح وصلت اليهِ بعد نحو ساعتين من الزمان فرايت انهُ يوجد هناك ثلاثة قوارب اخرى من قوارب البربر ثم لدى بسط النظر رايت انها كانت جميعاً في البحر منصرفة نحو القارَّة . وكان ذلك عندي منظراً هائلاً وعلى الخصوص اذ انحدرت الى الشاطي ورايت آثار الفظايع التي تركتها اعمالهم القبيحة هناك اي الدم والعظام وقِطَع اللحم من بقايا اجسام الناس التي اكلها اولئك المتوحشون بالفرح والطرب . فامتلأت غضباً من جرى ذلك المنظر وابتدأت حينئذٍ في الاستعداد لاهلاك كل من اراهُ منهم ايًّا كانوا ومهما كان عددهم . وقد تاكَّد عندي ان تردُّدهم هكذا الى الجزيرة لم يكن كثيراً لانهُ مضى اكثر من خمسة عشر شهراً ولم ياتِ احد منهم الى ذلك الشاطي . اي اني لم اكن اراهم في كل تلك المدة ولا رايت لهم اثر قدم ولا علامةً اخرى . لانهم كانوا في ايام المطر لا يخرجون الى الخارج او اقلهُ لا يبعدون بهذا المقدار . غير اني كنت كل تلك المدة غير مطمئنٍ في افكاري من جرى الاحتسابات المتواصلة من ان يدهموني بغتةً على حين غفلةٍ مني . ومن ثمَّ ظهر لي ان انتظار

الشرّ أمرّ من الوقوع فيهِ وعلى الخصوص اذا لم يكن باب لدفع ذلك الانتظار او التخلُّص من تلك الاحتسابات

فكنت في تلك الفترة في استعداد تامّ لان ارتكب القتل. وكنت اصرف اكثر ساعاتي في التبصُّر كيف ادهمهم واقع بهم اول مرةٍ اراهم فيها وعلى الخصوص اذا كانوا منقسمين الى قسمين كما كانوا في ذلك الوقت مع انهُ كان يجب صرف تلك الساعات في امورٍ افضل. ولم آكن اعتبر هذا الامر وهو اني اذا قتلت جماعةً منهم اي عشرة انفار او اثني عشر نفرًا مثلًا يجب ان اقتل في اليوم او الاسبوع او الشهر التالي جماعةً اخرى ثم جماعةً اخرى وهكذا الى ما لا يتناهى حتى اكون في الاخير قتّالًا للناس بقدر ما كانوا هم آكالين لحم الناس وربما اكثر كثيرًا

وكنت حينئذٍ اصرف ايامي في اضطراب عظيم وقلق شديد اذ كنت متحققًا اني لا بد من ان اقع في احد الايام في ايدي اولئِك القوم القساة. وكنت اذا ذهبت خارجًا انظر دائِمًا الى ما حولي باعظم حذرٍ واشدّ احتراس. وبان لي حينئذٍ انهُ كان من عظم حظي وسعدي وجود قطيعٍ من المعزى الاهليَّة في حوزتي. لانني لم اكن اتجاسر لاجل ايّ علّة كانت ان اطلق بارودني وعلى الخصوص بالقرب من تلك الجهة من الجزيرة التي كان من عادتهم ان يتردّدوا اليها وذلك لئلّا اخيفهم فيهربوا واذا هربوا مني مدة فلا بدّ من انهم ياتون ثانيةً بعد ايام قليلة مصحوبين بماية او ثلاثماية قارب. وكنت اعلم ماذا يجب ان انتظر اذا فعلوا ذلك. غير اني صرفت سنة وثلاثة اشهر اخرى قبلما رايت ايضًا احدًا من البربر. ثم بعد ذلك صادفتهم كما سياتي بيانهُ بعد قليل. ومن الممكن ان يكونوا قد اتوا الى ذلك الموضع مرةً او مرّتين في تلك الفترة ولكن اما انهم لم يطيلوا المكث هناك او اني انا لم أرهم. غير اني في شهر أيّار على قدر استطاعتي على ضبط الحساب وذلك في سنتي الرابعة والعشرين صادفتهم مصادفةً غريبةً جدًّا كما سيرد بيان ذلك في مكانهِ

وكنت في اضطراب شديد في تلك الفترة وكانت مدتها خمسة عشر او ستة عشر شهرًا ولم اكن ارتاح في نومي بل كنت ارى دائِمًا احلامًا مريعة مزعجة في الغاية.

ففي النهار كانت مصائب عظيمة تغشي فكري وتقلقني وفي الليل كنت ارى مرارًا في الحلم اني آخذ في قتل البرابرة واتصوَّر في نومي الاسباب التي تجيز لي ذلك. ولكن فلنترك ذلك الآن جانبًا الى حين. ففي اواسط شهر ايار اي في اليوم السادس عشر منهُ كما ظهر لي بعد تحقيق النظر في عمود الحساب الخشبيّ الذي كنت الى ذلك الوقت استخدمهُ لهذه الغاية واعتمد عليهِ هبَّت ريحٌ شديدة ثائرةً ذلك النهار كلهُ وكانت مصحوبةً ببروق ورعود عظيمة. ثم تبع ذلك النهار ليلة مظلمة هائلة. ولم اعلم ماذا كان سبب ذلك. وبينما كنت اقرأُ في الكتاب المقدس وافتكر افكارًا مهمَّة عن الحالة التي كنت حينئذٍ فيها اذا صوتٌ ظننت انهُ صوت مدفعٍ أُطلِق في البحر قد طرق اذني فدُهشت دهشةً تختلف تمامًا عمَّا حصل لي قبلاً. وذلك لان الاوهام التي احدثتها في فكري كانت من نوعٍ آخر. فنهضت على الفور وبادرت الى نصب سلَّمي على المكان المسطَّح من التلّ ثم سحبتها وراءِي وصعدت عليها ثانيةً واخذت اعدو الى راس التلّ، وحالما وصلت الى هناك اذا بلميع مدفع ينبّهني ان اصغي الى صوت طلقٍ آخر. ولم يمضِ الأَّ نحو نصف دقيقةٍ حتى سمعت الصوت. وتبيَّن من الصوت ان ذلك كان في جهة البحر التي دُفِعت فيها بقاربي. ففي الحال افتكرت ان ذلك يجب ان يكون من مركب في ضيقة وانهُ ربمَّا يوجد مع ذلك المركب مركب آخر برافقهُ وقد اطلق تلك المدافع علامةً للضيقة وطلبًا للنجدة. وكان عندي وعيٌ في تلك الدقيقة لان افتكر اني اذا كنت انا لا اقدر ان انجدهم يقدرون هم ان ينجدوني. وهكذا قششت جامعًا كل ما وصلَتْ اليهِ يدي من الحطب اليابس والقشّ حتى صار عندي كومة كبيرة فاشعلت فيها النار على راس التلّ. واذ كان الحطب يابسًا ارتفع لهيبهُ متصاعدًا ومع ان الهوآء كان قويًّا جدًّا اشتعل كل ذلك الحطب جيدًا حتى تاكَّد لديَّ انهُ اذا كان هناك مركبٌ يكونون قد رأَوا ناري لا محالة. ولا شكَّ انهم رأَوها لاني سمعت حالما ابتدأَتْ ناري تلتهب طلقًا آخر ثم سمعت بعد ذلك طلقات وكل ذلك من جهة واحدة. وكنت اطعم ناري حطبًا الليل كلهُ الى الفجر. فلما طلع النهار وراق الجوُّ رايت شيئًا على بُعدٍ

قاص في البحر شرقيّ الجزيرة ولم اقدر ان اميّز بواسطة النظّارة هل كان ذلك قلعًا او سواد مركب. وذلك لان المسافة كانت بعيدة جدًّا وكان الجوّ لا يخلو من اغبرار اقلّهُ فوق ظهر البحر

وكنت التفت نحوهُ مرارًا ذلك النهار كلّهُ حتى وجدت بعد قليل انهُ كان لا يتحرّك. فظهر لي عند ذلك انهُ مركبٌ قد القى مرساتهُ. واذ كنت راغبًا جدًّا ان اتاكّد ذلك اخذت بارودتي بيدي وجعلت اركض الى الجهة الجنوبية من الجزيرة الى تلك الصخور التي حملني قبلاً التيّار عندها ذاهبًا بي الى البحر. فلما وصلت الى هناك وكان الجوّ حينئذٍ صافيًا رائقًا رايت واضحًا وذلك بحزنٍ شديدٍ بقايا مركب قد قُذِف ليلاً على تلك الصخور التي كشفتها عند ما سافرت في قاربي وكانت واسطة لنجاتي من اعظم خطر وقعت فيهِ في حياتي كما علمت قبلاً. وهكذا ما يكون سببًا لنجاة شخص قد يكون سببًا لهلاك شخصٍ آخر. لان اولئك القوم ايًّا كانوا اذ كانوا جاهلين المكان وكانت تلك الصخور مغطاةً تمامًا بالماء دُفعوا عليها ليلاً لان الريح كانت تهبُّ نحو شرقيّ الشمال الشرقيّ. فلو راوا الجزيرة لكانوا اجتهدوا في تخليص انفسهم والمجيء الى البرّ في احد قواربهم. ولكنني اظنّ انهم لم يروها ولكن اطلاقهم المدافع طلبًا للنجدة وعلى الخصوص لما رأوا لهيب ناري كما ظننت جعلني افتكر افكارًا كثيرة. فكنت افتكر تارةً انهم لما راوا لهيب ناري نزلوا في قارب وطلبوا البرّ ولكن البحر دفعهم بشدةٍ فلم يقدروا ان يدركوا الشاطي. وتارةً انهم ربما اضاعوا قاربهم قبلاً وذلك بواسطة هجوم الامواج على ظهر المركب وقذفها اياهُ الى البحر او بواسطة القائهِ في البحر بايديهم. وتارةً انهُ كان برافقهم مركبٌ او اكثر فلما اطلقوا مدافع انجدهم ونقلهم اليهِ وانصرف بهم متوغّلاً في البحر. وتارةً انهم نزلوا في قاربهم فحملهم التيّار الذي حملني كما تقدّم وذهب بهم رغمًا الى لجج الاوقيانوس العظيم حيث لا يوجد الاّ الشقاء والهلاك. وانهم ربما كانوا الآن قد اشرفوا على الموت جوعًا وصاروا في حالة تحملهم على الافتكار في ان ياكل بعضهم بعضًا

فكل تلك الافتراضات لم تكن الاّ من باب الظنّ والتخمين. ولم يكن لي

استطاعة في تلك الحالة الاّ ان اقف واتامّل في شقاوة اولئِك القوم المساكين وارثي لحالهم. وقد استفدت مع ذلك من تلك الحادثة فائِدة عظيمة وهي اني زدت شكرًا لله لانهُ رزقني في تلك الحالة الموحشة كل ما أحتاج اليهِ من النعم والبركات وخلّصني وحدي من بين بحرية مركبين قد غرقوا في تلك الجهة من العالم. وقد تعلّمت ايضًا من ذلك انهُ قلّما يُلقينا الله بعنايتهِ في حالةٍ مهما كانت دنيّة او في شقاوةٍ مهما كانت عظيمة ما لم نجد فيها ما يحملنا على ان نؤدّي الشكر بسببها ونرى آخرين في احوال اردأ منها. فهكذا كانت حالة اولئِك القوم الذين لم اقدر ان ارى وجهًا للظنّ بان احدًا منهم قد خلص. ولم يوجد شيءٌ يجعل ارادة وانتظار خلاص البعض منهم موافقًا للصواب الاّ احتمال كونهم قد أُنقِذوا بواسطة مركبٍ آخر مرافقٍ لهم. وقد كان ذلك ايضًا من باب الاحتمال فقط لاني لم أرَ لهُ ادنى علامة ولا اثر. ولا اقدر ان اشرح بواسطة الكلمات مهما كانت قويّة الاشواق والعواطف التي خامرت نفسي عند ما نظرت ذلك المنظر. وكنت احيانًا اتحسّر قائِلاً يا ليت واحدًا او اثنين لا بل واحدًا فقط خلص من ذلك المركب واتى اليّ لكي يكون لي اقلهُ رفيقٌ واحدٌ وعشيرٌ من اخوتي بني البشر يكلّمني واكلّمهُ. وفي كل مدة وحدتي لم اشعر قط برغبة حارّة وشديدة في معاشرة الناس او بتأسّفٍ عميقٍ لفقدي ايّاها بقدر ما شعرت هذه المرة

شعرٌ

والنفسُ راغبةٌ اذا رغّبتَها | واذا تُرَدُّ الى قليلٍ تقنعِ

آخَر

أَلَا إِنَّما الدُّنيا كظلِّ سحابةٍ | أَظَلَّتْكَ يومًا ثُمَّ عنكَ اَضمحلَّتِ
فلا تَكُ فرحانًا بها حينَ أَقبلَتْ | ولا تَكُ جزعانًا بها حينَ وَلَّتِ

الفصل الحادي والعشرون

اخراج روبنصن كروزي اشياء كثيرة من المركب واهتمامهُ بمفارقة الجزيرة وحلمهُ

انهُ يوجد في عواطف الانسان بعض آلات كأنَّها دواليب سرّيّة محرّكة من شانها اذا تحرّكت في طلب مقصد مطموع فيهِ بتصوّرهُ او غير مطموع فيهِ تصوّرهُ لهُ قوة المخيّلة ان تحرّك بقوّتها نفسهُ بعزم شديد نحو ذلك المقصد حتى يكون عدم الحصول عليهِ امرًا مستصعبًا لا يُطاق . فهكذا كانت تلك الرغبة الحارّة في خلاص انسان واحد على الاقلّ . واظنُّ اني كرّرت الف مرةٍ هذه العبارة عسى ان يكون قد سلم واحدٌ على الاقلّ . وكانت رغبتي تتحرّك بواسطة ذلك حتى اني عند ما كنت اتلفّظ بتلك الكلمات كانت كفّاي تنقبضان منكمشتين معًا واصابعي تتشنّج ضاغطةً راحتيَّ حتى انهُ لو وجد في قبضتي شيءٌ ليّن لكان سُحِق فتاتًا رغمًا عني . وكانت اسناني في فمي تصطكُّ صارّةً وتلصق بعضها ببعض بعزم شديد حتى اني كنت ابقى مدة لا استطيع ان افرّق بينها . فليفسّر الطبيعيُّون هذه الامور وليوضحوا اسبابها وكيفيّتها . وكلُّ ما اقولهُ لهم انما هو مجرّد ذكر الحادثة التي تحيّرت منها عند ما اطّلعت عليها وان كنت لا اعلم من اين صدرت . ولا شكَّ انها كانت نتيجة رغبة حارّة وافكار قوية مرتسمة في العقل كانت تشخّص لي اللذة التي تكون لي من معاشرة شخص واحد من اخوتي المسيحيين . الاَّ ان ذلك كان ممّا لا يُطمَع في نوالهِ . وذلك لان نحسهم او نحسي او نحسنا جميعًا كان يجعلهُ من الامور المستحيلة . لاني بقيت الى السنة الاخيرة من اقامتي في تلك الجزيرة لا اعلم هل خلص احد من ذلك المركب او لا . غير اني لاجل زيادة غمّي رايت بعد ذلك بايامٍ جثّة غلام غريق كان البحر قد قذفها الى البرّ عند طرف الجزيرة المقابل لبقايا ذلك المركب . ولم يكن عليهِ ثياب الاَّ صدريةً بحريةً ولباس من كتان مفتوح عند الركبة وقميص زرقاء من كتان ايضًا . ولكن لم يكن عليهِ علامة أستدلُّ منها حتى ولا على سبيل التخمين على جنسهِ او بلادهِ . ولم يكن شيءٌ في جيوبهِ الاَّ قطعتان من الثمانية وآلةٌ لشرب الدخان . وكانت تلك

الآلة عندي اكثر قيمةً من تينك القطعتين بعشر مرات
وكان حينئذٍ هدوٌّ وكنت اميل ميلاً شديدًا الى التوجُّه في قاربي الى ذلك



روبنصن والغلام الغريق

المركب عالمًا باني لا بدَّ من ان اجد فيهِ بعض اشيآء نافعةٍ لي. الَّا ان ذلك لم يكن يحرّكني الى التوجُّه بقدر ما كان يحرّكني اليهِ ما كنت أَرجوهُ من وجود بعضِ

من اهالي المركب احيائه فاخاصهم . لاني كنت عالمًا اني بواسطة تخليص حياتهم اجعل حياتي ذات راحةٍ وسعيدةً الى الغاية . وكان هذا الفكر ملاصقًا لقلبي حتى اني لم استطع ان اهدأ ليلاً ولا نهارًا عن طلب الذهاب في قاربي الى ذلك المركب . واذ استودعت باقي الامور بيد الله كنت افتكر ان تاثير ذلك في عقلي اذ كان شديدًا جدًا ولم تكن ازالتهُ ممكنةً يجب ان يكون صادرًا من جهة غير منظورة حتى اني اخطي ضدّ نفسي اذا لم اتوجّه

وبينما كنت تحت سلطة هذه المحرّكات رجعت مسرعًا الى قلعتي وهيأْت كل ما يلزم لسفرتي . واخذت كميّةً وافرةً من الخبز وجرةً كبيرةً من الماء العذب وحكًا استرشد بهِ وسلَّة زبيب وقنينة روم وكان باقيًا عندي كثير من ذلك وتوجهت بها الى قاربي وبعد ان افرغت الماء منهُ وعوَّمتهُ وضعت ذلك الحمل فيهِ ثم رجعت الى المنزل لاجل الاتيان بغيرهِ ايضًا . وكان حملي الثاني كيسًا كبيرًا من الارزّ والشمسيَّة وجرةً اخرى من الماء العذب اكبر من الاولى ونحو اربعة وعشرين رغيفًا صغيرًا او كعكةً من الشعير وذلك اكثر من الاول وقنينة من حليب المعزى وقالب جبنٍ . فحملت كل هذه بتعبٍ وعرقٍ كثير الى قاربي . وبعد ان صلَّيت الى الله طالبًا منهُ الارشاد والتيسير في سفري اقلعت واخذت اقذف سائرًا في جوار الشاطي حتى وصلت الى اقصى طرف من الجزيرة ممَّا يلي الشمال الشرقيّ . وكان عليَّ حينئذٍ ان ابعد متوغّلاً في الاوقيانوس . فاخذت اتردَّد بين التقدُّم والرجوع . وجعلت انظر الى التيَّارات السريعة التي كانت تجري من دون انقطاع عن جانبَي الجزيرة على بُعدٍ مني . وكان منظرها يخيفني ويريعني لانها كانت تذكّرني الخطر الذي اصابني قبلاً فابتدأ قلبي يخفق وهمَّتي تضعف . لاني رايت اني اذا دُفِعت الى احد تلك التيَّارات يدفعني لا محالة الى مَدًى بعيد في البحر وربما لا يعود لي امكانٌ لان ارجع الى الجزيرة او اراها . واذ كان قاربي صغيرًا خفيفًا كنت في خطرٍ من ان اهلك اذا هبَّت ريحٌ خفيفةٌ

وكانت تلك الافكار تضايقني حتى هممت ان اعدل عن سفرتي . وعند ذلك

ادرت قاربي الى فم نهر صغير على الشاطي وخرجت منهُ وجلست على مرتفع من الارض وكنت غائصاً في بحار التأمُّل والحيرة بين امواج الخوف والرغبة من جهة تلك السفرة. وبينما كنت في تلك الحالة رايت انهُ قد ارتدَّ المدُّ واقبل الفيض ولذلك صار سفري غير ممكنٍ الاَّ بعد ساعات كثيرة. وفي الحال لاح لي ان اصعد على اعلى مكان مرتفع من الارض اراقب اذا تيسَّر لي ذلك كيف تكون حالة المدّ او التيَّارات عند حصول الفيض لارى هل اذا دفعتني التيَّارات من جهة واحدة نحو البحر لا تدفعني ايضاً من جهة اخرى نحو البرّ. وحالما جال هذا الفكر في خاطري وقع نظري على تلَّة صغيرة تُطِلُّ على البحر من الجهتين على قدر المرغوب. فصعدت عليها ونظرت منها واضحًا التيَّارات والطريق التي ينبغي لي ان آخذ فيها عند رجوعي واني اذا بقيت تابعًا في رجوعي الجهة الشمالية من الجزيرة اكون قد احسنت في ما عملت

واذ تنشَّطت متشجّعًا بواسطة ذلك الاكتشاف عزمت على السفر في غد ذلك اليوم صباحًا مع اول المدّ. واذ كنت قد استرحت في قاربي ليلاً تحت ذلك الكبُّوت الكبير المارّ ذكرهُ اقلعت صباحًا. فسرت اولاً قليلاً نحو البحر الى الجهة الشماليَّة الى ان ابتدأت اشعر بفائِدة التيَّار الذي كان متجهًا نحو الشرق وكان يحملني مسرعًا بي الاَّ انهُ لم يستكدّني جاذبًا ايَّاي بعنفٍ كما فعل قبلاً التيَّار الجنوبي حين عجزت عن ان اضبط قاربي وادبّرهُ حسب مرغوبي. واذ كنت اقذف بمجذافي قذفًا شديدًا كنت اسرع في سيري باستقامةٍ نحو المركب حتى اني في اقلّ من ساعتين وصلت اليهِ. وكان منظرهُ محزنًا جدًّا. فانهُ كان كما ظهر لي من بنآئِهِ سبانيًّا او كما يقال اسبانيوليًّا. وكان قد دخل بين صخرين واشتبك بينهما حتى صار معهما كقطعة واحدة. وكان البحر قد كسَّر موخّرهُ وما يليهِ قطعًا قطعًا. واما مقدَّمهُ فكان قد غرز بين الصخور باندفاع شديد. وكان ساريهِ الاوسط وساري المقدَّم قد انكسرا ولم يبقَ منهما الاَّ القليل واما الساري الصغير الذي يلي الموخَّر فكان صحيحًا سالمًا وكذلك الراس والجانبان. ولما دنوت من المركب رايت كلبًا على ظهرهِ وهو

لما رآني مقبلاً اخذ يهرُّ وينبح محرِّكًا ذنبهُ فدعوتهُ فللحال وثب الى البحر واقبل اليَّ فادخلتهُ الى القارب ووجدت انهُ قد قارب الموت من الجوع والعطش فناولتهُ كعكةً من زادي فالتقمها مبتلعـًا اياها نظير ذيبٍ مفترسٍ قد مضى عليهِ نحو اسبوعين في وسط الثلج من دون اكل. ثم قدَّمت لهُ قليلاً من الماء العذب ولو سمحت لهُ ان يشرب كفايتهُ لكان شرب حتى انشقَّ جوفهُ. ثم بعد ذلك طلعت الى المركب واول منظر صادفتهُ رجلان من البحرية كانا قد ماتا غرقًا في مخدع الطبَّاخ عند المقدَّم وكانا متعانقين معًا. فلاح لي وكان ذلك محتملاً انهُ لما غرز المركب في الارض فاذ كان نوءٌ كان البحر يرتفع متعاليًا جدًّا ويطفو من دون انقطاع على المركب مغطيًا اياهُ فاختنق ذانك الرجلان من تواتر هجوم المياه بكثرةٍ عليهما كما لو كانا تحت الماء. ووجدت انهُ لم يبقَ في المركب شيءٌ فيهِ حيوة الاَّ الكلب. ولم أرَ فيهِ شيئـًا من الامتعة الاَّ ما عطَّلتهُ المياه. وكان بعض براميل من المسكرات موضوعةً في خزن المركب ولم اعلم هل كانت خمرًا او عرقًا واذ كانت المياه قد انكشفت عنهـا كنت اراها جيدًا الاَّ انها كانت كبيرة جدًّا لا تُرام ولا يُطمَع في اخراجها. ورايت ايضـًا عدة صناديق ظننت انها من صناديق البحرية. فانزلت اثنين منها الى القارب من دون ان اعلم ماذا كان داخلها. ولو كان موَخَّر المركب سالمًا صحيحًا ومقدَّمهُ فقط مكسَّرًا لكانت سفرتي قُرِنت بتوفيق عظيم. لاني استدللت ممَّا وجدتهُ في ذينك الصندوقين ان المركب كان فيهِ اموال وبضايع كثيرة. ومن ملاحظة الجهة التي كان مقدَّم المركب متجهًا نحوها ظهر لي انهُ كان قادمًا من بونوس ايراس او ربودي لَبْلاتا في القسم الجنوبيّ من امركا عبر برازيل الى هاوانا في خليج مكسيكو وربما من هناك الى سبانيا. ولا شكَّ انهُ كان فيهِ خزينة عظيمة ولكن لم يكن منها نفعٌ لاحدٍ في ذلك الوقت. واما رجال المركب فلم اعلم حينئذٍ يقينًا ماذا اصابهم

وقد وجدت عدا ما تقدَّم برميلاً صغيرًا مملوءًا مسكرًا فنقلتهُ بصعوبة كبيرة الى قاربي. وكان في القمرة عدة بواريد وجراب بارود فيهِ نحو ثماني اواقيّ. اما البواريد فلم التفت اليها لانهُ لم تكن لي بها حاجة. واما جراب البارود فاني اخذتهُ

الى القارب واخذت ايضًا رفشًا وملقطًا للنار كنت في غاية الاحتياج اليهما وطاجنين صغيرين من نحاس وابريق نحاس لعمل الشوكولانا او القهوة وسفُّودًا اي مصبعًا من حديد وانثنيت راجعًا بهذا الوسق والكلب الى البرّ لان المدّ كان قد ابتدأ. وفي ذلك اليوم بعد المغرب بساعة وصلت الى الجزيرة تَعِبًا وكالاً جدًّا. فاسترحت تلك الليلة في القارب وعند الصباح عزمت على ان اضع ما اتيت بهِ في مغارتي الجديدة ولا آخذهُ الى قلعتي. وبعد ان تناولت قليلاً من الطعام وراق مزاجي اخرجت كل وسقي الى البرّ واخذت افحص مفرداتهِ. فوجدت ان البرميل كان فيهِ روم ولكن ليس كالذي كان عندنا في برازيل وبالاختصار انهُ لم يكن جيّدًا. ولكن لما فتحت الصندوقين وجدت فيهما اشياءَ كثيرة نافعة لي. فاني وجدت مثلاً في احدهما صندوقةً لطيفةً فيها قناني غريبة في منظرها مملوءة مشروبات نافعة مرطّبة. وكانت اطرافها مصفّحة بالفضّة. ووجدت ايضًا قارورتين فيهما مربّيات مسدودتين سدًّا محكمًا حتى انهُ لم يدخلها شيءٌ من ماءَ البحر. ثم وجدت قارورتين اخريين غيرهما فيهما حُلوَيات كانت قد عطّلتها مياه البحر. ثم وجدت قمصانًا جيدة جدًّا كنت في احتياج اليها ففرحت بها ونحو دزينة ونصف من محارم كتان ابيض وربطات رقبة ملوّنة فسررت بالمحارم لانها كانت مفيدة كثيرًا لي لاجل مسح عرقي في ايّام الحرّ. ثم وجدت في صرّافة الصندوق ثلاثة اكياس كبيرة فيها قطَع من الثمانية وكانت جملة ما فيها الف ومائة قطعة. وكان في احد الاكياس ستُّ قِطَعٍ من الذابلون الذهب ملفوفةً في ورقة وبعض سبايك ذهب ربما كان وزنها جميعها نحو ثمانين مثقالاً. واما الصندوق الآخر فكان فيهِ بعض ملابس قليلة القيمة والفائدة. والظاهر انهُ كان مختصًّا بثاني الطبجي مع انهُ لم يكن فيهِ بارود الّا نحو خمس اواقيّ من البارود المزيبق في ثلاث تنكات صغار. وربما كان ذلك محفوظًا هناك لاجل اطلاق البواريد عند الاقتضاءَ. واقول بالاجمال اني في هذه السفرة حصّلت اشياءَ قليلة جدًّا مما يمكنني ان استفيد منهُ. لان الدراهم لم يكن لها عندي ادنى فائدة بل كانت كالتراب الذي كنت ادوسهُ تحت رجلي. وكنت اعطيها كلها

بدل ثلاثة او اربعة ازواج من الاحذية والجوارب الانكليزية لاني كنت في غاية الافتقار الى ذلك. وكان قد مضى عليَّ عدَّة سنين ولم البس جوربًا ولا حذآء في رجليَّ. غير اني وجدت حينئذٍ زوجَي احذية في ارجل الرجلَين الغريقين المارّ ذكرهما فنزعتهما عنهما. ثم وجدت زوجين آخرين في احد الصناديق كانا ملائِمَين لي الَّا انهما لم يكونا كاحذيتنا الانكليزيَّة في الملاءمة والاقامة. لان نعالها كانت رقيقة جدًّا. ووجدت في ذلك الصندوق ايضًا نحو خمسين قطعة من الثمانية ولكن لم اجد هناك ذهبًا. والظاهر ان صاحبهُ كان فقيرًا بخلاف الآخر الذي يبان ان صاحبهُ كان من الضبَّاط. فاخذت تلك الدراهم الى مغارتي واحرزتها كما فعلت بالتي اتيت بها قبلًا من مركبنا. وكان من سوء حظّي ان القسم الآخر من المركب لم يكن لي فيهِ نصيب. لاني اعلم جيدًا انهُ لو صادفني ذلك السعد كنت شحنت قاربي دراهم مرات متوالية. وكنت افتكر انهُ اذا تيسَّر لي الذهاب الى انكلترا يمكنني ان اتركها في تلك المغارة بالامان الى ان تحصل لي فرصة لان ارجع الى الجزيرة وآخذها

شعرٌ

بذا قَضَتِ الايامُ ما بينَ اهلها مصائبُ قومٍ عندَ قومٍ فوائِدُ

واذ كنت قد اتيت بجميع امتعتي الى البرّ واحرزتها جيدًا انثنيت راجعًا الى قاربي واخذت اجذف سائرًا بهِ بجانب الشاطي الى ميناهُ القديمة وتركتهُ هناك. ثم ذهبت من ذلك الموضع الى مسكني القديم فوجدت هناك كل شيء في هدوّ وامانٍ كما تركتهُ. فاخذت حينئذٍ اريح نفسي واعيش كعادتي القديمة واعتني بهام عائلتي. وبقيت مدة اعيش بالراحة والهدوّ الَّا اني كنت دائمًا على حذرٍ اكثر من السابق وكنت انطلّع متلصّصًا الى الخارج اكثر ممَّا مضى واجول في الجزيرة اقلّ من جاري عادتي. ولم اكن اذهب براحة بالٍ الَّا الى الجهة الشرقيَّة من الجزيرة اذ كنت اعلم ان البرابرة لم ياتوا قطّ الى هناك. وكان يمكنني ان اتوجَّه الى تلك الجهة من دون تلك الاحتياطات الكثيرة ومن دون ان التزم بان احمل حملًا ثقيلًا من الاسلحة والذخيرة كالذي كنت احملهُ عند التوجُّه الى الجهة الاخرى منها.

فبقيت في تلك الحالة نحو سنتين ايضًا ولكن راسي المنحوس الذي كان من دابهِ
ان يذكّرني دائمًا بانهُ انما رُكِّب على جثّتي لكي يجعل جسدي تعيسًا كان في تلك المدة
باسرها مملوءًا من التدابير والاهتمامات بايجاد طريق للتخلُّص من تلك الجزيرة. لاني
كنت احيانًا اقصد التوجُّه مرةً اخرى الى المركب على ان عقلي كان يقول لي انهُ لم
يبقَ هناك شيءٌ يستحقُّ مشقَّات السفر وكنت اطلب تارةً التوجُّه الى جهة واحدة
وتارةً الى جهة اخرى. وليس عندي ادنى شكٍّ انهُ لو كان باقيًا في حوزتي ذلك
الكوثر الذي هربت فيهِ من سَلّي كنت سافرت فيهِ لا محالة حيثما ساقتني
التقادير من دون حسابٍ. فاني كنت مثالاً للمصابين بوباء البشر العموميّ الذي
ينتج منهُ بحسب معرفتي نصف مصائبهم وهو عدم الارتضاء بالحالة التي وضعهم
فيها الله والطبيعة. لاني مع صرف النظر عن حالتي الاولى ونصيحة ابي الفاضلة
التي يمكنني ان ادعو مخالفتي ايَّاها خطيئتي الاصليَّة كانت اغلاطي من هذا القبيل
نفسهِ في ما بعد واسطةً لوصولي الى تلك الحالة التعيسة. لانهُ لو كانت تلك العناية
التي يسَّرت لي ذلك المركز الحسن في برازيل وهو معاطاة الزراعة انعمت عليَّ بان
اضبط نفسي عن الطمع وأَرتضي ان انقدَّم في عملي بالتدريج لكنت صرت في
ذلك الوقت اي وقت وجودي في تلك الجزيرة من اكبر فلاَّحي برازيل. ولست
اشكُّ اني بواسطة النجاح الذي حصلت عليهِ في تلك المدة القصيرة التي صرفتها
هناك والنموّ الذي كنت على الاكثر مزمعًا ان احصل عليهِ لو بقيت مدة أَطوَل
في ذلك الموضع كنت صرت لا محالة صاحب ثلاثين الف كيس تقريبًا. وماذا
حملني على ترك ثروة ثابتة ومزرعة مخصبة آخذة في التقدُّم والزيادة لكي اكون
وكيلاً على وسق مركب متوجّه الى غوينيا في طلب العبيد مع ان الصبر والتمادي
كانا زادا املاكنا في بلادنا حتى كان يمكننا ان نشتري العبيد على ابواب بيوتنا
من الذين كانت مصلحتهم جلبهم والمتاجرة بهم. وما كنا نلتزم ان ندفعهُ من الزيادة
في ثمنهم لم يكن توفيرهُ يستحقُّ هذا المقدار من التعب والمخاطرة. ولكن كما ان
ذلك يكون غالبًا نصيب الشبَّان كذلك التأمُّل في حماقتهِ يكون في الغالب عمل

المتقدمين في السنّ او الذين كأنهم اختبارهم المستطيل ثمنًا غاليًا . فهكذا كانت حالتي حينئذٍ . ولكن كان الغلط قد تمكَّن جدًّا وصار ملكةً في طبعي حتى انهُ لم يكن يمكنني ان ارتضي قانعًا بحالتي بل كنت دائمًا مهتمًا ومنهمكًا بامر خلاصي من ذلك الموضع . وسيتضح ما عملتهُ من التدابير لاجل نوال هذا المقصد من سياق قصتي كما سترى

شعرٌ

طلبتُ المستقرَّ بكلِّ ارضٍ فلم أَرَ لي بارضٍ مستقرًّا
أَطَعتُ مطامعي فاستعبدَتْني ولَوْ أَنّي قنعتُ لكنت حرًّا

واعلم اني كنت حينئذٍ مختليًا في قلعتي بعد رجوعي من ذلك المركب وكان قاربي مربوطًا بامانٍ في ميناء امينة كالعادة وقد رجعت الى الحالة التي كنت فيها قبلاً . نعم انهُ كان عندي اموالٌ اكثر من السابق الاَّ اني لم اكن لذلك اغنى لاني لم استفِد من تلك الاموال اكثر ممَّا كان يستفيد منها هنود بيرو قبل مجيء اهالي سبانيا الى هناك

وفيما كنت في احدى ليالي اذار الممطرة في السنة الرابعة والعشرين من دخولي جزيرة اليأس مضطجعًا في فراشي او ارجوحتي طلبًا للنوم متعافيًا مرتاحًا رائق المزاج خاليًا من تعب الجسم واضطراب العقل اكثر من مألوف عادتي لم اكن استطيع ان اطبق عينيَّ اي لكي انام بل احييت الليل كلهُ بالارق والقلق . ولا يمكن ذكر جميع الافكار الكثيرة المتنوّعة التي جالت في عقلي في تلك الليلة . فاني راجعت بطريق مختصر حوادث حياتي من اولها الى ان وصلت الى تلك الجزيرة ثم اردفت ذلك بحوادث حياتي في مدة اقامتي في الجزيرة . وعند تأمُّلي في حالتي من حين خروجي الى الجزيرة كنت اقابل حسن اموري في السنين الاولى من سكناي هناك بما اعتراني من الاضطراب والمخاوف والهموم بعد ما رايت اثر القدم على الرمل . وليس ذلك كأني لم اكن اصدّق قبلاً ان البرابرة كانوا يتردَّدون دائمًا الى الجزيرة وانهُ ربما وُجِد احيانًا مئات منهم هناك في البرّ الاَّ اني لم اعرف ذلك قطُّ ومن ثم لم يكن يخامرني ادنى احتساب من هذا القبيل . فكانت طمانينتي كاملة مع ان الخطر كان هو هو

بعينهِ . وكنت افرح بعدم معرفتي ما انا فيهِ من الخطر كاني لم اكن قطُّ في الحقيقة عرضةً لهُ . وقد استفدت من ملاحظة ذلك فوائد كثيرة من اخصها ما ياتي وهو عظم صلاح وجودة العناية الالهية في جعلها مَدَى نظر الانسان ومعرفتهِ قصيرًا وضيقًا حتى انهُ عند ما يكون محاطًا بآلافٍ من الاخطار يكون مطمئنًا هاديًا اذا كانت الحوادث مستورةً عن نظرهِ وكان لا يعرف شيئًا من المخاطر المحدقة بهِ مع انهُ لو عرفها كانت تقلق فكرهُ وتوقعهُ في خور الهمَّة وفي اليأْس

ثم بعد ان تسلَّيت مدةً بهذه الافكار اخذت افتكر بامعان نظرٍ في ما كنت فيهِ من الخطر في تلك السنين الكثيرة التي قضيتها في جزيرة اليأْس وكيف كنت اجول من مكان الى مكان بكل طمانينةٍ وراحة بالٍ في اوقاتٍ كان فيها مجرَّد ظلّ تلَّة او شجرة كبيرة او ظلام الليل فاصلًا بيني وبين اردأ نوع من الهلاك اي الوقوع في ايدي الغيلان والبرابرة الذين لو صادفوني كانوا قبضوا عليَّ كما اقبض على عنزةٍ او حمامةٍ وذبحوني واكلوا لحمي من دون ان يؤَاخذوا انفسهم بذنب اكثر مما اواخذ نفسي اذا ذبحت حمامةً او بومةً واكلت لحمها . ولا يجوز لي ان اقول اني لم اشكر الله بخلوصٍ على حفظهِ اياي . لاني كنت اقرُّ بتواضع عظيم ان خلاصي من تلك المخاطر العظيمة الغير المعروفة انما كان بواسطة عنايتهِ العظيمة واني لولا تلك العناية كنت لا محالة سقطت في ايدي اولئك القساة العارين من الرحمة والانسانيَّة

فلما انتهيت من تلك الافكار صرفت مدة من الزمان في التأَمُّل كيف كانت احوال اولئك الخلايق الاشقياء اي البرابرة وكيف امكن ان الله الذي يدبّر جميع الامور بحكمتهِ يسلّم بعض خلائقهِ الى ارتكاب تلك القساوات الفظيعة والانحطاط الى حالة دون الوحوش وهي اكل بعضهم البعض . ولكن اذ انتهى ذلك في مباحث كانت عديمة الثمرة في ذلك الوقت لاح لي ان اسأَل نفسي الاسئلة الآتية وهي في ايّ قسمٍ من العالم يسكن اولئك القوم المتوحشون . وكم تبعد بلادهم التي اتوا منها عن الشاطي . ولماذا كانوا يسافرون مبعدين عن اوطانهم بهذا المقدار . وماذا كانت قواربهم التي يسافرون فيها . ولماذا لا ارتّب احوالي واموري بحيث اقدر ان اذهب

الى بلادهم كما يانون هم الى جزيرتي

ولم اتعب نفسي بالسوآل ايضًا عمّا ينبغي ان اعمله بنفسي اذا توجّهت الى بلادهم ولا عمّا يمكن ان يصيبني اذا وقعت في ايديهم ولا كيف اهرب منهم اذا هجموا عليّ ولا كيف يمكنني ان اصل الى البرّ من دون ان يدهمني بعضهم بحيث لا يكون لي سبيل الى النجاة من ايديهم. واذا لم اقع في ايديهم فماذا اعمل من جهة الزاد او الى اي جهة احوّل وجهي. فجميع هذه الامور لم تخطر قطّ ببالي ولكن عقلي كان منصبًّا انصبابًا شديدًا على العبور في قاربي الى القارّة. وكنت احسب حالتي اردأ الحالات في العالم وانهُ لم يكن شيءٌ يمكنني ان اطوّح نفسي فيهِ ممّا يمكن ان يقال عنهُ انهُ اردأ منها الّا الموت نفسهُ. واني اذا وصلت الى شاطي القارّة ربما ينفتح لي باب للفرج او اسافر بجانب الشطوط كما فعلت على شطوط افريقية الى ان اصل الى بلاد مسكونة وربما احصل هناك على فرج. او ربما اصادف مركبًا مسيحيًا ياخذني معهُ. ومهما اصابني من النحس وعدم التوفيق فانهُ لا يكون اكثر من الموت. فاذا متُّ فاني اخلص من كل هذه البلايا دفعةً واحدةً. واعلم ان ذلك جميعهُ قد نتج عن عقل مضطرب ومزاج لجوج لاني كنت قد يئست من جرى طولة مدة مصائبي وخيبة الامل التي حصلت لي في المركب الذي ذهبت اليهِ موّملًا ان اجد فيهِ ما كنت متعطشًا وتايقًا الى الحصول عليهِ اي بعض اناس اكلّمهم واستفيد منهم بعض امور عن المكان الذي كنت فيهِ وعن الوسائط الممكن استعمالها لنجاتي منهُ. فاني اضطربت منزعجًا جدًّا من تلك الامور. وراحة بالي الناتجة من تسليمي لتدبير العناية الربانيّة كانت تبان كأنها قد فارقتني وكنت كأني عديم الاقتدار على تحويل فكري نحو شيء الّا السفر الى تلك القارّة. فان هذا الامر اتاني بعزم شديد وجعل فيّ رغبة مفرطة حتى انهُ لم يكن ممكنًا لي دفعهُ

وبعد ان ازعجني ذلك مدة ساعتين او اكثر بقوة عظيمة حتى جعل دمي يغلي ونبضي ينتفض كاني محموم وذلك بمجرّد حرارة عقلي بسببهِ القتني الطبيعة في نوم ثقيل لاني تعبت وكللت من الافتكار بهِ. وذلك ممّا يحمل على الظنّ باني قد

حلمت عن ذلك في نومي والحال اني لم احلم عنهُ ولا عن شيء يتعلق بهِ بل انما حلمت اني في ما كنت خارجًا من قلعتي صباحًا كجاري عادتي رايت قاربَين واحد عشر بربريًّا يخرجون منها الى البرّ وقد اتوا معهم ببربريّ آخر كانوا مزمعين ان يذبحوهُ لكي ياكلوا لحمهُ واذا بذلك البربريّ الذي كانوا مزمعين ان يذبحوهُ قد وثب بغتةً وهرب منهم راكضًا طلبًا للنجاة. وقد تراءى لي في الحلم انهُ اتى راكضًا الى الغابة الصغيرة المتكاثفة التي قدام قلعتي لكي يختبئ هناك. واني لما رايتهُ وحدهُ ولم أَرَ البقية يجدُّون في طلبهِ الى تلك الجهة اظهرت لهُ نفسي ونظرت اليهِ بالبشاشة والتبسُّم تشجيعًا لهُ. وانهُ ركع امامي كانهُ يتضرع اليَّ لأُعينهُ واني عند ذلك دللتهُ على سلَّمي وطلبت منهُ ان يصعد وذهبت بهِ الى المغارة وجعلتهُ خادمًا لي. واني حالما صار عندي ذلك الرجل قلت في نفسي الآن يمكنني حقًّا ان اسافر الى القارّة لان هذا الرجل يكون لي بمنزلة دليلٍ ويقول لي ماذا اعمل واين اذهب في طلب الطعام واين لا اذهب خوفًا من ان أُبتلَع وما هي الاماكن التي ينبغي لي ان اسافر فيها والتي ينبغي ان اتجنَّبها. وعند هذا الفكر انتبهت وكنت فرحًا مبتهجًا جدًّا بما امَّلتهُ من النجاة في حلمي ولكنَّ الخوف الذي شعرت بهِ عند ما صحوت ورايت ان ذلك لم يكن الاَّ حلمًا كان شديدًا ايضًا حتى انهُ اوقعني في صغر نفس عظيم في الغاية

الاَّ اني عند ذلك وصلت الى هذه النتيجة وهي ان الطريق الوحيد لمحاولة النجاة هو ان احصل اذا امكن على واحدٍ من اسرى البرابرة ممَّن يكونون قد حكموا بقتلهِ واكلهِ واتوا بهِ الى الجزيرة لاجل ذبحهِ. الاَّ انهُ كانت توجد هذه الصعوبة في ذلك وهي انهُ لا يمكن التوصُّل الى هذا المقصد الاَّ بالهجوم على جمهور منهم وقتلهم جميعًا. ولكن هذا العمل فضلاً عن انهُ جسارة ربَّما لا يعقبها نجاحٌ كان غير جائز عندي كما ذكرت قبلاً وكان قلبي يرتعد مرتعشًا من الافتكار بسفك هذا المقدار من الدم البشريّ وان يكن ذلك لاجل نجاتي. ولا حاجة الى ذكر الحجج التي عرضت لي لعدم جواز هذا العمل لانها هي نفس الحجج التي ذكرتها قبلاً. ومع انهُ كان لي في هذا الوقت اسباب أُخَر اقدّمها لجواز ذلك وهي ان اولئك القوم هم اعداءٌ لحياتي وانهم يبتلعونني

اذا قدروا وان صيانتي نفسي من الموت بايديهم هو محافظةٌ على الحيوة من اعلى درجة ومدافعةٌ عن نفسي كما لو كانوا هاجمين عليَّ ليفتكوا بي كان امر سفك دم بشريٍّ لاجل نجاتي هائلاً عندي جدًّا حتى اني بقيت مدةً طويلةً لا اقدر ان اسلِّم بهِ . ثم بعد محاورات كثيرة سرِّيَّة بيني وبين نفسي واضطرابات عظيمة بسببها لان تلك الاحتجاجات كانت تتنازع في راسي وتشغلهُ زمنًا طويلاً غلبَتْ اخيرًا الرغبة القويَّة الحارَّة في النجاة مستظهرةً على جميع ما سواها حتى عزمت ان احصل على واحد من اولئك البربر اذا امكن مهما كلَّف ذلك . فاخذت حينئذٍ اهتمُّ بامر التوصُّل الى هذا المقصد . واذ كان الاعتماد على طريق مخصوص صعبًا جدًّا عزمت على ان اراقب اولئك القوم مترصِّدًا مجيئهم الى البرّ وان اترك ما وراءَ ذلك للقضاءِ والقدر وان انصرف عند حصول الفرصة حسب مقتضيات الحال . فصرفت اكثر من سنة ونصف في المراقبة . وكنت في اكثر تلك المدة اذهب كل يوم الى الجانب الغربيّ من الجزيرة لكي اترصَّد القوارب واذ لم أَرَ شيئًا منها ضجرت وضعفت همَّتي وقلَّ املي . الَّا ان رغبتي لم تضعف كما فعلت في ما مضى بل كانت كلَّما طالت المدة تزيد . واقول بالاجمال ان اجتهادي في اول الامر في ان لا ارى البرابرة ولا ادعهم يرونني لم يكن اقلَّ من رغبتي حينئذٍ في ان افتك بهم . وعدا ذلك كان يلوح لي اني قادر على ضبط بربريّ او اثنين او ثلاثة ايضًا اذا وقعوا في يدي وعلى جعلهم عبيدًا مطيعين لي في عمل كلّ ما آمرهم بهِ وعلى منعهم من ان يغدروا بي في احد الاوقات

فصرفت مدةً طويلةً اعلّل نفسي بهذا الامل الَّا انهُ لم يظهر شيءٌ من ذلك بل جميع افكاري وتدابيري ذهبت سدًى لانهُ مضى مدة طويلة ولم ياتِ احد من البرابرة الى جزيرتي

شعرٌ

يُعانِدُني دهري كأنّي عَدُوُّهُ ... وفي كلِّ يومٍ بالكريهةِ يَلْقاني

وإنْ رمتُ خيرًا جاءَ دهري بضدِّهِ ... وإنْ يَصْفُ لي يومًا تكدَّر بالثاني

الفصل الثاني والعشرون

تخليص روبنصن كروزي اسيرًا من البرابرة وتسميتهُ اياهُ جمعة واتخاذهُ اياهُ خادمًا لهُ

ثم بعد ان صرفت نحو سنة ونصف في تلك الافكار وحكمت بانها فارغة باطلة رايت ذات يوم صباحًا خمسة قوارب بالقرب من الشاطي في الجهة التي كنت مقيمًا فيها وكان القوم الذين اتوا فيها قد خرجوا جميعًا الى البرّ ولم اكن اراهم حينئذٍ . فدُهِشت من ذلك وكانت الكثرة تضعف املي في النجاح . لاني اذ رايت ان القوارب كانت كثيرة وكنت اعلم ان البرابرة ياتون دائمًا اربعةً او خمسةً واحيانًا اكثر في كلّ قارب حرت في امري ولم اعلم كيف اقدر ان افتك بعشرين او ثلاثين رجلاً دفعةً واحدةً وانا وحدي . الاّ اني تهيّأت للنضال كما فعلت قبلاً وكنت مستعدًّا لان اقع بهم اذا لزم . وبعد ان انتظرت مدةً وكنت انتصّت لعلي اسمع صوتهم حتى مللت من الانتظار وضعت اخيرًا بارودتين بجانب سلّمي وصعدت الى اعلى التلّ ووقفت هناك في ظلّ راسهِ لئلا يروني . فرايت من هناك بواسطة نظّارتي انهم لم يكونوا اقلّ من ثلاثين بربريًا وانهم كانوا قد اشعلوا نارًا وشووا لحمًا غير اني لم اعلم كيف شووهُ ولا لحم ايّ شيء هو . وكانوا جميعًا يرقصون حول تلك النار بحركات واشارات غريبة حسب عادتهم

ثم رايتهم بواسطة نظّارتي يجرّون من القوارب رجلين منكودَي الحظّ وياتون بهما الى البرّ لاجل الذبح . فتقدم احدهم الى واحد منهما وضربهُ على راسهِ بنبوتٍ او سيفٍ من خشب حسب عادتهم فسقط لوقتهِ الى الارض فاخذ اثنان او ثلاثة منهم يشتغلان في فزرهِ وتقطيعهِ واما الرجل الآخر فكان واقفًا وحدهُ جانبًا الى ان ينتهوا من رفيقهِ وياتي دورهُ . فلما راى هذا التعيس ان لهُ حريةً قليلةً وكان غير مقيَّد هيَّجت الطبيعة في قلبهِ آمال الحيوة فهرب منهم واخذ يركض بسرعة لا تُصدَّق على الرمل سائرًا باستقامةٍ نحوي اي نحو الجهة من الجزيرة التي كان فيها منزلي . ويجب ان اقرّ باني لما رايتهُ يركض نحوي خفت جدًّا وعلى

الخصوص .ا رايت كما ظننت متوهمًا ان جميع اولئك البرابرة كانوا يجدُّون في طلبهِ. فاخذت حينئذٍ انتظر تمام قسمٍ من حلمي وهو انهُ يهرب لا محالة الى غابتي الاَّ اني لم اقدر ان اعتمد على القسم الآخر من ذلك الحلم وهو ان البرابرة لا يتبعونهُ الى هناك غير اني مع ذلك ثبتُّ في مركزي واخذ عزمي يقوى عند ما رايت ان الذين كانوا يطاردونهُ لم يكونوا اكثر من ثلاثة رجال. وزدت جراءة عند ما وجدت انهُ سبقهم كثيرًا في الركض وصارت المسافة بينهُ وبينهم بعيدةً حتى ظهر لي انهُ اذا بقي كذلك نصف ساعة ينجو منهم جميعًا ويأْمن غائلتهم

وكان النهر الصغير الذي ذكرتهُ مرارًا في اول قصتي وقد اخرجت منهُ وسقي الى البرّ يفصل بينهم وبين قلعتي فظهر لي انهُ يجب على ذلك المسكين ان يعبرهُ سابحًا بسرعة والاَّ فانهُ يقع لا محالة في ايديهم. فلما وصل الاسير الهارب الى حافة ذلك النهر القى حالاً نفسهُ فيهِ مع ان المدّ كان قويًا وعبرهُ سابحًا بسرعة الى الجانب الآخر منهُ واخذ يركض بكل عزم وسرعة. ولكن لما وصل الثلاثة الرجال الذين كانوا يطلبونهُ الى النهر رايت ان اثنين منهم يحسنان السباحة واما الثالث فكان لا يحسن ذلك فوقف على الحافة ينظر الى رفيقيهِ ثم بعد قليل رجع على اعقابهِ الى الوراء. وكان ذلك من حسن حظهِ لِمَا سياتي بيانهُ. وقد لاحظت ان ذينك الرجُلَين صرفا في قطع النهر ضعف الوقت الذي صرفهُ ذلك الهارب. فظهر لي حينئذٍ ان ذلك الوقت هو الوقت المناسب لاقتناء خادم او رفيق او مساعد واني مندوبٌ من قبل العناية الالهيَّة ان اخلّص حيوة ذلك الرجل المسكين. فنزلت حالاً على السلَّم مهرولاً وتناولت بارودتيَّ وكنت قد وضعتهما بجانب السلَّم كما ذكرت. ثم صعدت عليهِ بكل عجلةٍ ايضًا وعدوت الى راس التلّ ثم جاوزتهُ الى جهة البحر واذ كانت المسافة قصيرةً ومنحدرةً صرت حالاً بين التابعَين والمتبوع. فاخذت انادي ذلك الهارب باعلى صوتي. فالتفت الى ورآئهِ. وربما كان في اول الامر خائفًا مني بقدر خوفهِ منهما. ولكنني اشرت اليهِ بيدي ان يرجع واخذت اتقدَّم في غضون ذلك شيئًا فشيئًا نحو ذينك الرجلين اللذين كانا يطلبانهِ. ثم

هجمت بغتة على السابق منهما وضربتهُ بقندق بارودتي. ولم ارد ان اطلق البارودة لاني لم اشأْ ان يسمع الآخرون صوتها وان كان لا يمكن ان يُسمَع صوتها بسهولةٍ لبعد المسافة حتى انهُ اذا سُمِع صوتها فاذ كان لا يمكنهم ان يروا دخانها لم يكن ممكنًا لهم ان يعرفوا بسهولةٍ ماذا كان ذلك. فلما طرحت الاول مصروعًا الى الارض وقف رفيقهُ الذي كان يتبعهُ كأَنهُ كان خائفًا. فاخذت اتقدَّم مسرعًا نحوهُ. فلما صرت على مسافة قريبة منهُ رايت جيّدًا انهُ كان معهُ قوسٌ وسهمٌ كان يهيّئهما ليرميني بهما فاضطرَّني الامر حينئذٍ الى ان رميتهُ بالرصاص فاصبتهُ فوقع حالًا على الارض ميتًا. واما البربريُّ الهارب فلما رأَى عدوَّيهِ قد وقعا الى الارض وظنَّ انهما ماتا خاف جدًّا من نار بارودتي وصوتها ووقف جامدًا كأَنهُ حجر. فلم يتقدم ولا تاخَّر الَّا انهُ كان يبان كأَنَّ الهرب كان احبَّ اليهِ من الاتيان اليَّ. فناديتهُ ثانيةً واشرت اليهِ ان يتقدَّم نحوي ففهم ذلك بسهولةٍ وتقدَّم قليلًا ثم وقف وهكذا كان كلَّما تقدَّم بعض خطوات يقف مرتجفًا كأَنهُ قد أُخِذ اسيرًا وكان مزمعًا ان يُقتَل كما قُتِل عدوَّاهُ. فاشرت اليهِ ايضًا ان ياتي اليَّ وعملت لهُ جميع ما جال في خاطري من علامات التشجيع فكان يتقدَّم نحوي شيئًا فشيئًا. وكان كلَّما مشى عشر خطوات او اثنتي عشرة خطوةً يركع على الارض علامة تادية الشكر لي على انقاذي اياهُ. فبششت في وجههِ وتبسَّمت لهُ واشرت اليهِ ان يتقدَّم ايضًا نحوي ولا يخاف اذًى واخيرًا دنا مني وخرَّ ساجدًا على الارض وقبَّلها ثم وضع راسهُ على الارض وامسك رجلي ووضعها على راسهِ. والظاهر ان مرادهُ في ذلك انما كان ان يبيّن لي انهُ قد حلف بان يكون لي عبدًا الى الابد. فرفعتهُ عن الارض وطيَّبت خاطرهُ وشجَّعتهُ وامَّنتهُ بقدر الامكان. هذا وان البربريَّ الذي ضربتهُ بالقندق كان لم يَمُت بل انما أُغمِي عليهِ وكان قد ابتدأَ يستفيق من صرعتهِ. فدللتهُ عليهِ واشرت اليهِ انهُ لم يَمُت وعند ذلك كلَّمني ببعض كلمات. ومع اني لم اقدر ان افهمها كنت التذُّ بسماعها لانها كانت الكلمات الاولى التي سمعتها من فم انسانٍ في مدة اكثر من خمس وعشرين سنة. الَّا انهُ لم يكن حينئذٍ وقت لمثل هذه التاملات. وان ذلك البربريَّ استفاق

من صرعتهِ واحتفز متهيئاً للقيام فاحدث ذلك خوفاً كما لاح لي في قلب البربريّ الذي خلّصتهُ . الاَّ انهُ لما راى اني وجّهت بارودتي نحو عدوّهِ كأني اريد ان ارميهُ بالرصاص تشجّع . وعند ذلك طلب مني ان اعيرهُ سيفي الذي كان معلّقاً بسير على جانبي من دون قراب فاعطيتهُ اياهُ . ففي الحال ذهب بهِ راكضاً الى عدوّهِ وقطع بهِ راسهُ بضربة واحدة حتى ان امهر سيّاف في جرمانيا لا يقدر ان يفعل ذلك باكثر سرعة ولا على احسن منوال . فاستغربت ذلك من رجل كنت اعتقد انهُ لم يرَ قطُّ سيفاً في حياتهِ الاَّ ما كان عندهم من السيوف الخشبيَّة

الاَّ اني فهمت في ما بعد انهم يجعلون سيوفهم الخشبيَّة حادَّة وثقيلة جدًّا اذ يصطنعونها من خشب صلب في الغاية حتى انهم يقطعون بها رؤُوساً واياديَ ايضاً بضربة واحدة . فلما فرغ من ذلك رجع اليَّ ضاحكاً متهلّلاً علامةً للظفر وارجع لي السيف ووضعهُ امامي مع راس البربريّ الذي قتلهُ وكان يشير اشارات كثيرة متنوعة لم اكن افهمها . والذي كان يبان انهُ اكثر رغبةً في معرفتهِ هو كيفيَّة قتلي للبربريّ الآخر مع انهُ كان بعيداً عني كثيرًا . فاشار اليَّ ان اسمح لهُ بالتوجُّه اليهِ فاذنت لهُ بذلك . فلمَّا وصل اليهِ وقف منذهلاً وكان ينظر اليهِ ويقلّبهُ تارةً الى الجانب الواحد وتارةً الى الجانب الآخر ويتفرّس في الجرح الذي احدثهُ الرصاص في صدرهِ لانهُ كان قد احدث فيهِ ثقباً الاَّ انهُ لم يخرج منهُ دم كثير لان الدم سال الى داخل فمات بسببهِ ولم يبقَ فيهِ دمٌ . ثم اخذ قوسهُ وجعبتهُ وانثنى راجعاً اليَّ . وعند ذلك هممت على الانصراف واوعزت اليهِ ان يتبعني مشيرًا اليهِ انهُ ربما ياتي آخرون وراءَ ذينك البربريَّين . فاشار اليَّ انهُ يجب ان يدفنهما لكي لا يراهما الباقون اذا تبعوهما الى هناك فاشرت اليهِ اني استصوب رايهُ . فاخذ في العمل . وفي الحال حفر بيديهِ حفيرة في الارض تكفي لدفن الاول ثم سحبهُ اليها ودفنهُ هناك وهكذا فعل بالآخر . وربما لم يصرف في دفنهما اكثر من ربع ساعة . ثم ناديتهُ وذهبت بهِ بعيدًا الى مغارتي في اقصى الجزيرة ولم اذهب بهِ الى قلعتي لانها كانت قريبة الى محل الخطر . وهكذا لم أدع حلمي يتمُّ في هذا المعنى وهو انهُ ياتي الى غابتي ليستظلَّ فيها . فلما وصلنا الى

هنا ك ناولتهُ رغيفًا من الخبز وعنقودًا من الزبيب ليأكل وناولتهُ ماءً ليشرب لانهُ كان عطشان جدًّا بسبب ركضهِ . وبعد ان اكل وشرب اشرت اليهِ ان يذهب ويضطجع لينام ودللتهُ على مكان كنت وضعت فيهِ قشّ ارزّ ولحافًا فوقهُ وكنت انام عليهِ احيانًا . وهكذا اضطجع المسكين ونام

وكان ظريفًا لطيفًا حسن الهيئة ذا قامة مستقيمة طويلة وبنيةٍ واعضاءً قويّة معتدلة وكان عمرهُ حسب ظنّي ستًّا وعشرين سنة . وكان منظر وجههِ طلقًا بشوشًا كريمًا لا مقطبًا وحشيًّا لئيمًا كباقي البرابرة . وكانت تلوح على وجههِ علامات الشجاعة والرجوليّة التامّة وكان حلوًا وكيّسًا كانهُ اوربّي وعلى الخصوص عند ابتسامهِ . وكان شعرهُ طويلاً مسترسلاً اسود ولم يكن مجعّدًا كشعر العبيد . وكانت جبهتهُ مرتفعة وكبيرة وعيناهُ منيرتين متوقّدتين . واما لون جلدهِ فلم يكن اسود خالصًا بل كان مشربًا صفرة . ولكن اصفرارهُ لم يكن شنيعًا كريهًا نافرًا كاهالي برازيل وورجينيا وباقي هنود امركا بل كان مشرقًا زيتونيًّا حسنًا يعسر تحقيق وصفهِ . وكان وجههُ مدوّرًا سمينًا وانفهُ صغيرًا ولم يكن افطس كانوف السودان . وكان فمهُ لطيفًا جدًّا وشفتاهُ رقيقتين واسنانهُ ظريفة منتظمة وبيضاء كاللؤلؤ

فنام نحو نصف ساعة ثم انتبه وخرج من المغارة واقبل نحوي لاني كنت مشتغلاً في حلب عنزاتي في الصيرة بالقرب من المغارة . فلمّا رآني اتى اليَّ راكضًا والقى نفسهُ الى الارض بكل تواضعٍ وخضوعٍ وشكرٍ واستعمل علامات كثيرة لاظهار تلك الحاسيّات ثم بسط راسهُ على الارض بجانب رجلي ووضع قدمي على راسهِ كما فعل قبلاً . ثم اخذ يشير اشارات تعلن طاعتهُ وعبوديتهُ وخضوعهُ التامّ مظهرًا لي بذلك انهُ يخدمني ما دام حيًّا . ففهمت كثيرًا من اشاراتهِ وبيّنت لهُ اني مسرورٌ بهِ وراضٍ عنهُ . وبعد مدة قصيرة ابتدأت اكلّمهُ واعلّمهُ ان يكلّمني . واول كل شيءٍ افهمتهُ ان اسمهُ يكون جمعة وهو اليوم الذي خلّصت فيهِ حياتهُ . سمّيتهُ بذلك تذكارًا لذلك اليوم . وعلّمتهُ ايضًا ان يناديني يا معلّمي وافهمتهُ ان ذلك هو اسمي . ثم علّمتهُ ان يقول نعم ولا وافهمتهُ معناها . ثم وضعت قليلاً من الحليب في صحن وشربت

منهُ وغمست خبزي فيهِ قدامهُ واعطيتهُ كعكة واشرت اليهِ ان يفعل كما فعلت ففعل حالاً واشار اليَّ ان ذلك يلايمهُ جدًّا . فاقمت هناك معهُ الليل كلهُ . ولما طلع النهار اشرت اليهِ ان يذهب معي وافهمتهُ اني اريد ان اعطيهُ بعض ملابس ففرح بذلك مبتهجًا لانهُ كان عريانًا بالكلية . وبينما كنا مجتازين بالقرب من الموضع الذي دفن فيهِ ذينك البربريَّين التفت مشيرًا الى المكان بالتدقيق ودلَّني على العلامات التي كان وضعها ليستدلَّ بها عليهما . ثم اشار اليَّ انهُ يجب ان نحفرها ونأكلهما . وعند ذلك اظهرت الغيظ وبيَّنت لهُ كراهتي لهذا الامر وتظاهرت كأني اريد ان استفرغ عند ذكرهِ واومأت اليهِ بيدي ان ياتي فاتى حالاً بكل طاعة وخضوع . ثم ذهبت بهِ الى راس التلّ لنرى اذا كان اعداؤهُ قد انصرفوا واخرجت نظارتي واخذت انظر فرايت واضحًا الموضع الذي كانوا فيهِ ولكن لم أَرَ احدًا منهم ولا شيئًا من قواربهم هناك . فاستدللت من ذلك انهم رجعوا عن الجزيرة وتركوا رفيقَيهم ولم يفتّشوا عليهما

ولم اكتفِ بهذا الاكتشاف ولكنني اذ صرت حينئذٍ اكثر جراءة وبالتالي اكثر رغبةً في معرفة الامور اعطيت خادمي جمعة السيف بيدهِ وحمَّلتهُ القوس والسهام على ظهرهِ لانهُ كان خبيرًا باستعمال ذلك . وناولتهُ بارودة ليحملها لي وحملت انا بارودتين وذهبنا معًا قاصدين الموضع الذي كان اولئك البرابرة فيهِ لاني كنت حينئذٍ راغبًا في ان اطَّلع على اتمّ مرام على احوالهم . فلمَّا وصلنا الى الموضع برد دمي في عروقي وغاص قلبي في جوفي من كراهة المنظر . وبالحقيقة كان المنظر عندي فظيعًا جدًّا واما جمعة فلم يبالِ بهِ . فان المكان كان مغطًّى بعظام الناس والارض مصبوغةً بدمهم . وكانت قطع كبيرة من اللحم مطروحة هنا وهناك قد أُكِل جانب منها وشُوِيت قليلاً بالنار . وبالاختصار كان هناك كل علامات وليمة الظفر التي كانوا قد تنعَّموا بها بعد الغلبة على اعدائهم . فرايت ثلاث جماجم وخمس ايدٍ وعظام ثلاث او اربع سيقان واقدام واجزاء أُخر كثيرة من الجسم . واخبرني جمعة بواسطة الاشارات انهم كانوا قد اتوا الى هناك باربعة من الاسرى

ليعملوا وليمة فاكلوا ثلاثة منهم وانهُ هو الرابع. وبانهُ حدثت حربٌ قويّةٌ بينهم وبين ملكٍ يجاورهم فاخذوا كثيرين من رعاياهُ اسرى. وكان يبان ان جمعة هو من جملة رعايا ذلك الملك. فاخذت الفئة الظافرة كل اولئك الاسرى الى اماكن مختلفة لكي ياكلوهم كما فعل هؤلاء الاشقياء بالذين اتوا بهم الى هذه الجزيرة

ثم امرت جمعة ان يجمع معًا الجماجم والعظام واللحم وكلّ ما بقي كومةً واحدةً ويشعل عليها نارًا كبيرة ويحرقها جميعًا حتى تصير رمادًا. ووجدت ان جمعة كان يشتهي ان ياكل بعضًا من اللحم لانهُ كان لم يزل اكّال لحم الناس في طبيعتهِ. الاَّ اني اظهرت كراهة عظيمة لذلك العمل فلم يَعُد يتجاسر ان يظهر ما انطوت عليهِ طبيعتهُ من هذا القبيل وعلى الخصوص لاني كنت افهمتهُ بواسطةٍ ما اني اقتلهُ اذا بدا منهُ شيءٌ من ذلك

وبعد ان فرغ خادمي جمعة من عملهِ رجعنا معًا الى القلعة وهناك اخذت اشتغل لهُ بعض ملابس. واول كل شيءٍ اعطيتهُ لباسًا من كتّان كنت قد اخرجتهُ من صندوق الطبجيّ الذي خلّصتهُ من ذلك المركب كما ذكرت آنفًا. وبعد ان غيّرتهُ قليلاً كان يلايمهُ جيّدًا. ثم اصطنعت لهُ جبّةً من جلود المعزى وذلك بحسب معرفتي لاني كنت قد صرت خيّاطًا لا باس فيهِ. ثم اعطيتهُ قبعًا اصطنعتهُ من جلود الارانب وكان مفيدًا ولطيفًا. وهكذا كسوتهُ بقدر الامكان. فسرّ مبتهجًا حين راى نفسهُ مكتسيًا جيدًا نظير معلّمهِ تقريبًا. الاَّ انهُ كان لا يمشي براحةٍ في اول الامر في تلك الملابس. فان لبس اللباس كان صعبًا عليهِ وكمّا الجبة كانا ضيّقين يتعبان كتفهُ وابطهُ. ولكن بعد ان وسّعتهما قليلاً ولبس الجبّة مدةً تعوّد عليها ووجدها هيّنة ونافعة

ثم ثاني يوم رجوعي معهُ الى مغارتي اخذت انبصّر اين انزلهُ. فلكي أُحسِن معاملتهُ واكون مع ذلك مرتاح البال تمامًا عملت لهُ خيمة صغيرة في الفرجة التي بين سورَيَّ اي داخل السور الخارجيّ وخارج السور الداخليّ. وكان هناك باب او مدخل لمغارتي كما علمت فعملت لذلك الباب صندوقًا وغلقًا من خشب ركّبتهُ من

داخل المدخل وجعلت فتحة الى داخل وكنت اسكّرهُ ليلاً واضع سلّمي داخلاً حتى ان جمعة كان لا يقدر ان يدخل اليّ داخل سوري الداخليّ ما لم يحدث صوتًا قويًّا كافيًا لان ينبهني. وذلك لانهُ كان لسوري الداخليّ حينئذٍ سقفٌ كاملٌ من عوارض طويلة كانت تغطي كلّ خيمتي ممتدةً من السور الى التل. وكان موضوعًا على تلك العوارض عرضًا عيدانٌ صغيرةٌ عوض الاخشاب وفوق ذلك غطاءٌ سميكٌ جدًّا من قشّ الارز الذي كان قويًّا كالقصب. وكنت قد وضعت على الثقب او المعبر الذي كنت ادخل واخرج منهُ من السقف بواسطة السلّم غلقًا معلّقًا كان اذا حاول احد فتحهُ من خارج لا ينفتح بل يسقط الى داخل ويحدث صوتًا عظيمًا. واما الاسلحة فاني كنت ادخلها جميعًا الى داخل واضعها بجانبي كلّ ليلةٍ. الّا اني لم اكن في احتياج الى كل هذا الاحتراز لانهُ لم يكن قطّ لانسانٍ خادمٌ امينٌ ومحبٌّ ونصوحٌ اكثر ممّا كان جمعة لي. فانهُ كان وديعًا بسيط القلب ليّن العريكة صبورًا شكورًا غيورًا وكانت عواطفهُ مرتبطة بي كارتباط عواطف ولدٍ بابيهِ. ويمكنني ان اقول انهُ كان اذا لزم يضحّي حياتهُ ليخلّص حياتي. والادلّة الكثيرة التي قدّمها لي على ذلك ازالت كل شكوكي واقنعتني بعد قليلٍ انهُ لا حاجة لي الى المحافظة على حياتي ولا الاحتراز عليها منهُ

وكان ذلك يجعلني اعتبر تكرارًا متعجبًا كيف ان الله مع انهُ قد ارتضى كما يظهر من اعمال عنايتهِ وسياسة اعمال يديهِ ان ينزع من قسمٍ كبيرٍ هكذا من عالم خلائقهِ احسن الامور والاعمال التي يوجد في طباعهم وقُوَى انفسهم استعدادٌ لها قد اسبغ عليهم نفس القُوَى والعقل والعواطف وحاسّيّات المعروف والشكر وكراهة الشرّ والشعور بالجميل والخلوص والامانة وكل استعداد لعمل الخير وقبول الخير ممّا اسبغهُ تعالى علينا نحن معاشر المتمدّنين. وانهُ عند ما يرتضي ان يجعل لهم فرصًا لابراز تلك الحاسّيّات تراهم مستعدّين مثلنا او اكثر استعدادًا منا لاستخدامها في الامور والمقاصد التي جُعِلت فيهم لاجلها. وكنت اغتمُّ واحزن كثيرًا عند ما كنت اتامّل لدى حصول فرصة لذلك كيف نسيُّ نحن استعمال تلك القُوَى جميعها

ليعملوا وليمة فاكلوا ثلاثة منهم وانهُ هو الرابع . وبانهُ حدثت حربٌ قوية بينهم وبين ملكٍ يجاورهم فاخذوا كثيرين من رعاياهُ اسرى . وكان يبان ان جمعة هو من جملة رعايا ذلك الملك . فاخذت الفئة الظافرة كل اولئك الاسرى الى اماكن مختلفة لكي ياكلوهم كما فعل هؤلاء الاشقياء بالذين اتوا بهم الى هذه الجزيرة

ثم امرت جمعة ان يجمع معًا الجماجم والعظام واللحم وكلّ ما بقي كومةً واحدةً ويشعل عليها نارًا كبيرة ويحرقها جميعًا حتى تصير رمادًا . ووجدت ان جمعة كان يشتهي ان ياكل بعضًا من اللحم لانهُ كان لم يزل آكال لحم الناس في طبيعتهِ . الّا اني اظهرت كراهة عظيمة لذلك العمل فلم يَعُد يتجاسر ان يظهر ما انطوت عليهِ طبيعتهُ من هذا القبيل وعلى الخصوص لاني كنت افهمتهُ بواسطةٍ ما اني اقتلهُ اذا بدا منهُ شيءٌ من ذلك

وبعد ان فرغ خادمي جمعة من عملهِ رجعنا معًا الى القلعة وهناك اخذت اشتغل لهُ بعض ملابس . واول كل شيء اعطيتهُ لباسًا من كتّان كنت قد اخرجتهُ من صندوق الطبجيّ الذي خلّصتهُ من ذلك المركب كما ذكرت آنفًا . وبعد ان غيّرتهُ قليلاً كان يلائمهُ جيدًا . ثم اصطنعت لهُ جبّةً من جلود المعزى وذلك بحسب معرفتي لاني كنت قد صرت خيّاطًا لا باس فيهِ . ثم اعطيتهُ قبعًا اصطنعتهُ من جلود الارانب وكان مفيدًا ولطيفًا . وهكذا كسوتهُ بقدر الامكان . فسرّ مبتهجًا حين راى نفسهُ مكتسيًا جيدًا نظير معلّمهِ تقريبًا . الّا انهُ كان لا يمشي براحةٍ في اول الامر في تلك الملابس . فان لبس اللباس كان صعبًا عليهِ وكمّا الجبة كانا ضيّقين يتعبان كتفهُ وابطهُ . ولكن بعد ان وسّعتهما قليلاً ولبس الجبّة مدةً تعوّد عليها ووجدها هيّنة ونافعة

ثم ثاني يوم رجوعي معهُ الى مغارتي اخذت انبصّر ابن انزلهُ . فلكي أُحسن معاملتهُ واكون مع ذلك مرتاح البال تمامًا عملت لهُ خيمة صغيرة في الفرجة التي بين سورَيَّ اي داخل السور الخارجيّ وخارج السور الداخليّ . وكان هناك باب او مدخل لمغارتي كما علمت فعملت لذلك الباب صندوقًا وغلقًا من خشب ركّبتهُ من

داخل المدخل وجعلت فتحة الى داخل وكنت اسكّرهُ ليلاً واضع سلّمي داخلاً حتى ان جمعة كان لا يقدر ان يدخل اليَّ داخل سوري الداخليّ ما لم يحدث صوتاً قويًّا كافيًا لان ينبّهني. وذلك لانهُ كان لسوري الداخليّ حينئذٍ سقفٌ كاملٌ من عوارض طويلة كانت تغطّي كلّ خيمتي ممتدّةً من السور الى التلّ. وكان موضوعًا على تلك العوارض عرضًا عيدانٌ صغيرةٌ عوض الاخشاب وفوق ذلك غطاءٌ سميكٌ جدًّا من قشّ الارز الذي كان قويًّا كالقصب. وكنت قد وضعت على الثقب او المعبر الذي كنت ادخل واخرج منهُ من السقف بواسطة السلّم غلقًا معلّقًا كان اذا حاول احد فتحهُ من خارج لا ينفتح بل يسقط الى داخل ويحدث صوتًا عظيمًا. واما الاسلحة فاني كنت ادخلها جميعًا الى داخل واضعها بجانبي كلّ ليلةٍ. الا اني لم اكن في احتياج الى كل هذا الاحتراز لانهُ لم يكن قطُّ لانسانٍ خادمٌ امينٌ ومحبٌّ ونصوحٌ اكثر مما كان جمعة لي. فانهُ كان وديعًا بسيط القلب ليّن العريكة صبورًا شكورًا غيورًا وكانت عواطفهُ مرتبطة بي كارتباط عواطف ولدٍ بابيهِ. ويمكنني ان اقول انهُ كان اذا لزم يضحّي حياتهُ ليخلّص حياتي. والادلّة الكثيرة التي قدّمها لي على ذلك ازالت كل شكوكي واقنعتني بعد قليلٍ انهُ لا حاجة لي الى المحافظة على حياتي ولا الاحتراز عليها منهُ

وكان ذلك يجعلني اعتبر تكرارًا متعجبًا كيف ان الله مع انهُ قد ارتضى كما يظهر من اعمال عنايتهِ وسياسة اعمال يديهِ ان ينزع من قسمٍ كبيرٍ هكذا من عالم خلائقهِ احسن الامور والاعمال التي يوجد في طباعهم وقُوَى انفسهم استعدادٌ لها قد اسبغ عليهم نفس القُوَى والعقل والعواطف وحاسيّات المعروف والشكر وكراهة الشرّ والشعور بالجميل والخلوص والامانة وكل استعداد لعمل الخير وقبول الخير مما اسبغهُ تعالى علينا نحن معاشر المتمدّنين. وانهُ عند ما يرتضي ان يجعل لهم فرصًا لابراز تلك الحاسيّات تراهم مستعدّين مثلنا او اكثر استعدادًا منا لاستخدامها في الامور والمقاصد التي جُعِلت فيهم لاجلها. وكنت اغتمُّ واحزن كثيرًا عند ما كنت اتاملّ لدى حصول فرصة لذلك كيف نسيءُ نحن استعمال تلك القُوَى جميعها

مع انها قد أُنيرت بواسطة مصباح التعليم العظيم الذي هو روح الله وبواسطة معرفة كلمتهِ تعالى وكيف انهُ تعالى قد ارتضى ان يستر مثل هذه المعرفة المنقذة عن ملايين لا تُحصَى من الناس الذين اذ كانوا مثل هذا البربريّ المسكين لا بدَّ من ان يستعملوها احسن منّا. ومن ثم كنت احيانًا اتطرَّف في ذلك واعترض على سلطة الله المطلقة وصرت كأَنّي اتشكّى من عدل الله في اخفائهِ ذلك النور عن البعض ووحيهِ بهِ الى البعض الآخر مع انهُ قد وضع واجبات واحدة على الفريقين. الّا اني كنت اغلق الباب على هذه الافكار وارفعها من بالي بما ياتي وهو اولاً اننا لا نعلم على ايّ نورٍ وايَّة شريعةٍ تكون دينونة هولآء وانهُ اذ كان الله بالضرورة قدوسًا وعادلاً طبعًا بغير نهاية وقد قضى على اولئك الخلائق بالابتعاد عنهُ لا بدَّ من ان يكون ذلك بسبب اخطائهم ضد ذلك النور الذي هو كما تقول الكتب المقدسة شريعة لانفسهم وبموجب قوانين تقرُّ ضمائرهم بانها عادلة وان كان الاساس غامضًا عنّا ولم يشأْ الباريء تعالى ان يكشفهُ لنا. ثانيًا اذ كنا جميعًا لسنا الّا خزفًا بيد الخزّاف كان لا يحقُّ لنا ان نقول لجابلنا لماذا جبلتنا هكذا

شعرٌ

كم عالمٍ عالمٍ ضاقَتْ مَذَاهِبُهُ وجاهلٍ جاهلٍ تراهُ مَرْزُوقا

هذا الّذي حيَّر الأَفهامَ قاطبةً وصيَّر العالِمَ النحريرَ زِنْديقا

والآن ارجع الى الكلام عن رفيقي الجديد فاقول اني سررت بهِ وكنت اجتهد في تعليمهِ كل ما من شانهِ ان يجعلهُ مفيدًا ومريحًا ومساعدًا لي وعلى الخصوص ما يجعلهُ يكلّمني ويفهم مني اذا كلَّمتهُ. وكان من انبه التلاميذ يقبل التعليم بالفرح ويجتهد في اكتساب الفوائد ويسرُّ جدًّا عندما يقدر ان يُفهِمني او يفهم مني حتى اني كنت اتلذذ كثيرًا بالكلام معهُ. وصارت عيشتي حينئذٍ هيّنة ليّنة مترفّهة حتى صرت اقول في نفسي انهُ لو امكن ان اكون في امانٍ من جهة البرابرة كنت لا اطلب ابدًا الانتقال من ذلك الموضع ومفارقة تلك الجزيرة

الفصل الثالث والعشرون

اجتهاد روبنصن كروزي في تهذيب خادمهِ جمعة وتعليمهِ

ثم بعد رجوعي الى قلعتي بثلاثة او اربعة ايام قلت في نفسي انهُ لكي يمكنني ان اصلح احوال جمعة وحاسيَّاتهِ وانزع منهُ الميل المفرط نحو اكل لحم الناس يجب ان أُذيقهُ لحم الحيوانات. فذهبت بهِ ذات يومًا صباحًا الى الاحراش وكانت لي نيَّة ان اذبح جديًا من قطيعي الاهليّ وآتي بهِ الى المنزل واشويهُ. ولكن في ما كنت ذاهبًا في الطريق رايت عنزة مضطجعة في ظلّ شجرةٍ وجديَين مضطجعَين بجانبها. فامسكت جمعة من كتفهِ وقلت لهُ اصبر قِفْ هنا واشرت اليهِ ان لا يتحرَّك. ثم صلَيت بارودتي واطلقتها فاصبت احد الجديين. وان جمعة المسكين الذي كان قد رآني عن بعد اقتل ذلك البربريّ عدوّهُ الاَّ انهُ لم يعلم ولا تصوَّر كيف كان ذلك اندهش منذهلاً وجعل يرتجف مرتعدًا وكان خائفًا جدًّا حتى ظننت انهُ يسقط الى الارض مُغمًى عليهِ. فانهُ لم يرَ الجدي الذي رميتهُ بالرصاص ولا عرف اني قتلتهُ بل كان يرفع جبتَّهُ ليرى اذا كان هو لم يُجرَح وظهر لي بعد قليل انهُ كان يظنُّ اني عازمٌ على قتلهِ. لانهُ اتى وركع ساجدًا لي واحتضن ركبتيّ وقال اشياء كثيرة لم افهمها الاَّ اني رأيت بسهولةٍ ان قصدهُ بذلك هو ان يترجَّاني ان لا اقتلهُ

ثم وجدت بعد قليلٍ طريقةً لاقناعهِ باني لا اريد ان اضرَّهُ. فامسكتهُ بيدي واوقفتهُ وضحكت عليهِ ثم اشرت الى الجدي الذي قتلتهُ وقلت لهُ ان يذهب ويأتي بهِ وللحال فعل كما امرتهُ. وبينما كان متعجّبًا ينظر ليرى كيف قُتِل ذلك الجدي المسكين دككت ايضًا بارودتي. ثم بعد قليل رايت طائرًا كبيرًا كالباشق واقفًا على شجرة على مسافة رمية رصاص مني فافهمت جمعة قليلاً ماذا اريد ان افعلهُ وذلك اني دعوتهُ اليَّ واومأت الى الطائر وكان في الحقيقة ببغاءً مع اني كنت ظننتهُ باشقًا ثم اشرت اليهِ والى بارودتي والى الارض التي تحت الببغاة لكي اريهُ اني اطلق البارودة واقتل ذلك الطائر. وفي الحال اطلقت البارودة وقلت لجمعة ان ينظر

فراى حالًا الطائر يسقط الى الارض. فوقف كأنهُ كان لا يزال خائفًا مع كل ما قلتهُ وفعلتهُ. وكان يزيد تعجبًا لانهُ لم يرني اضع في البارودة شيئًا بل كان يظنُّ



جمعة يخاطب البارودة

انهُ يوجد فيها مبدأٌ عجيبٌ للموت والهلاك قادرٌ على اماتة انسان او وحش او طائرٍ او شيءٍ آخر مهما كان قريبًا كان ام بعيدًا. وكان التعجُّب الذي احدثتهُ

البارودة فيهِ موثّرا جدًّا لم يفارقهُ الاَّ بعد مدةٍ طويلة. واظنُّ اني لو سمحت لهُ كان عبدني وعبد بارودتي. فاما البارودة فانهُ كان لا يشاء ان يقرب منها او يمسها الى مدة طويلة بعد ذلك الوقت. الاَّ انهُ كان وهو منفرد وحدهُ يتكلّم معها ويخاطبها كأنها كانت تجاوبهُ. وقد فهمت منهُ في ما بعد انهُ كان يطلب منها ان لا تقتلهُ. ثم بعد ان زالت قليلاً دهشتهُ من ذلك اشرت اليهِ ان يركض ويأتي بالطائر الذي رميتهُ ففعل ذلك الاَّ انهُ بقي مدةً وذلك لان الببغاة اذ كانت لم تمُت بعدُ كانت قد نطنطت وابعدت قليلاً عن الموضع الذي سقطت فيهِ غير انهُ وجدها اخيرًا والتقطها واتى بها اليَّ. واذ كنت قد عرفت جهلهُ في امر البارودة استغنمت تلك الفرصة لدكّها ايضًا من دون ان يراني لاكون مستعدًّا لاطلاقها على ما عسى ان اصادفهُ من الطرايد في الطريق. الاَّ اني لم اصادف شيئًا في ذلك الوقت. وهكذا اتيت بالجدي الى البيت وسلختهُ تلك الليلة وقطعتهُ على قدر معرفتي في صناعة القصابة واذ كان عندي مرجل يصلح لسلقهِ سلقت فيهِ بعضًا من اللحم وعملت منهُ مرقة جيّدة لذيذة. وبعد ان اكلت قليلاً ناولت جمعة قليلاً فسرَّ بهِ والظاهر انهُ احبَّهُ. وكان من اغرب الامور عندهُ اكلي ملحًا مع اللحم. واشار اليَّ ان اكل الملح رديٌّ. ثم وضع قليلاً في فيهِ فاصابهُ تهوُّع وبصق متفتتًا وغسل فمهُ بماءٍ حلوٍ بعدهُ. وعند ذلك وضعت انا قطعة لحمٍ في فمي من دون ملحٍ واخذت ابصق واتقنف لعدم الملح كما فعل هو مع الملح. ولكن لا جدال في الذوق. وقد بقي مدةً لا يسأل بالكليَّة عن الملح مع لحمهِ او مرقتهِ وقلَّما كان يسأل عنهُ في ما بعد

وبعد ان اطعمتهُ لحمًا مسلوقًا ومرقةً عزمت ان اعمل لهُ اكلةً من اللحم المشويّ. فعلَّقت قطعةً من لحم الجدي بخيط قدَّام النار كما رايت اناسًا كثيرين يفعلون ذلك في انكلترا وذلك اني ركزت عمودين واحدًا على الجانب الواحد وآخر على الجانب الآخر من النار ووضعت عارضةً من راس العمود الواحد الى راس العمود الآخر وربطت الخيط بتلك العارضة فكانت القطعة تدور دائمًا مقابل النار. وان ذلك اعجب جمعة كثيرًا. ولما ذاق اللحم المشويّ هكذا استعمل طرقًا كثيرة

ليخبرني بانهُ احبهُ جدًّا . واما انا فلم اجد صعوبةً في فهم ذلك منهُ . واخيرًا قال لي
انهُ لن ياكل ايضًا لحم بشرٍ ما دام حيًّا فسررت لما سمعت ذلك منهُ

وفي اليوم التالي اشغلتهُ بدقّ الشعير وتذريتهِ با لطريقة التي جرت لي العادة على استعمالها كما علمت فتعلّمَ سريعًا هذا العمل وزادت رغبتهُ فيهِ لمَّا عرف ان المقصود من تلك الحبوب ان يُعمَل منها الخبز. ثم سمحت لهُ ان يراني اعجن واخبز ولم يمضِ الاَّ مدة قصيرة حتى صار قادرًا على عمل تلك الاعمال وغيرها ومهر فيها نظيري

واخذت افتكر حينئذٍ انهُ قد صار عندي فمان ولذلك يجب عليَّ ان اوسّع دائرة ارضي وازيد كميَّة مزروعاتي . فافرزت قطعة كبيرة من الارض وشرعت في عمل سياجٍ لها . وكان جمعة يشتغل فيهِ با لرغبة والنشاط والفرح . واخبرتهُ ان المقصود بذلك العمل انما هو زرع الشعير لاجل عمل خبز يكفينا كلَينا وظهر لي انهُ كان يشعر بانهُ قد صار عليَّ تعب كثير بسببهِ وافهمني انهُ يريد ان يجتهد في المساعدة بقدر استطاعتهِ اذا قلت لهُ ماذا يعمل

وكانت تلك السنة ابهج السنين التي صرفتها قبلاً في تلك الجزيرة . فان جمعة كان قد ابتدأ يتكلَّم قليلاً ويفهم اسامي كل الاشياء التي كنت اطلبها منهُ وكل المواضع التي كنت ارسلهُ اليها. وكان يحدّثني كثيرًا حتى صار يمكنني ان أستفيد قليلاً من لساني مع انهُ كان قبلاً قليل الفائدة اي في امر الحديث . وعدا لذَّة الحديث معهُ كان هو نفسهُ يعجبني كثيرًا . فان بساطتهُ وامانتهُ وحسن اطوارهِ كانت تزيد ظهورًا لي يومًا فيومًا حتى صرت احبهُ حبًّا خالصًا . واما هو فكان يحبّني اكثر مما كان يمكنهُ ان يحبَّ شخصًا آخر غيري ايًّا كان

ثم جال في خاطري ذات يوم ان امتحنهُ لارى اذا كان مُشتاقًا الى بلادهِ . واذ كنت قد علّمتهُ لغتي بحيث صار قادرًا ان يجاوبني عن اكثر الاسئلة التي كنت اسألهُ اياها سألتهُ اذا كانت العشيرة التي هو منها لم تغلب قطُّ في الحرب . فتبسّم عند ذلك وقال بلي بلي كل وكت نهارب الأهسن . اي كل وقت نحارب الاحسن . اراد انهم دائمًا يغلبون في الحرب . وهكذا افتتحنا المحاورة الآتية

روبنصن . اذا كنتم يا جمعة تغلبون دائِمًا في الحرب فماذا حدث حتى أُخِذتَ انت اسيرًا

جمعة . جماءتنا يكلبوا اكتر وان كان

روبنصن . كيف ذلك . اذا كانت جماعتكم يغلبون اكثر فكيف استأسروك

جمعة . هِيِّ كتار اكتر من جماءتي في مطره اللي أَني كان فيهِ هِيِّ باكزوا واهد تنين تلاتي وأَنِي . جماءتي كلبوهم هونيك مطره أَنِي ما كان . هونيك جماءتي اكزوا رِزَّال تنين الف كبير

روبنصن . ولماذا جماعتك ما خلَّصوك من ايدي اعدائِك في ذلك الوقت

جمعة . هِيِّ كطفوا واهد تنين تلاتي واملوهن ينزلوا الكارب . جماءتي ما لهن كارب بهاك الوكت

روبنصن . عافاك يا جمعة وماذا تعمل عشيرتك بالناس الذين يستأسرونهم فهل ياخذونهم الى مكان منفرد وياكلونهم كما فعل هولاء

جمعة . نأَم جماءتِي ياكل الناسات ويزلطوهن كلهن

روبنصن . الى اين ياخذونهم

جمعة . بيروهوا مطره آكر مطره بيفتكروا

روبنصن . وهل ياتون الى هنا

جمعة . نأَم نأَم بيزوا هوني وبيزوا مطره اكر

روبنصن . وهل جئت انت معهم الى هنا قبلاً

جمعة . نأَم جنتي الى هونيك . وعند قولهِ هونيك اشار الى الشمال الغربيّ من الجزيرة الذي يبان انهُ جانبهم الذي كانوا ياتون اليهِ

فظهر لي من ذلك ان خادمي جمعة كان قبلاً واحدًا من البرابرة الذين كانت لهم عادةٌ ان يتردَّدوا الى الجانب الآخر من الجزيرة لكي ياكلوا الناس كما كان هذه المرة واحدًا من الذين أُتِي بهم ليُؤكَلوا من البرابرة . ثم بعد ذلك بمدة عند ما صارت لي جراءة ان اذهب بهِ الى تلك الجهة عرف حالاً الموضع وقال لي انهُ اتى الى

هناك مرةً مع جماعتهِ وأكلوا عشرين رجلاً وامرأتين وولدًا. وهو لم يعرف ان يقول عشرين بلغتي بل عبَّر عن ذلك بواسطة عشرين حصاةً صفَّها واشار اليَّ ان اعدَّها

وبعد ان فرغنا من تلك المحاورة سألتهُ عن مقدار بُعد القارَّة عن جزيرتنا واذا كانت القوارب لا تضيع احيانًا. فاجابني انهُ لا يوجد خطر والقوارب لا تضيع ابدًا. واخبرني انهُ يوجد في البحر بعيدًا قليلاً عن الجزيرة تيَّارٌ وريحٌ يتجهان الى جهة واحدة قبل الظهر والى جهة اخرى بعدهُ. فلاح لي حينئذٍ ان ذلك انما هو المدُّ والجزر. ولكن فهمت في ما بعد انهُ مسبَّب عن حركة نهر اورونوكو العظيم الذي وجدت اخيرًا ان موقع جزيرتنا هو على مصبّهِ. وان الارض التي رايتها الى الغرب والى الشمال الغربيّ هي جزيرة ترينيداد العظيمة الواقعة شماليَّ مصبّ ذلك النهر. وسألت جمعة آلافًا من الاسئلة عن البلاد والاهالي والبحر والساحل وعن الشعوب القريبة فاخبرني بكل ما يعرفهُ من هذا القبيل وذلك بكل بساطة وحريَّة. ثم سألتهُ عن اسامي قبائل شعبهِ فلم اقدر ان احصل الاَّ على اسم كاريب ففهمت من ذلك بسهولة ان تلك هي الكاريبات التي تضعها خارتاتنا في قسمٍ من امركا ممتدٍ من فم نهر اورونوكو الى غويانا ومن هناك الى سنتا مرتا. وقال لي انهُ على مسافة بعيدة وراء [illegible] عبر [illegible] النهر الذي هو غربيّ بلادهم يسكن قوم بيض ملتحون نظيري مشيرًا الى شاربيَّ الكبيرين اللذين ذكرتهما قبلاً. وانهم قد قتلوا اناسًا كثيرين. فاستدللت من ذلك انهُ اراد باولئك الناس اهالي سبانيا الذين اشتهرت في كل بلاد قساوتهم في امركا وكان يذكرها جميع الشعوب يتناقلونها خلفًا عن سلفٍ

ثم سألتهُ هل يمكنني ان اذهب من الجزيرة الى اولئك القوم البيض. فقال نعم يمكنك ان تذهب في قاربَيْن. ولكن لم اقدر ان افهم ماذا عنى بقولهِ قاربَيْن ولا ان اجعلهُ يوضح لي مرادهُ بذلك. الاَّ اني فهمت اخيرًا وذلك بصعوبة عظيمة ان مرادهُ انهُ يجب ان يكون القارب كبيرًا بقدر قاربَيْن. وكنت التذُّ كثيرًا بحديث جمعة في هذا البحث. وانفتح لي حينئذٍ باب امل في اني ساحصل في احد الاوقات

على فرصة للهرب والنجاة من تلك الجزيرة وان ذلك البربريَّ المسكين سيكون واسطة لمساعدتي في نوال مقصدي

شعرٌ

بقدرِ لُغَاتِ المرءِ يكثرُ نفعهُ وتلكَ لهُ عندَ الشدائدِ أعوانُ
فبادِرْ الى حفظِ اللُّغاتِ مسارعًا فكلُّ لسانٍ بالحقيقةِ إنسانُ

الفصل الرابع والعشرون

بناه روبنصن كروزي وجمعة قاربًا للذهاب الى بلاد جمعة ومجيء برابرة الى الجزيرة في تلك الاثناء

وبعد ان تمكّنت المعرفة والصداقة بيني وبين جمعة وصار يفهم كلّ ما اقولهُ لهُ تقريبًا ويتكلّم بلغتي كلامًا مفهومًا الاّ انهُ مكسّرٌ قصصت عليهِ قصّتي وعلى الخصوص اخبار اتياني الى تلك الجزيرة وكيفيّة عيشتي فيها ومدة اقامتي هناك. وكشفت لهُ سرّ البارود والرصاص وعلّمتهُ كيف يستعمل البارودة واعطيتهُ سكّينًا فسرّ بهِ جدًّا. وعملت لهُ زنّارًا من جلد جعلت لهُ شبه حميلة كالتي نعلّق بها اليطفانات في انكلترا. واعطيتهُ بلطة ليعلّقها بتلك الحميلة عوض اليطفان. وكانت البلطة مفيدة في بعض الاحوال كاليطفان وانفع منهُ كثيرًا في احوال أُخَر

واخذت أَصِف لهُ بلاد اوروبا وعلى الخصوص انكلترا التي هي بلادي. واخبرتهُ كيف نعيش هناك وكيف نعبد الله ونعامل بعضنا بعضًا ونسافر بحرًا في مراكب كبيرة الى جهات مختلفة من العالم. واخبرتهُ عن المركب الذي انكسر بي ودللتهُ على الموضع الذي انكسر فيهِ وكان حينئذٍ قد تكسّر قطعًا وتبدّد ولم يبقَ لهُ اثر. واريتهُ بقايا القارب الذي ضيعناهُ لما غرقنا والذي لم اكن اقدر حينئذٍ ان ازحزحهُ بكل قوتي وكان الآن قد صار كلهُ قطعًا متبددةً. وان جمعة لما راى

بقايا ذلك القارب وقف مدة يتفرّس متحيّرًا فيها ولم يقل شيئًا فسألتهُ عمَّا كان يتأمَّل فيهِ. واخيرًا قال أنّي يشوف كارب هذا مثل برُوه مطرة جماءتي. فبقيت مدة لا افهم ماذا يعني الاَّ اني اخيرًا بعد التامُّل في عبارتهِ فهمت ان قاربًا كذا ك القارب اتى الى البلاد التي كانت تسكن فيها جماعتهُ اي انهُ دُفع الى هناك بقوة الريح كما اوضح ذلك. فلاح لي حالاً انهُ يجب ان يكون مركب اوربيّ قد دُفع الى شطوط بلادهِ وان قاربًا افلت منهُ وطلع الى البرّ. وكان عقلي مظلمًا بهذا المقدار حتى انهُ لم يخطر ببالي انهُ ربما هرب الى هناك قومٌ من مركب مضيّع ولا ان اسأل عن المكان الذي اتوا منهُ بل انما سألت فقط عن وصف ذلك القارب

فوصف جمعة القارب جيّدًا الاَّ اني فهمت مرادهُ احسن عند قولهِ بحرارةٍ نَهنْ نكلّص الناسات البيض من تهت. يريد نحن خلّصنا الناس البيض من تحت الماءِ يعني الغرق. فسألتهُ هل كان اناس بيض في القارب. فاجاب بالايجاب وبان القارب كان مملوًّا منهم. فسألتهُ كم كانوا. فعدَّ على اصابعهِ سبعة عشر. فسألتهُ وماذا اصابهم. فقال ما معناهُ انهم لم يزالوا احياءً وانهم ساكنون مع عشيرتهِ

وان ذلك جعل في دماغي افكارًا جديدةً. لاني حالما سمعت ذلك افتكرت ان اولئك القوم ربما كانوا من بحرية المركب الذي انكسر مؤخرًا مقابل جزيرتي. فكأنهم بعد ان لطم مركبهم الصخر ويئسوا من خلاصهِ نزلوا في قاربهم وخرجوا على الشاطي المقفر بين البرابرة. وعند ذلك سألتهُ بتدقيقٍ عمَّا اصابهم فاكَّد لي انهم لا يزالون الى الآن مقيمين هناك احياءً وانهُ قد مضى عليهم هناك نحو اربع سنين. وان البرابرة لم يؤْذوهم بل اعطوهم طعامًا ليأْكلوا. فسألتهُ وكيف لم يقتلوهم وياكلوهم. فاجاب انهن يأْملوا إِكوة مأْهن. اي انهم يعملون اخوة معهم يريد انهم عقدوا معهم عهدًا. ثم قال انهم ما بياكلوا ناسات الاَّ لمَّا يهارب الكتال. اي انهم لا ياكلون من الناس الاَّ من قاتلهم واستاسروهُ في الحرب. فكان المسكين في اول الامر لا يحُسِن النطق ببعض الحروف بل كان في الغالب يبدل الغين والخاءَ والقاف كافًا والغين همزةً والحاءَ هاءً ويغلط كثيرًا في تركيب الجمل ولا يميّز الاَّ نادرًا

بين صيغ الافعال باعتبار الزمان ولا بين الاجناس كما رأيت

ثم بعد ذلك بمدةٍ بينما كنت على راس التلّ على الجانب الشرقيّ من الجزيرة الذي ذكرت اني كشفت منهُ في يومٍ رائقٍ قارّة امركا فاذ كان الجوّ صافيًا اخذ جمعة ينظر محدّقًا نحو القارّة واذا بهِ قد جعل ينطنط ويرقص باندهاش ويناديني قائلاً يا مأّلي يا مأّلي . لاني كنت بعيدًا عنهُ قليلاً . فسألتهُ ما بالك يا جمعة . فقال ما معناهُ يا لفرحي يا لسروري انظر هناك بلادي هناك عشيرتي . فلاحظت على وجههِ علامات الشعور بفرح خارق العادة . وكانت عيناهُ تلمعان وكان يلوح على وجههِ علامات شوق مفرط نحو التوجُّه الى بلادهِ . فلما لاحظت تلك الامارات منهُ جال في خاطري افكار كثيرة جعلتني في اول الامر غير مرتاحٍ من جهتهِ كما كنت في السابق ولم اكن اشكُّ انهُ اذا امكنهُ الرجوع الى عشيرتهِ سينسى كلّ ديانتهِ وكلّ معروفي معهُ ايضًا ويخبر ابناءَ وطنهِ باحوالي وربما يرجع بماية او مايتين منهم فيعملون مني وليمة يتنعمّ فرحًا بها كما كان يتنعمّ بالولائم من اعدائهِ الذين أُخِذوا في الحرب . الاّ اني ظلمت كثيرًا ذلك الخادم المسكين الامين بهذه التهم وحزنت في ما بعد من جرى ذلك حزنًا شديدًا . واذ كانت ظنوني قد زادت وبقيت مستولية على حاسيّاتي عدة اسابيع كنت اكثر حذرًا منهُ واقلّ التفاتًا نحوهُ من السابق . وقد اخطأت لا محالة في ذلك ايضًا . فان ذلك الخادم الامين صاحب المروّة والوفاء لم يفتكر بذلك الاّ افكارًا تطابق احسن مبادي مسيحيٍّ تقيٍّ وصديقٍ وفيٍّ كما اتضح لي ذلك جليًّا في ما بعد

وكنت في تلك المدة اجتهد في استكشاف باطنهِ لارى هل يوجد عندهُ شيءٌ من الافكار الجديدة التي كنت اظنها فيهِ فوجدت ان كل ما قالهُ كان يدلّ على امانتهِ وبراءتهِ حتى اني لم اجد شيئًا يعضد ظنوني فيهِ ومع كل ما كان فيَّ من عدم الراحة والريب من جهتهِ ملك اخيرًا قلبي كالسابق . واذ لم يكن يعرف شيئًا من اضطرابي بسببهِ لم يكن لي وجهٌ لان اظنّ فيهِ الرياء والخداع

وبينما كنا ذات يوم طالعَين على ذلك التلّ نفسهِ وكان الجوّ فوق البحر مغبرًا

حتى انهُ لم يكن يمكننا ان نرى القارّة دعوتهُ وقلت لهُ يا جمعة اما بتمنّى احيانًا وتودّ لو كنت في بلادك وبين عشيرتك. فاجاب بلى اني كنت اسرُّ جدًّا واطير فرحًا. فقلت لهُ وماذا تعمل هناك اترجع الى حالة التوحُّش وتاكل لحم الناس وتصير بربريًّا ايضًا كما كنت قبلاً. فلاحت عند ذلك علامات الحزن على وجههِ وهزَّ براسهِ وقال كلاَّ بل انما ساعلّمهم ان يعيشوا عيشة صالحة وان يصلُّوا الى الله وياكلوا خبز شعير ولحم حيوانات وحليبًا. فقلت لهُ اذا فعلت ذلك فانهم يقتلونك. فاجاب بحدَّةٍ وقال كلاَّ كلاَّ انهم لا يقتلونني لانهم يحبُّون ان يتعلَّموا وقد تعلَّموا اموراً كثيرة من الرجال الملتحين الذين جآءوا في ذلك القارب. ثم سألتهُ هل يريد ان يرجع اليهم. فتبسَّم عند ذلك وقال انهُ لا يقدر ان يقطع كل تلك المسافة سباحةً. فقلت لهُ اني اصطنع لك قاربًا. فقال انهُ يذهب اذا ذهبت معهُ. فقلت أأنا اذهب اني اخاف ان ياكلوني اذا ذهبت الى هناك. فقال كلاَّ كلاَّ اني لا أدَعهم ياكلونك بل اجعلهم يحبُّونك كثيرًا. اي انهُ سيخبرهم كيف قتلت عدوَّيهِ وخلَّصت حياتهُ وهكذا يجعلهم يحبُّونني. ثم اخبرني بقدر امكانهِ عن معاملتهم بالمعروف والمحبة اولئك الرجال البيض الملتحين كما كان يدعوهم الذين خرجوا الى البرّ هناك في حالة الضيقة

فابتدأت من ذلك الوقت افتكر بالاجتياز الى تلك القارّة لارى اذا كان يتيسَّر لي لقاة اولئك القوم الملتحين الذين لم يكن عندي شكٌّ في كونهم من اهالي سبانيا والبرتوغال. ولم اكن اشكُّ في اني اذا توجَّهت الى هناك اجد طريقة للهرب مع اولئك القوم من ذلك الموضع لاننا نكون في قارّة وجهوراً كبيرًا احسن ممَّا يمكنني ان اجدهُ في جزيرة بعيدة اربعين ميلاً عن القارّة وانا وحدي من دون مساعد. وهكذا بعد ايام قليلة استأنفت الحديث مع جمعة وقلت لهُ اني اعطيهِ قاربًا يذهب فيهِ الى عشيرتهِ. ثم ذهبت بهِ الى قبقي الذي كان راسيًا على الجانب الآخر من الجزيرة وبعد ان افرغت الماَء منهُ لاني كنت دائمًا اغرقهُ تحت الماَء اخرجتهُ واريتهُ اياهُ ودخلنا كلانا فيهِ. فوجدت انهُ كان ماهرًا خفيفًا في

تدبيرهِ وكان بجعلهُ يمشي بسرعة مضاعفة تقريبـًا . وبعد ان ابعدنا قليلاً قلت لهُ يا جمعة هل نذهب الآن الى عشيرتك . فجمد عند ما سمع ذلك والظاهر ان ذلك كان لانهُ راى ان القارب صغيرٌ على تلك السفرة . فاخبرتهُ عند ذلك بانهُ يوجد عندي قارب اكبر منهُ . وفي الغد ذهبت بهِ الى الموضع الذي كان فيهِ ذلك القارب الذي كنت قد عملتهُ ولكن كنت لم استطع ان انزلهُ الى البحر لكبرهِ . فلمَّا رآهُ قال هزي كبيري بيكفّي . الاَّ اني اذ كنت قد هجرت ذلك القارب ولم اكن اعتني بهِ وكان قد مضى عليهِ اثنتان وعشرون او ثلاث وعشرون سنة في ذلك المكان كانت الشمس قد شقَّقتهُ وجفَّفتهُ حتى كان قد رثَّ كثيرًا وكاد يبلى . فقال لي جمعة ما معناهُ ان مثل ذلك القارب يصلح للسفر فيهِ ويحمل كفاءة من الادام والمشروبات والخبز

واذ كنت في ذلك الوقت عازمًا على الذهاب معهُ الى القارَّة قلت لهُ يجب ان نذهب ونصطنع قاربًا كبيرًا نظيرهُ لكي يذهب هو فيهِ الى وطنهِ . فلم يجب بكلمة بل كان منظرهُ معبسًا كئيبًا . فسأَلتهُ قائلاً ما بالك يا جمعة . فقال ليش انتي مكتاضي كضباني أَبِي جماه سو إِمِلت أَبِي . فسأَلتهُ ماذا يعني بذلك واخبرتهُ باني لم اكن غضبان عليهِ بالكلية . فقال لا كضبان لا كضبان لأ كضبان ليش تدشّري جماه من إِندِك الى بلادو . فقلت لهُ اما قلت انت انك تحبُّ ان تكون هناك . فقال نأَم نأَم أَبِي بتريدي تكوني أَبِي وانتِ هونيك لا بتريدي جماه هونيك لا ماأَّلي هونيك . وبالاختصار انهُ لم يرد ان يفتكر بالتوجُّه الى بلادهِ بدوني . فقلت انا اذهب يا جمعة ولكن ماذا اعمل هناك . وعند ذلك التفت اليَّ بسرعةٍ وقال انتي تأَلّي كتير تيِّب تأَلّي الناسات البرّي بكون تيِّب وناسات جوّي وتكولي لَهُن آرفوا الله صلّوا الله ايسوا إِيسي زديدي . فقلت وا اسفا يا جمعة انت لا تعلم ماذا تقول انا ذاتي انسان جاهل . فقال نأَم نأَم انتي المتبني تيِّب . انتي تالّميهن تيِّب . فقلت لا لا يا جمعة يجب ان تذهب بدوني اتركني هنا اعيش وحدي كما عشت قبلاً . فلمَّا سمع ذلك اضطرب وركض الى بلطة كانت لهُ عادة ان يحملها فخطفها بسرعة

وناولني اياها . فقلت له وماذا ينبغي ان اعمل بها . فقال كزيها اكتلي جماه فيها .
فقلت ولماذا يجب ان اقتلك . فاجاب بسرعة ليس تدسري زماه . كزي اكتلي زماه
لا تدشري زماه من إندك . قال ذلك بحرارة حتى رايت الدموع تجول في عينيهِ .
ولاجل الاختصار اقول اني اطلعت على شدة محبتهِ لي وثبات عزمهِ في الالتصاق
بي فقلت لهُ حينئذٍ وفي ما بعد وذلك مرارًا اني لا اطردهُ ابدًا من عندي ما دام
يريد الاقامة معي

فاطلعت من كلامهِ على صدق محبتهِ لي وتعلقهِ بي بحيث لا يوجد شيء يفصلهُ
عني ووجدت ان رغبتهُ في توجهي الى بلادهِ كانت ناتجةً من شدة محبتهِ لشعبهِ
واملهِ في اني افيدهم . ولكن اذ لم يكن لي ميل الى ذلك لم يكن لي ادنى فكر او
قصد او رغبة في عملهِ . الا انهُ كانت لي رغبة شديدة في محاولة النجاة كما ذكرت قبلاً
وذلك بناءً على ما كنت قد استنتجتهُ من كلامهِ وهو انهُ يوجد هناك سبعة عشر
رجلاً ملتجئون . ومن ثم اخذت من دون ابطاء ايضًا في التفتيش على شجرة كبيرة تصلح
للتجويف لعمل قارب كبير او كما يقال شختور يمكننا ان نسافر فيهِ . وكان في الجزيرة
اشجار كافية لبناء عمارة صغيرة ليس من القوارب فقط بل من المراكب الكبيرة
ايضًا . ولكن المقصد الكبير عندي انما كان ان اجد شجرة قريبة الى الماء بحيث
نقدر ان ننزلها الى البحر عند تتميمها احترازًا من الوقوع في الغلط الذي وقعت فيهِ
سابقًا . واخيرًا اختار جمعة شجرة لاني رايت انهُ كان اخبر مني في امر الاشجار التي هي
اكثر صلاحيةً لذلك . ولم اعلم ولا اعلم الآن ماذا كانت الشجرة التي قطعناها .
وكان جمعة عازمًا على احراق لبّ تلك الشجرة لاجل تجويفها الا اني علّمتهُ كيف يحفرهُ
بواسطة الآلات . وبعد ان بيّنت لهُ كيفية استعمالها كان يستعملها بكل رشاقة وخفّة .
وبعد ان صرفنا نحو شهر في الشغل بالاجتهاد تمّمناهُ وكان لطيفًا جدًّا ولا سيما
عندما نجّرنا خارجهُ وجعلناهُ على هيئة قارب وذلك بواسطة الفؤوس التي علّمت
جمعة كيف يشتغل بها . ثم صرفنا نحو اسبوعين في نقلهِ الى البحر وذلك بالتدريج
على اسافين من خشب ولما صار على ظهر الماء كان قادرًا على حمل عشرين راكبًا

وذلك بكل سهولةٍ

وقد تعجبت غاية العجب من رشاقة خادمي جمعة وخفَّتهِ في تدبير ذلك القارب الكبير وتدويرهِ وتمشيتهِ. فسألتهُ هل يمكننا ان نسافر فيهِ بامان الى القارَّة وهل يريد هو ان يذهب فيهِ فاجاب بالايجاب قائلاً اننا نقدر ان نسافر فيهِ مهما كانت الريح شديدة. وقد كان لي مقصد آخر لم يكن يعلم شيئًا من امرهِ وهو ان اعمل ساريًا وقلعًا وان ادبّر لهُ مرساةً وقلسًا. اما الساري فلم تكن صعوبة في تدبيرهِ. فاني وجدت لذلك شجرة ارز مستقيمة صغيرة بالقرب من الموضع وكان في الجزيرة اشجار كثيرة من جنسها. فاشغلت جمعة بقطعها وعلَّمتهُ كيف ينجرها ويجعلها على هيئة سارٍ. واما القلع فاني كنت مهتمًا اهتمامًا خصوصيًا بشانهِ. وكنت اعلم انهُ يوجد عندي قلوع عتيقة او بالحري قطع من قلوع عتيقة بكثرة ولكن اذ كان قد مضى عليها عندي ستٌّ وعشرون سنة ولم اعتنِ بها كما يجب لانهُ لم يخطر ببالي اني ساكون في حاجةٍ اليها لم اكن اشكُّ ان اكثرها كانت قد صارت راثَّة وبالية وبالحقيقة كان اكثرها كذلك. الاَّ اني وجدت بينها قطعتين كان يبان انهما كانتا صحيحتين قليلاً فاخذت اعالجهما. وبعد تعب كثير وخياطة عكشة كما لا يخفى لعدم وجود الإبَر عندي عملت قطعة شنيعة ذات ثلاث زوايا تشبه ما نسمّيهِ في انكلترا بقلع الكتف ثم ركّبتها على خشبة عموديَّة في اسفلها وخشبة عارضيَّة في اعلاها حتى صارت نظير قلوع قواربنا التي نسافر فيها ونظير قلع كوثري الذي هربت فيهِ من الجزائر كما علمت في اول قصَّتي. فصرفت نحو شهرين في تجهيز قاربي وعمل القلع والساري وعمل دفَّة لهُ لاجل تدويرهِ وتدبيرهِ. وقد كلَّفني ذلك اتعابًا كثيرة ووقتًا طويلاً بقدر عمل القارب نفسهِ تقريبًا

فلما فرغت من عمل ذلك جميعهِ اخذت اعلّم خادمي جمعة صناعة السفر في قاربي لانهُ لم يكن يعرف شيئًا مما يتعلّق بالقلع والدفَّة بل كان خبيرًا بامر التجذيف فقط. وتعجّب جدًا لما رآني احوّل القارب بسهولة وامشيهِ حيثما شئت بواسطة الدفَّة وكيف كان القلع يمتلئ هواءً بحسب تغيُّر الطريق التي كنا نسير فيها.

واخذتهُ الدهشة والحيرة من ذلك الأّ انهُ بواسطة الممارسة قليلاً انكشف لهُ ما غمض من اسرار تلك الامور حتى صار مجربًا ماهرًا. واما الحكُّ فاني لم استطع ان اعلّمهُ الأّ قليلاً عن فوائدهِ وكيفية استعمالهِ. غير انهُ اذ كانت الغيوم نادرة الوجود في تلك الجهات والضباب معدومًا بالكلية كان لزوم الحكّ قليلاً لان النجوم كانت تُرَى دائمًا نهارًا واليابسة ليلاً الأّ في فصول المطر. وليس من يطلب حينئذٍ السفر من بيتهِ لا برًّا ولا بحرًا

وكنت قد دخلت حينئذٍ في السنة السابعة والعشرين من سبيي في تلك الجزيرة الأّ ان الثلاث سنين الاخيرة التي كان فيها خادمي جمعة عندي يجب بالأَولَى حذفها من الحساب لان اقامتي كانت تختلف اختلافًا تامًّا عن باقي المدة باسرها. وقد عيَّدت عيدي السنوي هناك مؤدّيًا الشكر لله على مراحمهِ كما فعلت اولاً. واذ كانت لي اسباب حملتني على الاعتراف والشكر في البداية كان لي الآن اسباب اكثر تحملني على ذلك. اذ كان قد صار لي شهادات وادلّة كثيرة زيادة عن الاولى تعلن لي عناية الله بي وآمال كبيرة في اني ساحصل بعد قليل على نجاة تامّة لانهُ كان قد تصوَّر راسخًا في ذهني ان نجاتي كانت قريبةً حتى اني كنت احسب اني لا ابقى سنة اخرى في تلك الجزيرة. غير اني كنت اداوم امر زراعتي واحرث واغرس واسيّج كجاري عادتي واجني واجفّف واخزن عنبي واعمل كل ما يلزم عملهُ كالسابق

وكان قد اقبل عليَّ في تلك الاثناء فصل الشتاء فكنت اصرف داخل منزلي اوقاتًا اكثر من باقي الازمنة وكنا قد وضعنا قائقنا في محلّ امان بقدر الامكان واصعدناهُ الى النهر الصغير حيث خرجت باطوافي اولاً كما سبق ذكرهُ وبعد ان حصّناهُ الى الشاطي الى اعلى علامات الماء جعلت جمعة يحفر خليجًا يسعهُ ويسع ماء كافيًا لان يرفعهُ عن الارض. ثم لما انكفأ المدُّ بنينا سدًّا قويًّا في مدخلهِ يمنع دخول الماء اليهِ. وهكذا كان في امانٍ من جهة مياه البحر عند ارتفاع المدّ. ولاجل منع مياه المطر عنهُ وضعنا فوقهُ اغصانًا كثيرة من الاشجار حتى كان كانهُ داخل بيتٍ مسقوف. وهكذا كنا ننتظر قدوم شهرَيْ تشرين الثاني وكانون الاول اللذين

عزمت على السفر فيها

فلما ابتدأ فصل الصحو يُقبل اخذت اتهيأُ للسفر فاعددت اولاً كمية من الزاد للطريق وعزمت ان افتح السدَّ بعد اسبوع او اسبوعَين وانزل قاربي الى البحر. وفي ما كنت ذات يوم صباحًا مشتغلاً في التجهيز دعوت جمعة وقلت لهُ ان يذهب الى جانب البحر وياتي بسلحفاةٍ وكانت لنا عادة ان ناتي كل اسبوع بسلحفاةٍ واحدة طمعًا في بيضها ولحمها. وبعد انصرافهِ عني بقليلٍ رجع اليَّ راكضًا ووثب عن سوري الخارجيّ كانهُ لم يكن يشعر بالارض او الدرجات التي كان يدوسها. وقبلما حصلت لي فرصةٌ لان اسألهُ ناداني قائلاً يا مألّي يا مألّي يا هسرتي يا وياتي. فقلت لهُ ما بالك يا جمعة. فقال هونيك واهد تنين تلاني كارب واهد تنين تلاني كارب. ففهمت من كلامهِ هكذا انهُ يوجد ستة قوارب الاَّ انني لدى الفحص وجدت انهُ لم يكن الاَّ ثلاثة. فقلت لهُ لا بأْس يا جمعة لا تخف وهكذا شجعتهُ بقدر استطاعتي. وكان المسكين قد اعتراهُ خوفٌ شديدٌ لانهُ لم يدخل شيءٌ في بالهِ الاَّ انهم انما اتوا لاجل التفتيش عليهِ لكي يقطعوهُ اربًا وياكلوهُ. وكان يرتعد مرتجفًا حتى انني لم اعلم ماذا اعمل بهِ. فاخذت اعزّيهِ بقدر الامكان وقلت لهُ انني في خطرٍ نظيرهُ فسوف ياكلونني كما ياكلونهُ. ثم قلت لهُ ولكن يجب ان نحاربهم. فهل نقدر ان تحارب يا جمعة. فقال أني كوّص واما هُمّي بيزوا كتار كتير. فقلت لهُ لا باس من ذلك فان بواريدنا تخيفهم ولو لم نقتلهم. ثم سألتهُ هل اذا عزمت على المحاماة عنهُ يحميني ويقف بجانبي ويعمل كما اقول لهُ. فقال أني بموتي ان كلتي لي انتي موني. فذهبت واتيت بقليل من الروم وسقيتهُ اياهُ. لاني كنت اوفر ما كان عندي من ذلك حتى انهُ كان باقيًا عندي منهُ الى ذلك الوقت كميّةٌ وافرة. فلما شرب ذلك امرتهُ ان ياخذ بارودتَي الصيد اللتين كنا لا ندعهما تفارقاننا البتة ودككتهما بخردق كبير بقدر رصاص الطبنجات ثم تناولت اربع بواريد حربيَّة ودككت كلاًّ منها برصاصتين كبيرتين وخمس رصاصات صغار. ثم دككت كلاًّ من طبنجتيَّ بزوج رصاص. ثم تقلّدت سيفي على فخذي من دون غمد كجاري عادتي وناولت جمعة

بلطتهُ. وبعد ان تهيأنا هكذا اخذت نظارتي وطلعت على التل لارى ماذا يوجد على الشاطي ففي الحال رأيت من نظارتي انهُ يوجد هناك واحد وعشرون بربريًّا وثلاثة اسرى وثلاثة قوارب. ووجدت ان مصلحتهم الوحيدة انما كانت عمل وليمة ظفرٍ من اجسام اولئك الثلاثة الاسرى. تبًّا لها من وليمة بربريّة. ولكنهم لم يكونوا معتادين شيئًا اكثر من ذلك كما لاحظت تكرارًا. ورايت انهم قد خرجوا الى الشاطي لا حيث كان جمعة قد هرب منهم قبلاً بل في مكان اقرب الى نهري حيث كان الشاطي منخفضًا كثيرًا وكان حرش يمتدُّ حتى يكاد يصل الى البحر. فان ذلك وكراهة العمل الذي كان اولئك الاشقياء قد اتوا لتتميمهِ ملأاني غيظًا منهم حتى اني نزلت عن التل الى جمعة وقلت لهُ مرادي انزل اليهم واقتلهم عن آخرهم. وسألتهُ هل يساعدني على ذلك. وكان حينئذٍ قد خلص من خوفهِ وكانت حاسباتهُ قد انتبهت قليلاً بواسطة الروم الذي سقيتهُ اياهُ وكان فرحًا مبتهجًا فقال لي كما قال قبلاً انهُ يموت اذا امرتهُ ان يموت

وبينما كنت مستشيطًا غضبًا اخذت الاسلحة وقسمت ما دككتهُ منها بيني وبين جمعة. فاعطيت جمعة طبنجة لكي يضعها في منطقتهِ وثلاث بواريد لكي يحملها على كتفهِ. واخذت انا طبنجة والثلاث البواريد الباقية وهكذا اخذنا في السفر. ووضعت في جيبي قنينة صغيرة من الروم واعطيت جمعة كيسًا كبيرًا فيهِ بارود ورصاص. وقلت لجمعة ان يبقى دائمًا وراءي ملاصقًا اياي وان لا يتحرَّك ولا يطلق بارودة ولا يعمل شيئًا ما لم أَقل لهُ. وكذلك امرتهُ ان لا ينطق بكلمة بل يبقى صامتًا. فقطعت في تلك الحالة مسافة ميل تقريبًا الى يميني لكي اجتاز النهر وادخل الحرش واصير على مسافة مرمى رصاص منهم قبل ان يروني. وكنت قد اطَّلعت بواسطة نظارتي ان ذلك امرٌ ممكنٌ سهلٌ

وبينما كنت آخذًا في طريقي وجمعة يسعى في اثري رجعتْ اليَّ افكاري القديمة فاخذ عزمي يضعف. ولا اقول انهُ اعتراني ادنى خوف بسبب كثرة عددهم. لانهم اذ كانوا عراة لا سلاح معهم كنت لا محالة اقوى منهم حتى ولو كنت وحدي. فقلت

في نفسي من انتدبني الى ان اذهب والطخ يدي في الدم وافتك بقوم لم يتعرضوا لي ولا قصدوا ان يلحقوا بي اذى وماذا يحملني او يلجئني الى هذا العمل . انهم ابرياء بالنظر اليَّ وعاداتهم البربرية انما هي هلاك لهم تدلُّ على ان الله قد تركهم مع باقي الامم الموجودين في ذلك القسم من العالم في تلك الحالة من الجهل والتوحش . الاَّ انهُ تعالى لم ينتدبني لاكون قاضيًا على اعمالهم وديَّانًا لهم ولا لاجري مقاصد عدلهِ فيهم . وانهُ تعالى متى شاءَ يجري احكامهُ عليهم بيدهِ وينزل بهم ضربات عمومية تاديبًا لهم على ذنوبهم العمومية . واما انا فلا يعنيني ذلك ولا هو مصلحتي . واما جمعة فربما كان لهُ حجة مقبولة في ذلك خلافًا لي لانهُ كان عدوًّا ظاهرًا لهم وفي حالة الحرب مع نفس اولئك القوم . فكان يجوز لهُ ان يفتك بهم . وكانت تلك الامور تشغل افكاري دائمًا وانا ماشٍ على الطريق وتضايقني جدًّا حتى عزمت على ان اذهب فقط واقيم بالقرب منهم لكي ارى وليمتهم البربرية ثم افعل عند ذلك كما يرشدني الله . ولكن اذا لم يحصل شيءٌ يقنعني بان الله يدعوني لان اقع بهم لا اتعرَّض لهم البتة

فبذلك العزم دخلت الحرش وكنت اتقدم بكل هدوٍّ وصمتٍ مختلسًا خطواتي وجمعة يتبعني الى ان وصلت الى ذيل الحرش في الجانب الذي يليهم حتى انهُ لم يكن بيني وبينهم الاَّ قرنة منهُ . وحينئذٍ دعوت جمعة بصوت مهموس خفيٍّ ودللتهُ على شجرة كبيرة كانت في تلك القرنة وقلت لهُ ان يطلع الى تلك الشجرة ويشرف عليهم من ساقه ثم يرجع ويخبرني ماذا كانوا يعملون . فذهب ثم رجع حالاً اي واخبرني بانهُ تمكن رؤْيتهم من هناك واضحًا وبكل سهولة وقال انهم جميعًا حول نارهم ياكلون لحم احد اسراهم . وان اسيرًا آخر كان مطروحًا على الرمل بعيدًا قليلاً عنهم مكتوفًا . ثم اردف ذلك بقولهِ انهم سيذبحونهُ بعد ان ينتهوا من اكل رفيقهِ فهجت عند ذلك جدًّا واستشطت غضبًا . ثم قال ان ذلك الاسير المكتوف ليس هو من عشيرتهم بل انما هو واحد من الرجال البيض الملتحين الذين كان قد اخبرني بانهم اتوا الى بلادهم في قارب . فامتلأْت حنقًا من مجرَّد ذكر الناس البيض الملتحين . ثم ذهبت الى الشجرة فرايت واضحًا بواسطة نظَّارتي رجلاً ابيض مطروحًا على حافة البحر ويداهُ

ورجلاهُ مربوطة باغصان اشجار وكان اوربيًّا وكانت فوقهُ ثياب

وكان هناك شجرة اخرى وعبرها ايكة كانت اقرب اليهم من المكان الذي كنت فيهِ مسافة نحو خمس وسبعين ذراعًا حتى اني اذا درت قليلاً يمكنني ان اصل اليها من دون ان يروني واكون حينئذٍ على مسافة نصف رمية رصاص عنهم . وهكذا ضبطت نفسي عن الفتك بهم مع اني كنت ساخطًا جدًّا عليهم . ثم رجعت الى الوراءِ مسافة نحو عشرين خطوة حتى وصلت الى ما وراءَ بعض رياحين كانت تظللني الى ان وصلت الى تلك الشجرة ومن هناك وصلت الى مكان مرتفع قليلاً كنت اراهم منهُ جيدًا وكان يبعد عنهم نحو ثمانين خطوة فقط

شعرٌ

ان في الدنيا امورًا   واتفاقاتٍ غرائِبْ
فاذا فكَّرتُ فيها   لاحَ لي منها عجائِبْ

الفصل الخامس والعشرون

انقاذ روبنصن رجلاً اسبانيوليًّا ووجود جمعة اباهُ وقدوم مركب انكليزي

فلم تكن لي حينئذٍ دقيقة اضيعها لان تسعة عشر من اولئك الاشقياءِ الهائلين كانوا جلوسًا على الارض بجانب بعضهم بعض وكانوا قد ارسلوا الاثنين الباقيَين منهم لكي يذبحوا [illegible] المسكين ويأتوا بقطعة [illegible] الى نارهم . فالتفتُّ الى جمعة وقلت لهُ يا جمعة اعمل الآن كما اقول لك . فاجاب سمعًا وطاعةً . فقلت لهُ يا جمعة اعمل كما تراني اعمل انا تمامًا واياك والمخالفة . ثم وضعت على الارض احدى البواريد الحربيَّة وبارودة الصيد وهكذا فعل جمعة بما معهُ . ثم صلَيت بارودتي الاخرى الحربية ووجهتها نحو البرابرة وامرتهُ ان يفعل كذلك . ثم سألتهُ هل هو مستعدٌّ لاطلاق البارودة فقال نعم فقلت لهُ اطلقها عليهم فاطلقها وكذلك فعلت انا في اللحظة ذاتها

وان جمعة ضبط جيدًا وحكَّم بارودتهُ احسن مني فاصاب خمسةً فقتل اثنين

وجرح ثلاثة. واما انا فلم أُصِب الاّ ثلاثة فقُتِل واحد وجُرِح اثنان. فانذعر اولئك البرابرة ووقعوا في اضطراب عظيم وجميع الذين لم يصبهم الرصاص كانوا يطفرون وينطنطون على ارجلهم الاّ انهم لم يعرفوا حينئذٍ الى اين يجب ان يهربوا او الى اي جهةٍ ينظرون لانهم لم يعرفوا من اين اتى هلاكهم. وكان جمعة ناظرًا دائمًا نحوي لكي يلاحظ ماذا اعمل فيفعل مثلي كما امرتهُ. فحالما انتهيت من الطلق الاول طرحت البارودة الحربيَّة الى الارض وتناولت بارودة الصيد وهكذا فعل جمعة ثم صلّبتها وحكّمتها ففعل هو كذلك فقلت لهُ هل انت مستعدٌّ يا جمعة فقال نَامْ فقلت لهُ اطلق على اسم الله وتوفيقهِ. وعند ذلك اطلق البارودة على اولئك الاشقياء المرتبكين وهكذا فعلت انا. واذ كانت بواريدنا مدكوكة برصاص صغير راينا انهُ لم يسقط الاّ اثنان. الاّ ان كثيرين انجرحوا وكانوا يركضون مولولين وصارخين كمجانين. وكانوا جميعًا مضرَّجين ملطَّخين بالدم ومجروحين جراحات بليغة ولسبب الجراحات سقط ثلاثة منهم الى الارض بعد ذلك بقليل الاّ انهم كانوا لم يموتوا بعدُ

فوضعت الاسلحة الفارغة على الارض وتناولت البارودة المدكوكة وقلت لجمعة تعال اتبعني. فتبعني بشجاعة وعند ذلك ثرت خارجًا من الغابة واشرفت عليهم مظهرًا لهم نفسي وكان جمعة ورائي. وحالما علمت انهم رأوني اخذت اصرخ باعلى صوتي وامرت جمعة ان يصرخ هو ايضًا. ثم جعلت اركض بقدر استطاعتي ولكن لم يكن ركضي سريعًا جدًّا لاني كنت حاملاً كثيرًا من الاسلحة. وسرت باستقامة نحو ذلك المربوط المسكين الذي كان كما سبق منطرحًا على الشاطي بين الموضع الذي كانوا فيهِ والبحر وكان الجزَّاران اللذان كانا هامَّين على ذبحهِ وتقطيعهِ قد تركاهُ عند ما اطلقنا الطلق الاول وهربا خائفَين جدًّا الى حافَّة البحر ومن هناك وثبا الى احد القوارب وهكذا فعل ثلاثة غيرهما من زمرتهم. فالتفتُّ الى جمعة وقلت لهُ تقدَّم وارمِهم بالرصاص. ففهم حالاً مرادي وركض نحو اربعين خطوة ليكون قريبًا منهم ورماهم بالرصاص. وظننت انهُ قتلهم جميعًا لاني رايتهم جميعًا يسقطون كومة واحدة الى قعر القارب الاّ اني رايت بعد لحظة من الزمان اثنين منهم

ينهضان . غير انهُ قتل اثنين وجرح الثالث وكان منطرحًا في القارب كأنهُ ميّت
وفي تلك الاثناء بينما كان جمعة مشتغلاً باولئك القوم اخرجت سكيني من



روبنصن كروزي والاسبانيولي

حزامي وعمدت الى المربوط وقطعت رباطاتهِ وبعد ان حللت يديهِ ورجليهِ
اجلستهُ وسألتهُ بلسان البرتوغال قائلاً ماذا انت يا صاحِ فاجاب من حلاوة الروح

با للاتيني انا خريستيانوس اي مسيحي. وكان ضعيفًا جدًّا حتى كان با لكدّ يقدر ان يقف او يتكلّم. فاخرجت قنينتي من جيبي وناولتهُ ايَّاها واشرت اليهِ ان يشرب فشرب جرعةً ثم ناولتهُ كسرة خبز فاكلها. ثم سأَلتهُ من اي بلاد هو فاجاب اسبانيوليٌّ. واذ كان قد استفاق قليلاً افهمني با لاشارات بقدر الامكان انهُ ممنونٌ لي جدًّا لاني انقذتهُ. فقلت لهُ على قدر معرفتي با للسان الاسبانيولي يا سنيور سوف نتكلّم في ما بعدُ واما الآن فيجب علينا ان نحارب. فان كنت قادرًا فخذ هذه الطبنجة والسيف وقف معي فاخذهما با لشكر وحالما صارا في يديهِ كأَنهما جعلا فيهِ قوة جديدة فثار على اعدائهِ كا لبطل وقطع اثنين منهم في لحظة من الزمان. واذ كنا قد دهمنا اولئك القوم المساكين بغتةً كانوا قد خافوا الى الغاية من اصوات البواريد حتى كانوا يسقطون الى الارض من مجرد الرعب والوهم ولم يكن لهم اقتدار على الهرب منا اكثر ممَّا كان لاجسامهم اقتدار على احتمال رصاصنا. وهكذا كان حال الخمسة الذين اطلق جمعة الرصاص عليهم الى القارب لانهُ سقط ثلاثة منهم بسبب الجراح التي اصابتهم وسقط الاثنان الباقيان من الخوف

وابقيت بارودتي بيدي مدكوكة لاني قصدت ان ابقي دكّتي الى حين الحاجة لاني كنت قد اعطيت الاسبانيولي طبنجتي وسيفي كما سبق. وعند ذلك دعوت جمعة وقلت لهُ اركض الى الشجرة التي اطلقنا منها الطلق الاول وهاتِ الاسلحة الفارغة الباقية هناك. فذهب ثم رجع بسرعة عظيمة. وعند ذلك اعطيتهُ بارودتي وجلست ادكُّ البواريد الفارغة وقلت لجمعة وللاسبانيولي ان ياتيا اليَّ عند الحاجة. وبينما كنت مشتغلاً في دكّ البواريد حصلت واقعة شديدة بين الاسبانيوليّ وواحد من البرابرة حمل عليهِ بسيف من سيوفهم الخشبية كاد يقتلهُ بهِ لو لم يخلصهُ الله من يدهِ. وان الاسبانيوليَّ الذي كان شجاعًا وجسورًا الى الغاية مع انهُ كان ضعيفًا بقي مدة يقاتل ذلك الهنديَّ وكان قد جرحهُ جرحين بليغين في راسهِ. واذ كان الهنديُّ قويَّ الجسم وشديد البأْس ثار على الاسبانيوليّ واشتبك معهُ والقاهُ الى الارض وحاول اخذ سيفي من يدهِ. اما الاسبانيوليُّ الذي كان تحتهُ فترك لهُ

بحكمةِ السيف وسحب الطبنجة من حزامهِ ورماهُ بالرصاص فنفذ من جهة الى جهة فوقع حالاً الى الارض قتيلاً قبل ان وصلت اليهِ لاني كنت قد ركضت لكي اساعد الاسبانيولي لما رايت الهنديَّ كاد يتغلَّب عليهِ

واما جمعة فاذ كان حينئذٍ متروكًا لحريتهِ جدَّ في اثر الهاربين من البرابرة ولم يكن معهُ شيءٌ من الاسلحة الاَّ بلطتهُ فقط. فانهى بها حيوة اولئك الثلاثة الذين ذكرت انهم جُرِحوا اولاً وسقطوا وقتل آخرين غيرهم ممَّن ادركهُ من البقيَّة. واما الاسبانيوليُّ فاتى اليَّ في طلب بارودة فاعطيتهُ بارودةً من بواريد الصيد فاخذها وسار في طلب اثنين من البرابرة فجرحهما كليهما. الاَّ انهُ اذ كان غير قادر على الركض هربا كلاهما من امامهِ الى الاحراش فتبعهما جمعة الى هناك وقتل واحدًا منهما واما الآخر فكان اخفَّ منهُ. ومع انهُ كان قد جُرِح طرح نفسهُ في البحر وسبح بكل عزمهِ الى ذينك الاثنين اللذين كانا باقيين في القارب. وان الثلاثة الذين في القارب وكان واحد منهم مجروحًا ولم نكن نعلم هل مات او لا كانوا كل من خلص من ايدينا من اولئك البرابرة الذين كانوا واحدًا وعشرين رجلاً كما علمت. وهذا حساب الجميع. قُتِل ثلاثة في الطلق الاول من عند الشجرة. واثنان في الطلق الثاني. واثنان قتلهما جمعة في القارب. واثنان قتلهما جمعة ايضًا من الذين جُرِحوا اولاً. وواحد قتلهُ جمعة في الحرش. وثلاثة قتلهم الاسبانيوليُّ واربعة قُتِلوا وقد وجدناهم هنا وهناك مثخنين بالجراح او قتلهم جمعة بينما كان مطاردًا اياهم. واربعة هربوا الى القارب وقد جُرِح واحد منهم وربما مات من الجرح. فالجملة واحد وعشرون

وان البرابرة الذين دخلوا القارب كانوا يقذِّفون بكل جهدهم لكي يبعدوا الى حيث لا يصل الرصاص ومع ان جمعة رماهم مرَّتين او ثلاثًا بالرصاص لم أرَ انهُ اصاب احدًا منهم. وكان جمعة يرغب اني انزل في قارب من قواربهم واسعى في اثرهم. وكنت منزعجًا من هربهم خوفًا من انهم اذا وصلوا بالسلامة الى بلادهم يخبرون اهلهم بما كان فيرجعون بمايتين او ثلاثماية قارب ويبلعوننا بمجرَّد كثرتهم. ومن

ثم عزمت على اتباع اثرهم بحرًا . فركضت الى احد قواربهم ووثبت اليهِ وامرت جمعة ان يتبعني . فلمَّا دخلت القارب دُهِشت حين رايت بربريًّا مسكينًا منطرحًا هناك مربوط اليدين والرجلين كما كان الاسبانيوليُّ لاجل الذبح وقد قارب الموت من الخوف اذ كان لا يعلم ماذا كانت تلك الاهوال الجارية حولهُ لانهُ لم يكن يستطيع ان يُشرِف عن حافة القارب لينظر لانهُ كان مربوطًا ربطًا محكمًا من رجليهِ الى عنقهِ وكان قد مضى على المسكين مدة طويلة في تلك الحالة المكربة حتى انهُ كان لم يبقَ فيهِ في الحقيقة الَّا قليلٌ من الحيوة

فقطعت حالًا رباطاتهِ وقصدت ان اساعدهُ على الوقوف الَّا انهُ لم يستطع ان يقف ولا يتكلم بل كان يإِنُّ انينًا محزنًا للغاية كأَنهُ كان يظنُّ انهُ انما فُكَّ لكي يُذبَح . فلما تقدَّم اليهِ جمعة قلت لهُ كلّمهُ وامّنهُ . ثم اخرجت قنّينتي وقلت لهُ ان يسقيهُ نقطةً . وعند ما شرب تلك النقطة وأَمِن على حياتهِ تقوّى وجلس في القارب . وان جمعة لما سمعهُ يتكلم ورأَى وجههُ اخذ يقبّلهُ ويعانقهُ ويضمُّهُ الى صدرهِ ويبكي ويضحك ويصرخ ويطفر ويرقص ويغنّي ثم اخذ يبكي ايضًا ويلطم بيديهِ ويضرب وجههُ وراسهُ ثم اخذ يغنّي ويطفر ايضًا وهكذا كأَنهُ قد جُنَّ وكان منظرهُ محزنًا مبكيًا . ومضت مدة قبلما قدرت ان اجعلهُ يتكلَّم معي او يخبرني بما حملهُ على تلك الحركات . ولما استفاق قليلًا وسكن روعهُ قال لي ان ذلك الرجل المسكين هو ابوهُ

وليس امرًا سهلًا عليَّ ان أَصِف كيف كانت حاسّياتي عند ما رايت تاثيرات المحبة البنويَّة التي ظهرت في ذلك البربريّ المسكين عند ما نظر اباهُ ونظر نجاتهُ من الموت . ولا اقدر ايضًا ان أَصِف نصف حركات حنوّهِ بعد ذلك . لانهُ كان يخرج من القارب ويدخل اليهِ مرات كثيرة . وكان عند دخولهِ اليهِ يجلس بجانب ابيهِ يكشف صدرهُ ويسند راسهُ عليهِ ويصرف عدة دقائق على هذه الحالة . ثم كان يمسك ذراعيهِ وساقيهِ التي كانت خدرةً من القيود ويفركها بيديهِ . واذ رايت انا حالتهُ اعطيتهُ قليلًا من الروم من قنّينتي ليفركها بهِ فنفعهُ ذلك جدًّا

والاهتمام بوالد جمعة وقفنا عن مطاردة القارب الذي هرب فيهِ باقي البرابرة لانهُ كان قد كاد يغيب عن نظرنا . وكان من حسن حظنّا اننا لم نلحقهم لانهُ هبّت ريح شديدة بعد ذلك بساعتين ولم يكونوا قد قطعوا ربع طريقهم . وما زالت كذلك الليل كلهُ وذلك من الشمال الغربيّ ضدًّا لهم حتى اني ظننت ان قاربهم لا يمكن ان يسلم ولا يمكنهم ان يصلوا بالسلامة الى شطوط بلادهم

واما جمعة فكان مشتغلاً منهمكًا في ابيهِ حتى ان قلبي لم يكن يطاوعني الى مدة ان آخذهُ من عندهِ . ولكن لما لاح لي انهُ يمكنهُ ان يتركهُ قليلاً دعوتهُ اليَّ فاتى طافرًا ضاحكًا ومسرورًا الى الغاية فسألتهُ هل اطعم اباهُ خبزًا فهزَّ براسهِ وقال هيّ يا مَالّي كلب موش تيّب آكل كلّو . اي لا يا معلّي كلبٌ ما هو طيب آكل الخبز كلهُ . فاعطيتهُ رغيفًا من جراب صغير للزاد واعطيتهُ ايضًا كسرة لياكلها هو الاَّ انهُ لم يذقها بل اخذ الجميع الى ابيهِ . وكان معي في جيبي عنقودان او ثلاثة عناقيد من الزبيب فاعطيتهُ حفنةً من ذلك لابيهِ . وحالما اعطى اباهُ ذلك وثب خارجًا من القارب واخذ يركض بسرعةٍ عجيبة كانهُ قد سُحِر او جُنَّ وكان اسرع رجل صادفتهُ في حياتي . وفي لحظة من الزمان غاب عن نظري . وكنت اصيح بهِ مناديًا اياهُ فلم يتوقَّف عن الركض . ثم بعد نحو ربع ساعةٍ رايتهُ راجعًا . الاَّ انهُ كان يسعى باقلّ سرعةٍ . ولما صار قريبًا رايت خطواتهِ ابطأ . لانهُ كان حاملاً شيئًا بيدهِ . فلما وصل اليَّ وجدت انهُ قد ذهب الى المنزل واتى بجرّة ماء عذبٍ لابيهِ وكان معهُ رغيفان او كعكتان من الخبز . فاما الخبز فانهُ اعطاني اياهُ . واما الماء فذهب بهِ الى ابيهِ . واذ كنت عطشان شربت قليلاً من ذلك الماء . وان الماء نفع اباهُ اكثر من كل الروم والارواح التي كنت قد سقيتهُ اياها لانهُ كان قد كاد يُغمَى عليهِ من شدَّة العطش

وبعد ان شرب ابوهُ قلت لهُ اسقِ الرجل الاسبانيوليّ المسكين لانهُ كان محتاجًا الى ذلك كابيهِ . وبعثت لهُ معهُ رغيفًا من ذينك الرغيفين . لانهُ كان ضعيفًا جدًّا . وكان جالسًا في مرجة خضراء في ظلّ شجرةٍ يستريح . وكانت مفاصلهُ يابسةً جدًّا ووارمة من خشونة الرباط الذي كان البرابرة قد ربطوهُ بهِ . ولما رايت انهُ لمَّا ذهب

جمعة اليهِ نهض وشرب وتناول الخبز واخذ يأكل انطلقت انا اليهِ وناولتهُ حفنة زبيبٍ. فرفع عينيهِ ونظر الى وجهي وكانت تلوح على وجههِ شعائِر الشكر والممنونيَّة. ولم يكن يستطيع ان يقف على رجليهِ لشدَّة ضعفهِ. فانهُ احتفز مرتين او ثلاثًا للقيام الَّا انهُ عجز عنهُ. لان اعقابهُ كانت وارمةً ومُوجَعة جدًّا. فقلت لهُ اهدأْ لا تتحرَّك وامرت جمعة ان يفرك اعقابهُ ويغسلها بالروم كما فعل بابيهِ

وكنت ارى ان جمعة كان يلتفت كل دقيقتين وهو عند الاسبانيوليّ نحو القارب ليرى اذا كان ابوهُ باقيًا في نفس الموضع والحالة اللذين تركهُ فيهما. وانهُ التفت مرَّةً ولم يرَهُ فثار من مكانهِ ومن دون ان ينطق بكلمة بادر راكضًا اليهِ بسرعة عظيمة حتى كنت لا نقدر ان نرى قدميهِ تمسَّان الارض عند ركضهِ. فلما وصل اليهِ وجد انهُ كان اتكأَ مضطجعًا ليريح جسمهُ. فانثنى على اعقابهِ راجعًا حالًا اليَّ. وقد استدللت من ذلك على شدة محبتهِ وحنوِّهِ نحو ابيهِ. ثم قلت للاسبانيوليّ ان يدع جمعة يقيمهُ ويذهب بهِ الى القارب ومن هناك يتوجه بهِ الى منزلي وهناك اهتمُّ بهِ. واما جمعة فاذ كان قويَّ الجسم وصاحب نخوةٍ عمد الى الاسبانيوليّ وحملهُ على ظهرهِ وذهب بهِ الى القارب وانزلهُ بهدوٍّ على حافَّة القارب واضعًا رجليهِ داخلهُ. ثم رفعهُ بيديهِ ووضعهُ بجانب ابيهِ. ثم خرج حالًا ودفع القارب واخذ يسير بهِ بسرعةٍ عظيمة جارًّا اياهُ بجانب الشاطي مع ان الريح كانت شديدة. وهكذا اتى بهما جميعًا سالمَين الى ذلك الجدول ثم تركهما في القارب وركض لكي ياتي بالقارب الآخر. وفيما كان مارًّا بي كلمتهُ وسألتهُ قائلًا الى اين انت ذاهبٌ فاجاب رُوْهْ زيب كارب بَاْدْ. يريد انهُ ذاهب لياتي بالقارب الآخر وهكذا ذهب كهبوب الريح لانهُ ليس انسان ولا فرس يركض بسرعة نظيرهُ. وكان قد سبقني ووصل بالقارب الآخر عند ما وصلت انا الى النهر برًّا. فعبر بي النهر ثم توجَّه فاخرج ضيفَينا الجديدين من القارب. ولكن لم يكونا قادرين ان يمشيا ولهذا كان جمعة المسكين مرتبكًا في امرهِ لا يعلم ماذا يعمل

فاخذت اتبصَّر في ايجاد طريق لنقلهما الى المنزل ثم دعوت جمعة وقلت لهُ

ان يجلسها على حافة النهر وياتي اليَّ ففعل فاصطنعنا حالاً شبه محمل ٍ ووضعناها عليهِ وحملناهُ بيننا بايدينا . ولكن لما وصلنا بهما الى خارج سوري او قلعتي وقعنا في صعوبة اردأ من السابقة لانهُ لم يكننا ان نجتاز بهما عليهِ ولا كنت اريد ان اهدمهُ وافتح فيهِ ثغرة او منفذًا . وهكذا اخذنا نشتغل في عمل خيمة لهما وبعد نحو ساعتين من الزمان عملنا خيمةً لطيفة غطَّيناها بقلوع عتيقة ووضعنا فوق القلوع اغصانًا خضراء من الشجر. وكان موقع تلك الخيمة في الفسحة التي خارج السور الخارجي وبينهُ وبين الغابة التي غرستها كما علمت قبلاً . وعملنا لهما في الخيمة سريرين من موادّ كانت عندي اي من قشّ الارزّ ووضعنا فوق كل سريرٍ لحافين الواحد نظير فراش والآخر نظير غطاء

فصارت جزيرتي حينئذٍ معمورةً بالسكّان وصرت احسب نفسي غنيًّا بالرعايا . وكنت افرح مبتهجًا عند ما اتأمَّل كيف كنت كأني ملك كبير. فكانت كل البلاد ملكي الخاصّ وكنت اتسلَّط عليها من دون معارضة ولا منازعة . وكانت رعاياي خاضعةً طائعة لي تمامًا. فاني كنت ملكًا ومشترعًا. فان حياتهم جميعًا كانت من عندي ولهذا كانوا مستعدّين لان يبذلوها اذا لزم الامر لاجلي. وممَّا يحقُّ لهُ الاعتبار انهُ لم يكن في مملكتي الواسعة الاَّ ثلاثة من التبعة وكان اولئك من مذاهب مختلفة . فان خادمي جمعة كان بروتستانتيًّا . وكان ابوهُ وثنيًّا آكال الناس وكان الاسبانيوليُّ بابويًّا . الاَّ اني ناديت بحرّية الضمير في كامل سلطنتي وابرزت فرمانًا عالي الشان اعلنت فيهِ انهُ لا اكراه في الدين . وقد ذكرت ذلك هنا نظير حاشية فلا مؤَاخذة بقطع الحديث

ثم بعد ان وضعت ذينك العتيقين الضعيفين في محلّ امانٍ واويتهما واعطيتهما محلاًّ يرتاحان فيهِ اخذت اهتمُّ في تدبير ما اقوتهما بهِ . واول كل شيء امرت جمعة ان ياتي بجديٍ ابن سنةٍ من المعزى من قطيعي الخاصّ لكي نذبحهُ لهما . وبعد ان قطعت عجزهُ وما يليهِ وجعلت ذلك قطعًا صغيرة اعطيتها الجمعة ليطبخها فوضعها في مرجلٍ ووضع معها قليلاً من الشعير والارزّ. فكانت طبخةً فاخرةً لذيذةً من لحم

ومرقة . وقد طبخنا ذلك خارجًا لاني لم اكن اشعل نارًا داخل سوري الداخلي ثم حملت المرجل بما فيهِ الى داخل الخيمة الجديدة . ثم وضعت مائدة هناك وجلست حولها واكلت مع ذينك الضيفين وكنت اسليهما واطربهما بقدر الامكان . وكان جمعة الترجمان بيننا وعلى الخصوص بيني وبين ابيهِ نعم وبين الاسبانيولي ايضًا لان الاسبانيوليَّ كان يحسن التكلُّم بلغة البرابرة

ثم بعد ان تغذَّينا او بالحري تعشَّينا امرت جمعة ان يذهب في احد القاربين ويأتي بالبواريد وباقي الاسلحة لاننا لعدم الوقت كنا قد تركناها في محلّ القتال . ثم امرتهُ في الغد ان يذهب ويدفن جثث القتلى من البرابرة التي كانت لم تزل منطرحة على الارض لئَلا تنتن وتفسد هوآء الجزيرة اذا بقيت في الشمس وامرتهُ ايضًا ان يدفن بقايا وليمتهم الفظيعة . وكنت اعلم انها كانت كثيرة ولم اكن اطيق ان ادفنها انا بيدي لاني لم اكن اطيق ان انظر اليها اذا اتفق اني امرُّ بجانبها . ففعل كل ما امرتهُ بهِ بكل نشاط وسرعة ومحا كل اثر يدلُّ على انهُ كان هناك برابرة حتى اني لما ذهبت في ما بعد الى تلك الجهة لم اعلم اين كانت الموقعة ولا محلّ الوليمة الَّا من قرنة الحرش التي كانت مقابل الموضع

ثم اخذت احدّث قليلاً عتيقيَّ الجديدين . فطلبت من جمعة ان يسأل اباهُ عن رايهِ من جهة البرابرة الذين هربوا في القارب هل يمكن ان يرجعوا الى الجزيرة بجيشٍ عظيم اقوى منا . فكان رايهُ الاول ان البرابرة الذين هربوا في القارب لا يمكنهم ان يخلصوا من النوء الذي حدث في الليلة التي سافروا فيها بل لا بدَّ من ان يغرقوا في البحر او يُدفعوا جنوبًا الى الشطوط الاخرى التي لا يُشكُّ ان اهاليها يبتلعونهم فيها اذا خرجوا اليها الَّا انهُ لا يعلم ما يعملونهُ اذا وصلوا الى بلادهم بالسلامة . غير انهُ يظنُّ انهم اذ كانوا قد خافوا جدًّا من الهجمة التي حصلت عليهم ومن الجلبة والنار سيخبرون الناس هناك ان رفاقهم قد قُتِلوا جميعًا بواسطة الرعد والبرق لا بيد انسان وان الاثنين اللذين ظهرا لهم (يريد جمعة وايَّاي) هما روحان سماويَّان او الها نقمةٍ قد نزلا لاهلاكهم لا رجلان متسلحان . واردف ذلك بقولهِ

انهُ يعرف ذلك جيدًا. لانهُ سمعهم يصرخون هكذا بلغتهم الواحد نحو الآخر. لانهُ لم يكن يمكنهم ان يتصوَّروا ان الانسان يقدر ان يُخرِج من جسمهِ نارًا ويتكلم رعدًا ويقتل عن بعدٍ من دون ان يرفع يديهِ كما حصل في تلك الواقعة. وقد اصاب ذلك الشيخ البربريُّ في ما قال لانهُ بلغني في ما بعد من جهة اخرى ان البرابرة لم يتردَّدوا البتة بعد تلك الحادثة الى الجزيرة لانهم ارتاعوا جدًّا من الاخبار التي حدَّثهم بها اولئك الاربعة الرجال الذين هربوا في القارب وبيان انهم وصلوا بالسلامة الى بلادهم حتى انهم كانوا يعتقدون بان كل من يذهب الى تلك الجزيرة المسحورة يهلك لامحالة بواسطة نارٍ من الالهة. واذ كانت هذه القضايا غير معروفة مني في ذلك الوقت بقيت مدةً مستطيلة في حالة الاحتساب من دون انقطاع ولذلك كنت دائمًا مع كل جنودي على حذرٍ. لاننا اذ كنا قد صرنا حينئذٍ اربعة كان يمكننا في كل وقت ان نقاتل مائة من البرابرة في ساحة الحرب ونستظهر عليهم

واذ مضت مدةٌ ولم يظهر شيءٌ من قواربهم فارقني الخوف من مجيئهم واخذت استأنف افكاري السابقة عن السفر الى القارَّة وعلى الخصوص عند ما اكَّد لي ابو جمعة اني اذا توجهت الى هناك ساصادف حسن المعاملة من عشيرتهِ بسببهِ. الاَّ ان افكاري كانت معلَّقة متردِّدة قليلاً عند ما اختليت بالرجل الاسبانيولي وخاطبتهُ مخاطبةً جدّيةً بشان ذلك. وفهمت منهُ انهُ يوجد هناك ستة عشر رجلاً من اهالي بلادهِ واهالي البرتوغال الذين دُفِعوا الى تلك الجهة وكانوا ساكنين هناك بالسلامة مع البرابرة وانهم انما اضطرُّوا الى ذلك بسبب العازة وطلبًا للنجوة. وسألتهُ عن قصة سفرهم بالتفصيل فوجدت انهم كانوا في مركبٍ اسبانيوليٍّ قادم من ريو دي لبلاتا الى هاوانا وكانت اوامرهم ان يفرّغوا وسقهم هناك وكان اكثرهُ جلودًا وفضةً وان يوسقوا عند رجوعهم ما وجدوهُ في تلك الجزيرة من البضائع الافرنجية. وانهُ كان معهم خمسة بحرية من اهالي البرتوغال كانوا قد خلَّصوهم عند ما انكسر مركبهم وان خمسة من رجالهم غرقوا عند ما ضيع المركب اولاً وان هولاء خلصوا بعد مقاساة اتعاب شاقة واخطارٍ لا تُحصَى ووصلوا في حالة يُرثَى لها من

المذلة والجوع الى شطوط البرابرة حيث كانوا منتظرين ان يُبتلَعوا في كل دقيقة . ثم اخبرني انهُ كان معهم بعض اسلحةٍ الاَّ انها كانت عديمة الفائِدة بالكلية لانهُ لم يكن معهم بارود ولا رصاص . لان امواج البحر كانت قد عطّلت كل بارودهم الاَّ قليلاً منهُ كانوا قد استعملوهُ عند خروجهم الى البرّ في صيد ما يقتاتون بهِ

ثم سألتهُ ماذا يظنُّ انهُ يصيبهم هناك وهل هم مهتمّون في ايجاد طريقة لنجاتهم . فاجاب انهم تكلّموا كثيرًا بشان ذلك ولكنهم اذ كان لا مركب لهم ولا ادوات لبناء مركب ولا زاد ولا ذخيرة كانت تدابيرهم تنتهي دائِمًا بالدموع واليأس . ثم سألتهُ ماذا يظنُّ هل يقبلون رايي اذا بيَّنت لهم طريقة لنجاتهم وهل لا يتيسَّر ذلك اذا كانوا جميعًا في جزيرتي . ثم قلت لهُ بحرّية اني اخاف من انهم يخونونني ويغدرون بي اذا سلَّمت نفسي لهم . وذلك لان معرفة الجميل ليست فضيلة غريزيّة في طبيعة الانسان وليس من عادة الناس ان ينظروا دائِمًا في اتمالهم الى ما نالوهُ من المعروف بقدر ما ينظرون الى الفوائِد التي يمكنهم ان يحصلوا عليها . وانهُ يصعب عليَّ جدًّا ان اكون واسطة لنجاتهم ثم اكون في ما بعد اسيرًا لهم في سبانيا الجديدة حيث يكون الانكليزيُّ دائِمًا ضحيَّةً مهما كانت الضرورة والصدفة التي القتهُ هناك وانهُ احبُّ اليَّ ان اسلّم نفسي للبرابرة وأدعهم يبتلعونني حيًّا من ان اقع في مخالب الخوارنة العديمي الرحمة وأُرسَل الى محلّ التفتيش . ولولا ذلك كان هذا الراي من احسن الآراء لانهم اذا كانوا هنا جميعًا يمكننا نحن واياهم ان نبني سفينةً تكفي لان تحملنا جميعًا الى برازيل جنوبًا او الى الجزائِر او ساحل سبانيا شمالاً . ولكن اذا كانوا عند ما اضع اسلحة في ايديهم ياخذونني جبرًا الى ما بين شعبهم ربما يُسيئون معاملتي هناك جزاءً لمعروفي نحوهم ويجعلون حالتي اردأ ممَّا هي الآن

فاجاب بكل خلوص ونصاحة ان حالتهم تعيسة بهذا المقدار حتى انهُ يعتقد بانهم يكرهون ان يفتكروا ايضًا بالاساءة الى شخص قد صار واسطةً لنجاتهم وانهُ اذا حسن عندي يذهب هو والرجل البربريُّ الشيخ ويكلّمهم بشان ذلك ثم يرجع اليَّ بالجواب . وانهُ يعقد معهم شروطًا وعهودًا ويحلّفهم انهم يكونون تحت سلطتي

المطلقة كمدبرٍ ورئيسٍ لهم ويجعلهم يحلفون بالقربان المقدس والانجيل ان يكونوا
امناءَ لي يذهبون الى اي بلاد مسيحية اردتها لا الى غيرها ويطيعون في كل شيء
امري ونهيي الى ان يصلوا الى البلاد التي اريد ان اذهب بهم اليها وانهُ ياتي بصكٍّ
منهم بخطهم بهذا المعنى. ثم قال لي انهُ هو نفسهُ يحلف لي بانهُ لا يفارقني ابدًا ما دام
حيًّا الى ان آمرهُ بذلك. وانهُ يدافع دائمًا عني الى آخر نقطةٍ من دمهِ اذا حصل
ادنى نقض للعهد من طرف ابناءِ بلادهِ. ثم اردف ذلك بقولهِ انهم قومٌ ظرفاءُ امناءُ
لا سلاح معهم ولا ثياب ولا طعام وهم تحت رحمة البرابرة وسلطتهم المطلقة وليس
لهم ادنى امل في الرجوع الى بلادهم وانهُ لا يشكُّ في اني اذا سعيت بخلاصهم يحبون
ويموتون في خدمتي

وعند ذلك عزمت على الاهتمام بانقاذهم اذا امكن وارسال البربريّ الشيخ
وهذا الاسبانيوليّ اليهم لاجل عمل ما يلزم عملهُ للحصول على هذا المطلوب. ولكن
بعد ان جهَّزنا كل ما يلزم تجهيزهُ لسفرهما قدَّم الاسبانيوليُّ رايًا ناتجًا عن فطنةٍ
وخلوص نيةٍ فوجدت انهُ من الحزم والصواب اتباعهُ وتاخير امر انقاذ ابناءِ بلادهِ
مدة نصف سنةٍ على الاقلّ. فان الامر كان كما ياتي. فانهُ كان قد مضى عليهِ
عندنا نحو شهر وكنت قد اريتهُ كيف كنت بمعونة الله ادبّر لوازم معيشتي. ورأَى كم
كان عندي من المؤُنة من الشعير والارزّ. ومع ان ذلك كان اكثر من احتياجي لم
يكن كافيًا من دون زرع لعائلتي التي صارت حينئذٍ اربعة انفس وبالاولى لا يكون
كافيًا اذا كان ابناءُ وطنهِ وكان عددهم ستة عشر كما ذكر ياتون الينا. وعدا ذلك
لا يكفي لتجهيز مركبنا اذا بنينا مركبًا وقصدنا السفر فيهِ الى احد البلدان المسيحيَّة
في امركا. وبناءً على ذلك قال لي الاحسن اني ادعهُ والرجلين الآخرين يحرثون
ارضًا تكفي لزرع ما يمكنني الاستغناءُ عنهُ من الحبوب وان نصبر الى ان نحصد
الغلَّة الجديدة لكي يكون عندنا مؤُنةٌ تكفينا وتكفي ابناءَ وطنهِ متى جاءُوا. وذلك
لان العازة ربما اقتادتهم الى الخصام ونكران الجميل ونقض العهد او حملتهم على الفكر
بانهم قد خلصوا من مصيبة ووقعوا في اخرى ربما كانت في اعتبارهم اعظم منها او

كما يقال انتقلوا من تحت الدلف الى تحت المزراب . ثم قال انت تعلم ان بني اسرائيل مع انهم فرحوا اولاً بخلاصهم من مصر عصوا في ما بعد متمرّدين على الله نفسهِ الذي خلّصهم عند ما احتاجوا الى الخبز في البرّية

وكانت نصيحتهُ صالحة وصونهُ حسنًا بهذا المقدار حتى انهُ لم يكن يمكنني الاَّ ان اسرَّ مرتضيًا برأيهِ كما كنت مسرورًا بامانتهِ . وهكذا اخذنا نحن الاربعة جميعًا في العمل بقدر ما كانت تسمح لنا الآلات وبعد مضيّ شهر من الزمان اتى وقت الزرع فزرعنا اثنين وعشرين مدًّا من الشعير وست عشرة جرةً من الارزّ في ارضٍ كنا قد فلحناها في تلك الاثناء . وكان ذلك كل ما امكننا الاستغناء عنهُ من الحبوب للبذار حتى انهُ لم يبقَ عندنا شعير يكفينا للاكل مدة ستة اشهر اي من حين افرزنا الحبوب للبذار الى ان تطلع الغلة الجديدة لا من حين الزرع الى حين الحصاد لان المدة بين الزرع والحصاد تكون اقلّ من ستة اشهر في تلك البلاد الحارّة

واذ صار عندي حينئذٍ رفاقٌ وندماء وكان عددنا كافيًا لان يزيل من قلوبنا الخوف من البرابرة اذا اتوا الى الجزيرة ما لم يكونوا جمهورًا غفيرًا كنا اذا اردنا نجول في الجزيرة حيثما شئنا بكل راحة بالٍ . واذ كان امر هربنا او نجاتنا متصوَّرًا دائمًا في بالنا كنا لا نغفل عن الوسائط المبلّغة الى ذلك وعلى الخصوص العبد الفقير . ومن ثم علّمت بعض اشجار ممَّا حسبتهُ يصلح لعملنا وجعلت جمعة واباهُ يشتغلان في قطعها . ثم اقمت الاسبانيوليَّ الذي كنت قد كاشفتهُ بما في نفسي ناظرًا عليهما لكي يلاحظ العمل . وقد اريتهم كم قاسيت من التعب في نشر شجرة كبيرة الى الواح وقلت لهم ان يفعلوا كذلك فنشروا نحو اثني عشر لوحًا كبيرة من شجرة بلوط جيّدة كان عرض اللوح منها قدمين وطولهُ خمسًا وثلاثين قدمًا وسمكهُ من قيراطين الى اربعة قراريط . ولا يخفى كم كلَّفتهم من التعب والعَرَق

وقد اجتهدت ايضًا في تكثير المعزى الاهليَّة عندي . فكنت تارةً اذهب انا وجمعة وتارةً يذهب جمعة والاسبانيوليُّ الى الاحراش لاجل صيد المعزى . وبهذه الواسطة التقطنا نحو عشرين جديًا بريّةً لكي نربيّها مع البقية . لاننا كنا كلّما قتلنا

عنزة تمسك ما لها من الجداء ونضعهُ مع القطيع . واذ كانت ايام العنب علَّقنا كمية وافرة من العناقيد في الشمس فصار عندنا احمالٌ كثيرة من الزبيب . وكنا نعتمد في امر الاكل على الزبيب والخبز . وكان ذلك قوتًا لذيذًا ومغذيًا جدًّا كما لا يخفى

ثم اخذنا في الحصاد وكانت غلالنا جيّدة . ومع انها لم تكن في كثرتها احسن غلةٍ طلعت في الجزيرة كانت كافية لمطلوبنا . لاننا استغللنا من العشرين مدًّا من الشعير اكثر من مايتين وعشرين مدًّا وعلى هذه النسبة من الارزّ . وكان ذلك موءنة تكفينا وتكفي ايضًا الستّة عشر اسبانيوليًّا الى الحصاد القادم وكانت ذخيرة كافية لنا في السفر الى ايّة جهة اردناها من العالم الجديد اي من بلاد امركا . وبعد ان حصّلنا غلّتنا واحرزناها اخذنا نعمل سلالاً كبيرة نضعها فيها . وكان الاسبانيوليّ ماهرًا وخفيف اليد في عمل السلال . وقد لامني على اني لم اعمل من تلك الموادّ بعض اشياء للوقاية الاّ اني لم اشعر بالاحتياج الى ذلك

واذ قد صار عندي حينئذٍ موءنة كافية لجميع الضيوف الذين كنت انتظرهم اذنت للاسبانيوليّ ان يسافر الى القارّة ليرى ماذا يقدر ان يعملهُ مع الذين تركهم هناك . واوصيتهُ بكل تشديد ان لا ياتي الاّ بالذين يحلفون اولاً امامهُ وامام البربريّ الشيخ بانهم لا يضرُّون بوجه من الوجوه ولا يفتكون ولا يغدرون بالرجل الذي يجدونهُ في الجزيرة الذي قد تحرَّك من باب المروَّة والشفقة لارسال من ارسلهُ لاجل انقاذهم من كل عدوٍّ يريد اذاهم وبانهم حيثما توجهوا يكونون خاضعين تمامًا لامرهِ وان تكون تلك العهود كتابةً يمضونها بيدهم . واما كيفية تتميمهم لهذا الشرط الاخير مع انهُ لم يكن عندهم اقلام ولا حبر فهذه لم تخطر لنا ببالٍ . فبهذه الاوامر والتعليمات سافر الاسبانيوليُّ والشيخ البربريُّ ابو جمعة في القارب الذي اتيا او بالحري أُتِيَ بهما فيهِ عند مجيئهما اسيرين بيد البرابرة الذين كانوا عازمين على اكلهما . واعطيت كلاًّ منهما بارودة ونحو ثماني دكَّات من البارود والرصاص واوصيتهما ان يعتنيا بهما جيدًا ولا يستعملاهما الاَّ عند الضرورة القصوى

وكنت اسرُّ مبتهجًا بذلك العمل لانهُ كان اول واسطة استخدمتها لنجاتي في مدة

نحو سبع وعشرين سنة وبعض ايام. واعطيتهما زادًا من الخبز والزبيب يكفيهما اياماً كثيرة ويكفي كل الاسبانيوليّين معهما مدة ثمانية ايام. وبعد ان دعوت لهما بالتوفيق وشيّعتهما اخذا في طريقهما قاصدَين القارّة. وقد اتفقت معهما على علامةٍ يعلّقانها عند رجوعهما لكي يمكنني ان اعرفهما عن بعدٍ قبل وصولهما الى البرّ. وعند سفرهما كان الهوآء جيدًا والقمر بدرًا. وكان ذلك في شهر تشرين الاول من حسابي. ولم يكن يمكنني التدقيق التامّ في حساب الايام بعد ان اضعت ذلك. وكذلك لم احافظ جيدًا على حساب السنين بحيث يمكنني ان احكم حكمًا قاطعًا باني مصيب فيه. الاّ اني عند ما فحصت حسابي في ما بعد وجدت ان حساب السنين كان صحيحًا صادقًا

ثم بعد سفرهما بثمانية ايام بينما كنت انتظر رجوعهما حدث بغتةً امرٌ غريبٌ ربما لم يُسمَع نظيرهُ في التاريخ. فاني بينما كنت ذات يوم صباحًا في صومعتي مستغرقًا في النوم اذا بخادمي جمعة قد اتى داخلاً اليّ ركضًا وصرخ باعلى صوتهِ قائلاً يا مأْلي يا مألّي إِزوا إِزوا. فهببت ثائرًا من سريري ولبست ثيابي بكل سرعةٍ وخرجت على الفور من دون بارودتي بخلاف عادتي وبعد ان عبرت غابتي التى كانت حينئذٍ قد صارت حرشًا ظليلاً كبيرًا التفتُّ نحو البحر واذا بمركبٍ على مسافة نحو فرسخ ونصف مقبلاً نحو الشاطي بقلع جانبيٍّ وكانت ريحٌ قويّةٌ تدفعهُ برفق وسرعة نحو الجزيرة فدُهِشت منذهلاً. وقد لاحظت انهُ لم يكن قادمًا من جهة تلك الشطوط بل من الجهة الجنوبيّة من الجزيرة. وعند ذلك دعوت جمعة الى داخل وامرتهُ ان يقف بجانبي لان اولئك لم يكونوا القوم الذين كنا ننتظرهم ولم يكن يمكننا ان نعلم هل هم اصدقآء او اعدآء. ثم ذهبت لكي آتي بنظّارتي لعلي اعرف من كانوا. فاخرجت السلّم وطلعت على التلّ حسب عادتي عند الاحتساب من شيءٍ لكي استطيع ان اراهُ باكثر وضوحٍ وذلك من دون ان يراني احدٌ. وحالما وضعت قدمي على راس التلّ رايت من دون نظّارة مركبًا قد القى مرساتهُ على مسافة نحو فرسخين ونصف مني الى جهة جنوب الجنوب الشرقيّ الاّ انهُ لم يكن بعيدًا عن

الشاطي اكثر من فرسخ ونصف . وظهر لي واضحًا لدى تحقيق النظر فيهِ انهُ مركبٌ انكليزيٌّ وان قاربهُ كان قاربًا انكليزيًّا طويلاً

ولا اقدر ان أصِف الاضطراب الذي اعتراني والفرح الذي خامر قلبي عند ما نظرت مركبًا ولاسيما ذلك المركب الذي كان لي وجهٌ للظنّ بان بحريتهُ هم من اهالي بلادي وبالتالي اصدقآء . الاَّ انهُ كان عندي بعض شكوك سريَّة . واذ لم اكن اعلم من ابن انوا كنت على حذرٍ منهم . وقلت في نفسي ما هي مصلحة مركب انكليزيٍّ في ذلك القسم من العالم لانهُ ليس طريقًا الى احد اقسام العالم التي للانكليز تجارة فيها . وانا اعلم انهُ لم يحصل انوآء لدفعهم الى هناك رغمًا وانهم اذا كانوا انكليزًا في الحقيقة يجب ان يكون قدومهم الى هنا ناتجًا عن نيَّةٍ غير صالحةٍ او لاجل غاية غير جيدة وانهُ الاصلح لي ان ابقى على حالي ولا اقع في ايدي لصوصٍ وقَتَلة

ولم يمضِ عليَّ في تلك الحالة الاَّ برهةٌ قليلةٌ حتى رايت المركب يقرب متقدّمًا نحو الشاطي كانهم كانوا يفتشون على خليج يدخلون بالمركب اليهِ لكي يخرجوا منهُ الى البرّ بسهولة . ولكن اذ لم يقربوا كثيرًا الى البرّ لم يروا الخليج الصغير الذي خرجت منهُ قبلاً باطوافي بل دخلوا الى ذروةٍ تبعد عني نحو نصف ميلٍ . فسرَّني ذلك جدًّا . لانهم لو ارسوا في الجهة الاخرى لكانوا خرجوا الى البرّ عند باب بيتي تقريبًا وكانوا طردوني حالاً من قلعتي وربَّما كانوا سلبوا كل ما عندي . فلما خرجوا الى البرّ تأكَّد انهم جميعًا او اقلهُ اكثرهم انكليز . وظننت ان واحدًا او اثنين منهم كانا فلمنكيّين الاَّ اني وجدت في ما بعد ان ظنّي كان في غير محلهِ . وكانوا جميعًا احد عشر رجلاً وكان ثلاثة منهم من دون سلاح وكأنهم كانوا مقيَّدين . فلما وثب اربعة او خمسة منهم اولاً الى البرّ اخرجوا اولئِك الثلاثة من القارب كاسرى . وكان واحد من الثلاثة يتراءى كأنهُ يتضرَّع بكل مذلةٍ وانكسار قلبٍ ويأْس واما الاثنان الآخران فكانا يرفعان ايديهما احيانًا مضطربَين جدًّا ولكن لا نظير الاول . فانذهلت مندهشًا من ذلك المنظر ولم اعلم ما هو معناهُ . فدعاني جمعة بالانكليزيّ باعلى صوتهِ قائلاً يا مالي انظر ناسات الانكليز ياكلوا الاسرى مثل الناسات

البرابرة. فقلت لهُ ماذا نعني يا جمعة اتظنُّ انهم ياكلونهم. فقال نَأم يياكلهم. فقلت لا يا جمعة اني اخشى من انهم يقتلونهم ولكن لا تظنُّ انهم ياكلونهم

وكنت في تلك الاثناءَ لا افتكر بما كان بل أقِف مرتعدًا من فظاعة المنظر ومنتظرًا كل دقيقة ان اراهم يقتلون اولئِك الاسرى. وقد رايت مرةً واحدًا من اولئِك الاشقياءَ يرفع يدهُ ليضرب بخنجر كان معهُ احد الاسرى المساكين. وكنت انتظر كل لحظةٍ وقوعهُ الى الارض. وعند ذلك جمد في عروقي كل ما في جسدي من الدم. وكم كنت اشتهي ان يكون عندي ذلك الاسبانيوليُّ والبربريُّ الشيخ او ان تكون لي طريقة لكي انقدّم نحوهم الى ان اصير على مسافة رمية رصاص منهم من دون ان يروني وذلك لكي اخلّص الاسرى من ايديهم لاني لم أرَ معهم اسلحة نارٍ. الَّا انهُ لاح لي امرٌ آخر. فاني بعد ان رايت القساوة البربريَّة التي عامل بها البحرية اولئِك الثلاثة الرجال المساكين رايت اولئِك الاشقياءَ يركضون متفرّقين في الجزيرة كأنهم يريدون ان يتفرّجوا عليها. ولاحظت ايضًا انهُ كان للثلاثة الاسرى حريَّة في الذهاب حيثما شاءُوا. الَّا انهم كانوا جميعًا جلوسًا على الارض غائِصين في بحار التفكُّر وخاملي البال كأَنهم قد يئِسوا من الحيوة. فذكَّرتني حالتهم بالحالة التي كنت فيها عند ما خرجت اولًا الى البرّ. واخذت انظر الى ما حولي واتذكَّر كيف كنت اشعر باني هالكٌ لا محالة وكيف كنت مستوحشًا موعبًا من المخاوف والاحتسابات الهائِلة وكيف بتُّ ذلك الليل كلهُ في شجرة خائفًا من ان تبتلعني وحوش بريَّة. وكما اني لم اكن اعلم تلك الليلة شيئًا من امر القوت الذي كانت العناية الالهية مزمعةً ان تيسّرهُ لي بواسطة دفع الانواءَ والمدّ المركب الى القرب من البرّ والذي لا ازال الى الآن اقتات بهِ واستند عليهِ كذلك اولئِك الثلاثة الرجال المساكين المنكودوا الحظ لم يكونوا يعرفون ان نجاتهم وعيالتهم كانتا مؤكّدتين بهذا المقدار ولا كم كانتا قريبتين اليهما ولا كم كانوا في امانٍ تامٍّ وطيد عند ما كانوا يحسبون انفسهم هالكين لا محالة ولا باب لهم للامل في النجاة. فما اقلَّ الاشياءَ التي نراها امامنا في العالم وما اكثر الاسباب التي تحملنا على الاتّكال على خالق

العالم العظيم والثقة بانهُ لا يهمل خلائقهُ في حالة الحاجة القصوى بل انما يكون لهم دائمًا في اردإ الاحوال ما يشكرونهُ تعالى لاجلهِ وتكون نجاتهم احيانًا اقرب مما يتصوَّرون حتى انهم قد يحصلون مرارًا على النجاة بالوسائط التي كان يبان لهم انها ستكون سبب هلاكهم

الفصل السادس والعشرون

اظهار روبنصن كروزي نفسهُ للرئيس الانكليزي ومساعدتهُ اياهُ على بحريتهِ العصاة

فلما خرج اولئك القوم الى البرّ كان المدُّ في اعلى درجاتهِ . وبينما كانوا يطوفون في الجزيرة يتفرَّجون عليها جزر البحر ورجع مسافةً الى الوراءِ تاركًا قاربهم على الارض اليابسة . وكانوا قد تركوا في القارب رجلَين كانا كما وجدت في ما بعد قد شربا كثيرًا من العَرَق وناما مستغرقَين . الاَّ ان واحدًا منهما انتبه قبل رفيقهِ بقليلٍ ولما وجد القارب قد قعد على الارض بحيث لم تكن لهُ استطاعة على تحريكهِ اخذ يصيح باصحابهِ الذين كانوا متشتتين في الجزيرة فلما سمعوا صوتهُ اتوا جميعًا راجعين بسرعة الى القارب . الاَّ ان تنزيلهُ الى الماءِ كان قد صار فوق طاقتهم لانهُ كان ثقيلاً جدًّا وكان الشاطي في تلك الجهة رملاً رخوًا موحلاً مائعًا . فتركوهُ في تلك الحالة كما هي عادة البحرية الذين هم اقلُّ اهتمامًا بالمستقبل من سائر بني البشر ورجعوا الى ما كانوا عليهِ من الجولان والتيه في الجزيرة . وقد سمعت واحدًا منهم يقول لآخر بصوت عالٍ . هلمَّ بنا جاك دعهُ لشانهِ اما تعلم انهُ سيعوم متى اقبل المدُّ ثانيةً . وعند ما سمعت كلمة جاك تحقَّقت ان اولئك البحرية هم انكليز لان هذه اللفظة كثيرة الجري على السنتهم وهي علمٌ جنسيٌّ عندهم لكل بحريٍّ ورفيق ومعناها يعقوب . وقد لبثت مقيمًا كل تلك المدة في مكاني لا اتجاسر ان اخرج من قلعتي الى مكان ابعد من مكان المراقبة بالقرب من راس التلّ . وكنت افرح مبتهجًا عند الافتكار بكونهِ

كان حصنًا متينًا بهذا المقدار. وكنت اعلم ان القارب لا يمكن ان يعوم على الماء الاّ بعد مضيّ عشر ساعات من ذلك الوقت حين يكون الظلام قد خيّم وتكون لي حريةٌ اكثر لان انظر الى حركاتهم واسمع حديثهم اذا كان لهم حديث. وقد هيّأْت نفسي في تلك الاثناء للقتال كما فعلت قبلاً ولكن باكثر حذرٍ لعلمي بان اولئك الاعداء هم اشدُّ واخبر من الاعداء الآخرين. وامرت جمعة الذي كنت قد علّمتهُ جيدًا استعمال الاسلحة ان يتسلّح با لعدّة الكاملة. فاخذت بارودتين واعطيتهُ ثلاثًا. وكانت هيئتي مخيفةً جدًّا. فاني كنت متوشحًا برداءي القويّ من جلود المعزى ولابسًا على راسي قبعي الكبير الذي تقدّم وصفهُ ومتقلدًا على جنبي بسيفٍ مجرّد وشاكًا طبنجتين في حزامي وحاملاً بارودةً على كل كتف من كتفيّ

وكان قصدي كما ذكرت آنفًا ان لا اعمل شيئًا الاّ بعد ان يخيّم الظلام ولكن نحو الساعة الثامنة من النهار ذهبوا جميعًا هائمين في الاحراش وناموا هناك. واما الثلاثة الاسرى المساكين فاذ كانوا مضطربين ولم يستطيعوا ان يناموا من جرى تعاسة حالهم كانوا جلوسًا في ظلّ شجرةٍ كبيرةٍ تبعد عني نحو ربع ميل. وكانوا كما ظننت مستترين عن نظر البقيّة. وعند ذلك عزمت على ان اظهر لهم نفسي واعرف شيئًا عن احوالهم فاخذت حالاً انقدم نحوهم في الحالة التي وصفتها لك وكان جمعة يتبعني من الوراء عن بُعْد متسلحًا با لعدّة الكاملة نظيري الاّ انهُ لم يكن غريبًا في زيّهِ ومنظرهِ كما كنت انا. فدنوت منهم بقدر الامكان من دون ان يروني ثم قبل ان يقع نظر احد منهم عليّ صحت بصوت عالٍ با للسان الاسبانيوليّ قائلاً من انتم ايها الخواجات. فارتعدوا عند ما سمعوا الصوت وكانت رعدتهم عشر مرات اكثر عند ما رأوني بذلك الزيّ الغريب والهيئة المهولة. فلم يجيبوا بكلمة وكان يلوح لي انهم كانوا هامّين على الهرب مني فكلّمتهم با للسان الانكليزيّ. وقلت يا خواجات لا تخافوا. ان شاء الله يكون لكم صديق قريب لم تكونوا تنتظرونهُ. فاجاب واحد منهم بكل وقار رافعًا برنيطتهُ احترامًا لي وقال يجب ان يكون ذلك قد أُرسِل باستقامة من السماء لاننا صرنا في حالة لا يقدر احد الناس ان يخلّصنا منها. فقلت لهُ ان كل

معونة هي من السماء يا مولاي . فهل تقدرون ان تُفهموا رجلاً غريبًا كيف يقدر ان يساعدكم لانهُ يبان انكم في ضيقة عظيمة . فاني نظرتكم عند نزولكم الى البرّ . وعند ما كنتم تتضرَّعون بانكسارٍ الى اولئك الوحوش الذين اتوا معكم رايت واحدًا منهم يرفع خنجرهُ ليفتك بكم

وان ذلك الرجل المسكين اجاب والدموع تذرف على خدَّيهِ وهو يرتعد كأنهُ قد دُهِش منذهلاً وقال هل الذي اكلّمهُ يا مولاي الهٌ او انسانٌ وهل هو انسانٌ حقيقيٌّ او ملاكٌ بصورة انسان . فقلت لهُ لا تخف من هذا القبيل يا مولاي فلو ارسل الله ملاكًا لكي ينقذكم لكان اتى بملابس احسن واسلحة تختلف عمَّا ترون لي فاطردوا اذًا مخاوفكم . انما انا انسان . انا رجل انكليزيٌّ اريد ان اساعدكم وانتم ترون معي خادمًا واحدًا فقط . ومعنا اسلحة وذخيرة فقولوا لنا بصريح العبارة هل نقدر ان نساعدكم وما هي قصتكم . فقال يا مولانا ان قصتَّنا طويلة عريضة لا يسعنا الوقت لشرحها لك لان الذين يطلبون قتلنا هم قريبون منا . ولكن اقول بالاختصار اني يا مولاي كنت رئيس ذلك المركب وقد خانني بحريتي وتمرَّدوا عليَّ وبالكد قدرت ان اقنعهم ان لا يقتلوني فوضعوني على هذا الشاطي في هذا المكان المقفر مع هذين الرجلين اللذين معي فان احدهما ثانيٌ في رياسة المركب والآخر راكبٌ معنا . وكنّا متوقّعين الهلاك في هذا الموضع لاننا ظننَّا انهُ لا سكَّان فيهِ ولم نعلم شيئًا من امرهِ . فقلت لهُ واين هم اولئك اللصوص اعداۤؤكم اتعلم اين ذهبوا . فقال مشيرًا الى غابة قد التفت واشتبكت اشجارها انهم مضطجعون هناك . ان قلبي يرتعد خوفًا من ان يكونوا قد رأَونا وسمعوك تتكلَّم معنا فياتوا ويقتلونا جميعًا لا محالة . فقلت لهُ وهل معهم اسلحة ناريَّة . فاجاب ان عندهم بارودتين وقد تركوا احداها في القارب . فقلت لا تخف اذًا انا ادبّرهم . فالظاهر انهم جميعًا نائمون ويمكننا ان نقتلهم جميعًا بسهولة . ولكن اما تظنُّ ان الاحسن استيسارهم . فقال انهُ يوجد بينهم رجلان رديَّان جدًّا لا اركان فيهما ولا يؤْمَن لهما اذا عُومِلا بالرحمة فاذا خلصنا منهما فان البقيَّة يرجعون الى حيّز الطاعة وتتميم الواجبات . فسأَلتهُ

ومن هما فقال انهُ لا يقدر ان يميّزهما من البقية لبعد المسافة . الاَّ انهُ يطيع امري في كل ما آمرهُ بهِ . فقلت لهُ دعنا اذًا نتوارى عن نظرهم ونبعد عن سمعهم لئَلا ينتبهوا وعند ذلك نعتمد على ما يجب عملهُ . وهكذا رجعت في طريقي وذهبوا هم طوعًا معي متوغّلين في الاحراش واستترنا هناك عن نظرهم

ثم قلت لهُ اذا خاطرت بنفسي لكي اخلّص حياتكم فهل تقبل بشرطَين اطلبهما منك . وهو قبل ان اذكر الشرطين فهم مرادي وقال انهُ هو والمركب اذا خلصا يكونان بالتمام تحت رياستي وامري في كل شيء . واذا لم يخلص المركب فانهُ هو يعيش ويموت معي في ايّ محلّ اخذتهُ اليهِ من العالم . وهكذا قال الرجلان الآخران . فقلت ان لي شرطَين فقط احدهما انكم في مدة اقامتكم معي في هذه الجزيرة لا تدَّعون بادنى سلطةٍ فيها . واني اذا سلّمتكم اسلحة تردُّونها لي في ايّ وقتٍ طلبتها منكم ولا تعملون شيئًا يضرُّني او يضرُّ ما يخصُّني او بلوذ بي وتكونون دائمًا خاضعين لاوامري . ثانيهما انهُ اذا خاص المركب تاخذونني فيهِ انا وخادمي الى بلاد الانكليز مجّانًا من دون اجرة

فتعهَّد الرئيس لي تعهُّدًا وطيدًا بانهُ سيتمّ هذين الشرطين العادلين من دون ادنى خلل وانهُ عدا ذلك سيحسب دائمًا ان حياتهُ هي من عندي وملكي ويقرُّ بذلك في جميع الاحوال ما دام حيًّا . فقلت لهُ فاذًا هذه ثلاث بواريد لكم مع الرصاص والبارود فقل لي الآن ماذا تظنُّ انهُ ينبغي لنا عملهُ . فاظهر لي كل ما امكنهُ اظهارهُ من الممنونية وقال انهُ يرغب في ان يترك كل شيء لتدبيري ورابي . فقلت لهُ اني استحسن ان نرميهم بالرصاص حالاً وهم نيام فاذا اخطأْنا بعضهم في الطلق الاول وطلب ان يسلّم لنا نعفو عنهُ وهكذا نسلّم الاصابة والخطا لعناية الله . فقال بكل وداعة انهُ يكره قتلهم . الاَّ انهُ يوجد بينهما رجلان رديَّان لا يصطلحان وقد كانا اصل الفساد والعصيان فاذا لم نقتلهما نبقى في خطر لانهما يذهبان الى المركب ويأتيان بباقي البحرية فيهلكوننا جميعًا . فقلت لهُ فاذًا الضرورة تجعل ما اشرت بهِ جائزًا لانهُ هو الطريق الوحيد لصيانة حياتنا ومعلومك ان الضرورات

تبيح المحظورات . ولكن لمَّا رايتهُ لم يَزَل غير راضٍ بسفك الدم قلت لهُ يجب ان يذهب هو وجماعتهُ ويدبّروا الامور كما يحسن لديهم



روبنصن كروزي والرئيس

وبينما كنا في وسط الحديث انتبه البعض منهم ثم بعد قليل رأينا اثنين منهم قد وقفا على ارجلهما . فسألتهُ هل احد من ذينك الرجلين هو من روساء الحركة فاجاب لا . فقلت لهُ فاذًا لا نتعرَّض لهما . لان البائن ان العناية قد ايقظتهما لاجل

انقاذها. واما اذا افلت الباقون منك فان اللوم انما يكون عليك. فلما قلت لهُ ذلك اخذ البارودة التي اعطيتهُ اياها بيدهِ وطبنجة في حزامهِ وصاحبيَهِ معهُ وكان بيد كلٍّ منهما بارودة وذهبوا معًا. وكان الرجلان اللذان ذهبا معهُ يمشيان قدامهُ. فاحدثا صوتًا التفت عندهُ احد الرجلَين المنتبهَين فرآهما. وللحال صاح برفاقهِ. فحالما صاح أَلعب رفيقا الرئيس البارود. واما الرئيس فابقى بحكمة بارودتهُ مدكوكة لحين الاقتضاءِ. وكانا قد حكمّا جيدًا بارودتَيهما على الرجلين المطلوبين فاصابا هما كليهما فقُتِل احدهما في ارضهِ وجُرِح الاخر جرحًا بليغًا. واذ لم يَمُت طفر واقفًا على رجليهِ وصاح باعلى صوتهِ مستغيثًا برفاقهِ. فتقدم الرئيس اليهِ وقال لهُ انهُ قد مضى وقت الاستغاثة بالناس فيجب عليك ان تطلب الى الله ان يغفر لك خباثتك. ولم يتمّ هذه العبارة حتى صرعهُ بقندق بارودتهِ الى الارض. فلم ينطق بكلمة بعدها. وكان باقيًا ثلاثة من اولئك الاشقياءِ كان احدهم قد جُرِح جرحًا خفيفًا. وكنت عند ذلك قد جئت فلما رأوا ما كانوا فيهِ من الخطر وانهُ لا فائدة لهم من المقاومة طلبوا ان يُعاملوا بالرحمة والعفو. فقال لهم الرئيس انهُ يعفو عنهم اذا كانوا يندمون على الخيانة التي ارتكبوها ويحلفون لهُ بانهم يكونون امناءَ لهُ ويساعدونهُ في تخليص المركب والرجوع فيهِ معهُ الى جامايكا التي كانوا قد اتوا منها. فقدّموا لهُ جميع الادلَّة المرغوبة على صدقهم واذ رايتهُ مائلاً الى تصديقهم والعفو عنهم لم اشأ ان اضادهُ في ذلك الاَّ اني الزمتهُ ان يقيّدهم من ايديهم وارجلهم ما داموا في الجزيرة

وفي تلك الاثناءِ ارسلت جمعة وثاني الرئيس الى القارب لاجل تسلّمهِ والاتيان بالمجاذيف والقلوع ففعلا كما امرتهما. وان ثلاثةً من الرجال الذين كانوا في البرّ وكانوا لاجل سعدهم قد انفصلوا عن البقيَّة لما سمعوا صوت البارود اقبلوا راجعين الى ذلك الموضع. فلما رأوا الرئيس الذي كان قبلاً اسيرًا لهم قد فاز بالظفر على رفاقهم سلّموا لهُ طوعًا وارتضوا ان يقيّدهم كرفاقهم. وهكذا حصلنا على الغلبة التامَّة

فبقي عليَّ وعلى ذلك الرئيس ان نسأَل عن احوال بعضنا بعض. فابتدأت انا اولاً واخبرتهُ بكل قصتي وعلى الخصوص بكيفيَّة حصولي على القوت والذخيرة.

واذ كانت قصتي مجموع عجائب تأثرمنها جدًّا. وعند ما نظر الى حالهِ ورأى كيف كنت كأني انما حُفِظت هناك لكي اخلّص حياتهُ اخذت الدموع تتساقط ذارفةً على خدّيهِ ولم يَعُد يقدر ان ينطق بكلمة. وبعد ان فرغنا من الحديث ذهبت بهِ وبالرجلين اللذين معهُ الى منزلي وقدمت لهم ما حضر من الطعام والنقل واريتهم جميع الاختراعات التي استنبطتها في مدة سكناي المستطيلة في ذلك الموضع

وكان كل ما اريتهم اياهُ وكل ما قلتهُ لهم عجيبًا عندهم في الغاية. ومما زاد الرئيس عجبًا قلعتي وكيفيّة ستري منزلي بواسطة تلك الغابة التي كان قد صار عمرها حينئذٍ نحو عشرين سنة واذ كانت الاشجار هناك تكبر باكثر سرعة من الاشجار في بلاد الانكليز كانت قد صارت حرشًا متكاثفًا جدًّا حتى انهُ لم يكن ممكنًا العبور فيهِ الاَّ من جهة واحدة حيث كنت قد تركت طريقًا معوجّة كنت ادخل منها اليهِ. وقلت لهُ ان هذه هي قلعتي ومحل اقامتي ويوجد لي قصرٌ في الجبل كما يكون لاكثر الملوك يمكنني ان اذهب اليهِ متى شئت ووعدتهُ باني ساريهِ ذلك الموضع ايضًا في وقت آخر. لانهُ كان علينا في ذلك الوقت الاجتهاد في تخليص المركب. فقال انهُ لا يعلم كيف يكون السبيل الى ذلك لانهُ يوجد في المركب ستة وعشرون رجلاً وهولاء اذ كانوا قد اشتركوا في تلك الخيانة الخبيثة وصاروا تحت طائلة الشريعة مستحقين القتل سيقسّون قلوبهم ويصرُّون بيأس وعنادٍ على خيانتهم. لانهم يعلمون انهم اذا أُمسِكوا سيذهبون الى المشنقة حالما يصلون الى انكلترا او الى احد املاك الانكليز الخارجيّة. ومن ثمَّ لا سبيل الى قتالهم بعدد قليل كعددنا

فتأمَّلت مدةً في ما قالهُ ووجدت انهُ ناتج عن حكمة وجودة راي ومن ثم كان لا بدَّ من الاعتماد بسرعة على طريقة تقينا من ذلك المحذور. وذلك اما بنصب شرك لهم في المركب لاهلاكهم او بمنعهم من الخروج الى البر لئلا يفتكوا بنا ويهلكونا. وعند ذلك جال في خاطري ان بحريّة المركب سيخطر ببالهم بعد قليل ما اصاب رفاقهم وقاربهم ويأتون لا محالة في قاربهم الآخر لاجل التفتيش عليهم وربما يأتون عند ذلك متسلحين فيكونون اقوى منا. فقال الرئيس ان ذلك جميعهُ

ممكن وموجب الاحتساب. ثم قلت لهُ ان اول شيء يجب ان نعملهُ هو ان نخرج القارب الذي في الخليج لئلا ياخذوهُ ويذهبوا بهِ الى المركب وان ناخذ كل ما يوجد فيهِ من الادوات ونعطلهُ بحيث لا يعود يصلح للسفر. ومن ثم ذهبنا الى ذلك القارب واخرجنا منهُ كل ما كان فيهِ من الاسلحة وكل ما وجدناهُ فيهِ من باقي الاشياء كقنينةٍ من العرق وقنينةٍ من الروم وقليل من الكعك وتنكة بارود وقالب سكر ملفوف في قطعة جنفيص. وكان وزن ذلك القالب نحو اقتين. وقد فرحت جدًّا بكل ما وجدتهُ وعلى الخصوص العرق والسكر لانهما كانا قد نفدا من عندي منذ سنين كثيرة

فبعد ان اخرجنا كل ذلك الى البر وكانت المجاذيف والقلوع والدفة قد أُخرِجت قبلاً كما تقدم ثقبنا ثقبًا كبيرًا في قعر القارب حتى اذا اتى منهم عدد اكثر واقدر لا يمكنهم ان ياخذوهُ. ولم يكن لي امل كبير في اننا نقدر ان نخلّص المركب ولكنني كنت افتكر انهم اذا ذهبوا من دون القارب يمكننا ان نصلحهُ ونجهزهُ ليحملنا الى جزاير لِيوَرد اذ نمرّ في طريقنا على اصحابنا الاسبانيوليين لاني لم أَنسهم

ثم بعد ان دبّرنا امورنا على هذا المنوال ورفعنا القارب من البحر بحيث لا يمكن المدّ مهما ارتفع ان يسحبهُ راجعًا بهِ الى العمق وثقبنا في قعرهِ ثقبًا كبيرًا لا يمكن سدُّهُ بسرعةٍ وجلسنا نتامل ماذا ينبغي لنا ان نعملهُ سمعنا صوت مدفع من المركب ورأينا علامات قد نُشِرت فيهِ للذين في البر لكي يرجعوا اليهِ. ولما رأوا القارب لم يتحرَّك اطلقوا ايضًا المدافع مرات متوالية وعملوا علامات مختلفة. واخيرًا اذ رأوا ان لا فائدة من ذلك جميعهِ وان القارب لم يتزحزح من مكانهِ انزلوا قاربًا آخر الى البحر واخذوا يجذفون قاصدين البرّ. فلما قربوا وجدنا انهم كانوا عشرةً وانهُ كان معهم اسلحة ناريَّة.

واذ كان المركب راسيًا على مسافة نحو فرسخين عن الشاطي نظرناهم جيدًا وهم مقبلون ونظرنا وجوههم واضحًا. وذلك لان المدّ كان قد دفعهم قليلاً الى شرقيّ القارب الآخر فاخذوا يقذفون ويسيرون بجانب الشاطي قاصدين الذهاب الى

الموضع الذي خرج منهُ بحرية القارب الآخر. فبهذه الواسطة رايناهم جيدًا وعرف الرئيس كل الرجال الذين في القارب وقال ان ثلاثةً منهم امناء وقد دخلوا مع البقية في تلك الحركة جبانةً وخوفًا منهم. واما وكيل المركب الذي يبان انهُ كان اكبر ضابط بينهم والباقون فكانوا اشرارًا نظير باقي البحرية. على انهم ربما كانوا اقوى منا. فالتفتُّ اليهِ متبسّمًا وقلت لهُ ان من كان في حالنا لم يبقَ للخوف تاثير فيهِ واذ كنا نعلم ان جميع الاحوال هي احسن من الحالة التي نحن فيها يجب ان نحسب ان النتيجة سواءٌ كانت موتًا ام حيوةً لا بد انها تكون نجاةً. ثم سألتهُ ماذا يظنُّ عن حالة حياتي وهل النجاة منها لا تستحقُّ المخاطرة. ثم قلت لهُ اين اعتقادك يا مولاي باني انما حُفِظت هنا لكي اخلّص حياتكم وقد كان واسطة لتنشيطك قبل قليل. على اني اظنُّ انهُ يوجد صعوبة واحدة فقط. فقال وما هي تلك الصعوبة. فقلت لهُ هي وجود ثلاثة او اربعة بينهم نقول انهُ يجب العفو عنهم. فلو كانوا جميعًا من الاشرار لكنت ظننت ان الله نفسهُ قد افرزهم بعنايتهِ لكي يدفعهم بيدك. واعلم يقينًا ان كل رجل يخرج الى البرّ هو نصيبنا وسيموت او يعيش بحسب تصرُّفهِ نحونا. واذ قلت ذلك بصوتٍ عالٍ رخيمٍ ووجهٍ باشٍّ طلقٍ ظهر لي انهُ تشجَّع كثيرًا. وهكذا تأهّبنا بنشاط وشجاعة للنضال والمدافعة

وكنا قبل ان راينا القارب يُقبِل من المركب قد عزمنا ان نفرّق بين اسرانا وكنا قد احتفظنا عليهم جيدًا. فان اثنين منهم كان الرئيس اقلّ اركانًا اليهما من البقية ارسلناهما مع جمعة ورجلٍ من الثلاثة الذين خلّصناهم الى مغارتي حيث كانا بعيدَيْن ولا يُخشَى من ان يُسمَع صوتهما او يُعرَف موضعهما حتى انهما اذا افلتا لا يمكنهما ان يعرفا الطريق للخروج من الاحراش فتركهما جمعة ورفيقهُ هناك مقيَّدَين واعطياهما زادًا لياكلا ووعداهما بانهما اذا اقاما هناك بالهدو سيعتقانهما بعد يوم او يومين. ولكن اذا حاولا الهرب سيُقتَلان من دون رحمةٍ. فوعدا وعدًا صادقًا بانهما يحتملان حبسهما بالصبر وكانا شكورَيْن جدًّا من جرى حسن معاملتنا ايَّاهما في اعطائهما زادًا وضوءًا لان جمعة اعطاهما شمعًا ممَّا كنا نعملهُ لاجل راحتهما وربما

كانا يظنان انهُ كان واقفًا دائمًا على الباب خفيرًا عليهما

واما باقي الاسرى فكانت معاملتهم احسن من ذينك الرجلين. نعم اننا ابقينا اثنين منهم مكتوفَين لان الرئيس لم يكن بركن كثيرًا اليهما. واما الاثنان الآخران فاني ادخلتهما في خدمتي على شهادة الرئيس وتوصيتهِ وتعهدها القوي بانهما سيموتان ويعيشان معنا. وهكذا كنا نحن وهما والثلاثة الرجال الابرياء سبعةً وكنا جميعنا متسلحين جيدًا ولم يكن عندي شكٌّ في اننا نقدر ان ندبّر العشرة القادمين في القارب اذا صحّ قول الرئيس انهُ يوجد بينهم ايضًا ثلاثة او اربعة من الامناء الابرياء. فحالما وصل اولئك البحرية بقاربهم الى المكان الذي كان فيهِ القارب الآخر دخلوا بقاربهم في الخليج وخرجوا الى البرّ وجرّوا القارب وراءهم فسررت اذ رايت ذلك. لاني كنت خائفًا من ان يتركوا القارب راسيًا بعيدًا عن البرّ ويتركوا فيهِ بعض بحريةٍ لاجل المحافظة عليهِ فلا يمكننا ان نستأسرهُ. واول شيء عملوهُ بعد خروجهم الى البر هو انهم ركضوا جميعًا الى القارب الآخر. ولا يخفى ما حصل عندهم من الحيرة والذهول عند ما راوا ذلك القارب معرّى من كل ما فيهِ ومثقوبًا ثقبًا كبيرًا في قعرهِ كما تقدّم. ثم بعد ان تأمّلوا في ذلك مدة صاحوا صيحتين او ثلاث صيحات باعلى اصواتهم نحو اصحابهم لعلّهم يسمعون. ولكن لم يستفيدوا شيئًا. ثم اصطفّوا حلقةً واطلقوا ما كان معهم من الاسلحة طلقًا واحدًا فسمعنا نحن ذلك الطلق وارتجّت الاحراش من صداهُ. ولا من هذا استفادوا شيئًا فان الذين في المغارة لم يكن يمكنهم ان يسمعوا ذلك لبعدهم والذين كانوا معنا من رفاقهم مع انهم سمعوا ذلك جيدًا لم يتجاسروا على ان يجيبوهم. فوقعوا في حيرة عظيمة من هذا الامر حتى انهم عزموا كما اخبرونا في ما بعد على ان يرجعوا الى المركب ويخبروا باقي رفاقهم بان اصحابهم قد قُتلوا جميعًا وبان القارب قد تعطّل. وهكذا انزلوا حالًا الى البحر القارب الذي اتوا فيهِ ونزلوا فيهِ جميعًا

وان الرئيس لما راى ذلك اضطرب جدًا وحار في امرهِ لانهُ كان يظنّ انهم يذهبون الى المركب ويُقلِعون ظانّين ان رفاقهم قد هلكوا وهكذا يخسر المركب مع

انهُ كان يؤمّل اننا نقدر ان نخلّصهُ من ايدي اولئك العصاة. ولكن لم يمضِ الاَّ قليل حتى اضطرب ايضًا من الجهة الاخرى

ثم بعد ان سافروا قليلاً في القارب رجعوا جميعًا نحو الشاطي فبقي ثلاثة منهم في القارب وخرج الباقون الى البر عازمين على التوغُّل في الجزيرة لاجل التفتيش على اصحابهم. فارتبكنا في امرنا عند ذلك ولم نعلم ماذا نعمل. لاننا كنا اذا امسكنا السبعة الرجال الذين خرجوا الى البرّ لا يفيدنا ذلك شيئًا اذا افلت القارب منا. لان الثلاثة الذين بقوا فيهِ يقدرون ان يجذّفوا راجعين الى المركب ومتى وصلوا الى هناك يرفعون مرساة المركب ويقلعون بهِ بمن فيهِ وهكذا لا يبقى لنا امل في تخليص المركب الذي كان جلّ مقصودنا حينئذٍ. الاَّ انهُ لم يكن لنا سبيل الاَّ الصبر والنظر الى جري الحوادث في ما بعد. فاتى السبعة الرجال الى الشاطي والثلاثة الذين بقوا في القارب ابعدوا بهِ عن الشاطي وارسوهُ هناك ينتظرون رفاقهم. فالذين خرجوا الى البرّ اخذوا يسيرون معًا قاصدين راس التلّ الذي كانت قلعتي عند حضيضهِ وكنا نراهم واضحًا واما هم فلم يكونوا يروننا. وكنا نرغب انهم يقبلون متقدمين نحونا لكي نرميهم بالرصاص او يبتعدون مولّين عنا لكي يمكننا ان نخرج من وسط الاحراش التي كنا كامنين فيها. فلما وصلوا الى قمّة التلّ حيث يطلّون الى مسافة بعيدة على السهول والاحراش التي موقعها في الجهة الشمالية الشرقيّة وحيث كانت الجزيرة متطامنةً اخذوا ينادون ويصرخون باعلى اصواتهم حتى بُحُّوا وكلُّوا. واذ كانوا لا يرغبون ان يبعدوا كثيرًا عن الشاطي ولا ان يتفرّقوا خوفًا من امرٍ ياتي جلسوا معًا تحت شجرة وعقدوا هناك ديوان شورى. فلو ناموا هناك كما فعل رفاقهم الذين دهمناهم لكانوا عملوا معروفًا كبيرًا معنا. الاَّ انهم اذ كانوا خائفين جدًّا ومحتسبين من الخطر لم يجسروا ان يناموا وان كانوا لا يعلمون يقينًا ما هو الخطر الذي كانوا فيهِ

وفيما كانوا جلوسًا يتبصّرون في المسئلة قدّم الرئيس رايًا اعجبني فقال ربما يطلقون جميعًا طلقًا لكي يسمع رفاقهم الصوت فاذا فعلوا ذلك يجب ان ندهمهم

عند ما تكون اسلحتهم فارغةً فيسلّمون لنا لا محالة فنلقي القبض عليهم من دون سفك دم . فاستصوبت هذا الراي على شرط ان نكون قريبين منهم عند تفريغ بواريدهم بحيث نقدر ان ندهمهم قبل ان تحصل لهم فرصة لان يدكّوها . الاَّ ان ذلك ايضًا لم يتمّ . فاقمنا مدة طويلة في مكاننا غير عارفين ماذا نعمل . واخيرًا قلت لهم انهُ حسب رايي لا يمكن عمل شي الاَّ في الليل . فاذا اقبل الليل ولم يرجعوا الى القارب فربما نجد طريقًا للتوسّط بينهم وبين الشاطي وهكذا نحتال على الذين في القارب ان يخرجوا الى البر . فانتظرنا مدة طويلة انتقالهم من مكانهم حتى ضجرنا . ثم لما راينا انهم بعد محاورات مستطيلة فيما بينهم قاموا جميعًا وانثنوا راجعين نحو البحر سُقِط في يدنا وارتبكنا . والظاهر انهم لشدة خوفهم واحتسابا بانهم عزموا ان يرجعوا الى المركب ثم يسافروا فيهِ الى الجهة المقصودة منهم معتقدين بان رفاقهم قد هلكوا لا محالة

فحالما رايتهم راجعين نحو البحر لاح لي انهم قد عدلوا عن التفتيش وعوّلوا على الرجوع الى المركب . وحالما كاشفت الرئيس بما لاح لي كاد يُغَى عليهِ من شدة الحزن والاحتساب . الاَّ اني افتكرت بعد قليل بحيلة حصلت بها على مطلوبي كما سترى . فاني امرت جمعة وثاني الرئيس ان يذهبا الى عبر النهر الى جهة الغرب نحو المكان الذي خرجَتْ فيهِ البرابرة بجمعة عند ما خلّصتهُ من ايديهم فاذا وصلا الى مرتفع من الارض على مسافة نحو نصف ميل يصيحان باعلى صوتهما الى ان يتأكّدا بان البحريَّة قد سمعوا صوتهما . وانهما حالما يسمعان البحريَّة يجيبونهما يصيحان ثانية . وان يستترا دائمًا عن اعينهم ويدوران من مكان الى مكان ويجيبانهم كلما نادوهما لكي يستجرّاهم متوغّلين بهم في الجزيرة وبين الاحراش بقدر الامكان ثم يرجعان ايضًا نحوي في طريقٍ دللتهما عليها ففعلا . وفيما كان القوم على همَّة النزول الى القارب نادى جمعة وثاني الرئيس فسمعوهما حالاً واخذوا يركضون على الشاطي نحو الغرب قاصدين المكان الذي سمعوا منهُ الصوت فلما وصلوا الى النهر وقفوا لانهم لم يستطيعوا ان يعبروهُ بسبب ارتفاع المدّ وصاحوا برفاقهم ان ياتوا بالقارب

ليعبروا فيهِ النهر. وهكذا كنت احسب من اول الامر. فلما عبروا النهر لاحظت ان القارب اذ كان قد ابعد متوغلاً فيهِ وصار كانهُ في مينا في البر اخذوا واحدًا من الثلاثة الذين كانوا فيهِ معهم وتركوا فيهِ اثنين فقط بعد ان ربطوهُ الى ساق شجرة صغيرة على الشطّ. وكان ذلك طبق مرغوبي. فتركت جمعة ورفيقهُ في عملهما واخذت حالاً البقيَّة معي وقطعنا النهر من دون ان يرونا ودهمنا بغتةً ذينك الرجلين اللذين كانا يحرسان القارب. وكان احدهما مضطجعًا على حافَّة النهر والآخر في القارب. فالذي كان على الحافَّة كان بين منتبه ونائم وعلى همَّة القيام. واذا بالرئيس الذي كان في مقدَّمة جيشنا قد هجم عليهِ كالاسد وصرعهُ الى الارض ثم طلب من الذي في القارب ان يسلّم والاَّ فهو مقتول. ولا يخفى انهُ لا يُحتاج الاَّ الى براهين قليلة لاقناع رجل واحدٍ بالتسليم عند ما يرى خمسة رجال هاجمين عليهِ ويرى رفيقهُ قد طُرِح الى الارض مصروعًا. وعدا ذلك كان ذلك الرجل من الثلاثة الذين لم يتورَّطوا في تلك الخيانة بقدر البقية ومن ثم قنع بسهولة ليس بالتسليم فقط بل بان يتَّحد معنا في ما بعد اتحادًا صادقًا. وكان جمعة وثاني الرئيس في تلك الاثناء يدبّران الباقين جيدًا. فكانا يستجرَّانهم بواسطة النداء والمجاوبة من تلَّةٍ الى تلَّةٍ ومن حرشٍ الى حرشٍ حتى اتعباهم جدًّا وتركاهم في مكان لا يمكنهم ان يرجعوا منهُ الى قاربهم الاَّ بعد ان يخيّم الظلام حتى ان جمعة ورفيقهُ انفسهما رجعا الينا وقد كلاَّ من التعب

ولم يبقَ علينا حينئذٍ الاَّ ان نترصَّدهم في الظلام وندهمهم دهمةً هائلةً بحيث لا يفلت احدٌ منهم. ومضت ساعات كثيرة بين رجوع جمعة اليَّ ورجوعهم الى قاربهم. وكنا نسمع المتقدّمين منهم ينادون المتاخرين ان يسرعوا في مشيهم. وسمعناهم يجيبونهم ويتشكّون من شدَّة التعب والالم وعدم اقتدارهم على الاسراع. وكان ذلك خبرًا يسرُّنا جدًّا. واخيرًا وصلوا الى القارب. ولكن لا يمكن وصف الاضطراب الذي اعتراهم عند ما رأوا القارب قاعدًا على الارض اليابسة والمدَّ قد انكفأ ورفيقَيهم مفقودَين. وكنا نسمعهم ينادون بعضهم بعضًا بصوت محزن ويقول احدهم

للآخر اننا في جزيرة مسحورة . اي انهُ يوجد فيها سكان سيفتلونهم لا محالة عن آخرهم او شياطين وجانّ لا بدَّ من انهم سيحملونهم جميعًا ويبتلعونهم . ثم اخذوا يصرخون وينادون مرَّات كثيرة رفيقيهم باسميهما فلم يكن من يجيب . ثم بعد قليل كنا نراهم بواسطة ما كان باقيًا من الضوء القليل يركضون من جهة الى جهة يصفقون بايديهم كأنهم قد وقعوا في حالة اليأْس . وكانوا احيانًا يذهبون ويجلسون في القارب ليستريحوا ثم يخرجون الى البر ويتمشّون وقد فعلوا ذلك مرارًا كثيرة . وكان رجالي يرغبون ان اسمح لهم ان يدهموهم بغتةً في الظلام الاَّ اني كنت ارغب ان اتصرَّف معهم بالرفق واخلّص البعض منهم واحجب دم العباد بقدر الامكان وعلى الخصوص لاني لم ارد ان اخاطر بحيوة احد من رجالنا . لاني كنت اعلم ان القوم كانوا متسلّحين بالعدَّة الكاملة . فصبرت لارى اذا كانوا لا يتفرَّقون مبتعدين بعضهم عن بعض . ثم لكي لا ادع احدًا منهم يفلت تقدَّمت بجماعتي نحوهم وامرت جمعة والرئيس ان يدبَّا على ايديهما وارجلهما ويدنُوَا منهم بقدر الامكان بحيث لا يرونهما وان لا يطلقا الرصاص عليهم الاَّ بعد ان يصيرا قريبَين منهم

ولم يبقيا زمنًا طويلاً في تلك الحالة حتى اقبل ماشيًا نحوهما وكيل المركب الذي كان مقدام العصاة في تلك القومة وقد ظهر حينئذٍ اجبن واضعف منهم جميعًا وكان برافقةُ اثنان من البحريَّة . وكان الرئيس متعطشًا جدًّا الى وقوع ذلك الشقيّ الخبيث في يدهِ حتى انهُ بالكدّ كان يقدر ان يتمالك نفسهُ ويصبر الى ان يقرب منهُ بحيث لا يُخطئهُ اذا رماهُ بالرصاص . لانهما كانا قد سمعاهُ يتكلم فقط ولم يرياهُ . فلما صار الرئيس وجمعة اقرب الى القوم وقفا على ارجلهما واطلقا عليهم الرصاص . فاصابا الوكيل فوقع قتيلاً في ارضهِ واصابا ايضًا احد رفيقيهِ في جسمهِ فوقع صريعًا بجانبهِ الاَّ انهُ لم يَمُت الاَّ بعد ذلك بساعة او ساعتين . واما الثالث فهرب بنفسهِ . فلما سمعت صوت البارود تقدَّمت حالاً بباقي جيشي وكانت جملتنا حينئذٍ ثمانية . اي انا قائد الجيوش العظيم وجمعة فريق العساكر والرئيس ورجالهُ والثلاثة الاسرى الذين كنَّا قد سلحّناهم . فهجمنا عليهم وكان ظلام فلم يقدروا ان

يعرفوا عددنا . فامرت الرجل الذي كانوا قد تركوهُ في القارب وكان حينئذٍ معنا ان يدعوهم باسمآئهم لعلَّهُ يقدر ان يقنعهم بالتسليم وقبول شروط الصلح . فنادى باعلى صوتهِ احدهم قائِلاً يا توما سميث يا توما سميث . فاجاب توما سميث حالاً وقال للنادي هل انت روبنصون . لانهُ كان كأَنهُ يعرف صوتهُ . فاجابهُ روبنصون نعم نعم انا روبنصون اكرامًا لله يا توما سميث أَلقوا سلاحكم وسلّموا والاَّ فقد قُتلتم في هذه الدقيقة . فقال توما ولمن نسلّم . اين هم القوم . فقال لهُ هم ههنا . هنا رئيسنا ومعهُ خمسون رجلاً وقد صرفوا هاتين الساعتين يترصَّدونكم طالبين قتلكم عن آخركم . فان وكيل المركب قد قُتِل وويل فراي جُرِح وانا أُخِذت اسيرًا واذا كنتم انتم لا تسلّمون فانكم تهلكون لا محالة . فقال توما سميث فهل تعطونا الامان لكي نسلّم . فقال روبنصون اذا وعدتم بانكم تسلّمون فاني اذهب واسأَل ولما سأَل الرئيس قال الرئيس نفسهُ انت يا سميث تعرف صوتي اذا القيتم سلاحكم حالاً وسلّمتم من دون قتالٍ فعليكم الامان جميعًا ما عدا وِيْل أَتكِنس

الفصل السابع والعشرون

ما جرى بين ويل اتكنس والرئيس وتخليص المركب وخروج روبنصون كروزي من الجزيرة

وعند ذلك صرخ وِيْل اتكنس قائِلاً اكرامًا لله ايها الرئيس أَعطِني الامان . ماذا عملت فانهم جميعًا مذنبون نظيري . ولكن ذلك لم يكن صحيحًا . لانهُ يبان ان وِيْل اتكنس هذا كان اول من قبض على الرئيس عند ما قاموا عليهِ وعاملهُ معاملة بربريَّة وقيَّدهُ من يديهِ وشتمهُ شتائِم مهينة في الغاية . فقال لهُ الرئيس يجب ان تسلّم سلاحك من دون شرطٍ وتتكل على رحمة الحكمدار . واياي عني بقولهِ الحكمدار لانهم كانوا دائِمًا يدعونني هكذا . فالقى الجميع اسلحتهم وطلبوا الصفح والعفو عن دمهم . فارسلت الرجل الذي كلّمهم واثنين معهُ فقيَّدوهم جميعًا . وعند ذلك

نقدم جيشي المظفَّر الذي قال سفيري انهُ خمسون رجلاً مع انهُ لم يكن الاَّ ثمانية كما سبق وامسكوهم واخذوا قاربهم. الاَّ اني انا بقيت متحجبًا عنهم مع حاجبٍ لي اعتبارًا لمقامي وشان وظيفتي

ثم اخذنا في ترميم القارب والاهتمام بتخليص المركب. وقد صار حينئذٍ فرصة للرئيس للكلام معهم فاخذ يعاتبهم على خيانتهم لهُ وسوءِ معاملتهم اياهُ ويظهر لهم رداءَة عملهم وشرَّ عواقبهِ وكيف كان مزمعًا ان يصل بهم الى الشقاوة والضيقة فيما بعد وربما الى المشنقة. فتأثَّروا من تلك المواعظ وكان يبان انهم تائبون. وكانوا يترجونهُ مترامين على قدميهِ ان يعفو عنهم ويغفر لهم ما افترطوهُ. فقال لهم ان ذلك ليس هو تحت سلطانهِ لانهم ليسوا اسراهُ بل اسرى حكمدار الجزيرة. وانهم كانوا يظنُّون بانهم قد طرحوهُ على جزيرة موحشة وغير مسكونة. ولكن الله قد ابطل تدبيرهم لان الجزيرة هي مسكونة وحكمدارها رجلٌ انكليزيٌّ. وانهُ يقدر اذا اراد ان يشنقهم جميعًا هناك ولكن بما انهُ قد اعطاهم الامان ربما يرسلهم الى بلاد الانكليز لكي يُعاملوا هناك بحسب مقتضيات العدل والحقانية الاَّ اتكنس فان حكمدار الجزيرة كان قد امرهُ ان ينذرهُ بالاستعداد للموت لانهُ سيُشنَق في غد ذلك اليوم صباحًا

ومع ان ذلك لم يكن الاَّ حيلةً من الرئيس احدث فيهم التاثير المرغوب. فركع اتكنس على ركبتيهِ واخذ يترجَّاهُ متذللاً ان يتوسَّط امرهُ عند الحكمدار ويترجَّاهُ ان يعفو عنهُ وكان الباقون يترجونهُ ان لا يُرسِلهم الى انكلترا اكرامًا لوجه الله الكريم

فلاح لي حينئذٍ ان وقت نجاتنا قد اتى وانهُ يمكننا ان نجعل اولئك الاسرى يساعدوننا من كل قلوبهم في تخليص المركب. وهكذا بقيت محجوبًا عنهم في الظلام لكي لا يروا ما هو حال الحكمدار الذي هم تحت سلطانهِ وناديت الرئيس باسمهِ ثم ناداهُ الحاجب بعدي قائلاً ايها الرئيس ان جلالة الحكمدار يدعوك. فاجاب الرئيس حالاً قائلاً اعرضوا لجلالتهِ باني قادمٌ. فارتعد القوم عند ذلك متحيّرين لانهم كانوا يعتقدون جميعًا بان الحكمدار هو قريبٌ منهم مع رجالهِ الخمسين. فلما اقبل الرئيس اليَّ كاشفتهُ بما في نفسي من امر تخليص المركب فاعجبهُ ذلك جدًا

وعزم على اجراءَ قصدي في اليوم القادم. ولكن لكي نفعل ذلك باكثر شجاعة ونجاحٍ قلت لهُ يجب ان نقسم الاسرى وانهُ هو يذهب ويمسك انكنس واثنين آخرين من اردإِهم ويرسلهم مقيدين الى المغارة حيث كان البعض منهم. ففوَّضت هذا الامر الى جمعة والرجلين اللذين اتيا الى البر مع الرئيس فساروا بهم الى المغارة كانهُ الى سجنٍ. وقد كان في الحقيقة مكانًا مظلمًا وعلى الخصوص عند قوم في حالتهم. واما البقيَّة فارسلتهم الى خيمتي الجبليَّة التي سبق وصفها واذ كانت داخل سور وكانوا هم مقيَّدين كانوا في محلّ الحفظ ولم يكن يُخشَى من ان يهربوا من هناك وعلى الخصوص لان نجاتهم كانت متوقّفة على سلوكهم

ثم ارسلت الرئيس صباحًا الى اولئك القوم لكي يكلّمهم ليرى اذا كان يمكن الاركان اليهم في الذهاب الى المركب والهجوم على من بقي فيهِ لاجل تخليصهِ. فبيَّن لهم الرئيس الضرر الذي لحق بهِ من جرى تصرُّفهم الملوم والحالة التعيسة التي اوصلهم ذلك التصرُّف اليها. ومع ان الحكمدار اعطاهم الآن الامان على انفسهم فاذا أُرسِلوا الى انكلترا سيُشنَقون هناك جميعًا لا محالة ولكن اذا ساعدوا في هذا العمل العادل وهو تخليص المركب من ايدي اولئك اللصوص يتعهد هو لهم باقناع الحكمدار بان يطيّب خاطرهم ويعفو عنهم

ولا يخفى ان من كان في حالتهم لا توجد صعوبةٌ في اقناعهِ بقبول ذلك الامر. فركعوا على ركبهم امام الرئيس ووعدوا بكل تذلُّل وانكسار بانهم سيكونون امناءَ لهُ الى آخر نقطة من دمهم. وقالوا ان حياتهم هي من عندهِ وانهم سيذهبون معهُ حيثما اراد ويعتبرونهُ كابٍ لهم ما داموا احياءً. فقال لهم الرئيس فاذًا يجب ان اذهب واخبر الحكمدار بما قلتموهُ وارجّاهُ لعلّي اقدر ان استعطف خاطرهُ واقنعهُ بالعفو عنكم. وهكذا رجع اليَّ واخبرني باحوالهم وحاسّيَّاتهم وبانهُ معتقد يقينًا بانهم سيكونون امناءَ. ولكن لكي نكون في امان تامٍّ قلت لهُ ان يرجع اليهم ثانيةً ويختار منهم خمسة ويقول لهم انهُ لكي يؤكّد لهم انهُ لا يحتاج الى رجال ياخذ اولئك الخمسة فقط لكي يساعدوهُ وان الحكمدار يبقي عندهُ تحت الحفظ الاثنين الباقيين مع الثلاثة

الذين كانوا قد أُرسلوا مقيدين الى القلعة نظير رهن على صدق الخمسة حتى اذا ظهرت منهم ادنى خيانة يشنق الخمسة الذين ابقاهم عندهُ رهنًا مقيَّدين بجنازير من حديد على الشاطي. فاستدلُّوا من ذلك على ان دعواهم ممسوكة بصرامة وقنعوا بان الحكمدار كان عازمًا على اجراء ما توعدهم بهِ. فاشتدَّ عليهم الخطب جدًّا ولكن لم يكن لهم باب الاَّ القبول والاجابة الى المطلوب. ومن ثم صار الاسرى يجتهدون اكثر من الرئيس في تحذير الخمسة الباقين من الخلاف وانذارهم بصدق الخدمة

وكان جيشنا كما ياتي اولاً الرئيس وثاني الرئيس والراكب. ثانيًا الاسيران اللذان مسكناها في المعركة الاولى وقد اطلقتهما وسلَّحتهما بناء على شهادة الرئيس فيهما. ثالثًا الاسيران الاخيران اللذان كنت قد ابقيتهما الى ذلك الوقت في خيمتي مقيَّدَين وقد اطلقتهما اجابةً لالتماس الرئيس. رابعًا هولاء الخمسة الذين اطلقناهم اخيرًا فكانت الجملة اثني عشر بين ضابط ونفر. وذلك ما عدا الخمسة الذين ابقيناهم محبوسين في المغارة رهنًا

فسأَلت الرئيس هل يريد ان يدهم المركب باولئك القوم. وقلت لهُ اني انا وجمعة لا يصلح ان نفارق الجزيرة لانهُ كان باقيًا عندنا سبعة رجال في الحبس. وكان علينا ان نحفظهم معتزلين بعضهم عن بعض ونقدّم لهم ما يلزمهم من القوت. وذلك شغل كافٍ لنا. فاما الخمسة الذين في المغارة فاني عزمت على حفظهم مقيَّدين. وكان جمعة يذهب كل يوم مرتين اليهم ويقدّم لهم احتياجاتهم. وجعلت الاثنين الباقيين يحملان الزاد الى مسافة معيَّنة وهناك كان جمعة يتسلمهُ منهم ويذهب بهِ الى المحابيس

وكان الرئيس معي لما اظهرت نفسي لذينك الاسيرين فقال لهم عني هذا هو المعتمد من قِبَل الحكمدار فعن امر الحكمدار لا تذهبا الى مكان ولا تعملا عملاً الا بامر المعتمد فاذا خالفتما امرهُ فستؤْخذان الى القلعة وتقيَّدان بالحديد. فالحذر ثم الحذر من الخلاف. وهكذا كنت اتظاهر الآن كأَني غير الحكمدار وكنت اتكلَّم في كل الاوقات عن الحكمدار والجنود والقلعة وما اشبه ذلك تمويهًا عليهما وترهيبًا لهما

فاخذ الرئيس حينئذٍ يجهّز قاربيهِ ويسدُّ ثقب احدهما ويضع بحريَّة فيهما. فاقام الراكب الذي كان مسافرًا معهُ رئيسًا للقارب الواحد ووضع تحت امرهِ اربعة رجال. ودخل هو وثاني الرئيس وخمسة رجال في القارب الآخر وبعد ان تأهَّبوا جيدًا اخذوا في التقذيف فوصلوا الى المركب عند نصف الليل. وحالما صاروا عن المركب على قدر امتداد الصوت امر الرئيس روبنصون ان يناديهم ويقول لهم انهم اتوا بالرجال والقارب وانهم صرفوا زمنًا طويلاً حتى وجدوهم وما اشبه ذلك. وكان يشغلهم بالحديث الى ان صاروا على جانب المركب. وعند ذلك دخل الرئيس وثاني الرئيس اولاً الى المركب باسلحتهما وضربا ثانيَ ثاني الرئيس والنجّار بقندقَيْ باروديتَيهما وطرحاهما على ظهر المركب صريعَين. وكانت رفاقهما قد تبعوهما وساعدوهما بنصاحة وامانة. وقبضوا على كل الذين وجدوهم على ظهر المركب واعتقلوهم واخذوا يسدُّون المنافذ ليمنعوا من الخروج الذين كانوا في جوفهِ والذين هربوا اليهِ وتحصَّنوا فيهِ. وبعد ان سدُّوا كل المنافذ جيدًا امر الرئيس ثاني الرئيس وثلاثة رجال معهُ ان ينقبوا العنبر الكبير حيث كان الرئيس الجديد العاصي مختبئًا وكان قد تسلَّح مع رجلَيْن وغلامٍ من اتباعهِ واستعدُّوا للقتال. فلما فتح ثاني الرئيس ومن معهُ باب العنبر رماهم الرئيس الجديد واتباعهُ بالرصاص فاصابوا ثاني الرئيس برصاص سحق ساعدهُ وجرحوا اثنين من جماعتهِ الاَّ انهم لم يقتلوا احدًا منهم. فاستهمَّ ثاني الرئيس قومهُ وثار وهو مجروح هكذا الى العنبر واطلق طبنجتهُ على الرئيس الجديد فاصاب الرصاص راسهُ داخلاً من فيهِ وخارجًا من وراء احدى اذنَيهِ فسقط ميتًا ولم ينطق بكلمة. وعند ذلك سلَّم الباقون وتسلَّم الرئيس الشرعيُّ مركبهُ من دون ان يُقتَل احد ايضًا

فلما خلص المركب امر الرئيس باطلاق سبعة مدافع علامة للنصر كما كانت الرابطة بيني وبينهُ. فلما سمعت اصوات المدافع فرحت جدًّا لاني لبثت سهران على الشاطئ الى ما بعد نصف الليل بساعتين انتظر تلك البشارة. فلما تحقَّقت الغلبة اضطجعت واذ كان يوم تعب وعناء شديد عليَّ نمت مستغرقًا الى ان ايقظني بغتةً

صوت بارودة فانتبهت من النوم واذا برجل يدعوني مناديًا اياي مادًّا صوتهُ قائلاً يا حكمدار يا حكمدار. فعرفت ان ذلك هو صوت الرئيس وصعدت الى راس التلّ فوجدتهُ هناك فاحتضنني معانقًا ايّاي واشار الى المركب وقال يا مولاي العزيز ذاك مركبك لانهُ لك بجملتهِ وكذلك نحن وكل ما يختصُّ بالمركب قد صرنا خاصّتك. فالتفتُّ نحو المركب واذا بهِ راسٍ على مسافة اكثر من نصف ميل بقليل عن الشاطي لانهم كانوا قد رفعوا مرساتهُ حالما تملكوهُ واذ كان الهوآء جيدًا اتوا بهِ وارسوهُ مقابل مصبّ النهر واذ كان المدُّ مرتفعًا حينئذٍ وصل الرئيس بالقارب الى القرب من الموضع الذي وصلت اليهِ قبلاً باطوافي وخرج الى البرّ قدام باب منزلي. وكدت في اول الامر اقع الى الارض مغشيًّا عليَّ من الدهشة لاني رايت نجاتي قد وُضِعت حقًّا بنوعٍ محسوسٍ بيدي وكلّ الاشيآء ميسورةً لي ومركبًا كبيرًا معدًّا ليحملني ذاهبًا بي حيث شئت. وبقيت في اول الامر مدةً لا استطيع ان اجيب الرئيس بكلمة. واذ كان قد احتضنني بيديهِ تمسكت بهِ. ولولا ذلك لكنت سقطت الى الارض مُغمًى عليَّ. فلما رأى الرئيس ما اعتراني من الدهشة انتزع قنّينة من جيبهِ وسقاني درهمًا من ارواح مفرّحة منعشة كان قد اتى بها معهُ عمدًا هديةً لي. وبعد ان شربت ذلك قعدت جالسًا على الارض ومع اني استفقت بواسطة ذلك بقيت مدةً لا استطيع ان اكلّمهُ بكلمة. وكان الرئيس المسكين نفسهُ في حالة سهوٍ شديد نظيري الاَّ انهُ لم يصبهُ ما اصابني من الدهشة والذهول. وكلّمني بالف شيء لطيف ورقيق لكي يردَّ روحي اليَّ ويسكّن قلقي. ولكن كانت تيّارات الفرح مزدحمة في صدري بهذا المقدار حتى اوقعت كل حاسيّاتي وعواطفي في حالة التشويش والخمول الى ان انفجرت دموعًا فانفرجت بها وانطلق لساني للكلام. وعند ذلك احتضنت ذلك الرئيس معانقًا ايّاهُ كمنقذٍ لي وفرحنا كلانا مبتهجَيْن معًا. ثم قلت لهُ اني احسبهُ نظير انسان قد أُرسِل من السمآء لكي يخلّصني وان كل تلك الحوادث ليست باقلّ من سلسلة من العجايب وان تلك الامور هي شهادة لنا بوجود يدٍ سرّيّة فائقة تدبّر العالم ودليل على ان عين القدرة الغير المتناهية تدرك ابعد جهةٍ من العالم وترسل

عونًا للبائِسين متى ارادت . ولم اتغافل عن رفع قلبي بالشكر نحو السمآء . وايُّ قلب يمكنهُ ان لا يبارك ذلك الذي قد عالني بنوعٍ عجيبٍ في قفرٍ كهذا وحالة موحشة كحالتي والذي يجب الاعتراف والاقرار دائِمًا بان كل نجاة نحصل عليها انما تصدر من عنايتهِ الفائقة

ثم بعد ان تكلَّمنا مدةً قال لي الرئيس انهُ قد اتى اليَّ ببعض مشروبات ومأْكولات من المركب ممَّا فضل عن الاشقيآء الذين بقوا مدة طويلة مستولين على المركب يتمتعون بما فيهِ . ثم نادى باعلى صوتهِ البحرية الذين في القارب وامرهم ان ياتوا الى البرّ بالاشيآء التي اتى بها هديةً الى الحكمدار

وكانت تلك الهدية كأَنَّها تشير الى اني لم اكن مزمعًا ان اسافر معهم بل ان ابقى مقيمًا ايضًا في الجزيرة . فانهُ اتى اليَّ بصندوق قنانٍ مملوَّة من ماء الكزبرة وستّ قنانٍ كبيرة من خمر ماديرا ونحو اربع اواقي من التبغ الجيّد الفاخر واثنتي عشرة قطعة كبيرة من لحم البقر وستّ قِطَعٍ من لحم الخنزير وكيسٍ مملوء من الليمون وقنينتين من شراب السفرجل واشيآء أُخَر كثيرة . وقدَّم لي ايضًا ستّ قمصان كتَّان جديدة وستّ ربطات رقبة جيّدة وزوجَيْ كفوف وزوج احذية وزوج جوارب وبدلة جيّدة من ثيابهِ كان لم يلبسها الاَّ قليلاً . وكانت هذه اكثر فائِدة لي من باقي الاشيآء بالف مرَّة . وبالاختصار اقول انهُ كساني من قمة راسي الى كعب رجلي . وكانت تلك الهديَّة لطيفةً ودليلاً على معروف الرئيس وسخآئِهِ وكرم اخلاقهِ ولاسيما عند من كان في حالتي . ولكن اكتسآئي بتلك الملابس كان في اول الامر من اصعب الامور واتعبها عندي

وبعد ان فرغنا من تلك الاحتفالات وادخال كل الاشيآء التي اتاني بها الى منزلي اخذنا نتشاور ماذا نعمل بالمحابيس الذين عندنا . وكان امر اخذهم معنا او تركهم في الجزيرة ممَّا يستحقّ النظر والبحث وعلى الخصوص اثنان منهم كنا نعلم بانهما كانا لا يقبلان الاصلاح وعاتيَين في الغاية . فقال الرئيس انهما ناكرا الجميل وماكران جدًّا حتى ان عمل المعروف معهما يكون ضائِعًا . وانهُ اذا اخذهما معهُ

يجب ان ياخذها مقيَّدين بالحديد كقاتلين لكي يسلّمها للحكم في اول بلاد نصل اليها تحت حكم الانكليز. واذ رأيت الرئيس متزعجًا جدًّا من هذا الامر قلت لهُ اني اذا اراد استدعي ذينك الرجلين اللذين اشار اليها واقنعها بان يطلبا منهُ ان يخلّفها في الجزيرة. فقال يا حبَّذا لو صحَّ ذلك. فقلت لهُ فاذًا أُرسِل انا فاحضرها وأُكلّمها بشان ذلك. فدعوت جمعة والاسيرين اللذين كانا عندنا رهنًا وكنا قد اطلقناها لان اصحابها تمّما بامانة ما تعهدا بهِ وارسلتهم الى المغارة لكي ياتوا بالخمسة الرجال الى الخيمة مقيَّدين ويبقوهم هناك تحت الحفظ ينتظرون قدومي اليهم. ثم بعد قليل توجَّهت الى هناك ببدلتي الجديدة وكانوا لا يزالون يدعونني بالحكمدار. فلما وصلت الى الخيمة والرئيس معي استحضرت القوم بين يديَّ وقلت لهم انهُ قد تقرَّر لي كل ما فعلوهُ من القبائح ضدَّ الرئيس وكيف كانوا قد عصوا بالمركب وكانوا مستعدّين لان يرتكبوا تعدّياتٍ وكبائر اخرى الاَّ ان العناية الالهيَّة قد اوقعتهم في شرّ طرقهم والقتهم في الحفرة التي احتفروها لغيرهم. واخبرتهم بانهُ قد وقع القبض على المركب بامري وهو الآن في المينا وبانهم سيرون بعد قليل ان رئيسهم الجديد العاصي قد نال جزاءَ اعمالهِ الخبيثة ويرونهُ باعينهم مشنوقًا في ساري المقدَّم. وقلت لهم اني اريد ان اعلم ماذا يقدرون ان يقولوهُ اعتذارًا عن انفسهم ممَّا يمنعني من ان اقتلهم نظير لصوص بحرٍ او كما يقال قرصان قد أُخِذوا في ذات الفعل. لانهُ ينبغي لهم ان يعلموا بان لي سلطانًا لا ريب فيهِ ان افعل ذلك بهم

فاجاب احدهم بالاصالة عن نفسهِ والوكالة عن البقيَّة انهُ ليس عندهم ما يقولونهُ الاَّ هذا وهو انهُ لما أُلقِي القبض عليهم وعدهم الرئيس بالعفو عنهم وانهم يطلبون مني بكل تذلُّل ان اعاملهم بالرحمة. فقلت لهم لست اعلم ما هي الرحمة التي اعاملهم بها. لاني انا قد عزمت ان اسافر من الجزيرة مع كل رجالي وقد اتَّفقت مع الرئيس ان ياخذني معهُ الى انكلترا. فاما الرئيس فانهُ لا يمكنهُ ان ياخذهم معهُ الى بلاد الانكليز الاَّ نظير اسرى مقيَّدين بالحديد لكي تجري محاكمتهم هناك كخاينين ولصوص. ولا يخفى عنهم انهُ سيُحكَم عليهم هناك بالشنق. ولهذا لا يمكنني ان اعلم بانهُ

يوجد لهم طريقٌ احسن من البقاءِ في الجزيرة. فاذا ارتضوا بذلك فاني اذ كانت لي الحرّيَّة في السفر من الجزيرة لي بعض الميل ان اعفو عن دمهم اذا رأوا انهم يقدرون ان يبقوا في البرّ. فبان لي انهم كانوا محظوظين جدًّا بذلك وقالوا انهُ احبُّ اليهم كثيرًا ان يبقوا في الجزيرة من ان يُؤْخَذوا الى بلاد الانكليز لكي يُشنَقوا هناك كقطَّاع طريق. وعند ذلك انقطع الحديث بيننا

ولكنَّ الرئيس كان يتظاهر بان ذلك لا يعجبهُ وكأَنَّهُ لا يتجاسر ان يتركهم هناك. وعند ذلك تظاهرت كأَني مغتاظٌ قليلاً من الرئيس وقلت لهُ انهم اسراي لا اسراهُ واذ كنت قد تنازلت معهم الى هذا الحد من المعروف لا بد انهُ يضرُّ بشرفي ان ارجع في كلامي وانهُ اذا لم يرتضِ بذلك فاني اطلقهم كما وجدتهم وحينئذٍ فليمسكهم اذا قدر. وعند ذلك شكروا فضلي كثيرًا وفي الحال اطلقتهم وامرتهم ان ينصرفوا الى الاحراش حيث كانوا قبلاً وقلت لهم اني اترك لهم بعض اسلحة وذخيرة وبعض نصائح وتعليمات ترشدهم الى العيشة بالراحة اذا استحسنوا ذلك. ثم اخذت اتأَهَّب للانطلاق الى المركب وقلت للرئيس اني ابقى تلك الليلة في البرّ لاجل تجهيز اموري. وطلبت اليهِ ان يذهب الى المركب ويستعدَّ للسفر ويرسل لي في الغد قاربًا ياخذني. وامرتهُ امرًا مشدَّدًا ان يشنق الرئيس الجديد الذي كان قد قُتِل على راس ساري المقدَّم لكي يراهُ اولئِك الاسرى

ثم بعد انصراف الرئيس استحضرت الاسرى الى مخدعي واخذت اتكلَّم معهم بكل حرارة وجدٍّ عن احوالهم. وقلت لهم اني ارى انهم قد اختاروا لانفسهم النصيب الاحسن. لانهُ اذا اخذهم الرئيس معهُ لا بدَّ من شنقهم. واريتهم الرئيس الجديد مشنوقًا على ساري المركب وقلت لهم انهُ لم يكن لهم وجهٌ لان ينتظروا قصاصًا اقلَّ من ذلك

فلمَّا اطبق رأيهم جميعًا على ان يمكثوا في الجزيرة قلت لهم اني اخبرهم بقصة اقامتي فيها واعلّمهم كيف يمكنهم ان يعيشوا هناك بالراحة والرضى. ثم قصصت عليهم اخبار الموضع وكيفية اتياني اليهِ واريتهم قلعتي وكيفية اصطناعي الخبز وزرعي

الحبوب وتيبيسي العنب وبالاختصار كل ما يلزم لراحتهم ورفاهتهم واخبرتهم ايضاً بقصَّة السبعة عشر اسبانيوليًّا الذين كانوا مزمعين القدوم الى الجزيرة وقد تركت لهم بيدهم مكتوبًا وجعلتهم يتعهَّدون لي بانهم يُحسِنون معاملتهم ويساوونهم بانفسهم . ويمكننا ان نذكر هنا انهُ كان عند الرئيس في المركب حبرٌ وقد تعجَّب من اني لم اكتشف على طريقة عمل الحبر من الفحم والماء او من شيء آخر مع اني قد عملت اشياءَ أُخر كثيرة اصعب من ذلك جدًّا

وتركت لهم اسلحتي اي خمس بواريد حربيَّة وثلاث بواريد صيد وثلاثة سيوف وما كان باقيًا عندي من البارود وهو اكثر من برميل ونصف لاني بعد السنة الاولى او الاولى والثانية ايضًا لم استعمل الاَّ قليلاً من البارود ولم اعطِّل شيئًا منهُ . واوضحت لهم كيفية تدبيري للمعزى وكيف كنت احلبها واسمِّنها واعمل السمن والجبن من حليبها . وبالاختصار اخبرتهم بكل قسمٍ من قصَّتي وقلت لهم اني اترجَّى الرئيس ان يترك لهم برميلَيْن من البارود وقليلاً من بزور الجنائن ممَّا كنت اسرُّ بهِ جدًّا لو حصلت عليهِ . واعطيتهم كيس اللوبيا الذي اعطاني اياهُ الرئيس وحرضتهم على زرع ذلك وزيادتهِ بهذه الواسطة

وبعد ان فعلت ذلك جميعهُ تركتهم في الغد وذهبت الى المركب وتهيَّأْنا حالاً للسفر الاَّ اننا لم نُقلع تلك الليلة . وفي اليوم القادم باكرًا اتى رجلان من الخمسة الذين تركناهم في الجزيرة سابحَيْن الى جانب المركب وطلبا ان نقبلهما اكرامًا لله في المركب لانهما كانا يخافان من ان يقتلهما الباقون واخذا يتراميان متواقعَيْن على الرئيس ان يقبلهما وان كان يشنقهما حالاً . وعند ذلك تظاهر الرئيس انهُ لا سلطة لهُ على ذلك بدون امري . الاَّ انهُ بعد وعدهما الوثيق بالاصلاح قبلهما بصعوبة في المركب وبعد ان بقيا مدة يُجلَدان جلدًا شديدًا ويؤدَّبان بصرامة كل يومٍ صارا امينين مطيعين وهاديين الى الغاية

ثم بعد ذلك بقليل ارسل الرئيس قاربًا الى البرّ بعث فيهِ الاشياءَ التي وعدت بها الاسرى وبعث لهم معها اكرامًا لخاطري صناديقهم وثيابهم فاخذوا ذلك

بالشكر. وكنت قد وعدتهم جبرًا لخاطرهم باني اذا قدرت سارسل مركبًا ياخذهم ولا انساهم

ولمَّا ودَّعت الجزيرة اخذت معي الى المركب لاجل الذكر القبع الكبير الذي عملتهُ من جلود المعزى وشمسيَّتي وواحدًا من ببغاواتي. ولم انسَ ان آخذ النقود التي ذكرتها قبلاً وكان قد مضى عليها مدة طويلة عندي من دون ان استفيد منها شيئًا حتى علاها العفن والوسخ ولم تَعُد تُعرَف انها فضة الاَّ بعد فركها قليلاً وتداول الايادي لها. واخذت ايضًا الدراهم التي وجدتها في المركب الاسبانيوليّ. وهكذا فارقت الجزيرة في اليوم التاسع عشر من شهر كانون الاول كما ظهر لي من دفتر المركب وذلك سنة ١٦٨٦ بعد ان صرفت فيها ثماني وعشرين سنةً وشهرين وتسعة عشر يومًا. فخلصت من هذا السبي الثاني في نفس اليوم والشهر الذي هربت فيهِ في الكوثر من يد مغاربة سَلِّي. وبعد سفر طويل في ذلك المركب وصلت الى بلاد الانكليز في ١١ حزيران سنة ١٦٨٧ بعد ان بقيت غائبًا خمسًا وثلاثين سنةً

شعرٌ

انَّ الليالي للانامِ مناهلٌ تُطوَى وتُنشَرُ دونها الاعمارُ
فقصارهنَّ مع الهمومِ طويلةٌ وطوالهنَّ مع السرورِ قصارُ

الفصل الثامن والعشرون

ذهاب روبنصن كروزي الى لسبون ومقابلتهُ الرئِيس البرتوغالي وذهابهُ من هناك الى انكلترا برًّا

فلمَّا وصلت الى بلاد الانكليز كنت غريبًا عند جميع الناس كاني لم اكن قطُّ هناك. وان المحسنة اليَّ وخزينتي الامينة التي كنت قد تركت مالي بيدها كانت لم تزل حيَّة الاَّ انها كانت قد صادفت مصائِب كثيرة في العالم وترمَّلت ثانية وصارت فقيرة جدًّا. ولم اشدّد عليها في طلب ما كان لي عندها بل اكَّدت لها باني

لا ازعجها بل بالحري اساعدها بقدر ما تسمح لي بهِ وسائطي وفآء لمعروفها نحوي. ولم انسَها عند ما كان عندي كفآءة لمساعدتها كما سياتي بيانهُ في مكانهِ. ثم انحدرت بعد ذلك الى يوركشير. وكان ابي وامي قد تُوُفّيا وكل العائلة انقطعت الاَّ اختين وولدين لاحد اخويَّ. واذ كانوا قد ظنّوا اني متُّ منذ زمانٍ مديدٍ لم يحسبوا لي حسابًا. وهكذا لم أجِد شيئًا يساعدني في قضآء حاجاتي والنقود القليلة التي كانت عندي كانت غير كافيةٍ لان تساعدني كثيرًا في معيشتي في الدنيا

الاَّ انهُ عُمِل معي معروفٌ لم اكن انتظرهُ. وذلك ان الرئيس الذي خلّصنهُ وخلّصت مركبهُ ووسقهُ كما سبق اخبر اصحاب المركب بما عملتهُ من المعروف من هذا القبيل وكيفيَّة تخليصي حيوة الرجال والمركب فكلفوني ان اجتمع بهم وبتجار آخرين لهم تعلّق بذلك المركب. ولما اجتمعت بهم شكروني جميعًا شكرًا جميلاً على ما عملتهُ وقدموا لي صرةً فيها نحو مايتي ليرا انكليزيَّة

ثم بعد ما تأمّلت مدة في ظروف حياتي وكيف ان ذلك لا يكفي لتسليك اموري في العالم عزمت على السفر الى لسبون لعلّي افهم شيئًا هناك عن احوال عقاراتي في برازيل واحوال شريكي الذي كانت لي اسباب تحملني على الظن بانهُ يكون قد حسب باني متُّ منذ سنين كثيرة. وهكذا ركبت مركبًا متوجّهًا الى لسبون فوصلت الى هناك في شهر نيسان تلك السنة. وكان خادمي جمعة مرافقًا لي بكل امانة في كل هذه الاسفار وكان اصدق خادمٍ في جميع الاحوال. فلما وصلت الى لسبون وجدت بواسطة الفحص صديقي القديم رئيس ذلك المركب الذي قبلني في ما كنت هاربًا على شطوط افريقية ففرحت جدًّا بمصادفتي ايَّاهُ. وكان قد شاخ واعتزل عن السفر في البحر ووضع ابنهُ الذي كان قد تجاوز سنَّ الشباب في مركبهِ وكان لا يزال يتعاطى تجارة برازيل. وان الرجل الشيخ لم يعرفني ولا انا عرفتهُ في اول الامر الاَّ اني تذكَّرتهُ وذكَّرتهُ سريعًا بنفسي لما اخبرتهُ من انا

ثم بعد ان صرفنا مدة في الكلام عن ايامنا واحوالنا القديمة سألتهُ عن عقاراتي وشريكي. فاخبرني انهُ لم يمضِ الى برازيل منذ تسع سنين تقريبًا وانهُ عند ما

سافر من هناك كان شريكي لم يزل حيًّا. واما الوكيلان اللذان اقمتهما معهُ على حصَّتي فكانا كلاهما قد ماتا. وانهُ مع ذلك يظنُّ بانهُ سيكون لي اخبار جيدة جدًّا عن تقدُّم املاكي هناك. وذلك لانهُ عند تواتر الاخبار باني قد غرقت قدَّم وكيلاي حساب محصولات سهمي من العقارات الى ناظر الاملاك وان ناظر الاملاك خصَّص ثلثها بالمَلِك والثلثين الباقيين بدير مار اوغسطينوس لاجل توزيعهما على الفقراءَ ولاجل رجوع الهنود الى الايمان الكاثوليكي وذلك على شرط اني لا آتي ابدًا واطلبها. ولكن اذا تقدَّمت انا او احد آخر بالوكالة عني لاجل الادّعاءَ بالارث يجب تسليم العقارات عينًا واما الغلال فلا ترجع لانها تكون قد صُرِفت في اعمال الصدقة. وأكَّد لي ان ناظر الاملاك المقام من طرف الملك ووكيل الدير كانا يطلبان كل سنة من شريكي الذي كان واضعًا يدهُ على الاراضي حسابًا مدقَّقًا عن الغلال ويستوليان على النصف الذي يخصُّني. ثم سأَلتهُ الى اي درجة من التقدُّم كان قد اوصل تلك الاملاك وهل يظنُّ انها تستحقُّ ان يُسأَل عنها او هل اذا ذهبت الى هناك اصادف مانعًا يمنعني من استلام حصَّتي التي هي حقٌّ لي شرعيٌّ. فاجابني انهُ لا يمكنهُ ان يخبرني الى اي درجة من التقدُّم وصلت املاكي الَّا انهُ يعلم ان شريكي صار غنيًّا جدًّا بواسطة تمتعهِ بسهمهِ منها وانهُ على قدر ما يذكر قد سمع ان ثُلث الملك من حصَّتي الذي يبان انهُ كان ينعم بهِ على دير آخر او محلٍّ للفقراءَ كان يبلغ اكثر من مائتي ليرا برتوغالية كل سنة اي نحو الف ومائتيْ ريال. واما امر استلامي لها من دون صعوبة فهو مما لا يُشَكُّ فيهِ وذلك لان شريكي لم يزل حيًّا وهو يشهد بان لي حقَّ الاستيلاءَ عليها. وعدا ذلك ان اسمي هو مسجل في دفتر البلاد. وقال لي ايضًا ان ورثاءَ وكيليَّ هم امناءَ صادقون واغنياءَ جدًّا وانهُ لا يشكُّ بانهم يساعدونني في استلام ملكي واني ساجد في ايديهم مبلغًا وافرًا من الدراهم لحسابي من غلَّة الاملاك التي نتجت في مدة وكالة والديهم اي قبل ان انتقلت على الوجه السابق ذكرهُ. وان تلك المدة كانت على قدر ما يذكر نحو اثنتي عشرة سنةً فظهرت عليَّ لوائح الانزعاج والاضطراب عند ما سمعت هذه الاخبار فسأَلت

الرئيس الشيخ كيف امكن الوكلاء ان يتصرَّفوا هكذا بملكي مع اني كنت قد كتبت وصيتي واقمتهُ هو اي الرئيس البرتوغالي وريثًا عامًّا لكامل تركتي الخ. فاجاب ذلك صحيح ولكن اذ كان لا توجد بيّنة تثبت اني قد متُّ لم يكن يمكنهُ ان يجري وصيّتي الاَّ بعد تاكُّد وفاتي وانهُ فضلاً عن ذلك لم يشأْ ان يتداخل في امر بعيدٍ بهذا المقدار. وانهُ كان قد سجَّل وصيّتي وقدَّم دعواهُ ولو امكنهُ ان يثبت اني قد متُّ او اني باقٍ في الحيوة لكان تصرَّف نظير وكيلٍ او وصيٍّ واستولى على معمل السكَّر وفوَّض الى ابنهِ الذي كان حينئذٍ في برازيل امر التصرُّف فيهِ. ثم اردف ذلك بقولهِ ولكن عندي خبر صغير اخبرك بهِ ربَّما لا يسرُّك نظير باقي الاخبار وهو اني اذ افتكرت انك قد متَّ وكان الناس جميعًا يفتكرون هكذا عرض شريكك ووكيلاك ان يحاسبوني بالوكالة عنك عن الستّ او الثماني السنين الاولى فقبلت ذلك منهم. واذ نفذ في ذلك الوقت مصاريف كثيرة لاجل زيادة الاشغال وعمار معمل السكَّر ومشترى العبيد لم يكن الربح حينئذٍ بقدر ما كان في ما بعد. وسأقدّم لك حسابًا حقيقيًّا عمَّا وصل ليدي وعن كيفيَّة تصرُّفي بهِ

ثم بعد ان صرفت بعض ايام ايضًا في الحديث مع ذلك الصديق القديم قدَّم لي حساب دخل الستّ السنين الاولى ممضيًا من شريكي ووكيليَّ وكان قد استولى عليهِ عينًا اي التبغ حزمًا والسكَّر صناديق ما عدا الروم والدبس الخ ممَّا كان ينتج من معمل السكَّر. ووجدت لدى فحص ذلك الحساب ان الدخل كان يزيد كثيرًا سنةً فسنةً. ولكن اذ كانت المصاريف باهظة كما تقدَّم كان الصافي من الدخل اولاً قليلاً. الاَّ ان ذلك الرجل الشيخ اراني مع ذلك انهُ كان لي في ذمَّتهِ اربعماية وسبعون ليرا برتوغاليَّة وستون صندوق سكَّر وخمس عشرة حزمةً مزدوجة من التبغ فقدت في مركبهِ عند ما انكسر وهو راجع الى لسبون وذلك بعد سفري من الموضع بنحو احدى عشرة سنةً. ثم اخذ الشيخ المسكين يتشكَّى لي من النكبات التي حصلت لهُ حتى التزم ان يصرف دراهمي في تعويض خسائرهِ ومشترى سهم في مركب جديد. ثم قال. ولكن يا صديقي القديم اني لا ادَعك تحتاج ولا تقع في ضيقة من جهة

النقدية . وبعد ان قال ذلك اخرج جرابًا عتيقًا واعطاني ماية وستين ليرا
برتوغالية ذهبًا ثم ناولني حجة المركب الذي كان ابنهُ قد سافر فيهِ الى برازيل وكان
لهُ فيهِ ربعٌ ولابنهِ ربعٌ ووضعها رهنًا بيدي على المبلغ الذي بقي لي عندهُ

فتأثرت جدًّا من امانة ومعروف ذلك الرجل المسكين حتى اني لم أُطِق ان
احتمل ذلك . وعند ما تذكَّرت ما عملهُ لاجلي وكيف قبلني في مركبهِ وكان في جميع
الاوقات كريمًا نحوي وعلى الخصوص خلوص محبتهِ لي في ذلك الوقت كدت
لا اتمالك نفسي من البكآء عند ما سمعت ما قالهُ لي . ولذلك سألتهُ اذا كانت
ظروف حالهِ تسمح لهُ بالاستغنآء في ذلك الوقت عن المبلغ الذي دفعهُ لي
واذا كان لا يحصل في ضيقة من جرى ذلك . فاجابني انهُ لا يقدر ان يقول
الاَّ ان ذلك يضايقهُ قليلاً ولكن المال مالي وربما كنت محتاجًا اليهِ اكثر منهُ

وكان كل ما قالهُ ذلك الرجل الصالح موعبًا محبة وحنوًّا وكنت بالكدّ
اضبط دموعي عند ما كان يتكلَّم . فاخذت فقط ماية من الليرات وطلبت قلمًا
وحبرًا لكي اعطيهُ وصلاً بذلك ثم ارجعت لهُ ما بقي وقلت لهُ اني اذا حصلت
على املاكي سارجع لهُ ايضًا المايةا التي اخذتها . وقد فعلت ذلك في ما بعد . واما
حجة المركب فابيت راسًا قبولها رهنًا لاني كنت متحققًا اني اذا احتجت الى النقدية فبما
كان منطويًا عليهِ من الامانة سيدفع ذلك اذا قدر من دون احتياج الى رهن
واذا لم احتج الى ذلك بل استوليت على ما جعل لي املاً في انتظارهِ لن آخذ منهُ
ايضًا ولا درهمًا واحدًا

وبعد ان فرغنا من ذلك سألني الرجل الشيخ اذا كنت اريد ان يدلَّني على
طريق لاسترجاع املاكي . فقلت لهُ ان مرادي ان اذهب الى هناك بنفسي . فقال
انهُ يمكنني ان افعل ذلك ان شئت ولكن اذا لم اشأ ان اتوجَّه الى هناك توجد
طرق كثيرة للحصول على حقي والاستيلآء سريعًا على ارباحهِ . واذ كان حينئذٍ في مينا
لسبون مراكب على همَّة السفر الى برازيل اشار عليَّ ان اقيّد اسمي في سجلّ الحكومة مع
شهادتهِ بكوني باقيًا في الحيوة وكوني انا نفس الرجل الذي اشتريت الارض لاجل

زرع وتعمير تلك المزرعة اولاً. ثم بعد ان قيّد ذلك ناظر الاملاك وصحّح عليهِ بخطهِ وختم ماموريتهِ وعلّق عليهِ ورقة وكالةٍ اشار عليَّ الرئيس ان ارسلهُ مع مكتوب بخطهِ الى تاجر من معارفهِ في برازيل وابقى عندهُ منتظرًا مجيء الجواب

ولم يجرِ شيءٌ باكثر نصاحةٍ وشرفٍ مما أُجريت بهِ تلك الوكالة لانهُ في اقلّ من سبعة اشهر ورد اليَّ رزمة كبيرة من ورثاء وكيليَّ اللذين سافرت تلك السفرة المشومة على حسابها وكانت تلك الرزمة تحتوي على المكاتيب والاوراق الآتية

اولاً صورة الحساب الجاري لمحصولات مزرعتي من السنة التي كان والداهم قد قدَّما فيها حسابًا للرئيس البرتوغالي اي عن مدة ست سنين فكان الصافي لحسابي بعد كل المصاريف الفًا ومائة واربعًا وسبعين ليرا برتوغالية

ثانيًا صورة حساب محصولات اربع سنين اخرى عند ما كانوا واضعين يدهم على الاملاك قبل ان ادّعى الحكم بحقّ الاستيلاء عليها بناءً على انها تركة شخص مفقود وكانوا يسمّون ذلك موتًا شرعيًّا. وكان صافي ذلك بعد المصاريف نحو ثلاثة الاف ومائتين واربعين ليرا برتوغالية لان قيمة المزرعة كانت قد زادت كثيرًا.

ثالثًا صورة حساب رئيس دير مار اغوسطينوس الذي كان قد استولى على ما يخصّهُ من المحصولات اكثر من مدة اربع عشرة سنة ولكن اذ كان غير ملتزم ان يحاسبني عمّا صرفهُ في البرّ اقرّ بكل امانة انهُ كان باقيًا بيدهِ من دون توزيع ثمانماية واثنتان وسبعون ليرا برتوغالية فقرّر انها محفوظة تحت امري. واما حصّة الملك فلم تحصل لي منها نتيجة

وكان في تلك الرزمة مكتوب من شريكي يهنّئني بهِ بكل محبة بالسلامة ويخبرني عن تقدّم المزرعة وعمّا يدخل منها كل سنة. ويذكر كميّة مساحتها وكيفيّة زرعها وعدد العبيد فيها. ثم بعد ان رسم في المكتوب اثنين وعشرين صليبًا طلبًا للبركات قال انهُ صلّى كميّة معيّنة من السلام لكِ يا مريم شكرًا لمريم العذراء المباركة على بقائي حيًّا. والحّ عليَّ في المكتوب بالحضور واستلام ما يخصّني او ان اخبرهُ

من هو الشخص الذي اريد ان اسلمهُ ما يخصّني اذا لم اشأ الحضور بنفسي. وختم المكتوب بتاكيدات محبتهِ الخالصة القلبيَّة وسلام عائلتهِ المحروسة. وارسل لي هديةً خمسة جلود لطيفة من جلود النمورة كانت كأنها قد أُرسلت لهُ من افريقية في مركب بيان ان سفرتهُ كانت مقرونةً بالتوفيق اكثر من المركب الذي سافرت انا فيهِ الى هناك. وارسل لي ايضًا خمسة صناديق فيها حلويات فاخرة وخمسين قطعة ذهب غير مطروقة ولكنها لم تكن كبيرة بقدر الليرا البرتوغاليَّة. وارسل لي وكلائي مع المركب نفسهِ الفًا ومايتي صندوق من السكر وثمانماية حزمة تبغ وباقي الحساب ذهبًا

ويحقُّ لي ان اقول ان اخريات ايوب كانت احسن من اوليائهِ ولا اقدر ان اشرح ما خامرني من الحبور والبهجة عند ما وجدت كل ثروتي حولي. وبما ان مراكب برازيل تأتي دائمًا عمارات معًا فان نفس المراكب التي اتت بمكاتيبي اتت ببضائعي ايضًا. وكانت الامتعة قد وصلت الى مينا الامان قبل ان وصلت المكاتيب ليدي. وبالاختصار اقول انهُ اصفرَّ لوني واصابني تهوُّع عند وصول تلك المكاتيب ولو لم يبادر الرئيس ويأتني بروح النشادر كانت الدهشة الفجائية الناتجة من شدَّة الفرح غلبت الطبيعة وكنت وقعت ميتًا في ارضي اوكما يقال في سهلتي. حتى اني بقيت مريضًا جدًّا مدة ساعات ثم اتى طبيبٌ كنا ارسلنا في طلبهِ واذ عرف شيئًا من علَّة مرضي الحقيقية امر بفصدي وبعد ذلك استرحت قليلًا ثم شفيت تمامًا. الّا اني اعتقد يقينًا انهُ لو لم يتداركني الله بهذه الوسائط لكنت فارقت الحيوة لا محالة

فصرت حينئذٍ وذلك بغتةً صاحب اكثر من خمسة آلاف ليرا انكليزية نقودًا وكانت لي عقارات في برازيل يدخل لي منها اكثر من الف ليرا كل سنة من دون ادنى خطر كأنها في نفس بلاد الانكليز. وبالاجمال صرت في حالة بالكدّ كنت استطيع ان اتصوَّرها او احتمل قوة الفكر في التمتع بها. فاول كل شيء عملتهُ هو اني كافأت المحسن الاصليَّ اليَّ اي ذلك الرئيس الصالح الذي احسن اليَّ

اولاً في ضيقتي وعاملني بالمعروف في بدايتي وكان امينًا لي في نهايتي. فاريتهُ كل ما أُرسِل لي وقلت لهُ ان ذلك كان بسعيهِ بعد عناية الله الذي يدبّر الامور باسرها وانهُ ينبغي لي الآن ان اكافيهُ وقلت لهُ اني سافعل ذلك الى ماية ضعف. فاني اولاً ارجعت لهُ الماية ليرا التي اخذتها منهُ. ثم استحضرت كاتبًا من طرف الحكومة وجعلتهُ يكتب ورقة ابرآءٍ عامٍ مسقطٍ لكل دعوى على الكمل واثبت منوال بالاربعماية والسبعين ليرا التي قال انها كانت لي في ذمتهِ. ثم جعلتهُ ايضًا يحرّر صكَّ وكالة شرعية يعلن انهُ هو وكيلي في الاستيلآء على غلال ومحاصيل مزرعتي وان شريكي يجب ان يقدّم الحساب لهُ ويرسل لهُ باسمي ما ينتج من حصتي مع المراكب التي ترِد من هناك. وقد عيّنت لهُ في ذيل الحجة ماية ليرا برتوغالية كل سنة مدة حياتهِ هبةً مني لهُ يستولي عليها من اصل المحاصيل وخمسين ليرا برتوغالية ايضًا كل سنة لابنهِ بعدهُ مدة حياتهِ ايضًا وهكذا كافأْت شيخي

فبقي عليَّ حينئذٍ التبصُّر الى اين انوجهُ بعد ذلك وماذا اعمل بالاموال التي القتها العناية هكذا بيدي. وبالحقيقة كان حينئذٍ هموم في راسي اكثر من التي كانت فيهِ اذ كنت ساكنًا وحدي في الجزيرة حيث لم اكن احتاج الى شيء الاَّ ما كنت حاصلاً عليهِ ولا كنت احصل على شيء الاَّ ما كنت محتاجًا اليهِ. واما الآن فانهُ كان عليَّ شغل كبير وكان اهتمامي ان ادبّرهُ. ولم يكن لي حينئذٍ مغارةٌ اخبئُ فيها دراهمي او مكان اضعها فيهِ من دون مفتاح ولا قفل الى ان يعلوها العفن والوسخ ولا يكون من يمسُّها بل كنت في حيرة لا اعلم اين اضعها ولا من استأْمنهُ عليها. وكانت مصالحي في برازيل تستدعيني اليها الاَّ اني لم اقدر ان افتكر بالتوجُّه الى هناك الاَّ بعد تدبير اموري ووضع اموالي بيدٍ امينة تحتفظ عليها في غيابي. فافتكرت اولاً في الارملة صديقتي القديمة التي كنت اعلم انها امينة ولا يمكن ان تغشَّني الاَّ انها كانت حينئذٍ قد طعنت في السن وصارت فقيرة الحال. ومن اين كنت اعلم انها ليست تحت دين. ولاجل الاختصار اقول اني لم اجد طريقًا الاَّ ان ارجع الى بلاد الانكليز وآخذ اموالي معي

الاَّ انهُ مضت اشهر قبلما عزمت على ذلك . ومن ثم كما كافأْت الرئيس مكافأةً تامَّة على قدر خاطرهِ لاجل احسانهِ اليَّ ابتدأْت افتكر في صديقتي الارملة التي كان المرحوم زوجها هو المحسن الاول نحوي وكانت هي عند ما كانت قادرة خزينةً امينةً ومشيرةً صادقةً لي . وهكذا اول شيءٍ عملتهُ لها هو اني جعلت تاجرًا في لسبون يكتب الى عميلهِ في لندن ان يذهب بنفسهِ الى تلك الارملة ويدفع لها عني ماية ليرا نقودًا ويكلمها ويعزّيها في حالة فقرها ويعدها باني اذا بقيت حيًّا لا انساها بل سارسل لها ما يسرُّهُ المولى . وارسلت في الوقت ذاتهِ لكلٍّ من اختيَّ ماية ليرا . ومع انهما لم تكونا فقيرتين كانتا غير مرتاحتين كما يجب في احوالها . فان احداهما كانت قد تزوَّجت وترملّت وكان للاخرى زوجٌ لم يكن يلتفت اليها كما يجب عليهِ . ولكن لم اجد بين كل معارفي واقاربي من اركن ان اضع عندهُ كل اموالي بحيث يمكنني ان اذهب الى برازيل مرتاح البال من جهة متخلَّفاتي . وكان ذلك يزعجني كثيرًا

وقد خطر لي مرة ان اذهب الى برازيل واسكن هناك الاَّ انهُ كان في عقلي وسواس من جهة الديانة كان يمنعني من ذلك . على ان الذي عاقني عن التوجُّه الى هناك في ذلك الوقت لم يكن الديانة واذ لم يكن عندي وسواس من ان اكون متمسكًا جهارًا بديانة اهالي تلك البلاد في كل المدة التي كنت فيها بينهم في ما مضى لم يكن عندي وسواس حينئذٍ ايضًا . غير اني اذ صرت موخَّرًا افتكر مرةً بعد مرةٍ في الديانة اكثر من السابق كنت عند ما ابتدئُ اتصوَّر اني سأحيا واموت بينهم اتاسَّف من اني كنت تابعًا المذهبَ البابويَّ الذي كنت احسب انهُ ربمَّا كان ليس هو احسن مذهب يموت الانسان فيهِ

ولكن لم يكن ذلك المانع الاصليَّ الذي منعني من التوجُّه الى برازيل كما تقدَّم بل انما كان يمنعني من ذلك عدم معرفتي بيد من اخلّف اموالي . وهكذا عزمت اخيرًا على التوجُّه بها الى بلاد الانكليز وعلى اني اذا وصلت الى هناك بالسلامة اتعرَّف باحد الناس او اجد احد الاقارب ممَّن يكون امينًا لي . وهكذا اخذت استعدُّ للذهاب الى انكلترا ناويًا ان آخذ كل ثروتي معي

فلكي اتهيأ للذهاب الى وطني فاذ كانت عمارة برازيل على همة السفر الى هناك كتبت اجوبةً تليق بالاخبار المفرحة الصادقة التي اتتني من هناك . فكتبت الى رهبان دير مار اوغسطينوس مكتوبًا مملوءًا شكرًا لهم على حسن تصرفهم وامانتهم وعرضهم عليَّ الثمانماية والاثنين والسبعين ليرا الباقية بيدهم لحسابي . وطلبت منهم ان ياخذوا منها خمسماية ليرا للدير ويوزّعوا ما بقي على الفقراء بحسب معرفة الرئيس طالبًا دعاء البادري لي وما اشبه ذلك . ثم كتبت مكتوب شكر اوكلاءي مع كل ما تستحقهُ تلك الاستقامة والامانة من المديح ولم ارسل لهم هدية لانهم كانوا اغنياء جدًّا لا يحتاجون اليها . واخيرًا كتبت تحريرًا لشريكي ومدحتهُ على اجتهادهِ في نجاح المزرعة واستقامتهِ في الاعمال واوضحت لهُ ان يعتمد خاطر صديقي القديم في حصّتي ويرسل لهُ كل ما ينتج من قسمي الى ان اكتب لهُ ايضًا باكثر تفصيل وأكّدت لهُ رغبتي في القدوم اليهِ والاقامة هناك مدة حياتي الباقية . وارسلت لهُ هديةً لطيفة من الحرير الايطاليانيّ لزوجتهِ وابنتيهِ لان ابن الرئيس كان قد اخبرني ان هذه عائلتهُ وشقّتين من الجوخ الانكليزي من احسن ما وجدتهُ في لسبون وخمس شقق من الصوف الاسود وبعض مطرّزات من شغل الابرة من الفخر ما يوجد

ثم بعد ان تمّمت اشغالي هكذا وبعت وسقي واخذت ثمن بضائعي جميعها كمبيالات جيّدة وقعت في صعوبة اخرى من جهة الطريق التي يجب ان اذهب فيها الى انكلترا . ومع اني كنت قد تعوّدت سفر البحر كنت اكره حينئذٍ ان اذهب الى انكلترا بحرًا . ومع اني لم اعلم سببًا لذلك كانت كراهتي لهُ عظيمةً بهذا المقدار حتى اني كنت بعد ان ارسل امتعتي الى المركب لكي اسافر بحرًا اعدل عن ذلك وذلك لا مرّةً واحدةً فقط بل مرّتين او ثلاث مرّات

تحقيق اني كنت لا حظّ لي في سفر البحر وربما كان ذلك من جملة الاسباب التي كانت تجعلني اكرههُ . ولا ينبغي لاحد ان يستخفّ بمنبّهات افكارهِ القويّة في احوال كهذه . فان اثنين من المراكب مما كنت قد عزمت على السفر فيهما وكنت

قد ارسلت امتعتي الى احدها وقاولت رئيس ثانيهما لم ينجحا في سفرهما. فان احدهما وقع اسيرًا بيد المغاربة والآخر ضيّع با لقرب من توربي وغرق كل من كان فيهِ الاَّ ثلاثة اشخاص فقط. ومن ثم لو سافرت في احدهما كنت وقعت في مصيبة لا محالة

واذ كنت مرتبكًا هكذا في افكاري كان مرشدي القديم الذي كنت اكشف لهُ كل اموري واطلعهُ على كل اسراري يحذّرني من السفر بحرًا وقد اشار عليَّ اما ان اذهب في البرّ الى كورونا واجتاز بِسكي الى روتشلّي ومن هناك اسافر برًّا الى باريس وكان ذلك السفر امينًا هيّنًا ثم اذهب من باريس الى كاليس ودوفار واما ان اذهب الى مَدْريد وهكذا اسافر كل الطريق برًّا مجتازًا في فرنسا. وبالاختصار اقول اني كنت اكره السفر بحرًا بهذا المقدار ما عدا المسافة بين كاليس ودوفار حتى عزمت على ان اسافر كل الطريق برًّا. واذ كنت لا ابالي من طولة المدة ولا اعبأُ بكثرة المصاريف كان سفر البرّ الطف والذّ عندي من سفر البحر. ولكي يكون سفري هذه المرة اكثر لذة دبّر لي صديقي القديم خواجة انكليزيًّا ابن تاجر مقيم في لسبون رفيقًا يسافر معي. ثم بعد ذلك وجدنا تاجرَين انكليزيين وشابّين برتوغاليين ارادوا ان يرافقونا. الاَّ ان الشابّين كانا ذاهبَين الى باريس فقط. وهكذا كانت جملة زمرتنا ستة خواجات وخمسة خَدَم. فاما التاجران فكان معهما خادم واحد يخدمهما كليهما وكذلك الشابّان وذلك لاجل توفير المصروف. واما انا فاني استخدمت بحريًّا انكليزيًّا لكي يسافر معي بصفة خادم وذلك ما عدا غلامي جمعة الذي كان غريبًا في تلك البلاد فلم يكن يغنيني عن خادم آخر في الطريق

وهكذا خرجت من لسبون. واذ كانت زمرتنا متجهّزة جيدًا في الخيل والسلاح كنا عسكرًا صغيرًا كانوا يدعونني قائِدهُ. وذلك اولاً لاني كنت اكبرهم في السنّ ثانيًا لانهُ كان معي خادمان وقد كنت في الحقيقة اصل كل ذلك السفر. واذ قد ازعجتك بقرآءة اخبار اسفاري البحرية سازعجك بقرآءة خبر سفري البرّيّ. ولا يجب ان اهمل ذكر بعض ما قاسيناهُ وصادفناهُ في تلك السفرة الشاقّة المملّة

فلما وصلنا الى مدريد فاذ كنا جميعًا غرباءَ عن سبانيا كنا نرغب ان نبقى مدة

لنرى ديوان سبانيا ونتفرَّج على ما يستحق الفرجة هناك ولكن اذ كان آخِر الصيف اسرعنا في الخروج من هناك وقمنا من مدريد في اواسط تشرين الاول. ولما وصلنا الى منقطع ناوادي اضطربنا اذ بلغنا في جملة قُرًى على طريقنا انهُ قد سقط ثلوج كثيرة على جانب فرنسا من تلك الجبال حتى ان كثيرين من المسافرين التزموا ان يرجعوا على اعقابهم الى بمبيلونا بعد ان كانوا قد حاولوا بمخاطرة عظيمة ان يجتازوا من هناك

فلما وصلنا الى بمبيلونا وجدنا الامر كما بلغنا. واذ كنت انا متعوّدًا دائِمًا على الهوآء الحارّ وعلى بلدان كنت لا اكاد اطيق ان البس فيها ثيابًا لشدة الحرّ كان البرد لا يُطاق عندي. وكان امرًا مذهلاً كما كان موجعًا الانتقال في مدة عشرة ايام فقط من أُلدكَسْل حيث كان الهوآء حارًا جدًّا الى مكان كنا نشعر فيهِ بريح باردة وحادَّة جدًّا لا نطاق قادمة من جبال پيرينيا حتى كنا نخشى من ان تخدر اصابع ايدينا وارجلنا مائتةً وتسقط متناثرةً من شدة الصقيع

وان جمعة المسكين خاف جدًّا عند ما راى الجبال جميعها مغطاةً بالثلج وشعر بالبرد مع انهُ كان لا رأى ولا شعر بشيء من ذلك في حياتهِ. ولاجل زيادة النحس لما وصلنا الى بمبيلونا كانت تثلج بكثرة وبقيت كذلك مدة طويلة حتى قال الاهالي ان فصل الشتآء قد اقبل قبل اوانهِ. والطرقات التي كانت صعبة المسلك قبلاً صارت حينئذٍ مسدودة لا يمكن السلوك فيها اصلاً. لان الثلج كان في بعض الاماكن سميكًا جدًّا حتى انهُ لم يكن يمكننا ان نسافر عليهِ من دون ان نموت بردًا او كما يقال دنقًا كما هو الحال في البلدان التي في القطبة الشمالية. ولهذا لم يكن يمكننا السفر من دون ان نكون في خطرٍ من ان نُدفَن احيآء في كل خطوة. فمكثنا في بمبيلونا عشرين يومًا او اكثر. فلما رايت ان فصل الشتآء قد صار قريبًا على الابواب ولم يكن لي امل في استقامة الهوآء لان ذلك الفصل كان اقسى فصول الشتآء في كامل اوروبا التي مرَّت براس انسان من ابنآء ذلك الزمان ارتأيت ان نذهب جميعنا الى فنتارابيا ومن هناك نسافر في احد المراكب الى بردوكاس وهي

قرية صغيرة جدًّا . ولكن بينما كنت افتكر في ذلك اذا باربعة خواجات فرنسويين قد دخلوا بمبيلونا . واذ كانوا قد توقّفوا عن المسير على جانب فرنسا كما توقّفنا نحن عن ذلك على جانب سبانيا وجدوا دليلاً حاذقًا قطع بهم البلاد بالقرب من راس لنكويدوك وجزع بهم الجبال في طرق لم يتعبوا فيها كثيرًا من جهة الثلج . لانهم كانوا اذا وصلوا الى موضع فيه ثلج كثير يسيرون عليهِ بخيلهم لانهُ كان متجلدًا تجلدًا كافيًا لان يحملهم ويحمل خيلهم . فاستحضرنا ذلك الدليل فقال لنا انهُ يكفل الذهاب بنا في الطريق نفسهِ من دون ان يلحقنا اذى من الثلج بشرط ان يكون معنا سلاح كافٍ نقي بهِ انفسنا من الوحوش البرّيّة . لانهُ قال انها تتردّد احيانًا كثيرة الى تلك الاماكن الكثيرة الثلوج عند حضيض الجبال ضباع مفترسة صارت كاسرةً من جرى عدم الاكل لان الارض كانت مغطّاةً بالثلج . فقلنا لهُ ان عندنا اسلحةً كافيةً لمقابلة تلك الوحوش مهما او كيفما كانت اذا ضمن لنا غائلة جنس من الضباع ذي قائمتين فقط ممّا بلغنا ان الخطر علينا من جهتهِ اعظم ممّا هو من ذوات الاربع قوائِم ولاسيما على الجهة الفرنسويّة من تلك الجبال . فاقنعنا بانهُ لا يوجد خطر من ذلك الجنس في الطريق التي مرادهُ ان ياخذنا منها . وهكذا اتفقنا حالاً ان نتبع ذلك الدليل وقد تبعهُ ايضًا اثنا عشر خواجة غيرنا مع خدمهم بعضهم فرنسويون وبعضهم اسبانيوليّون ممّن كانوا قد حاولوا الذهاب كما ذكرت سابقًا ثم التزموا ان يرجعوا الى الوراءِ

فسافرنا من بمبيلونا مع دليلنا في ١٥ تشرين الثاني واخذني العجب عند ما رايت انهُ عوض ان يتقدّم بنا الى ما قدام رجع بنا الى الوراءِ في نفس الطريق التي جئنا بها من مدريد مسافة نحو عشرين ميلاً . وبعد ان عبرنا نهرَين ووصلنا الى السهول وجدنا انفسنا في بلاد حارّة لطيفة لا يوجد فيها ثلج بالكليّة . الاّ اننا بعد ان درنا بغتةً الى اليسار دنونا من الجبال من جهة اخرى . ومع ان منظر الجبال والاودية كان هائلاً جدًّا قطعناها مع ذلك الدليل الحاذق الذي كان قد سافر مرارًا في تلك الشعاب واجتزناها في طرق معوجّة ذات تعاريج كثيرة من دون

انزعاج ولا ارتباك من جهة الثلج . وبينما كنا سائرين اطللنا بغتةً على اعمال لنكوبدوك وكسكوني البهجة المخصبة التي كانت خضراء ونضيرة جدًّا وكانت لم تزل بعيدةً عنا وكانت الطريق الباقية التي بيننا وبينها خشنة وصعبة في الغاية

الَّا اننا اضطربنا قليلاً عند ما رأيناها تثلج بكثرة نهارًا وليلاً كاملين من دون انقطاع حتى انهُ لم يمكنّا السفر . الَّا ان الدليل قال لنا كونوا مرتاحي البال سيزول ذلك كلهُ بعد قليل . ثم وجدنا اننا ابتدأنا ان نخدر كل يوم ونتقدم نحو الشمال اكثر من السابق وهكذا كنا نسير متكلين على دليلنا

الفصل التاسع والعشرون

مقابلة جمعة دبًّا وخروج الضباع على روبنصن ورفاقهِ وزواج روبنصن بعد رجوعهِ الى بلاد الانكليز

وقبل المغرب بنحو ساعتين اذ كان دليلنا قد سبقنا قليلاً حتى غاب عن نظرنا خرج علينا بغتةً من وادٍ عميقٍ متصلٍ بحرش عاصٍ ثلاثة ضباع كاسرة ثم تبعها دبٌّ مفترس . وان اثنين من الضباع هجما على الدليل ولو كان بعيدًا كثيرًا عنا لكانا ابتلعاهُ قبل وصولنا اليهِ لتخليصهِ . فامسك احدهما فرسهُ والآخر دهمهُ دهمةً قويةً مفاجئًا اياهُ حتى انهُ لم تكن لهُ فرصة ولا بقي عقلهُ معهُ لكي يسحب طبنجتهُ بل كان يصرخ باعلى صوتهِ مستغيثًا بي . وكان خادمي جمعة بجانبي فامرتهُ ان يركض بفرسهِ ليكاشف عنهُ ويرى ما بالهُ . وحالما اشرف جمعة على ذلك الرجل المسكين صرخ باعلى صوتهِ قائلاً يا مألّي يا مألّي . الَّا انهُ لم يقف ولا توقَّف بل ركض بجراءة الى ان وصل اليهِ ورفع طبنجتهُ ورمى بالرصاص الضبع الذي كان قابضًا عليهِ فاصاب راسهُ

وكان من سعد ذلك الرجل المسكين ان الذي تقدَّم لنجدتهِ كان خادمي جمعة . لانهُ اذ كان متعوِّدًا على تلك الوحوش في بلادهِ لم يخَفْ من الضبع بل

دنا منهُ وقتلهُ كما تقدَّم. فلو تقدَّم لنجدتهِ احد منا غير جمعة لكان رمى الضبع بالرصاص من مسافة ابعد وربما كان اخطأ الضبع او اصاب الرجل

وان ما حدث كان كافيًا لان يرعب من كان اشجع مني ايضًا. وبالحقيقة انهُ وقع الرعب على كل زمرتنا عند ما سمعنا عند اطلاق الطبنجة دمدمة الضباع وعويلهم الهائل عن الجانبين. واذ كانت الاصوات تتضاعف بواسطة صَدَى الجبال كنا نظنُّ انهُ يوجد منها عدد غفير. غير انها لم تكن قليلة بحيث لا يكون علينا خطر منها ولا باب للاحتساب من هجومها ولكن لما قتل جمعة ذلك الضبع فالضبع الآخر الذي كان قابضًا على الفرس افلتها حالاً ولم يلحق بها اذًى لانهُ كان لاجل التوفيق قد امسكها من راسها فعلقت وَدَعات اللجام في انيابهِ. واما الرجل فانهُ انضام وتألم كثيرًا. لان ذلك الوحش الهائج عضهُ عضتين عضةً في ذراعهِ وعضةً في فخذهِ مما يلي الركبة. ومع انهُ كان قد دافع قليلاً كان قد كاد يسقط منهافتًا عن فرسهِ عند ما اقبل جمعة عليهِ ورمى الضبع بالرصاص

واننا عند ما سمعنا صوت طبنجة جمعة لكزنا خيلنا واخذنا نُحضِر مسرعين بقدر ما كانت الطريق الخشنة الشاقَّة تسمح لنا لكي نرى ماذا حدث وبعد ما تجاوزنا الاشجار التي كانت تعمي ابصارنا راينا واضحًا ما حصل وكيف كان جمعة قد خلَّص الدليل المسكين الا اننا لم نعلم عند ذلك ماذا كان الوحش الذي قتلهُ

ولم يحصل قطُّ قتالٌ ظهرت فيهِ شجاعةٌ ورشاقة مثل القتال الذي حصل بعد ذلك بقليل بين جمعة والدبّ. ومع اننا ارتبكنا وخفنا عليهِ في اول الامر طربنا طربًا لا يُوصَف في ما بعد. ولا يخفى ان الدبَّ ثقيل وضخم الجثة ولا يركض نظير الضبع الذي هو خفيف وسريع. وفي الدبّ مزيّتان خاصّتان بهِ وهما في الغالب قاعدتان لاعمالهِ. الاولى انهُ لا يتعرَّض عادةً للناس ما لم يتعرَّضوا هم لهُ اولاً او يكون هو جائعًا جدًّا. وربما كان كذلك حينئذٍ لان الارض كانت مغطّاةً بالثلج كما سبق. فاذا لم تتعرَّض للدبّ فانهُ لا يتعرَّض لك. ولكن يجب ان تجتهد في ان تعاملهُ باللطف وتحيد من طريقهِ لانهُ خواجة لطيف ظريف متمدّن الا انهُ لا يحيد ولا

خطوة عن طريقهِ حتى ولا لاجل مَلِكٍ . واذا كنت خائفًا منهُ حقًّا يجب ان تفتش على طريق اخرى ولا تزال سائرًا لانهُ احيانًا اذا وقفت جامدًا واخذت تتفرّس فيهِ يحسب ذلك اهانة لجلالتهِ . واذا هوَّلت عليهِ او رميتهُ بشيء وان يكن عودًا صغيرًا بقدر اصبعك فاصابهُ فانهُ يغضب ويترك كل عمل جانبًا متفرغًا لاخذ ثارهِ ولا بدَّ من ان ياخذ ترضيةً لردّ شرفهِ . فهذه هي المزيَّة الاولى . واما المزيَّة الثانية فهي انهُ حقود اذا أُهين مرةً لا يتركك ابدًا ليلاً ولا نهارًا بل يلحقك الى ان يدركك وياخذ ثارهُ

وكان غلامي جمعة قد انقذ دليلنا لما وصلنا اليهِ . وبينما كان يساعدهُ في التحويل عن فرسهِ لانهُ كان قد تأذَّى وخاف جدًّا اذا بدبٍّ قد خرج بغتةً من الحرش وكان كبيرًا هائلاً لم أَرَ دبًّا نظيرهُ في حياتي . فارتعبنا جميعًا قليلاً لما رايناهُ الاَّ جمعة فانهُ لما رآهُ كان يظهر جليًّا على وجههِ علامات الفرح والشجاعة وقال ثلث مرات وهو يشير اليهِ متعجبًا وَي وَي وَي . يا معلّمي خلّيني اصافحهُ واهزُّ يدهُ . أَني بتريدي بتضهّكم شُوَيّ

فتعجَّبت ممَّا رايتهُ فيهِ من الفرح والسرور فقلت لهُ يا جاهل انهُ ياكلك . فقال مرتين تاكليني تاكليني أَني بتاكلوا . أَني بتضهّكم شُوَيّ . انتو اوقفوا هوني أَني ابسطكن . ثم جلس على الارض وخلع حذآءهُ في لحظة ولبس حذآء غيرهُ كان في جيبهِ وسلَّم زمام حصانهِ لخادمي الآخر واخذ بارودتهُ بيدهِ وكان يعدو بسرعة كهبوب الريح

وكان الدبُّ يمشي رويدًا رويدًا لا يتعرَّض لاحد الى ان دنا جمعة منهُ ودعاهُ قائلاً اسمع اسمع انا اكلّمك كأنهُ كان يفهم ما يقول . وكنا نحن نتبعهُ عن بُعدٍ . واذ كنا حينئذٍ قد نزلنا الى جانب جبال جسكوني كنا قد دخلنا حرشًا طويلاً عريضًا حيث كانت البلاد مستسهلة وكانت اشجار ذلك الحرش كثيرة الاَّ انها متفرقة . وان جمعة الذي كان ساعيًا في اثر الدبّ ادركهُ سريعًا وتناول حجرًا كبيرًا ورماهُ بهِ فاصاب راسهُ الاَّ انهُ كان كأنهُ قد رمى بهِ حائطًا فلم يُحدِث فيهِ ادنى أَلم . الاَّ انهُ حصل بهِ على مرغوبهِ لانهُ اذ كان خاليًا من الخوف بالكليَّة فعل ذلك لكي يجعل

الدبُّ يرجع اليهِ ويلحقهُ ويُضحِكنا. وان الدبَّ حالما شعر بالضربة ورآهُ رجع على اعقابهِ ولحقهُ. وكان يخطو خطوات طويلة ويطنطن راكضاً وراء جمعة. واما جمعة



جمعة والدبُّ يصعد وراءهُ على الشجرة

فقفل راجعاً واخذ يعدو ركضاً مقبلاً نحونا كانَّهُ يستغيث بنا. فعزمنا جميعاً ان

نرمي الدبّ بالرصاص ونخلّص جمعة منهُ . وقد غضبت جدًّا منهُ لانهُ ارجع الدبّ علينا مع انهُ كان قد تركنا وذهب في سبيلهِ . ومما زادني غضبًا هربهُ بعد ارجاعهِ الدبّ . فناديتهُ قائلاً يا كلب اهذا اضحاكك ايّانا ارجع وخذ حصانك ودعنا نرمي الوحش بالرصاص . فلما سمع صوتي قال لا ترموا لا ترموا اهدوا فتضحكوا كثيرًا . واذ كان قد سبق الدبّ رجع بغتة الى احد جانبينا فابصر شجرة بلوط تلائم مرغوبهُ فاشار الينا ان نتبعهُ واستدار بسرعة وصعد على تلك الشجرة وذلك بعد ان وضع بارودتهُ على الارض على مسافة سبع او ثماني اذرع عن اصل الشجرة . واما الدبّ فانهُ وصل بعد قليل الى الشجرة وكنا نحن نتبعهُ عن بُعدٍ . واول شيء عملهُ هو انهُ وقف عند البارودة وشمّها الاّ انهُ لم يمسّها ثم اخذ يصعد على الشجرة متشبثًا بها نظير هرٍّ وكان ثقيلاً وضخمًا جدًّا . وقد تعجّبت من حماقة غلامي ولم أرَ في عملهِ شيئًا يستحقّ الضحك الى ان رايت الدبّ يصعد على البلّوطة

ولمّا وصلنا الى الشجرة رأينا جمعة قد صعد الى طرف صغير من غصنٍ كبير منها وكان الدبّ قد وصل الى نصف طريقهِ اليهِ . وحالما وصل الدبّ الى القسم الضعيف من الغصن ضحك جمعة وقال لنا انظروا الآن بذي علّم الدبّ يرقص . ثم اخذ يقفز ويحرّك الغصن . فابتدأ الدبّ يتمايل الاّ انهُ بقي في مكانهِ واخذ يلتفت الى ورائهِ ليرى كيف يرجع الى الوراء . وعند ذلك ضحكنا من كل قلوبنا . ثم دعاهُ كأنهُ ظنّ انهُ يحسن التكلّم باللسان الانكليزي وقال لهُ ما بالك لا تتقدّم ايضًا تقدّم الى ما قدام إِيفْ يُوْ بْلِيْزْ وكفّ عن تحريك الغصن وكأنّ الدبّ فهم ما قال لهُ فتقدّم قليلاً نحوهُ . وكان حينئذٍ وقت مناسب لضربهِ على راسهِ فقلنا لجمعة ان يهدا لكي نرمي الدب بالرصاص فصاح بحرارة اترجاكم اترجاكم لا ترموا انا ارمي بعد وبعد . يريد بعد قليل . ولاجل الاختصار نقول ان جمعة كان يقفز وينطنط كثيرًا والدبّ يقف حنقًا متحيرًا حتى اننا ضحكنا كفاية . الاّ اننا لم نكن نعلم ماذا كان قصد جمعة ان يعملهُ بعد ذلك . لاننا ظننّا اولاً انهُ كان يريد ان ينفض الدبّ ويرميهُ الى اسفل . الاّ ان الدبّ كان على حذرٍ تامٍّ من ذلك . لانهُ لم يتقدم

كفاية ولا ارخى نفسهُ بل كان متمسّكًا متشبثًا بمخالبهِ واقدامهِ العريضة حتى انهُ لم يخطر لنا ماذا تكون النهاية وكيف تنتهي تلك اللعبة . الَّا انهُ لم يمضِ الَّا قليل حتى كشف لنا جمعة ما غمض من اسرارها . فانهُ لما راى الدبَّ متشبثًا جيدًا با لغصن ولم يقبل ان يتقدم الى ما قدام قال لهُ تيّب تيّب انت ما بتجي الى قدام انا بيجي انت ما بتجي الى عندي انا بيجي الى عندك . وعند ذلك تطرَّف الى اصغر طرف من الغصن فانحنى من ثقلهِ فتدلَّى نازلًا برفق عليهِ فلما قرب الى الارض ارخى نفسهُ فجاءَ واقفًا على قدميهِ . ثم ركض الى بارودتهِ وتناولها ووقف مكانها . فقلت لهُ ارمهِ الآن با لرصاص فقال مُوش هلقيت مُوش هلقيت . اني ما بيفوّص دلوقت اني ما بيقتل اني بيريد يضحّكم بعد . وهكذا كان فان الدبَّ لما راى عدوَّهُ قد هرب رجع بكل حذرٍ زاحفًا الى الوراءَ على ذلك الغصن الى ان وصل الى كرسيّ الشجرة . وكان كلَّما زحف قليلًا ينظر الى ورآئهِ . ثم زحف بعجزهِ الى اسفل وراسهِ الى فوق اذ كان متشبثًا بمخالبهِ ينقل رجلًا واحدة كل مرة طالبًا الوصول الى الارض . وقبل ان لحقت رجلاهُ الارض تقدم جمعة نحوهُ وحكَّم بارودتهُ نحو اذنهِ ورماهُ با لرصاص في راسهِ فسقط الى الارض ميتًا . وعند ذلك التفت نحونا ليرى اذا كنا نضحك فلما ظهر لهُ من منظرنا اننا مسرورون ضحك باعلى صوتهِ مقهقهًا وقال كِدِي منكتل الدبَّ في بلادنا . فقلت كيف تقتلونهُ هكذا وليس عندكم بواريد . فقال صحيح ما عندنا بواريد ولكن نرمي با لقوس والنشاب بعيد كتير . وكان ذلك نزهةً لنا . الَّا اننا كنا لم نزل في برية وكان دليلنا في ضيقٍ عظيم فلم نعلم ماذا نعمل . وكانت زمجرة الضباع تتعب راسي كثيرًا ولم اسمع قطُّ شيئًا ازعجني بهذا المقدار الَّا الدمدمة التي سمعتها مرةً على شطوط افريقية كما ذكرت قبلًا

فكانت تلك الاصوات واقبال الليل تستكدُّنا للتقدم في طريقنا ولولا ذلك كنا قبلنا راي جمعة وسلخنا ذلك الوحش الهائل لان جلدهُ كان يستحق التعب ولكن اذ كان باقيًا علينا مسافة نحو ثلاثة فراسخ وكان دليلنا يستعجلنا تركنا ذلك الدبَّ واخذنا ايضًا في طريقنا

وكانت طريقنا مغطاة بالثلج الاَّ انهُ لم يكن سميكًا وخطرًا كما كان على الجبال .
وكانت الوحوش الكاسرة كما بلغنا في ما بعد قد نزلت من شدَّة الجوع الى البلاد
المنخفضة الكثيرة الاشجار طلبًا للطعام . وكانت قد احدثت اضرارًا كثيرة في القرى
وقتلت كثيرًا من البهائم والمواشي والناس ايضًا . وقد اخبرنا دليلنا انهُ يوجد قدامنا
مكان خطر يوجد فيهِ ضباعٌ كثيرةٌ وهو بقعة صغيرة محاطة بالاحراش من كل
جهة ومعبر ضيق طويل كان لا بدَّ لنا من ان نمرَّ فيهِ لكي نقطع الاحراش الى ان
نصل الى القرية التي كنا مزمعين ان نبيت فيها تلك الليلة . فلما دخلنا الحرش
الاول كان باقيًا نحو نصف ساعة للمغرب ووصلنا الى تلك البقعة بعد المغرب
بقليل . فلم نصادف شيئًا في الحرش الاول الاَّ خمسة ضباع تجزع الطريق راكضة
بعضها وراء بعض كانها تطارد شيئًا نراهُ قدامها . فلم تلتفت الينا وبعد دقايق قليلة
توارت عن ابصارنا . وعند ذلك قال لنا دليلنا وكان جبانًا كونوا على حذرٍ لانهُ
سيمرُّ بنا ضباع غيرها . فكنا نسير واسلحتنا معدَّةٌ بايدينا واعيننا منتبهة الى ما حولنا
ولكننا لم نرَ ضباعًا الاَّ بعد ان اجتزنا ذلك الحرش وكان نحو نصف فرسخ ووصلنا
الى السهل . فلما دخلنا السهل كان لنا امكانٌ لان نتطلع الى ما حولنا . فاول شيءٍ
صادفناهُ كان حصانًا ميتًا كانت الضباع قد قتلتهُ وكان اكثر من اثني عشر منها
حولهُ مشتغلةً فيهِ . ولا نقدر ان نقول انها كانت تاكل لحمهُ لانها كانت قد اكلت
كل لحمهِ قبلاً بل كانت تمصُّ عظامهُ . فلم نرَ نحن لزومًا لازعاجها في التمتُّع في وليمتها
ولا هي التفتت الينا . واما جمعة فكان يريد ان يرميها بالرصاص الاَّ اني لم اسمح لهُ
بذلك لاني رايت انهُ ربما يكون عندنا شغل في ما بعد اكثر مما نقدر عليهِ . ولم
نقطع نصف ذلك السهل حتى ابتدأنا نسمع زمجرة الضباع بنوع هائِل في الحرش
الذي عن يسارنا ثم رأَينا نحو مايةٍ مقبلةً باستقامةٍ نحونا وكانت جميعًا معًا واكثرها
مصطفةً صفًا واحدًا كجيش يدبرهُ قائِدٌ خبير . ولم اعلم كيف نلقاها . ووجدت ان
الطريق الوحيد هو ان نصطفَّ نحن ايضًا مجتمعين معًا وهكذا فعلنا في دقيقة من
الزمان . ولكي لا تمضي مدة طويلة بين الطلق والطلق امرت ان كل ثاني رجل في

الصفّ يطلق اولاً وان البقية يكونون مستعدّين لان يطلقوا البارود عليها طلقًا ثانيًا حالاً اذا لبثت تتقدم نحونا وان الذين يطلقون اولاً لا يدكُّون بواريدهم ايضًا بل يقفون مستعدّين بطبنجاتهم . لانهُ كان كلّ واحدٍ منا متسلحًا ببارودة وطبنجتين . وهكذا كنا قادرين ان نطلق ستّ طلقات على النظام المذكور. الاّ اننا لم نُضطرّ الى ذلك حينئذٍ . لانهُ عند الطلق الاول وقفت تلك الضباع مرتبكةً حائرةً لانها خافت من صوت البارود ونارهِ . وقد أُصيب اربعة منها في رؤُوسها فوقعت الى الارض ميّتةً وجُرح بعضها فنكص على اعقابهِ ودمهُ يسيل كما رأينا اثار ذلك على الثلج . ولما رأيت انها وقفت ولم تهرب حالاً عرض لي ما كنت قد سمعتهُ قبلاً وهو ان اشرس الوحوش يخاف جدًّا من صوت الانسان فاوعزت الى زمرتنا ان يصرخوا جميعًا باعلى اصواتهم . وهي حالما سمعت الاصوات اخذت تنصرف راجعةً عنا . ثم امرت باطلاق طلق آخر على صفوفها وعند ذلك اخذت تركض بكل قوّتها ذاهبةً الى الاحراش

وفي تلك الاثناء دككنا اسلحتنا ونحن سائرون . ولم ننتهِ من دكّ اسلحتنا حتى سمعنا عن بعدٍ صوتًا هائلاً في الحرش نفسهِ عن يسارنا في الطريق التي كنّا مزمعين ان نمرّ فيها . واذ كان الليل قد اقبل واخذ الضوء يغبرُّ اضطربنا وساءنا ذلك جدًّا . واذ كان الصوت يزيد لاح لنا انهُ صوت ضجيج تلك الوحوش الجهنّميّة . ثم رأينا بغتةً ثلاثة قطعان من الضباع عن يسارنا وخلفنا وامامنا . فكنا كاننا محاطون بها من كل جهة . ولكن اذ كانت لم تهجم علينا كنا نتقدّم في طريقنا بقدر ما يمكن خيلنا ان تسرع . واذ كانت الطريق صعبةً خشنة كانت مشية الخيل نطنطة . ولم نزل كذلك الى ان اطللنا على مدخل الحرش الذي كنا مزمعين ان نجتاز فيهِ عند منقطع السهل الاّ اننا اندهلنا جدًّا لما راينا عند ما قربنا من ذلك المدخل عددًا كثيرًا من الضباع واقفةً هناك . وسمعنا في مدخل آخر من الحرش صوت بارودةٍ . وبينما كنا ننظر نحو تلك الجهة رأينا حصانًا يخرج من الحرش وعلى ظهرهِ سرجٌ وفي راسهِ لجامٌ وكان يركض كهبوب الريح وستة عشر او سبعة عشر ضبعًا

تركض وراءهُ بكل سرعة. وكان الحصان سابقًا اباها الأَ اننا عرفنا انهُ لا يستطيع ان يبقى راكضًا على ذلك المعدَّل ولهذا كان لا بدَّ من ان تدركهُ اخيرًا وتفترسهُ

وقد نظرنا هناك منظرًا هائلاً جدًّا. فاننا حالما وصلنا الى ذلك المعبر الذي خرج منهُ الحصان رأينا هناك جثّة حصانٍ وجثتَي رجلَين قد افترستها الضباع الضارية. وينبغي ان يكون واحدٌ من ذينك الرجلين هو الذي اطلق تلك البارودة التي سمعنا صوتها. لانهُ كان بجانبهِ بارودةٌ فارغة وكان راسهُ قد أُكِل جميعهُ مع ما يليهِ من جسمهِ. فراعنا ذلك وملأَنا رعبًا ولم نعلم كيف نتوجَّه. وفيما كنا في تلك الحالة المرتبكة اذا بالضباع قد هجمت علينا قاصدةً افتراسنا. واظنُّ ان عددها كان نحو ثلاثماية ضبع. ولكن اتّفق لاجل التوفيق انهُ كان بقرب ذلك المعبر بعيدًا قليلاً عن مدخلهِ بعض اشجار قد قطعت في ايام الصيف السابق وربما كانت هناك برسم النقل الى جهة اخرى فاقتدت جيشي الصغير الى وسط تلك الاشجار ثم اصطففنا وراءَ شجرة طويلة منها ثم اشرت على رفاقي ان يحوّلوا جميعًا عن خيلهم ويقفوا وراءَ تلك الشجرة على شكل مثلَّثٍ واضعين الخيل في الوسط متخذين الشجرة التي امامنا متراسًا لنا. وقد احسنَّا في ما فعلنا. لانهُ لم تكن قطُّ هجمةٌ اشدُّ من هجمة اولئِك الوحوش علينا في ذلك الموضع. فانها اتت وهي تضجُّ وثارت الى تلك الشجرة التي ذكرت اننا اتخذناها متراسًا لنا قاصدةً ان تفترسنا. والظاهر انها زادت شراسة عند ما رأت خيلنا. فامرت رجالي ان يطلقوا بواريدهم بالترتيب كما فعلوا قبلاً فحكَّموها تحكيمًا جيّدًا واطلقوها فقتلوا عدةً من الضباع في الطلق الاول. وكان يلزمنا ان نشغل عليها النار الدائمة لانها هجمت علينا نظير قرود. وكان المتاخر منها يزاحم المتقدّم ويدفعهُ نحونا

وبعد ان اطلقنا الطلق الثاني من بواريدنا لاح لنا انها وقفت قليلاً فاملّنا انها تنصرف راجعةً عنّا. الأَ ان ذلك لم يلبث الأَ دقيقةً حتى تقدَّمت أُخَر منها الى ما قدَّام فاطلقنا عليها طلقين من طبنجاتنا. واظنُّ اننا في تلك الطلقات الاربع قتلنا منها سبعة عشر او ثمانية عشر وعطّلنا ضعف ذلك تقريبًا الأَ انها لم تكفَّ.

وكنت اكره ان نبذّر في ما كان معنا من الرصاص والبارود ونصرفهُ بسرعة. واذ كان غلامي جمعة مشتغلاً في دكّ البواريد والطبنجات بكل رشاقة وسرعة دعوت خادمي الآخر واعطيتهُ تنكة بارود وامرتهُ ان يفرغ ذلك على الارض بجانب تلك الشجرة باذرًا اياهُ على طولها. ففعل كذلك وحالما ابعد قليلاً تقدّمت الضباع الى الشجرة ووثب بعضها عليها وعند ذلك اطلقت طبنجة مدكوكةً بالقرب من البارود فالتهب مشتعلاً. فاحترق بهِ ما كان قد صعد على الشجرة من الضباع وثار ستة او سبعة منها طافرة الى ما بيننا من قوة البارود وخوفًا منهُ فقتلناها في لحظة من الزمان. واما البقية فانها خافت جدًّا من النور الذي جعلهُ الليل هائلاً لان الظلام كان حينئذٍ شديدًا فنكصت قليلاً راجعةً الى الوراء. وعند ذلك امرت باطلاق كل طبنجاتنا طلقًا واحدًا ثم ضججنا بعد الطلق ضجّةً هائلة. وعند ذلك لفّت الضباع اذنابها مدبرةً فوثبنا حالاً على عشرين منها كنّا قد جرحناها وكانت ساقطة على الارض تتمرّغ في دمها فاخذنا نقطعها باسيافنا فكانت تعوي وتصرخ صراخًا هائلاً من شدّة الالم وفهمت رفاقها معنى ذلك الصراخ فهربت جميعها وكفّت عنّا

وكان كل ما قتلناهُ منها من البداية الى النهاية نحو ستين ضبعًا. ولو كان ذلك نهارًا كنا قتلنا اكثر من ذلك. فلما نظّفنا ساحة الحرب هكذا اخذنا ايضًا في طريقنا لانهُ كان باقيًا علينا مسافة نحو فرسخ. وقد سمعنا مرارًا ونحن سائرون تلك الوحوش تضجّ وتزمجر وكنّا نظن اننا كنّا نرى البعض منها احيانًا. ولكن اذ بهرت اعيننا من الثلج لم نقدر ان نتحقّق ذلك. ثم بعد نحو ساعة من الزمان وصلنا الى القرية التي كنا قاصدين النزول فيها. فوجدنا اهاليها جميعًا مرتعبين جدًّا ومتسلّحين. لان الضباع والدّبَب كانت قد دخلت في الليلة السابقة الى القرية فراعتهم جدًّا حتى التزموا ان يخفروا ليلاً ونهارًا ولاسيما ليلاً لاجل صيانة المواشي والناس ايضًا من تلك الوحوش الكاسرة

وفي غد ذلك اليوم صباحًا اشتدّ مرض دليلنا وكان جسمهُ وارمًا جدًّا بسبب جرحَيهِ حتى انهُ لم يستطع ان يسافر ايضًا. ولذلك التزمنا ان نستأجر هناك دليلاً

غيرهُ ونذهب الى ثولوس حيث وجدنا الهواء حارًّا والبلاد بهجة مخصبةً ولم يكن هناك ثلج ولا ضباع ولا ما يشبه ذلك. ولما اخبرنا اهالي ثولوس بما اصابنا في الطريق قالوا ان ذلك كثير الوقوع في الحرش الكبير الذي في سفح الجبل ولا سيما عند ما تكون الارض مغطّاةً بالثلج. وسألونا كثيرًا عن الدليل الذي كان معنا وكيف تجاسر ان يأتي بنا في تلك الطريق في مثل ذلك الفصل البارد جدًّا. وقالوا لنا ان نجاتنا من افواه تلك الضباع كانت عجيبةً. ولما اخبرناهم كيف اصطففنا ووضعنا خيلنا في الوسط لامونا جدًّا وقالوا ان نسبة الخلاص في تلك الحالة الى عدمهِ كنسبة واحد الى خمسين. لان منظر الخيل هيَّج الضباع جدًّا لانها رأَت فريستها. وانها من عادتها في اوقات أُخَر ان تخاف من صوت البارود. الاَّ انها اذ كانت حينئذٍ جائعةً جدًّا وهائجة بسبب ذلك جعلتها رغبتها في الفتك بالخيل لا تبالي بالخطر الذي كانت فيهِ. واننا لو لم نشعل عليها النار الدائمة ونجفلها بواسطة البارود كانت لا محالة مزَّقتنا قِطَعًا. واننا لو بقينا على ظهور الخيل واطلقنا عليها الرصاص ونحن راكبون لما حسبت الخيل فريسةً لها ونحن على ظهورها كما حسبتها عند ما كنا محوَّلين عنها. وقالوا لنا ايضًا اننا لو بقينا معًا وتركنا الخيل لكانت التهت بها وكنا نحن انصرفنا بالامان وعلى الخصوص لان اسلحتنا كانت بايدينا وكان عددنا كثيرًا. واني لم أَرَ قطُّ نفسي في خطرٍ كما كنت حينئذٍ. لاني اذ رايت نحو ثلثماية ضبع هاجمةً علينا تزمجر فاتحةً فاها لتبتلعنا ولم يكن لنا ما يظلّلنا او يسترنا منها ولا مكانٌ نهرب اليهِ من امامها حسبت نفسي هالكًا لا محالة. واظنُّ اني لا اريد ابدًا ان اقطع تلك الجبال مرةً اخرى. وأَحَبُّ اليَّ ان اسافر الف فرسخ بحرًا وان كنت متحقّقًا باني اصادف نوًّا مرةً كل اسبوع من ان اسافر سفرًا كهذا برًّا

ولم يحدث شيءٌ غير اعتياديّ في سفري في فرنسا الاَّ ما اخبر بهِ باقي المسافرين بطريق اكمل ممَّا يمكنني ان اخبر بهِ. فسافرت من ثولوس الى باريس وبعد ان اقمت مدة غير طويلة هناك سافرت الى كاليس ووصلت بالسلامة الى دوفار في اليوم الرابع عشر من شهر كانون الثاني بعد ان قاسيت بردًا شديدًا في الطريق

فوصلت حينئذٍ الى نهاية اسفاري وكانت كل اموالي عندي بالامان . والسفاتج التي احضرتها معي من لسبون دُفعت لي في اوقاتها من دون ادنى تعلُّل ولا مماطلة وكانت الارملة الصالحة صديقتي القديمة مرشدةً لي وكاتمةً لاسراري . فانها وفاءً لي على تلك الدراهم التي ارسلتها لها لم تستثقل في مساعدتي مهما كانت تكلّفها من التعب والاهتمام . وقد سلّمتها كل شيء لي وكنت مطمئنًّا مرتاح البال من جهة اموالي بيدها . وقد سررت جدًّا من البداية الى النهاية باستقامة تلك المرأة الفاضلة وامانتها التي لا لوم فيها

وعزمت حينئذٍ على بيع املاكي في برازيل فكتبت بشان ذلك الى صديقي القديم في لسبون فعرضها على ورثاء وكيلَيَّ في برازيل فقبلوا ذلك وارسلوا ثلاثة وثلاثين الف قطعة من الثمانية الى احد وكلائهم في لسبون ليدفعها للرئيس لحسابي فارسل لي الرئيس كمبيالات بمبلغ اثنين وثلاثين الفًا وثمانماية من قطع الثمانية قيمة الاملاك بعد تنزيل ما عيّنتهُ لهُ ولابنهِ من المعاش السنويّ كما علمت

ومع اني بعت املاكي في برازيل لم اكن استطيع ان اخرج البلاد من بالي ولا ان ادفع الميل الشديد الذي كان لي الى رؤْية جزيرتي . وكانت الارملة صديقتي الصادقة تزهّدني في السفر حتى انها منعتني مدة نحو سبع سنين من السفر الى خارج . فاخذت في تلك المدة ابنَيْ اخي الى بيتي . واذ كان لاكبرهما قليلٌ من المال ربّيتهُ كخواجة واوصيت لهُ بشيء من مالي زيادةً على مالهِ يستولي عليهِ بعد موتي . ووضعت الآخر عند رئيس مركب . وبعد خمس سنين اذ رأيتهُ شابًّا فهيمًا جسورًا نشيطًا وضعتهُ في مركب جيّد وارسلتهُ الى البحر . وان ذلك الشابّ جذبني فيما بعد مع كبر سنّي الى السفر بحرًا ايضًا

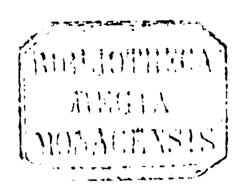
وفي تلك الاثناء استوطنت قليلاً هناك وتزوّجت بامرأةٍ ولم يكن ذلك ضدّ خاطري ولا ضدّ صالحي ورُزقت ثلاثة اولاد ذكرين وانثى . ولكن اذ ماتت امرأتي ورجع ابن اخي الى سبانيا من سفرةٍ صادف فيها نجاحًا عظيمًا غلب عليَّ الميل الى السفر ولجاجتهُ فوعدتهُ بالذهاب في مركبهِ الى الهند الشرقيّ نظير تاجر وكان ذلك

سنة ١٦٩٤ وسياتي بيان ذلك مع ذكر بعض حوادث غريبة جدًّا في بعض اسفاري الجديدة على مدة عشرين سنة في الجزء الثاني من هذه الرحلة ان شآء الله تعالى

وان المَثَل الدارج العادة في البدن لا يغيّرها الاَّ الكفن لم يصدق قطُّ في احدٍ كما صدق فيَّ. فان كل من اطلع على قصتي يظنُّ ان ميلي الطبيعيَّ الى الطواف والجولان لا بدَّ من ان يكون قد ضعف او زال بالكلية بعد ان قاسيت ما قاسيتهُ من المصائب والمشقَّات والمخاطر في السفر ويحسب اني بعد ان صرت ابن احدى وستين سنة صرت اميل قليلاً الى الاستيطان والاقامة في البيت ولا اطلب ايضًا السفر ولا سيما لاجل طلب الرزق الذي كان قد صار عندي منهُ كفاية وزيادة عن احتياجاتي واحتياجات ذريَّتي بعدي. الاَّ ان ذلك جميعهُ لم يكن لهُ تأثير فيَّ يكفي لدفع الميل القويّ المنغرس فيَّ طبعًا نحو السفر الذي صار عندي مرضًا مزمنًا او كما يقال خامس طبيعة حتى اني كنت كثيرًا احلم بذلك في نومي واتكلَّم عنهُ دائمًا في منادمتي ولم اقدر ان اتكلم عن موضوع آخر غيرهِ حتى ان عشرآءي كانوا يضجرون من حديثي وكنت انا نفسي اشعر بذلك الاَّ اني لم اكن استطيع ان اضبط نفسي عنهُ. وسيزيد ذلك وضوحًا ممَّا سيرد ذكرهُ في الجزء الثاني من رحلتي

ما تبلغُ الاعدآء من جاهلٍ	ما يبلغُ الجاهلُ من نفسهِ
والشيخُ لا يتركُ اخلاقهُ	حتى يُوارَى في ثرَى رمسهِ
اذا ارعَوَى عادَ الى جهلهِ	كذي الضنى عادَ الى نكسهِ
وانَّ من ادَّبتهُ في الصبا	كالعودِ يُسقَى الماء في غرسهِ
حتى تراهُ مورقًا ناضرًا	بعدَ الذي ابصرتَ من يبسهِ

يقول مترجمهُ عن اصلهِ الانكليزيّ ومهذّبهُ وناظر طبعهِ الفقير الجاني بطرس البستاني تمَّ الجزء الاول من التحفة البستانية في الاسفار الكروزية وسيتلوهُ ان شآء الله تعالى الجزء الثاني وذلك في رجوع روبنصن الى الجزيرة ثم سفرهِ الى الصين واماكن اخرى. وكان الفراغ من تبييضهِ في اليوم الخامس من شهر نيسان سنة ١٨٦١ في مدينة بيروت المحمية والحمد لله اولاً وآخرًا


BIBLIOTHECA
REGIA
MONACENSIS

[illegible]

translated by

B. Bistani -

Published by

[illegible]

forwarded by

C. [illegible] Dyck

Foe

